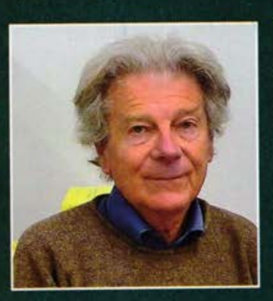

رواية
دومينيك فرنانديز
الحب
تليجرام : هنا سور الأزبكية
ترجمة: عدوية الهلالي

ربع قرن من العاطفة والتفاني المتبادل بلا نفاق أو رياء. وعلى الأغلب، يمكن للمرء أن يشك في أن الطاقة التي كانت تبذلها والدته في الدعك والتنظيف والتلميع هي من بقايا فتاة شابة كان قلبها الفارغ يتوقد بنار التضحية. لقد تزوجت الشاب أوفربيك إن لم يكن عن طريق الاستخارة وفقاً لعادات الأخوة المورافيين الذين كانوا يوكلون ارتباطاتهم إلى مصادفات القدر، على الأقل في السن التي تسمو فيها المشاعر والمعرفة وحيث يحتل الصبي الأول الذي تصادفه الفتاة المكان الذي اختاره لها الرب.. لا شيء من هذا القبيل في ما يتعلق بعلاقته بإليزا.. كانت حديقتا منزليهما متجاورتين، وكانا يلعبان معاً منذ أن تعلما المشي، كانت تحبه من دون أن تجعله مثالياً، وعندما ستتزوج، فلن يكون هناك مجال للخشية عليها، فلن تتضاءل بتلات شبابها المعطرة إلى كؤوس عديمة الرائحة. كان فريدريش مخطئاً في التوقف عند عواقب الارتباط الزوجي والتساؤل ما إذا كان ينبغي لأي ثنائي أن يعيشا حباً نقياً؟!

وهكذا كان الحال مع والديه، لم يكن بينهما خيانة أو شجار، كانت أسرتهما مثالية، وكان كل منهما مشغولاً من جانبه بقوة، هي بالمنزل والعبادة وأعمال الكنيسة وحفلات الاستقبال والزيارات، وهو كان مشغولاً بأعباء ومسؤوليات متنوعة، لكن الحب الذي كانا يحملانه بعضهما لبعض ظل حياً على الرغم من الهموم والسنوات. لم يكن من غير المألوف أن يشاهدهما في أيام الآحاد وهما يروحان ويجيئان على الرصيف المحاذي لنهر تراف وقد تشابكت أيديهما.. من يعرف إذا كان رئيس البلدية يرضى أن تناديه باسمه (كريستيان)؟ على الرغم من هذه الفرصة السانحة للبوح بالأسرار، ربما لن يمكنه مصارحة والديه بحرية ومعانقتهما وهو يهتف بحماس من أعماق قلبه: «كم هو جميل، أليس كذلك؟ ما أجمل أن يجعلنا الحب نشعر بالمبدأ السامي لوجودنا، بعيداً عن النشاط العبثي وإثارة الحياة المشتركة، ويقودنا إلى منطقة عليا حيث يسود العدم».. كان هذا الاندفاع مستحيلاً بالنسبة لفريدريش، إذ كان والده سينظر إليه بالدهشة المروعة نفسها فيما لو تجرأ على الاعتراف له بأفكاره عن الفن، أما والدته فسيربكها تذكيره لها بطموح قديم للغاية كانت قد تغلبت عليه بواقعيتها الحكيمة للسعادة المنزلية، وهي تفتت الخبز البائت الذي ألقته الخادمات للإوز.




9 789933 655662





الحب



ترجمة : عدوية الهلالي





Author: **Dominique Fernandez**

اسم المؤلف: دومينيك فرنانديز

Title: **L'amour**

عنوان الكتاب: الحب

Translated by: **Adaweia Al-Hilali**

ترجمة: عدوية الهلالي

P.C.: **Al–Mada**

الناشر: دار المدى

First Edition: **2023**

الطبعة الأولى: 2023



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800 بغداد: حي ابو نواس – محلة 102 – شارع 13 – بناية 141

+ 964 (0) 790 1919 290 Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275

+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

بيروت: بشامون – شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 + 961 706 15017

+ 961 175 2616



إلى فيرانت فيرانتي




تليجرام : هنا سور الازبكية

القلب المُحب يُشبع كل رغبات الروح

نوفاليس


تليجرام : هنا سور الازبكية



الرواية

تعالج هذه الرواية الصادرة عن دار غراسييه للنشر للكاتب دومينيك فرنانديز، قضية الترحال بين دول مختلفة بحثاً عما يشبع شغف بطل الرواية بالفن والموسيقى والجمال في أوروبا القرن التاسع عشر.. أوروبا بيتهوفن وستندال وكانوفا، وحيث ولادة الحركات الأدبية الكبرى.. ويمزج الكاتب بين الولع بالفن ومشاعر الحب العاطفي للخطيبة والصديق والحنين للوطن.. إنها عبارة عن رحلة فطرية يخوضها البطل (فريدريش) في بحثه العنيد عن الحب، وهي من الروايات التي تستمد ملامحها من التاريخ الحقيقي لتبدو كأنها لوحة جدارية من زمن الحب والفن..

ومن لوبيك، حيث ولد في عام 1789، إلى روما، حيث قادته رحلة مع فنانين ألمان شباب، عبر فينا، لينهي دراسته ويؤسس رابطة مع طلاب آخرين، تشبه حياة فريدريش رحلة طويلة، غالبًا ما تكون فطرية وعاطفية. يظل فيها البطل ممزقًا بين الرسم والموسيقى، مفتونًا بالجمال الدقيق للفن الإيطالي مع الحفاظ على الحنين إلى موطنه الأصلي، وممزقًا أيضاً بين خطيبته إليزا وصديقه الأقرب فرانز، كما يواجه عقبات التعليم، عاطفيًا وفنيًا، في بحثه الدؤوب عن الحب.

ومع فريدريش، سنسافر عبر أوروبا في القرن التاسع عشر، ونشهد معركة فاغرام، ونلتقي ببيتهوفن، وإنغريز وكانوفا، ونرى ولادة الحركة الرومانسية العظيمة. حيث تروي ثقافة الكاتب دومينيك فيرنانديز التي لا تنضب عبر أربعمئة صفحة من روايته الجمال بجميع أشكاله والمتعة من جميع جوانبها.

المترجمة


تليجرام : هنا سور الأزبكية

الجزء الأول

من لوبيك إلى فيينا




تليجرام : هنا سور الازبكية

الفصل الأول

هاأنا أضع صورة القديسة العذراء على قلبي، الصورة الثمينة التي رسمها رافائيل[1]! قال الشاب لنفسه، وهو يضع صورة خطيبته التي رسمها بيده (والتي مازالت تخلو من المهارة في نظره) جانبًا، صورة إليزا، التي حملها معه كدليل على حبهما، مثل تعويذة من شأنها أن ترشده إلى طريقه سالمًا، عبر الحواجز الطبيعية للأنهار والجبال والعقبات التي تفرضها الحرب، على الرغم من إخفائه أمر رحلته عنها كما أخفاه عن والديه.. كما أنه سيسحب صورة العذراء من محفظته في كل محطة من رحلته ويضعها على الطاولة قرب سريره ليكون مثاله الفني دائماً نُصب عينيه.. إنها الصورة (المعجزة) التي حددت مصيره..

كم هي جميلة! بأي نُبل تسير على بساط الغيوم التي تسندها في الفضاء، وبأي غموض لا يوصف، على الرغم من دقة الخطوط التي ترسم طيات فستانها والخمار الذي يتكور خلف كتفيها.. إنها تشع على خلفية من السماء المذهبة! «أنت تنسى الطفل!» كانت تقول له إليزا في كل مرة يحاول فيها أن يصف لها لوحته المفضلة، وإنه كان يغفل، في الواقع، أن يتذكر الطفل العاري الذي تلفه بذراعيها.. لم يكن يرى أحدًا سواها، العذراء الرقيقة، الحنون، وجهها القريب والغائب في الوقت ذاته، عيناها الواسعتان اللتان تنظران إلى شيء غير مرئي. وبدلًا من أن تكون بالنسبة له أمًا لطفل، كما رسمها

1- رافائيل: رافايللو سانزيو أو رافايللو سانتي، فنان إيطالي من مواليد 6 أبريل 1483، توفي في 6 أبريل 1520، روما، اشتهر برسم لوحات السيدة العذراء وتوجد أعماله في الفاتيكان.

رافائيل، وكما كانت إليزا تحاول تذكيره، كان يفضل أن يتأملها مثل عذراء بعيدة المنال، معبودة نقية، ونجمة عالية جداً معلقة في قبة السماء الزرقاء..

في جيبي مائتان وخمسة وسبعون تالر[2]، أضاف الشاب وهو يلتفت نحو الجسر ليلقي نظرة أخيرة على مدينته، مسقط رأسه..يالها من لحظة رحيل مؤلمة..ربما إلى المنفى!

لماذا عاود التفكير في حجم مدخراته في هذه اللحظة الجليلة، بينما كان ينبغي عليه تكريس نفسه لعاطفة خالصة؟ دائماً، تبرز هذه الحاجة إلى العد والترتيب والاعتماد على الأرقام كما لو كان العالم حفرة لا قعر لها، وكان عليه كما يبدو أن يطمئن نفسه ضد الخوف من الفراغ من خلال تحديد منطقة مرسومة بعناية.. لقد أظهر نفسه الآن كابن حقيقي لأوفربيك المقزز جداً ومع ذلك فمثل هذا الاعتراف لن يروق له.. لقد اتخذ هذا القرار العظيم بمغادرة عائلته ومدينته سرًّا من دون إخبار أي من أقاربه، لكنه لم يتمكن من منع نفسه من الانتعاش حتى لو كان الأمر مختلفًا..

كانت مدينته لوبيك مستلقية بيضاء ووردية في شحوب الصباح.. نظر بالتناوب إلى الأبراج السبعة التي كانت رؤوسها المدببة تتدلى من أطرافها التي تخترق السحب الرمادية.. على اليسار، كانت تنتصب كنيسة يعقوب التي تعلو أربع كرات نحاسية زوايا أبراجها الأربعة، وكان هنالك البرجان التوأمان لكنيسة مارينكيرش، الأعلى والأجمل حيث كان يغني في طفولته.. بعد ذلك، يوجد برج الجرس القصير لكنيسة سان بيير المحاط بالجملونات الأربع التي تزين سفحه خلف كنيسة سان إيجيد الأكثر تواضعًا والتي ترتفع فوق ستارة من أشجار الحور.. أما على اليمين، فينتصب أخيراً برجا الجرس التوأم للكاتدرائية.. هاهي سبعة أبراج وردية تعلوها سبعة رؤوس مدببة، ومن فوقها، لم يعد يرى تدفق المياه المرتعشة للقنوات المتعرجة...

هل سيعود يومًا ما إلى وطنه؟ كان قد سمع فريدريش الصغير يقول مرارًا إن رجل المدينة، إذا ما عاد إلى مسقط رأسه بعد غياب طويل، يباركه الرب

2- تالر: هي واحدة من العملات الفضية الكبيرة التي تم سكها في ولايات وأقاليم الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

بإرسال إشارة له من سبع عناصر ليستدل منها على أنه بلغ هدفه! لذلك كان يتأمل منذ طفولته في وجود هذه الأبراج السبعة ذات الأجراس المحاذية بعضها لبعض، وبالروح التي تحكمت في بنائها.. بالنسبة له، لم يكن الأمر يتعلق فقط بإرشاد المسافر إلى موقع منزله البعيد، فهذه الأبراج المغروسة في السماء، وترشده إلى موطنه لوبيك، تمثل حماية وطمأنينة مهمة وثمينة..

لقد تحدث عن ذلك لصديقه الأقرب، شبيهه وموضع ثقته وذاته الأخرى فرانز من فرانكفورت.. لنشوئه في منطقة تتخللها مجاري الأنهار والجداول التي تنحدر نحو التلال الشديدة الانحدار، كان فرانز قد تحمس لهذه المدينة المنخفضة ولهذا المنظر الطبيعي الذي يمتد على مدى البصر، من دون أن يدرك أن قضاء عطلة لمدة شهر في هذا المكان ليست كالعيش فيه طوال العام، ربما سيثير كآبته مشهد الامتداد الشاسع بلا ملامح ولا تضاريس واضحة، محاطًا بأذرع الأنهار والقنوات وسط هذه المتاهة المائية التي تؤدي إلى مصب نهر تراف، علاوة على كونها منطقة ممطرة وغارقة في اكفهرار رمادي دائم.. لم تكن لوبيك لتعجب إلا روحًا تشكلت من تواصل منعش مع التلال المبهجة لأنهار الراين ومين ونيكار..

«كم أحب هذا الأفق الخلاب الذي قد يبدو رتيبًا فقط بالنسبة لأولئك الذين لا يطمحون مثلنا إلى اللامتناهي» قال فرانز بصوته الرقيق العذب متوقفًا ليتأمل نهاية السهل الذي يبدأ بعد المنازل الكبيرة.. ويبدو أن الأشجار كانت مائلة بدورها في نفس الاتجاه ومنحنية بشكل أفقي تقريباً بفعل الرياح التي تصفر بشكل دائم من جهة البحر، كأنها ترفض انتصاب جذوعها..

لساعات وساعات، يمكن للمرء أن يتنزه في ريف هولشتاين من دون أن تعلق عينه بعقبة ما ربما تشد العين والروح معًا.. لم يكن الصديقان بحاجة للذهاب إلى الشاطئ الذي يحد بحر البلطيق على بعد بضعة فراسخ من الشمال، لتجربة الإحساس الغريب، ليس بالسير فقط على أرض صلبة بل بالطفو في البحر الواسع تتقاذفهما عناصر الطبيعة.

كان فريدريش، مثله مثل جميع الألمان من عرقه، يطمح إلى بلوغ اللامتناهي أو العدم، لكن اللامحدود أو المطلق في المنظر الطبيعي لم

يكن يمثل اللامتناهي بالنسبة للشعراء الذين يحبونهم.. كان هذا اللامحدود يسبب له شعورًا بالاستياء، إذ لم يتمكن من معرفة توضيح الفرق بين العدم والمطلق.. كان هذا يمثل نوعاً من النشوة الوجودية لبعض كتابهم المفضلين، التي دفعت بعض الكتاب إلى تأليف أعمالهم في وادي نيكار، وفتحت لهم أبواب الأحلام، في وسط هذا المكان الضيق للتلال والمنحدرات وكروم العنب، وبشكل أدق في توبنغن وهايدلبرغ، المدن ذات الشوارع المنحدرة والمتعرجة والمناظر الخلابة، مثل غوته بفلسفته ومسرحياته، وهولدرلين[3] بقصائده وترانيمه، وآخيم فون آرنيم[4] بحكاياته الشعبية وأشعاره.. وعلى الرغم من أن هذه الأماكن أقل فخامة من أراضي ومستنقعات ضواحي لوبيك، فإنها ملائمة أكثر للإبداع..

سبعة رؤوس مدببة تجثم على أبراج رفيعة ذات أجراس، وسبعة سهام تبرز عموديًا ومرئية من بعيد فوق الامتداد المسطح المنتظم، بهذه الطريقة، جعل أسلاف فريدريش العيش في مثل هذا المكان الخالي من الحوادث أمرًا محتملًا. وإذا كان من الطبيعي، بالنسبة لشاب نذر نفسه للرسم، أن يشعر بالحاجة إلى تركيز نظرته على أشكال ثابتة، فقد شعر مواطنوه بنفس الحاجة.. من بينهم الملاح الذي يدفع قاربه في نهر تراف، وصانع الحلويات الذي يصنع الحلاوة اللوزية من اللوز والسكر وماء الورد تلك الحلوى التي تخصصت بها لوبيك منذ القرون الوسطى، وعازف الأرغن في بوكستهود في كنيسة مارينكريش، هذه الآلة التي عززت شهرة لوبيك، والحمالون والمحاسبون الذين كانوا يحتشدون على الأرصفة، حتى قيام الحصار القاري[5] حول السفن القادمة من فرنسا محملة ببراميل من نبيذ بوردو،

3- هولدرلين: يوهان كريستيان فريدريش هولدرلين (1770-1843) شاعر وفيلسوف ألماني وشخصية رئيسية في الرومانسية الألمانية.

4- آخيم فون أرنيم: كان كارل يواكيم فريدريش لودفيج فون أرنيم (1781-1831)، المعروف باسم أخيم فون أرنيم، شاعرًا وروائيًا ألمانيًا، وشخصية بارزة في الرومانسية الألمانية.

5- الحصار القاري: هو الاسم الذي يطلق على السياسة التي اتبعها نابليون الأول، الذي حاول تدمير المملكة المتحدة بمنعها من التجارة مع بقية الدول. بدأ بموجب مرسوم برلين في 1806. وانتهى الحصار القاري في عام 1814، برحيل نابليون إلى جزيرة إلبا.

والذين يترقبون الآن على باب الجمرك عربات جياد المسافرين القادمة من بورغوني أو من وادي الراين، حتى عمدة المدينة ووالد بطلنا السيد أوفربيك ذاته.. الجميع كانوا سيشعرون بالضياع لو نظروا حولهم ولم يتمكنوا من رؤية عدد معين من المعالم المميزة جداً..

لم تكن الأبراج السبعة تستخدم فقط لتمجيد الرب، كما كانت تقول والدة فريدريش بل لتكون شواخص تساعد على تعيين الأماكن والتقاط ما كان يظهر أمام النظر.. كان من الضروري الصراع ضد اللامحدود وإيجاد أجسام واضحة في فضاء السهل.. كانت شوارع لوبيك صغيرة وضيقة، بالنسبة لمدينة لا تنقصها الأرض، على النقيض من مدن ألمانيا، المتكدسة بعضها على بعض بين النهر والتل.. حتى مدينة مينجستراس التي لابد أن تكون أكثر المدن قيمة وثراء، طالما أن العمدة أوفربيك والسيناتور بوللك كانا يشغلان فيها منزلين متجاورين. كانت تبدو مكتظة بالنسبة لمن لا يمكنه السير بين جدارين متقاربين.. كانت باحة فندق دوفيل واسعة إلى حد ما، لذا كان فريدريش يتجنبها، ولكن، كان هنالك جدار في مكان آخر كان يمكنه الاتكاء عليه أو لمسه أحياناً فقد كان فريدريش يشعر بالحاجة إلى الاطمئنان عند ملامسة الحجر أو القرميد.. كان يحب دائماً خلال نزهاته –حتى في الأيام الخالية من الضباب– أن يلمس بأصبعه الواجهات التي تحاذيه..

على الجسر الذي يقف عليه اليوم، راقب طيور السنونو العائدة منذ أسبوع من رحلة شتوية في تركيا وهي تهبط من رحلتها الجوية وتحلق فوق سطح الماء، لتُسهم عن غير قصد، مثل السحاب الذي يجري نحو هامبورغ تطارده ريح الشمال، في رسم خطوط المنظر الطبيعي. كان يمكن أن يوحي ذلك بالشعر لفرانز، لكنه لم يكن بالنسبة له سوى احتياج وغموض وغياب للملامح ومصدر للقلق.. كان فرانز حريصاً على النزول نحو الجنوب لاكتشاف عالم ذي رونق ووضوح وملامح مرسومة بدقة..

لم تكن الواجهات المستطيلة كافية، كما في المدن الأخرى، لقطع الفضاء بإحكام، فقام المهندسون المعماريون بتقطيعها إلى جملونات يحتوي أغلبها على شرفات ترتقي كالسلالم لتناطح السماء.. وكان يمكن للعين أن تلاحق سلسلة من الزوايا القائمة المقطوعة بشكل جيد بحيث

تضيق واجهاتها تدريجيًا نحو الأعلى لتؤلف مايشبه القمة.. كان المنظر يمنح المرء إحساسًا بالسمو باتجاه تحقيق أهدافه..

كانت أفضل الجملونات المتدرجة بلا شك تلك التي تعلو المنزل المجاور لمنزل فريدريش، ليس فقط لأن تحت هذا السقف، كانت تسكن إليزابيث بولك، تلك الفتاة التي قطعت له وعدًا، وأصبحت خطيبته في سجلات رعايا الكنيسة.. بل لأن المظهر الجانبي للسلالم كان ينم عن أناقة ودقة لدرجة أنها بدت منحوتة بإزميل، وكانت تمتلك الحيوية والتصميم اللذين كانت الفتاة الشابة تمتلكهما.. كان يجري في عروقها الدم القوي لبرجوازية التجار، وتشع من عينيها إرادة نقية تدل على انحدارها من صلب تاجر أو عضو مجلس محلي أو عضو مجلس شيوخ.. كان يعلم أن بإمكانه الاعتماد عليها وأن رحيله المفاجئ لن يقوض الثقة التي وضعتها فيه ابنة السيناتور بولك، وأن حوادث الحياة الخاصة والمشاعر الشخصية كانت تبدو ثانوية بالنسبة له مثلما كانت خدمة العائلة والسلالة والمدينة..

كان يخشى مع ذلك أن يكون مبالغًا في تبسيطه لرد فعل إليزا تجاه فكرة سفره، وأنه ربما لن يتمكن من الاعتماد عليها في تحمل العواقب التي ستترتب على هروبه.. كان يلمس فيها الصلابة الأخلاقية والحس العملي الجيد والإخلاص لمحيطها من التجار وأصحاب السفن وهو ما كان يثير إعجابه في شخصيتها لكن ذلك قد لا يؤهلها لتلعب دور الحبيبة التي تنتظر في حجرتها عودة ظهور الغائب..

ولكن لا: كان يكفيه أن يلقي نظرة جديدة على صورتها وأن يرى مدى اهتمامها بتمشيط شعرها الأشقر الكثيف وتنسيقه في ضفائر طويلة حسب الطريقة المعقدة التي ورثتها عن جدتها لأمها، حتى لو كانت تقوم بهذا العمل المضجر كل صباح ليدرك أنه لن يضطر إلى الشك في ثباتها وأنها لن تتمرد على التقاليد أبداً..

لم يكن الجملون الأكبر متدرجًا بل كانت جدرانه بارزة على هيئة أجراس، وهو شكل مثير للاهتمام بالنسبة لطالب الفنون الجميلة، كان يدل على ذوق مرهف، وكانت المنحنيات المقوسة التي تحيط بالنافذة الوحيدة للطابق

الأخير تدل على روعة الهندسة المعمارية في الشمال.. كانت نوافذ منزل أوفربيك مقوسة هي الأخرى إلى جانب النوافذ المستطيلة لمنزل بولك.. وبمقارنة الواجهتين المتجاورتين، كان الشاب قد أدرك أن الغرض من الفن هو إعطاء شكل يدل على اللانهاية، وتكثيف الفضاء إلى أسطح وأحجام دقيقة يمكن للعين أن تستوعبها، واستبدال لامحدودية الطبيعة بدقة الخطوط.

كان الألمان لا يتخيلون الخطوط إلا بزوايا قائمة، وهم بذلك أبسط من فناني إيطاليا، أرض العمارة والرسم، موطن رافائيل وانحناءاته الرقيقة، وقاموا باستيراد المنحني، لكن الهدف كان هو نفسه، تحرير الإنسان من الخوف الذي كان يشعر به عندما يطفو بلا مرسى على البحر اللامحدود..

عند سماعه ضجيج العملات النقدية التي كان يعدها آليًا بأطراف أصابعه، احمَر الشاب خجلاً.. ألم يكن مخطئاً في شمول كل الفنانين بمعاناة تخصه وحده؟ كان يشعر دائماً بالحاجة إلى العد والحساب، ليس بدافع الجشع أو الخوف من الضياع، لأن هذه العادة كانت تسيطر عليه في مجالات أخرى وليس فقط مع المال..

بهذه الطريقة، ألم ينشغل بإحصاء أسماء الكنائس السبع في لوبيك بدلاً من أن يودعها وداعًا حالمًا وشاعريًا يليق بمن ينوي الرحيل بعيدًا؟ والآن، هل كان يمكنه أن يمنع نفسه من سحب ساعته من جيبه والتحقق من الوقت لكي يتذكر في أية دقيقة سيكون عليه أن يدير ظهره ليجتاز الجسر؟

كان يحاول استعادة تلك الذكرى منذ الطفولة، عندما كانت إليزا تجري وراء الفراشات بفرح جنوني على ساحل البحر، وكانا يضحكان معًا.. بعد وقت متأخر، تحولت علاقتهما إلى شعور ناضج وعميق جداً، كان قد أجهد نفسه لتركيز ذاكرته على كل الأماكن حيث كانا يتنزهان، شكل الأرض وعدد الأشجار وأنواعها، تنوع الأزهار التي كانت تزين شعرها، وانتهاء نزهاتهم لأكثر من مرة من دون أن يقول لنفسه ببساطة: كم أنا سعيد معها؟ أية سعادة أن نحب بعضنا بعضًا!

لم يكن يشعر بالنشوة أمام قوس قزح مثل صديقه فرانز، بل كان ينشغل بتحليل الألوان بعناية.. كانت تربيته العقلية، وميله العقلاني للتحكم في

سلوكياته، والطريق الطويل الذي كان على وشك أن يقطعه إلى برلين ربما سيجعله يتساءل طوال الوقت إن كان الرسام الذي سيكونه ذات يوم سيدمر ربما هذا الحذر والحكمة العاطفية، وهذه الحاجة إلى الهجر.

من برج إلى آخر، كانت أجراس المدينة تهتز.. دفن فريدريش ذقنه في ياقة معطفه ليحمي نفسه من المطر الذي كان قد بدأ بالهطول، أو ربما لخشيته من أن يتعرف عليه أحد؟ كانت الأجراس تدق لإيقاظ المدينة واستئناف الأنشطة التجارية. كان يمكن لأي موظف عند والده أن يرى الشاب في هذه الساعة غير العادية وهو ينوي الرحيل، فيجري لمسافة قصيرة إلى مينجستراس لإبلاغ والده..

استدار على عقبيه وبدأ يهبط النصف الثاني من الجسر بأبطأ ما يمكنه.. كان ضجيج الأجراس والأورغ قد دغدغ طفولته، وربما لن يسمع أبداً بعد الآن هذا الصوت الذي يبدأ برنين واضح ثم تختنق موجاته تدريجيًا في الضباب..

أمامه، كانت بوابة هولستينور المحصنة، التي كان عليه أن يجتازها للتوجه إلى بروسيا، لا تزال مغلقة بالسلسلة التي تحظر عبور البضائع خلال الليل.. تأمل البرجين التوأمين الهائلين اللذين يحيطان بقوس الباب المحدب، والطوابق الثلاثة للأقواس والأفاريز المزينة بالخزف.. على اليسار، كانت تصطف على طول النهر، تلك المنازل الوردية القديمة ذات الجملون المثلث لمخزن الملح الذي كان سلعة خاضعة للجمرك، كانت تلك المنازل تذكره هي أيضاً، عبر أناقة واجهاتها المزينة بنوافذ بيضاء ذات بلاطات صغيرة لامعة، كيف أن برجوازية الأعمال في لوبيك لم تقبل بإثراء نفسها من دون المساهمة في تجميل المدينة، من خلال حل وسط حكيم بين الوظيفة المربحة والفنون الجمالية..

اندفعت اثنتا عشرة بجعة مدفونة في ريشها تحت الجسر بهدوء.. كانت لوحة شاعرية ضاعفت من ندم المسافر لو لم يلاحظ وصول الفرقة الصغيرة من ضباط الجمارك بالبدلة الرسمية الفرنسية وقيامهم بفك السلسلة لمرور العربات الأولى..

ضم فريدريش قبضتيه عند مشاهدة السراويل البيضاء وحمالات السيف الزرقاء.. ثم اجتاز رتل شاحنات الرمل المخصصة لترميم دور ضيافة المسافرين القديمة البوابة أمام ضباط الجمارك الذين كانوا يرسمون علامة الصليب بكسل على نعش بقطعة من الطباشير.. اصطدمت واحدة من العربات التي كانت مختومة حسب الأصول بحاجز عند زاوية الجسر فانسكبت نصف حمولتها.. أطلق السائق شتيمة وأفلت لجام الحصان ثم اجتاز الجسر ليدفع فريدريش بقوة وهو يتوجه بأقصى سرعته نحو المدينة.. انطلق حارسان من هولستينتور نحو الحمولة المقلوبة وبدا المسحوق الذي تناثر على الأرض واضحاً جداً.

– سكر! ياإسم الله، مازالوا موجودين هنا! هتف ضباط الجمارك بتعجب.

حروب، قحط، تهريب، هذا ما كانت أوروبا قد كسبته بعدم ثقتها بالسياسة الفرنسية بالوقت المناسب. كانت ألمانيا قد رحبت بأحداث باريس، فقد احتفى غوته بمعركة (فالمي)[6] معتبرًا إياها ولادة عصر جديد، كما خصص بتهوفن سمفونيته الثالثة لبونابرت، أما إيمانويل كانط[7] الذي كان على بعد 300 كيلومتر إلى الشرق من لوبيك، والذي كان معتادًا على التجول في طول البلاد وعرضها، فقد غير اتجاه رحلته لدى سماعه نبأ احتلال الباستيل وتم فرض النظام المتري حتى منطقة فيستولا من قبل الجيوش الإمبراطورية. كان هذا الأمر قد صعق الشاب فريدريش بقوة بسبب التاريخ وكذلك الانطباع الذي كانت تحدثه فيه كتب الفيلسوف البروسي.. ألم يكن هو نفسه قد ولد في الثالث من تموز عام 1789 أي قبل أحد عشر يومًا من قيام الثورة الفرنسية، كان يبتهج دائماً لشعوره بأنه كان طفلًا في عام 1789..

6- معركة فالمي: هي أول نصر حاسم للجيش الفرنسي خلال الحروب الثورية التي أعقبت الإطاحة بنظام بوربون الملكي. حدث ذلك في عام 1792 عندما حاول جيش بروسي بقيادة دوق برونزويك التوغل في باريس. نجح الجنرالان فرانسوا كريستوف كيلرمان وتشارلز فرانسوا دوموريز في إيقاف التقدم البروسي بالقرب من قرية فالمي، الواقعة شرق باريس، في شامبين – أردين.

7- إيمانويل كانط: فيلسوف ألماني وأحد مفكري عصر التنوير المركزي (1724–1804) وُلد في كونيجسبيرج، وجعلته أعماله الشاملة والمنهجية في نظرية المعرفة، والميتافيزيقا، والأخلاق، وعلم الجمال، من أكثر الشخصيات تأثيراً في الفلسفة الغربية الحديثة.

كيف لا نؤمن بأن مصيرًا عظيمًا كان بانتظارنا، عندما بدأنا في الحياة بتحطيم الأسوار التي كانت صامدة منذ قرون؟ اليوم أيضاً، وعندما شاهد كيف كان الحارسان الفرنسيان يملآن جيوبهما بالسكر قبل الإسراع للإبلاغ عن الحادثة، وكيف كانا أكثر ايماناً بترشيد اقتصاد بلدهما من تأثرهما بالتاريخ، لم يستطع فريدريش أن ينكر حماسه الصبياني وندمه على دراسته أو تحدث لغتهم بطلاقة..لكي يقول الحقيقة، وجد الشباب الألمان أنفسهم في وضع غير مريح للغاية، ذلك أن نفس الكلمات التي استخدمت في صياغة إعلان حقوق الإنسان والمواطن وبث حب الحريات من نهر الراين حتى نهر الاودر، كانت تروج الآن لأوامر الطاغية الذي استعبد أوروبا بسلطته المطلقة..

بالنسبة لفرانز، الذي كان يعرفها جيداً، فإن هذه اللغة التي كانت واضحة جداً وكانت تعبر عن الأفكار بكثير من الدقة للوصول إلى جوهر الأشياء.. كانت غامضة وملغزة بالنسبة له.لاشك أنه كان محقاً إذا اقتصر النقاش على الشعر، ولن يكون شينييه[8] أبداً إلا ناظم شعر بارد بالمقارنة بنوفاليس[9].. لكن فريدريش كان يشعر بأنه مدين بدين شخصي تجاه باريس، وكان صادقاً جداً لدرجة أنه لم ينكره.

كان قد ولد بين المخازن والمحلات التجارية، وبينما كان صديقه فرانز يطفو على سطح الأرض بلا أصول أو روابط، كان يمتاز بعائلته الخاضعة لتأثير لوثري والمتجذرة في التقاليد الشديدة للرابطة الهانزية[10] التي كانت

8- شينييه: أندريه ماري شينييه (1762-1794) كان شاعرًا فرنسيًا من أصل يوناني، مرتبطًا بأحداث الثورة الفرنسية التي كان ينتمي إليها. ضحية شعره الحسي والعاطفي الذي يميزه كواحد من سلائف الحركة الرومانسية. انتهت مسيرته بشكل مفاجئ عندما حُكم عليه بالمقصلة لارتكابه «جرائم ضد الدولة»، قبل ثلاثة أيام فقط من نهاية عهد الإرهاب. كانت حياة شينييه موضوع أوبرا أمبرتو جيوردانو أندريا شينييه وأعمال فنية أخرى.

9- نوفاليس: فيلسوف وشاعر وكاتب ألماني. ولد عام 1772 ومات في عام 1801. درس نوفاليس الفلسفة والحقوق وعلوم المناجم، وكان من شعراء بداية عصر الرومانسية.

10- الرابطة الهانزية: هي الرابطة التاريخية للمدن التجارية في شمال أوروبا حول بحر الشمال وبحر البلطيق. وهي تختلف عن غيرها في أن تجارتها تقوم على الامتيازات التي دافع عنها مختلف الملوك الأوروبيين.

خطيبته مشدودة لها برباط إضافي عن طيب خاطر.. ربما كان سيتخلى عن حياته المهنية كفنان لو لا تأثير الثورة الفرنسية.. وإذا كان خاضعًا لنداء طموح عال، وإذا كان قد أعطى الأولوية للرسم وتجديد فن الرسم، وإذا كانت قوة الفرار من المنزل ذي الجملون المزود بالأجراس، قد ألقت به خارج سريره هذا الصباح، فهل يعني ذلك قبوله التحدي الموجه إلى جيله بأن يأخذ دورًا فاعلًا في ولادة العالم الجديد؟

أي رسام كان سيصبح ؟ ربما لن يكون رسّاماً عظيمًا، ولكن، سيصبح رسّاماً للجمال إذا ساعده الرب. كان قد وجد لدى كانط تعريفًا لهذه المصطلحات في كتابه (نقد الحكم)، الذي نُشر بعد ولادته بفترة وجيزة وكأن الفيلسوف أراد أن يمنحه له، وكان مكتوبًا بأناقة وبوضوح يتناقضان مع سمعته ككاتب معقد، ليساعده على أن يفهم نفسه.«الجمال الطبيعي يلمس شكل الشيء، ويقوم على تحديده، بينما يوجد السمو، بالمقابل، في الشيء الذي لا شكل له»... كان كل ما تم تعريفه جميلًا وموزونًا ومتناغمًا ويدعو إلى تأمل هادىء وله تأثير مطمئن على أرواحنا. «فعندما تثير الطبيعة فكرة السمو، فغالبًا ما يكون على مرأى من فوضاها، أو من اضطرابها أو خرابها الأكثر وحشية، والأكثر صرامة، هنالك حيث لا تسود إلا العظمة والقوة».

السامي هو كل شيء ليس له مقياس ولا حدود، وبعيدًا عن إشباع عواطفنا المبهجة، فهو يضعنا على حافة اختلال توازن مذهل، حيث يختلط الخوف بشكل وثيق مع المتعة...

كان الشابان قد شهدا المشهد الهائل لعاصفة فوق بحر البلطيق، على الساحل الذي استولت عليه الأمواج وقصف الرعد بلا شك. كان فيلسوف كونيغسبيرغ يستمد إلهامه من هذه السطور، وحتى عندما لا تضرب عاصفة رعدية السهل، كانوا يلاحظون في السماء تسابق السحب الرمادية الممتدة حتى خط الأفق.. كان فريدريش قادرًا على التوازن، أمام هيجان فرانز الذي كان رأسه ملقى إلى الخلف وعيناه مغلقتين بينما يرتعش منخراه تعبيرًا عن الدهشة المبهجة لروح مكرسة للمادة، ولكل ما يفرقه عن صديقه»..

«لم يكن السمو حتماً لأجلي» قال لنفسه وهو يسحب من جيبه للمرة

الثانية ساعته الذهبية التي تزينها أرقام قوطية بينما كانت عقاربها بهيئة سيوف صغيرة. «إنها الساعة السابعة وتسع دقائق وأنا مرتاح جداً لأن والدي اشترى لي ساعة تشير إلى الوقت بكثير من الدقة».. أضاف في اللحظة التي دقت فيها كل النواقيس من جديد لتدعو إلى العبادة»..

كانت الأمواج تهبط بشدة قبل أن تبتلع نفسها تحت البوابة التي ستبدأ بعدها الحياة الجديدة التي حاول من خلال تفكيره الساخر أن يبدد مخاوفها.. كان يود أن يرسم في كراسته إحدى البجعات التي جلبها انجرافها البطيء إلى حافة النهر.. كانت رقبتها البيضاء والملساء تنتصب باستقامة، ضامرة ونحيفة مثل أجراس لوبيك فيما فوق السقوف..

«مع هذا المطر.....» تمتم، محبطًا..

دار الطير حول نفسه، من دون أن يثني خط رقبته الثابت.. لن تكون هذه العينة المثالية من الجمال بداية مشجعة في مشروع السفر الخاص به، ولكي يواسي نفسه، لن يمكنه إلا أن يأمل في النزول نحو بروسيا وأن يهرب مبكرًا جداً إلى آفاق مسطحة وأراض تغطي شمال ألمانيا بقدر ما تراه العين..

الفصل الثاني

يتمنى المرء ألا يكون الهارب، الجريء بما يكفي لتحدي مثل هذا الأب القوي، أقل تميزًا في هيئته مما كان يبدو في شخصيته. أنف طويل إلى حد ما، وشفتان سميكتان، وهالات سوداء واضحة منحت المسافر الذي طلب أرخص حجرة في نزل شيفيرين، على الطريق الذي يربط ما بين لوبيك وبرلين، مظهرًا جادًا للغاية بالنسبة لعمره. لكن خصلة الشعر القصير التي كانت ترفرف على جبينه، والالتواء الإرادي لفمه، والنظرة الراصدة باستمرار، وطريقته المباغتة في إدارة رأسه من جهة إلى أخرى عند سماع أدنى ضجة، كان كل ذلك يذكّرنا بأنه كان شابًا متحمساً ومتمردًا.

لم يكن فريدريش أوفربيك قد بلغ العشرين من عمره بعد عندما فر من بلدته الأصلية. لعدة مرات، تناهى إلى سمعه في الطريق دوي طلقات نارية في الحقول، وهاجت أحصنة العربة التي كانت تحمله لدى رؤية جثة متروكة في حفرة.

عند وصوله إلى النزل، تم اصطحابه إلى العلية، فطلب ورقة رسائل ليضعها على المنضدة المتهالكة مع صورة عذراء رافاييل وصورة إليزا، ومن دون أن يكلف نفسه عناء خلع معطفه الذي كانت ياقته العالية المتصلبة تجبره على إبقاء ذقنه مرفوعة، شرع في الكتابة إلى والديه ليطمئنهما ويشرح لهما قرار سفره. وبعيدًا، على الرصيف، كانت هناك عربة وحيدة تطنطن بين المنازل النائمة، وكان حصانها يضرب الرصيف بحافره.

منذ السطور الأولى، شعر بصعوبة الكتابة، إذ قال لوالده إنه غادر لوبيك بدافع كراهية المحتل الأجنبي، ليذهب إلى بروسيا، لأنها الدولة الألمانية

التي بقيت حرة، ثم يغادر من برلين إلى فيينا، في النمسا التي أصبحت مستقلة منذ معاهدة بطرسبورغ، كان يبدو أنه يلومه على التكيف مع وجود الجيش الفرنسي في المدينة التي كان يشغل فيها منصب القاضي الأول.. بينما... ولكن هذه الـ «بينما» كانت تحوي فخًا آخر..

كان الحصار القاري، قد قلل إلى حد كبير من نشاط ميناء لوبيك، الذي كان النبيذ الفرنسي يتم تصديره عبره نحو إنكلترا، ما قلل بالتالي من أرباح تجارة والد فريدريش الذي لم يستطع إلا أن يكون مناهضًا لنابليون.

ألم يكن هنالك بعض الوقاحة في منحه شهادة وطنية تقوم على حقيقة أن سياسة الطاغية قد أضرت بمصالحه؟ نعم، كان من الأفضل عدم استخدام حجة بغضه للفرنسيين ليبرر هربه من لوبيك: فإذا كان الزي الرسمي كريهًا بالنسبة له، فلماذا لم ينضم فريدريش للعصابات المسلحة للرائد شيل؟ كان الرائد شيل قد قام بتدريب فرقة صغيرة من الثوار في برلين، بتعليمهم كيفية قطع رؤوس الفرنسيين بالسيف. ثم، احتقاراً للحيادية التي وعدت بها الحكومة البروسية، وعلى الرغم من احتجاج السيد دي شامبياني الذي تذرع ببنود معاهدة تيلسيت[11]، كان قائد المرتزقة، الممول سراً من قبل فريدريك غويوم[12] قد عبر الحدود مع رجاله المجهزين ليس بأسلحة بيضاء فقط بل بنادق من أحدث طراز أيضاً، ومن إقامة مؤقتة إلى أخرى، وللهروب من ملاحقات فرسان الجيش البروسي، اجتازوا ألمانيا، وهم الآن في مكلنبورغ حيث، كانت واحدة من ضحاياهم مقطوعة الرأس قد أفزعت أحصنة عربة فريدريش..

وعندما امتدح أحد ضيوفهم الرائد شيل مستشهداً به كبطل، عبس والد فريدريش وغير مجرى الحديث، فقد أظهرت الحرب في أسبانيا أن أعمال المقاومة المتفرقة كانت أكثر تأثيراً من المعارك الضارية في تقويض

11- معاهدة تيلسيت: هي اتفاقية تم توقيعها من قبل الإمبراطور نابليون الأول مع ملك بروسيا، الذي وافق بالفعل على الهدنة بعد أن طارده الجيش الكبير إلى حدود مملكته.

12- فريدريك غويوم: فريدرش فيلهلم الرابع (1795، 1861) الابن الأكبر وخليفة فريدرش فيلهلم الثالث ملك بروسيا، حكم ملكاً لبروسيا بين عامي 1840-1861.

قوة نابليون. «الكمائن والغارات وحرب العصابات، ربما سينتهي بنا الأمر بإضعاف معنويات جنود المارشال دافو»[13].. لماذا لم يرد والده؟ لماذا كان هو ذاته مستاءً من هذه الإعدامات بلا محاكمة؟ لقد أحرجت مبادرة الرائد شيل كليهما، الأب، لأن قناعاته الوطنية كانت تنضوي تحت إطار الاحترام اللوثري للإنسان، والتقيد الصريح بالمعاهدات العالمية، ومذهب الطمأنينة الضروري في التجارة، والابن، لأنه كان سيشعر بقسوة بأن الطغيان الفرنسي كان سيرغمه على ترك أقلام الرصاص وفرش الرسم. على عكس معظم رفاقه، وتحت تأثير فرانز ووجوده في الحجرة، وجاذبيته الصامتة، وابتسامته السحيقة، ولا مبالاته بما كان يقال حوله، والوهج الأزرق لنظرته التي تحمل دعوة إلى السمو فوق حوادث العصر، لم يكن يثق بالعمل السياسي، وكان يرى أن لوحة ناجحة ربما ستسهم أكثر في نهوض الأمة الألمانية من قضاء الليالي تحت النجوم الجميلة في أراضي بوميرانيا[14].

الرسم... ربما كان والده سيستمع بسرور أكثر عند هذه الفقرة، ألم يكتب هو ذاته كتابين صغيرين عن الأدب؟.. لم يكن يتفاخر بذلك، هذا صحيح، لكن فريدريش كان قد اكتشفهما مصادفة على رف مرتفع من المكتبة حيث كان والده قد أبعدهما منذ صدورهما.. لم يكن رئيس البلدية، وعلى الرغم من مسؤولياته الكثيرة، معاديًا للفنون والآداب، وكان يحتفظ لهما بمكانة جيدة في حياته المزدحمة.. أما مواطنو لوبيك الذين كانوا يحبون العثور في معالمهم الأثرية، على توافق بين المفيد والممتع فقد انتخبوا رجلاً يناسبهم لمنصب رئيس البلدية. ومع ذلك، كان هنالك سبب جيد قاد فريدريش إلى الفرار من المنزل بدلاً من أن يشرح قراره لوالده بهدوء.

«هل تريد مواصلة الرسم؟» كان سيسأله والده ردًا على تمتماته الخجولة. لا شيء أسهل من ذلك. أنا أؤيد هذا الذوق تماماً. أنا على استعداد لإقامة مشغل لك تحت السقوف. كنا نبحث عن فنان لتزيين قاعدة آلة الأرغن

13- المارشال دافو: كان قائدًا عسكريًا فرنسيًا ومارشال الإمبراطورية الذي خدم خلال كل من الحروب الثورية الفرنسية والحروب النابليونية.

14- بوميرانيا: هي منطقة ساحلية جنوب بحر البلطيق في شمال غرب بولندا وشمال شرق ألمانيا.

الجديدة التي قمنا ببنائها لكنيسة (سانت إيجيد)، سأقوم بترشيحك وفق طريقة التصويت العادية، وإذا تم اختيارك، فلن يكون ذلك من منطلق المحسوبية.

«لكن، يا والـدي....» عند هذه النقطة، كانت بقية حديثهم الخيالي تتقاطع مع ما كان يقوله في رسالته، ألقى الشاب قلمه وأخذ وجهه بين يديه. كان أول من شعر بالفزع من المغامرة التي كان قد تعهد بها.. كان بوكستهود عازف الأرغن من كنيسة ماريانكريش على مدى أربعين عامًا، كان قد ألف كمية هائلة من المقطوعات الموسيقية والتراتيل والترانيم والقصائد الغنائية والأناشيد الدينية التي صنعت له مجده ومجد لوبيك، لكن هذا العمل، المكتوب لخدمة الكنيسة، كان قد أدى دورًا اجتماعيًا أولاً، فقد كان يجمع المؤمنين في تواريخ محددة، ويسمح لهم بتأدية واجباتهم تجاه الله، كان ذلك يقع ضمن فئة (المفيد) قبل أن يشكل جزءًا من فئة (الجميل).

أي تقدير كان سيُمنح لموسيقي أو رسام كان سيطالب بالعزلة عن المجتمع، ويعمل من دون مراعاة مصالح مواطنيه، لينتزعهم من عادات وطقوس الحياة المشتركة ويحملهم إلى مناطق غامضة في العدم؟ لم تكن لوبيك فحسب، بل كانت ألمانيا كلها مستعدة للاعتراف بالفنون والآداب كوظيفة مهمة في المجتمع، ولكن بشرط أن يظل الرسام أو الموسيقي في خدمة مواطنيه ولا يكون عليه ملاحقة أوهام خياله..

بعد برلين، وحتى بعد فيينا، حيث كان سيلتقي بفرانز، كان فريدريش يفكر بإقناع صديقه بالمغادرة معه إلى بلد بعيد جداً حيث لا يتم التعامل مع الفن كهواية ممتعة أو باعثة على التقوى فقط، ولكن كهواية محترمة وغاية مؤثرة..

كان من المقرر أن يجعله والده الوريث الوحيد لمخازن أوفربيك المشتركة في عيد ميلاده العشرين بعد أقل من ثلاثة أشهر، كان سيقدمه إلى المساهمين ليستقر خلف مكتبه ويكون مسؤولًا عن الإيصالات والفواتير، وفي المساء، وفي أيام العطل، وخارج ساعات عمله، كان سيحصل على فرصة للانغماس في الرسم، وكان كل من حوله سيُعجب بسليل العائلة الثرية التي كانت تحتكر صناعة النبيذ في بوردو، وبدلًا من استغلال أوقات فراغه في التجديف في نهر تراف بصحبة شباب في مثل سنه، أو التواجد في

حفلات راقصة أسبوعية، كان يستغل أيام الآحاد في رسم مشاهد من (العهد القديم)[15] على القاعدة الجديدة للأرغن.

- «أوه، أبي، هذا ليس الرسم الذي أهتم به، لا أريد تزيين قاعدة أرغن أو أي شيء في أي مكان آخر، لأن الفن بالنسبة لي مهنة يمكن أن تستخدم للمتعة أو التنوير، ولكن.. من أجل ماذا؟ ألا تريد أن تجيبني؟»

اعتقد فريدريش أنه سمع، في صمت العلية، هذا الصوت الذي كان يصعب عليه رفضه، لأنه كان يتكلم بهدوء في أذنه، ولم يكن يستطيع بأية طريقة أن يتخيل والده مستبدًّا وبليدًا ويبرر العصيان. كان يجد فيه فطرة سليمة وعقلًا سليمًا وروحًا ناضجة.

- «أفضل دليل يا بني، على أنك مخدوع بالترهات، هو أننا لا يمكن أن نرى فنانًا يكرس نفسه لفنه من دون أن يحافظ على واجباته الدينية، وأنه لا يولد في بيئة وضيعة، ويمكن أن يمارس هذه المهنة الخطرة بدافع الضرورة. ينحدر الفنانون من والدين بلا ثروة أو علاقات، واستحالة اعتمادهم على فرص الحظ في المهن النافعة اجتماعيًا هي التي صنعت منهم رسامين أو موسيقيين وليس خيارهم الحر... كان والد دورير[16] صائغاً مجرياً قاده الفقر إلى نورمبرغ، وكان والد هاندل[17] حلاقًا، أما والد جان سيباستيان باخ[18]

15- العهد القديم: العهد القديم، المسمى أيضاً بالعهد الأول أو الكتاب المقدس العبري هو، في المسيحية، جزء من الكتاب المقدس قبل يسوع المسيح.

16- دورير: ألبريشت دورير، رسام ومنظر ألماني لعصر النهضة الألماني. ولد في نورمبرغ، وأسس سمعته وتأثيره في جميع أنحاء أوروبا في العشرينات من عمره. كان على اتصال مع كبار الفنانين الإيطاليين في عصره، بمن في ذلك رافائيل وجيوفاني بيليني وليوناردو دافنشي.

17- هاندل: جورج فريدريش هاندل، هو الموسيقي الباروكي الألماني البريطاني المعروف جيداً بالأوبرا، والأناشيد، وكونسيرتو جروسي، وكونسيرتو الأرغن. تشكل موسيقى هاندل واحدة من قمم أسلوب «الباروك العالي»، مما أدى إلى وصول الأوبرا الإيطالية إلى أعلى مستوياتها، وإدخال أسلوب جديد في موسيقى الكنيسة الإنجليزية. يُعرف بأنه أحد أعظم الموسيقيين في عصره.

18- يوهان سيباستيان باخ: عازف أرغن ومؤلف موسيقي وملحن باروكي ألماني ولد في 1685 ورحل في 1750 ميلادية ويعتبر أحد أكبر عباقرة الموسيقى الكلاسيكية في التاريخ الغربي.

فكان موظف بلدية مسؤولاً عن العزف في الفرقة النحاسية بالبوق في قمة برج الجرس»..

كان والده سيرى الفنانين بنفس العين المتسامحة التي كان ينظر بها إلى الأطفال. كان يتظاهر بأنه مهذب وودود تجاه الفنانين كما كان يستمتع بمداعبة خصلات شعر الأطفال، كنتيجة لبساطة القرن الجديد التي تدفع رجلاً متنورًا بمطالعة جان جاك روسو وكلوبستوك[19] إلى إظهار لطفه وتفاهته العابرة نحو الأشخاص الأقل جدية، لكنه لم يكن ليدفع لقاء شراء لوحة العذراء أكثر من الوسائد التي طلبها للتو من المنجد في دار البلدية لغرض جعل مقاعد أعضاء المجلس البلدي مريحة أكثر من خشب البلوط الصلب لمقاعد صدر الكنيسة القوطية القديمة.

كان من المستحيل أن يصرخ بوجه هذا الأب:

– «الفن بالنسبة لي هو مسألة حياة أو موت!».

كان رئيس البلدية سيشعر بالفضيحة، وسيجرحه ذلك في صميم كيانه، وهذه الكلمات السخيفة بالنسبة له قد لا تحمل إلا معنى واحدًا:

– «أنا لست حاكم لوبيك إذن ولا صاحب تجارة مثمرة. وإذا كان ولدي يعتقد أن عليه تجربة حظه مع علب الألوان والفرش، فبأي شيء سيختلف عن هيربرت العجوز الذي كان يصعد كل خميس إلى برج ماريانكريش لينفخ في آلة النفخ الخاصة به على الرغم من ساقه المشلولة، مقابل الحصول على خمسين تالر في الشهر؟»

لم يبق سوى طريقة واحدة لعرض الأمر على والديه، كان عليه أن يعترف بأن التخلي عن الصدام المباشر مع والده، كان سيعيق التطور الكامل لملكاته الإبداعية.. لم يكن ذلك جبنًا ولا دبلوماسية حذرة بالتأكيد، لأنه ربما لن يعود إلى لوبيك قبل تنفيذ عزمه الكبير، وسيحرم نفسه، حتى إذا كان في وضع محرج، من الكتابة إلى رئيس البلدية لطلب مساعدته المادية، ولكن خوفاً من المواجهة المباشرة، واحترامًا لشخصية الآخر، ولإعجابه السري

19– كلوبستوك: كان فريدريش جوتليب كلوبستوك (1724–1803) شاعرًا ألمانيًا. أشهر أعماله هي قصيدته الملحمية (المسيح).

بالنجاح الأبوي، هرب دون سابق إنذار، إن لم يكن خوفاً من إقناع نفسه أنه من خلال تخصيص يومين في الأسبوع للرسم، سيصبح فنانًا مشهورًا ومحترمًا في المدينة. آه، ربما كان من سوء الحظ لمن أراد أن يكرس نفسه للفن أن يكون لديه أب مثقف ومتسامح.

لاحظ فريدريش أنه لم يخلع بعد معطفه الذي صنعه أفضل خياط في لوبيك، وبصرف النظر عن الياقة المنشاة الصلبة، فقد صُنع المعطف من أحد تلك الأقمشة الإنكليزية الناعمة التي أصبح من المستحيل العثور عليها منذ فرض الحصار القاري.

كان ساخطًا لإثبات أنه كان يرتدي هذا اللباس وأنه كان قد توجه إلى مقر الآلهة بهذه الكسوة البرجوازية المناسبة لرجال الأعمال. ولكي يشير إلى التخلي عن وسطه الأصلي، ألم يكن ينبغي عليه من الخطوة الأولى أن يرتدي سترة رسام فاشل؟

نهض وخلع المعطف، لكنه اضطر إلى ارتدائه ثانية لمقاومة تيار الهواء الصقيعي الذي كان يصفر من خلال الكوة. في مثل هذا الوقت، كانت خادمات منزل أوفربيك يصعدن السلم الكبير المصنوع من خشب البلوط ليمسحن بخرقة قماش صوفية صغيرة آثار أصابع سادتهن على درابزين السلم اللامع وآثار أيديهن على المقابض النحاسية للأبواب. وقبل أن ينسحبن إلى حجراتهن، يشعلن النار في مدافئ غرف النوم في الطابق الأول وكن يحملن مدفأة ويتجولن بها لتدفئة الأغطية.

لم يطلق فريدريش إلا حسرة قصيرة وهو يتذكر الحياة المريحة التي تركها خلفه، لكن هذا الحنين العابر قلل من حماس الشاب النافذ الصبر لتكريس نفسه للقضية حيث لم يحسب قط حساب البرد أو الحر أو أي شي يتعلق بمحدودية طاقات الإنسان. وفي لحظة البدء بالكتابة لوالده، كان يعتقد أن الأمر الأكثر حكمة هو الاعتراف بأنه لم يكن ناضجًا بما يكفي لتحمل مسؤولية مهنة تجارية. كان قد طلب من والده مهلة تأخيره لعام كامل كما طلب إذنًا بالسماح له بإنهاء دراسته -كانت كلمة (دراسة) ستسعد والده أكثر من كلمة (رسم)- في فيينا لأن أكاديمية الفنون الجميلة لهذه

المدينة التي كانت تتمتع بسمعة طيبة لكونها أفضل البلدان الناطقة باللغة الألمانية. لقد أودع الله فيه بذرة صغيرة من الموهبة، ألم يكن من واجبه أن يجعلها تنمو؟

كانت هذه الإشارة إلى الكتاب المقدس تشيع الاطمئنان في نفس والديه، كانا يقدران أن ابنهما، -مثل ذلك الطفل الذي تم إصلاحه في الإنجيل- وبعد أن بدأ حياته بالطيش سيعود حتماً إلى المنزل بحكمة. ارتعش فريدريش لاعتقاده أن مثل هذه الرواية الملطفة لسلوكه يمكن أن تتطابق قليلاً مع الواقع. أغمض عينيه ليستجمع قواه ويتقبل فكرة أن هدفه لم يكن تعلم قواعد فن الرسم المنظوري وتدرج اللون في اللوحات من قبل البروفسور فوجير الذي صادف أن يكون والده صديقه، لأنه كان يسعى إلى فتح أبواب أورخيوس[20] المليئة بالألغاز: انتصبت أمامه صورة صديقه فرانز الذي كان ينتظره في فيينا حاملًا قيثاره، وكانا يحاولان عبور عتبة المملكة المجهولة مع هذه الآلة السحرية أكثر من لوحة رافائيل. لم يكن هناك سوى بادرة رأفة أخيرة تجاه والديه وهي أن يخفي عنهما اكتشافه لهذا العالم الخلاب الذي يمتد فيما فوق العالم المحسوس ويدفع هؤلاء الذين تذوقوه ذات مرة إلى أن يتيهوا فيه دون أمل بالعودة.

لم يكن ينوي التخلي عن عائلته، بل كان يتابع السير في الطريق إلى ما بعد النقطة التي اعتقد رئيس البلدية أنه من المناسب التوقف عندها، في اليوم الذي صعد فيه السلم ليخفي ثمار موهبته الأدبية التي كان يطلق عليها (التعايش مع ربات الفن) في زاوية لا يمكن الوصول إليها من المكتبة.

نظر فريدريش عبر زجاج النافذة: المطر، المطر دائماً!

منذ مغادرته لوبيك، لم يتوقف المطر عن الهطول. كان المطر يهطل بلا توقف في لوبيك منذ بداية الربيع. هل كان سيضيف في رسالته أنه، إذا كانت فيينا بالفعل هي وجهة رحلته، فستكون هذه المدينة بالنسبة له مجرد محطة. نحو الجنوب، نحو إيطاليا، حيث كان سيذهب مدفوعًا بنفس الانتحاء

20- أورخيوس: كان إلهًا للعالم السفلي.

الشمسي[21] الذي دفع دوريه وونكلمان وغوته إلى اكتشاف «أرض أشجار الليمون المزهرة»، بلد اللون والجمال، التي ستكون تكملة ضرورية لتعليمه ومحطة نهائية لرحلته.

ترددت يده مع ذلك قبل معالجة مسألة المناخ، فوضع قلمه جانبًا لأنه أدرك أن والديه اللوثريين الورعين المتمرسين في امتحان الضمير كانا سيفكران في رموز البذرة والابن الضال، لكنهما كانا سيصطدمان بقوة بفصل المطر.. كانت والدته نحيلة، مستقيمة، وكانت ترفع شعرها بهيئة كعكة.. كانت تملك مجموعة مذهلة من الخرق وجلود الشامواه فمن أقرب الهوايات إلى قلبها كان جمع الخرق المتبقية من كل فستان تتم خياطته لها وإعادة استخدامها.

في الصباح الباكر من كل يوم، كانت تتولى توجيه الخدم، الذين كانت مهمتهم الأولى هي التنظيف الدقيق لاثنتي عشرة نافذة كبيرة: واحدة من كل جانب من الباب المقوس في الطابق الأرضي، ثم ثلاث نوافذ في كل من الطوابق الثلاثة وواحدة أخيرة وسط جملون ذي أجراس.. كان هنالك مائة وتسعون بلاطة فقط بالنسبة للواجهة، وكان فريدريش الصغير يتسلى غالبًا بعدّها... ومن جهة الحديقة، كان هنالك نافذتان كبيرتان تصعدان حتى سقف الغرفة المشتركة على ارتفاع طابقين لإضاءة الحجرة الواسعة المعتمة دائماً قليلاً، والتي كان يتم تنظيفها أيضاً بالصابون.

كان المطر واحدًا من تلك الطقوس التي تذهل الصبي، بينما كانت تملأ والدته بالزهو، فبدلًا من أن تغسل كل شيء بماء المطر الغزير، كانت تجبر الخادمات كل صباح على دعك العديد من السحابات الرمادية.. كانت هنالك نوافذ أخرى تفصل الصالة المشتركة عن حجرة النوم حيث أقيم المطبخ. كان هناك نحاس لتلميعه خلف صفوف الأواني الخزفية، وعلى الأرض، كانت هناك ألواح حجرية في الحجرة الكبيرة، وأرضيات خشبية

21- الانتحاء الشمسي: هي هجرة مناخية طوعية تتميز بجذب السكان إلى بلد أو إلى منطقة حيث يعتبرون نوعية الحياة فيها أكثر متعة بسبب المستويات العالية من أشعة الشمس. وترتبط ظاهرة الهجرة هذه أحياناً بظاهرة الاستشفاء بالمياه المعدنية.

في الغرف ودرابزين السلم.. كان كل شيء ينتظر تلميعه بنشاط منزلي مكثف ليتألق ويلمع كالألماس، حتى قواعد المصابيح ومقابض الأسياخ المعدنية المستخدمة في تحريك حطب المدافئ. كانت العينان الخضراوان للسيدة أوفربيك تتفحص النوافذ وتشير إلى الفتيات لإزالة أثر أخير لابد من إزالته، فهذا هو المكان الذي تخوض فيه معركتها الأخيرة من أجل الحفاظ على مجد العائلة. في النهاية، تلقفت الخرقة بنفسها لتساهم في تلميع البلاطات الزجاجية الصغيرة..

مغمور بالمطر لكنه شديد التألق، هكذا كان يبدو المنزل ذو السقوف المنحنية لرئيس البلدية عندما اجتازت السيدة أوفربيك عتبته لتصبح قريبة جداً من كنيسة ماريانكريش.. كان قد تم تحويل الكنيسة القديمة عبر إزالة معظم أدوات العبادة وكتابة أبيات من المزامير على الجدران بدلاً من تماثيل ولوحات القديسين والقديسات، إلى ملاذ لدين الإصلاح. تحت أطراف ثيابها السوداء المبللة بماء المطر، كانت السيدة أوفربيك تحرص على عدم الانزلاق على الأحجار الموحلة. كان دخول صحن الكنيسة متعة ومكافأة بالنسبة لها، وكانت إزالة شالها المبلل بالمطر مثل الإسفنجة راحة لا تقدر بثمن، كانت ترفع عينيها نحو الحواف الرقيقة للقبة وأكاليل الزهور المرسومة على طول الأضلاع فتشعر بالامتنان.. أما عندما يبدأ العزف على الأرغن فكان رضاها يبلغ حد النشوة وتستسلم روحها للمشاعر الأكثر عذوبة، بينما ينقر المطر على قرميد السقف وينساب على طول الواجهات الزجاجية..

من فيشتراسي، وبيكرجروب، ومن كل زقاق كان يؤدي إلى المعبد، كان السكان يتوافدون على نداء الأجراس، وكانوا جميعهم، وبعد أن ينفضوا الطين من أحذيتهم أمام العتبة، يركعون على كرسي الصلاة في صحن الكنيسة مبتهجين بوجود سقف رائع فوق رؤوسهم، ليس سقفًا رائعًا وفخمًا فقط بل مقاوم للماء أيضاً.. كان الطقس الجيد قد خانهم كما لو كان ذلك إهانة لعقيدتهم..

لم يكن والد فريدريش يولي أي اهتمام للمناخ، وكان يتجول دون قبعة على أرصفة نهر تراف حيث كانت بعض السفن لا تزال تفرغ البراميل من حمولتها، ثم يسير على قدميه عبر الأزقة المتعرجة حتى قصر فندق دوفيل.

وبينما كانت زوجته تحني رأسها أمام الذهب المصقول لبيت القربان القائم منذ العبادة الكاثوليكية القديمة لشدة جماله، كان يرفع رأسه قبل دخوله إلى مقر السلطة المدنية، الذي كانت واجهاته المصنوعة من الطوب المزجج الداكن تتلألأ تحت المطر..

اجتاز السيد أوفربيك الدهليز المزين بالخزف الهولندي، ورحب بأعضاء المجلس الواقفين أمام مقاعدهم الخشبية في صدر الكنيسة ثم اتخذ مكانه على الكرسي الخشبي المنحوت من دون أن يجرب سعادة المرور من السماء الممطرة إلى الداخل الجاف.. ومع ذلك، فأية أسرار كانت تسكن قلب هذا الرجل؟

كان من الممكن أن يعتقد فريدريش أن نجاح عمل والده ونجاحه السياسي كانا يرضيان كل تطلعاته حتى اليوم الشهير الذي عثر فيه على كتابيه الصغيرين المخفيين في أعلى المكتبة اللذين يحملان اسم: كريستيان أوفربيك، كان مثل شعاع من الضوء في عينيه. كان رئيس البلدية كاتبًا في أوقات فراغه، وكان له اسم أول إذن يتكون من مقطعين، ولكن لم يتم سماعهما إطلاقًا في المنزل ولم يكن يستخدمهما أي من أصدقائه لمخاطبته، ولا حتى زوجته لأنها كانت تناديه «السيد أوفربيك» أو زوجي أو السيد، ومع ذلك، في مكان ما في أعماقه، وعلى الرغم من الأعباء والمسؤوليات، كريستيان، ما هي ذكريات الطفولة؟ ما هي الرغبات والتخيلات التي لم تستطع الحياة المهنية أن تخنقها؟

كان أستاذ فريدريش في الأدب قد منحه محاضرة حول شعراء الجيل الجديد.. كان قد بدأ الحديث حولهم بكثرة في ألمانيا: نوفاليس، هولدرلين، لودفيج تيك، وعلى وجه الخصوص واكنرودر، الذي كان قد توفي منذ عشر سنوات في سن السادسة والعشرين، بعد أن كتب (دفقات من قلب راهب شغوف بالفن)، وهو الكتاب المفضل لفريدريش وكان يحمل معه نسخة منه في حقيبته. ومع ذلك، ووفقًا لهذا الأستاذ، يمكن للمرء أن يلاحظ في كل هؤلاء الشباب نفس الملامح الوراثية، فالأب، يكون ذا شخصية جافة وقاسية، متسلطًا ودكتاتوريًا مع أبنائه، متحفظًا ومعتدلًا في مجال السياسة ويحاول بكل الوسائل أن يحبط رسالة ابنه.

كان والد (واكنرودر) قاضيًا في برلين، وكان قد أجبره على دراسة الحقوق بدلاً من الموسيقى.. أما (كلايست) فكان ابنًا لقائد بروسي وكان قد تربى عند قس ذي طباع صارمة، بينما كان على (تيك) أن يتخلى عن مهنة الممثل بسبب أوامر والده، صانع السروج في برلين، لكن أمه التي كانت رائعة وحساسة وموسيقية، أغدقت عليهم كنوزًا لا حصر لها من حنانها، ومنحتهم القوة لنشر مواهبهم الإبداعية..

وحده، تزعزع النظام الأبوي، بعد انتشار الأفكار الفرنسية الجديدة عبر أوروبا، كان قد مكن هؤلاء الشباب من الإفلات من قانون الأب، كانوا قد ولدوا في جيل يعقب جيل آبائهم لذا لم يكن لديهم الحق في التعبير عن أنفسهم.

أية سلطة كانت تهيمن على العصور القديمة بحيث إن غناء الطبيعة والحب والموت كان يصعب تصورها. هل كان مجتمع الآباء متسامحًا بحيث يكتب نوفاليس (تراتيل الليل) و(ترانيم روحية)؟ كان رجال الأعمال يعتبرون حياة الشعراء مزيجًا من النوم والكسل مقابل حياتهم المشبعة بالمسؤوليات، بينما كان الوقت بالنسبة للشعراء مصدر تجديد لأمزجة لا تضع حواجز بين الحلم والواقع، وقتها ظهرت الحركة الشعرية التي سُميت فيما بعد بالرومانسية لتهزم السلطة الذكورية وتنتصر الأمهات على الآباء ويبدأ الانتقام الأدبي للأنوثة.

كانت هذه الفكرة التي تقول إن فنانًا ينشأ من صراع بين الأبوين قد سحرت فريدريش كثيراً. ألم يقل لنفسه، منذ أن اكتشف الرسم في سن الثانية عشرة في الكثير من نقوش القديسات والعذراء: سأكون رسّاماً؟ فقط كان توزيع التأثيرات محيرًا في مثل حالته، إذ لم تكن هناك امرأة خالية من الحس الفني بقدر والدته: كانت امرأة منظمة، منضبطة، ومثالًا على الفضائل البيتية، ولم تنقل لابنها إلا حب العمل والميل إلى الإتقان والتهذيب واحترام المواعيد والشعور بالاهتمام والصدق، والميل إلى تحليل أفكاره وحتى تدوينها، وإذا كان قد فقد منذ وقت طويل الرغبة في الإمساك بصحيفة عادية، فربما تمنحه رحلته هذه الفرصة؟ كان لا يزال مدينًا لوالدته بهذا الميل..

السيطرة على النفس من خلال التحكم في عواطفه، لم تكن تسامح مع أي ضعف في شخصيتها، كان مزاجها نهاريًا، فلم تكن تتساهل مع الظلام والضبابية. «الليل للنوم» كما كانت تقول له فيما مضى وهي تضعه في فراشه وتقبله بعد أن تدثره بالأغطية بإحكام، ربما لتهيئته لخوض رحلة بين الأحلام أكثر مما لرزمه مثل طرد بانتظار الصباح.

لذلك، كان فريدريش يشعر ببعض الحزن لأنه كان يشعر أنه لن يرتقي أبداً إلى الحماسة الصوفية التي كان يحملها هولدرلين، ولن يتبع واكنرودر في تدفقاته الوجودية. كان هنالك شيء دقيق وواضح فيه، لا يشبه الانفعالات التي تثير الشعراء، بل من شأنه أن يشجع يده على رسم الملامح بدلاً من تمويه الآفاق، وأن يثبت على قماش اللوحات ما يمكن للعين أن تميزه بوضوح فقط. إن البساطة الرائعة التي كان يتحرك بها صديقه فرانز في أرض الكائنات الخرافية ربما ستقوده إلى ما هو أبعد وأسمى بكثير.. كان يقول ذلك لنفسه بلا حسد وبذهول كئيب لشخص يعتبر نفسه أدنى من كائن استثنائي.

كان مدينًا بميله الكامل للفنون إلى الوراثة الأبوية، فقد كان رئيس المجلس البلدي في لوبيك ومالك أضخم تجارة للنبيذ يرمز كغيره من آباء الشعراء الرومانسيين الشباب إلى السلطة والانضباط والقانون، لكنه كان مؤلفًا أيضاً لديوان شعري، وبذلك فتح الطريق لابنه من دون قصد. لم يكن شاعرًا جريئًا بلا شك، وكان ديوانه (قصائد) يتضمن مقطوعات عرضية فقط قام بنظمها في مناسبات الأعراس أو أعياد الميلاد. أما العمل الثاني لوالده فقد بدا أكثر غموضًا، كان دراسة بعنوان (أناكريون وصافو)[22] وقد صدرت عام 1800 وهو العام السحري للعصر الجديد. ومثلما ألهمته مهامه كرئيس للبلدية كتابة ديوانه (قصائد)، كذلك يمكن القول إنه اختار الشاعر الباخوسي أناكريون لأسباب تجارية أيضاً، فلا شيء يبدو أكثر طبيعياً، بالنسبة لمستورد نبيذ من فرنسا، إلا أن يقوم ببعض الدعاية لأعظم مؤلف يوناني لأغاني شُرب الخمر.. أما صافو؟ فلم يجد فريدريش إلا تفسيرًا واحدًا لهذا الخيار: الأمل

22- أناكريون وصافو: كتاب شهير عن الشاعر الغنائي أناكريون من اليونان القديمة وحبيبته صافو.

في مشاركة شاعرة ليسبوس في بعض المهرجانات التي تتضمن طقوسًا وثنية فاسقة ومحرمة لأنه كان محرومًا منها، ففيما عدا اهتمامه بالأدب الصارم فقط، كان هذا القارئ الدؤوب للكتاب المقدس، رئيس المجلس البلدي قد صوت فقط على طلب الوسائد للمقاعد غير المريحة لأعضاء المجلس البلدي بما تبقى من ميزانيته، لم يكن يدخر وسعًا لإصلاح محراب الصلاة الذي خصصه الأخوة الأتقياء من هانسا لأرامل البحارة..

وبعيدًا عن الحكم عليه، كان فريدريش معجبًا بحكمة والده. كانت لامبالاته بالمطر والتنزه حاسر الرأس تحت وابل المطر كما لو أن الطقس لا يمكن أن يؤثر عليه بأي شكل من الأشكال، تحميه من إغراء اليونان والجنوب والأفق اللازوردي للبحر الأبيض المتوسط، لكن الشاب الذي يعتبر طموحه السياسي غريبًا مثل الرغبة في كسب الكثير من المال، لا يحتاج إلى فرض مثل هذه الرقابة على نفسه. وطالما كان يكره مناخ لوبيك، فسوف يهيئ نفسه بحماس لسعادة العيش في ظل صيف دائم.

«الشمس الفتية الساحرة التي تفيض بالتناغمات الذهبية»، الشمس الإيطالية، حيث النعومة والاسترخاء والبساطة التي أشار إليها لوثر وهو يصف التراخي الروماني، أما فريدريش أوفربيك المولع بجيوتو وبيلليني ورافائيل، فهو نجم قوي ونقي وفيه شيء ما من الآلهة وسيقوده هيليوس (إله الشمس الإغريقي) إلى مصيره.

الفصل الثالث

الطريق طويل إلى برلين. وافق فريدريش على الاستفادة من عرض الحوذي بركوب العربة بالقرب منه، على المقعد الخارجي، ولكن عندما دعته سيدة بإيماءة من رأسها إلى اتخاذ مكانه داخل العربة، رفض بحركة مهذبة وابتعد مسرعاً على طول الجسر. إنه بحاجة إلى البقاء بمفرده والتفكير، ولا يرغب بإضاعة ساعات ثمينة من رحلته في ثرثرة لا طائل منها. يكفيه أن يخوض محادثات قصيرة مع الحوذيين الذين يدخنون الغلايين ويغالبون النعاس وسط سحابة من الدخان.

يفضل الشاب أيضاً، وخصوصًا في ساعات الصباح، عندما تندفع قوة دمه الفتي في عضلاته المسترخية، أن يقطع الطريق سيرًا على الأقدام.. يالها من سعادة، خاصة بعد أن استبدل معطفه الطويل بسترة من النسيج الصوفي في متجر للملابس المستعملة في براندبورغ، لقد وجد في الإيقاع المنتظم لخطواته وسيلة ضرورية لتسلسل أفكاره. كانت مياه جداول نيسان تهمس تحت الطحالب على جانبي الطريق، وتفتحت البتلات الصفراء لأزهار النرجس البري في ضوء الربيع، وحلقت القبرات نحو السماء الزرقاء الصافية بعد هطول المطر، نادراً ما كان يتوقف لاقتطاف زهرة أو التطلع إلى السماء. أراد كشف الأسباب التي دفعت به خارج لوبيك لثلاثة أشهر قبل أن يعمل في تجارة والده، ولكن أيضاً، - ما لم يستطع كتابته في رسالته هو عدم فهمه هو ذاته لماذا كان اقتراب الحدث المنتظر والمرغوب فيه بشدة قد أسهم في إبعاده قبل ثلاثة أشهر من ارتباطه بالزواج من حب طفولته إليزا.

كان من المقرر أن يتم الزفاف بعد وقت قليل من استقراره في مكاتب

المخازن المشتركة لوالده. من سيتمكن من إخباره أي من هذين الموعدين قد أدى إلى هربه؟

إذا لم يكن هنالك كلمة يقولها لوالديه ولو لثانية واحدة، فهذا لأنه لم يكن يريد أن يبدو كأنه ينتقد حياتهما الخاصة، أو يشكك في صدق العاطفة التي جمعتهما منذ ذلك الحين، أي منذ ما يقرب من ربع قرن. (كان فريدريش قد ولد بعد أربع سنوات من الزواج: كان قد سبقه أخ أكبر توفي في سن الطفولة، وقد علم فريدريش بذلك مصادفة من فلتة لسان إحدى الخادمات، وفي الوقت ذاته اكتشف مدى رقة قلب والديه اللذين قررا ألا يثقلا عليه بذكرى فريدريش الأول هذا).

ربع قرن من العاطفة والتفاني المتبادل بلا نفاق أو رياء. وعلى الأغلب، يمكن للمرء أن يشك في أن الطاقة التي كانت تبذلها والدته في الدعك والتنظيف والتلميع هي من بقايا فتاة شابة كان قلبها الفارغ يتوقد بنار التضحية. لقد تزوجت الشاب أوفربيك إن لم يكن عن طريق الاستخارة وفقًا لعادات الأخوة المورافيين الذين كانوا يوكلون ارتباطاتهم إلى مصادفات القدر، على الأقل في السن التي تسمو فيها المشاعر والمعرفة وحيث يحتل الصبي الأول الذي تصادفه الفتاة المكان الذي اختاره لها الرب.. لا شيء من هذا القبيل في ما يتعلق بعلاقته بإليزا.. كانت حديقتا منزليهما متجاورتين، وكانا يلعبان معًا منذ أن تعلما المشي، كانت تحبه من دون أن تجعله مثاليًا، وعندما ستتزوج، فلن يكون هناك مجال للخشية عليها، فلن تتضاءل بتلات شبابها المعطرة إلى كؤوس عديمة الرائحة. كان فريدريش مخطئاً في التوقف عند عواقب الارتباط الزوجي والتساؤل ما إذا كان ينبغي لأي ثنائي أن يعيشا حبًا نقياً؟!

وهكذا كان الحال مع والديه، لم يكن بينهما خيانة أو شجار، كانت أسرتهما مثالية، وكان كل منهما مشغولًا من جانبه بقوة، هي بالمنزل والعبادة وأعمال الكنيسة وحفلات الاستقبال والزيارات، وهو كان مشغولًا بأعباء ومسؤوليات متنوعة، لكن الحب الذي كانا يحملانه بعضهما لبعض ظل حيًا على الرغم من الهموم والسنوات. لم يكن من غير المألوف أن يشاهدهما في أيام الآحاد وهما يروحان ويجيئان على الرصيف المحاذي لنهر تراف وقد

تشابكت أيديهما.. من يعرف إذا كان رئيس البلدية يرضى أن تناديه باسمه (كريستيان)؟ على الرغم من هذه الفرصة السانحة للبوح بالأسرار، ربما لن يمكنه مصارحة والديه بحرية ومعانقتهما وهو يهتف بحماس من أعماق قلبه: «كم هو جميل، أليس كذلك؟ ما أجمل أن يجعلنا الحب نشعر بالمبدأ السامي لوجودنا، بعيدًا عن النشاط العبثي وإثارة الحياة المشتركة، ويقودنا إلى منطقة عليا حيث يسود العدم».. كان هذا الاندفاع مستحيلًا بالنسبة لفريدريش، إذ كان والده سينظر إليه بنفس الدهشة المروعة فيما لو تجرأ على الاعتراف له بأفكاره عن الفن، أما والدته فسيربكها تذكيره لها بطموح قديم للغاية كانت قد تغلبت عليه بواقعيتها الحكيمة للسعادة المنزلية، وهي تفتت الخبز البائت الذي ألقته الخادمات للأوز.

إنهما يحبان بعضهما بعضًا، نعم، ويقدران هذا الحب باحترام كبير، بشرط ألا يتجاوز دوره، مثل الرياح التي تحمل حبوب اللقاح وتنثرها في المطر الذهبي على الأشجار المجاورة، يسمح الحب لشابين أن يتعرفا بعضهما على بعض وسط حشد من الوجوه المجهولة في موسم معين.. ولكن، مثلما يجب ألا يهب النسيم الخفيف الذي تحتاجه الأزهار لتخصيبها في عاصفة فيدمر عملية التلقيح، يجب ألا يعتقد الحب أنه يسمح بوضع القوانين في القلوب. إنه تدبير نابع من الله وحكمة مثل تلك التي تسود عالم النبات، وهكذا فإن الحب ينتزع من كلا الزوجين أنانية المراهقة ليهيئهما لتحمل واجباتهما الاجتماعية.

عندما كان ابنه يدرس الكلاسيكيات في المدرسة الثانوية، كان والد فريدريش يتمسك بالنهايات المأساوية للأساطير الكبرى حيث يؤدي الحب القدري إلى وفاة العاشقين. كان يعتبرها مثل تحذيرات من عمى المشاعر الذي يصيب الشباب، لدرجة أنه رفض النهاية السعيدة التي تنتهي بها أوبرا (لافيستال) التي استمعوا لها في هامبورغ.

«أريد الحب، غادرت بحثًا عن الحب» فكر فريدريش بلا أي عناء تجاه والده، لأنه لاحظ أن «الحب الكبير» والعاطفة المطلقة العنان التي يدينها والده ليسا حقيقيين أبدًا، وأن العاصفة أو النسيم الخفيف وكل تلك الاستعارات لم تكن تثير اهتمامه. إذا شعر بالحاجة إلى أن يصنع مكانًا أكيدًا

للحب، وأن يكرس له روحه كليًا فهو يدرك جيداً أن تلك هي أمنية شائعة لدى شباب جيله، الذين اكتشفوا في الموسيقى، في جوهرها، مقدار الفرح الذي سيملأ حياتهم..

إنه لا يريد حبًا عنيفًا بل يريد حبًا نقياً.. (الحب)، هذه المفردة التي أصبح استخدامها مبتذلًا لابد أن تكون نقية بلا شوائب. ولكن، وبينما هو يلفظ هذه الكلمات عقليًا، لم يمنع نفسه من أن يصبح مضطربًا، وشاحبًا، لأنه، ومهما كان متعلقًا بإليزا، فقد بدأ يدرك السبب الذي دفعه إلى مغادرة لوبيك.

هل كان ينتقد مؤسسة الـزواج مثل الكتاب الرومانسيين وأولهم واكنرودر؟ قد يكون التملك بالنسبة له مهينًا وأن عليه أن يعبد الحبيب من بعيد مثل ملكة متوجة على عرشها، إنها قناعة كل الشعراء الذين يحبهم، لكنها أيضاً النقطة الوحيدة التي تمنعه من اتباعهم بسبب طبعه القلق وحاجته إلى الثقة بنفسه، هنالك سبب آخر أبعده عن لوبيك إذن. آه، كم كان يصعب عليه تفسير سلوكه بوضوح، ولكن طالما لديه القدرة على التحليل الداخلي فعليه أن يقرر كتابة يومياته!

بأي تناقض غريب، يمكن للشاب الذي يحب خطيبته أن يهرب منها ومن العاطفة التي جمعت بينهما منذ الطفولة بينما كان يمكن أن تقودهما إلى مذبح كنيسة ماريانكريش؟

جلس على حافة الطريق ونظر مرة أخرى إلى صورة إليزا.. كان كل شيء يعجبه فيها، الوجه البيضوي الحالم والملامح المرسومة جيداً، كتلة الخصلات الشقراء الثقيلة، الشخصية الحيوية المفعمة بالطاقة، الجدية المليئة بالرقة التي يصاحبها تذوق عال جداً للموسيقى، والصوت الجميل الذي كان يسمعه غالبًا في الكنيسة الكاثوليكية –وهي الكنيسة الوحيدة التي كان يُسمح فيها بغناء النساء– وحيث كان سيمكنها أن تؤدي العزف المنفرد لولا الحياء الذي كان يبقيها ضمن الجوقة. لم تكن تخشى العوم في الماء البارد، أو التجديف كالصبيان في نهر تراف.

تنهد قائلاً: «إليزا» متأسفًا لأن طبيعة الزواج تمنع الأزواج من التأكد من أنهم يحبون بعضهم بعضًا. هاهو إذن السبب الحقيقي لهربه يتوهج مثل قبس

من نور.. بهذه الجملة الأخيرة التي طرأت في ذهنه مصادفة، صاغ الفكرة التي عذبته منذ رحيله، هل كان متفاجئًا جداً لأنه واجه صعوبة في رؤية ذاته بوضوح؟ بأية قصيدة، رواية، مسرحية، أو كتاب فلسفي قام بدراسته في المدرسة الثانوية أو قرأه مع رفاقه كان سيجد مثالًا لحفل زفاف تم تأجيله لهذا السبب؟ أين سيمكنه التحدث عن الحب النقي؟ وهل لمثل هذا المشروع سابقة في كل تاريخ الإنسانية؟ من المحتمل أن يكون فرانز هو الوحيد الذي ربما سيمكنه مساعدته على فهم نفسه أكثر، إذا لم تمر ثمانية أشهر منذ لقائهما الأخير، الفترة التي لم يتبادلا خلالها إلا رسائل قليلة، من مدينة إلى أخرى في أوروبا المدمرة بفعل الحروب.

كم استغرق من الوقت، ليعرض على صديقه أفكاره عن الحب ويبرر له سبب تأجيل زواجهما! سيقول له:

- كانت منازلنا متجاورة، وحدائقنا متلاصقة يفصل بينها جدار من الطوب في مينجستراس. وكان الزواج بين ابنة بولك وابن أوفربيك سيقود حتماً إلى ضم المنزلين في مبنى واحد يجمع ما بين المنزل ذي السلالم المتدرجة والآخر ذي الأجراس. من يضمن لي أن سعادة امتلاك منزل مزدوج في الشارع الأجمل في لوبيك كانت ستجتذبني مثل طعم إضافي؟

وكان سيجيبه:

- أنت مجنون! لا يوجد شخص آخر أكثر نزاهة وترفعًا منك، فريدريش! أنا أمنعك أن تتحدث بهذه الطريقة! والدليل، هو أنك تعرف إليزا منذ الطفولة وقد كبرتما معًا وتأرخت عاطفتكما في الفترة التي كنت تجهل فيها ثمن المنازل وقيمة المال.

لكن التلميح الوحيد الذي كان يمكنه التكهن به من الزواج، بضم المنزلين عن طريق هدم الجدار الذي يفصل بينهما ليصبحا بستانًا حقيقياً كان يسمم قلب فريدريش. كانت هنالك حجج أخرى تتسارع في ذهنه، الأطفال مثلًا، فكيف يكون متاكدًا من أن الرغبة في استمرار النسل عبر الأبوة لن تمتزج بالحب، بحيث إن الزهو بالتناسل لن يحل محل حب الزوج؟ ابن رئيس البلدية أوفربيك سيوطد مكانته في مجتمع لوبيك مع ابنة

السيناتور بولك، فمن أين يمكنه أن يوقن أن قرار الزواج لم يكن مدفوعًا بطموح سياسي؟

كان فرانز يضحك من كل قلبه وهو يسمع مثل هذه الوساوس: لم تكن السلطة ولا المال يستهويان صديقه. مع ذلك، فإنه يجهل ظرفًا آخر بعد أن أُتيحت له الفرصة أن يكبر في فرانكفورت، في عاصمة حيث يكون السكان بالقرب من الحدود، على اتصال بعادات مختلفة أكثر تسامحًا وتنوعًا، فلم يتعرض فرانز لنفس الضغط الذي يتعرض له معاصره المولود في لوبيك وهي مدينة صغيرة في الضواحي مقسمة إلى فئتين فقط من السكان. أولئك الذين يقيمون هناك بشكل دائم من البرجوازيين والحرفيين والتجار، وأولئك الذين يذهبون ويعودون كما في كل موانئ البحر.. البحارة، المغامرون، التجار الاستعماريون والباعة المتجولون واللاجئون من جميع الأنواع، والأشخاص الذين عادة ما يكونون غير مرتبطين ومشردين، والذين بالكاد يتم التسامح معهم ولا يتمتعون بأي تقدير، وإذا فكرنا في ما يميزهم عن بقية السكان، سنكتشف أن حالة العزوبة هي السبب الأول لعزلهم. فإذا لم يكن سليل العائلة الطيبة متزوجًا في سن الحادية والعشرين فإن ذلك يضعه تحت طائلة الشك كأن يعمل على إخفاء عاهة ولادية أو واحدًا من تلك الأمراض المخجلة التي تنتشر غالبًا في الموانئ. وهكذا فإن شخصًا بالغًا ويتمتع بصحة جيدة لكنه وحيد سينتهي به المطاف منبوذًا من المجتمع.

وهناك فكرة أخرى تجبر فريدريش على التساؤل حول مكان العاطفة والرغبة وحيوية الحب كما هو الحال في جميع الزيجات. وبزواجه من إليزا، فهو لن يرتبط فقط بالمرأة التي يحبها بل سيدخل ضمن نظام اجتماعي، وسيتمتع بمزايا عائلية، وسيكون له نصيبه في سلسلة من المصالح المالية التي ستستمر في دعم زواجهما حتى لو أنسحب الحب منه..

هذا يا فرانز ما يجب أن تفهمه بدلاً من الشكوى لأنك تعلم أنني غير قادر على مثل هذه الحسابات.. الحب، الحب النقي، ألم تكن أنت من تحدثت معي عنه أولاً؟ نعم، صحيحٌ أنني لم آخذ في اعتباري أيًا من هذه المزايا المتنوعة التي أحصيتها للتو، ولكن، على الرغم مني فهي موجودة وتشكل جزءًا من الزواج! وحتى لو توقفت يومًا عن حب إليزا، فسيكون

لديهم وحدهم القوة لابقائنا معًا! الأطفال، والدا الزوجين، الإرث، الائتمان والسمعة بين الجيران، والغرور الاجتماعي والأمان العاطفي، فهل يحتاج ذلك إلى موافقتي الشخصية وعاطفتي لإطالة أمد زواج قائم على أسس كهذه سواء رغبت به أم لا؟ لنتخيل أيضاً أني لم أكن قد ولدت في عائلة ميسورة ولا محترمة مثل عائلة أوفربيك، فلربما لن تكون الفوائد المباشرة من الزواج أكيدة جداً.. فإذا ارتبط زوجان فقيران فسيقومان بتقاسم الحجرة ووجبات الطعام والنفقات المنزلية وسيدفعان ضريبة عن الشمعدانات والنوافذ، وسيواسيان أنفسهما لسوء الفهم من الأبناء.. أين الحب من كل هذا؟ هل سيظل ضروريًا؟ هناك الكثير من المصالح التي تدعم الزواج ليستمر ليكون الزوج على يقين، حتى لو أحب زوجته، من البقاء معها بدافع الحب. فالكثير من الارتباطات، حيث لا يكون الحب موجوداً أبداً أو حيث يختفي تماماً، يمكنها أن تقاوم بقوة عبر مثل هذه الدعائم.

ولكن، حتى إذا أحب الرجل زوجته.. فريدريش مثلًا يحب إليزا، لكن الارتباط بها ومشاركة المنزل والعائلة والمهنة معها سيقودانه لا محالة إلى الشك في حبهما. لماذا نعيش معًا تحت سقف واحد؟ لأننا لن نستطيع العيش بعضنا من دون بعض؟ أو لأن مثل هذا الترتيب يناسبنا؟ سيعذبه هذا السؤال بلا هوادة. الحب النقي هو الذي يعتمد فقط على قوة الحالة الداخلية، إذ يبقى جوهره هشًا لأنه يعتمد فقط على حرارة الرغبة المتبادلة ولايستمر إلا باستمرار الرغبة المشتركة في العيش معًا. يجب أن يكون الانفصال ممكناً في أي وقت: أنا هنا، أنا معك، لأني أرغب بذلك وليس لأنني عاجز عن المغادرة.

نحن أحرار، بالمغادرة، بالبقاء: في هذه الحالة فقط يمكننا أن نكون واثقين من أننا نحب بعضنا بعضًا. ماذا لو قمنا بتجديد عهودنا كل يوم وأرجو ألا أكون قادرًا على أن أقول لنفسي: إنها ملكي، وأتمنى أن تكون حياتنا، سعادتنا، نجاحنا الإنساني موقوفة على اللحظة الراهنة بلا ضمانات بالنسبة للمستقبل.

ارتعش فريدريش عند هذه الكلمات التي قالها بصوت خفيض والتي كانت تتعارض، ليس فقط مع التقليد اللوبيكي بالتفكير العقلاني والفطرة

السليمة والعناد اللذين يشتهر بهما آباؤهم باعتدال مثالي، بلا ضيق في الأفق ولا تفاهة مفرطة ولكن مع إرادة الرب نفسه.

إذا كان الزواج هو السر المقدس الذي يقرر مصيرهم في لحظة وينظم عواطفهم مرة واحدة وإلى الأبد، أليس هذا لتحرير الزوجين من التساؤل عما إذا كانا لا يزالان يحبان بعضهما بعضًا؟ إنه تدبير مدروس وبعيد النظر لا ينبغي تجاهله باستخفاف، حتى لو كان ذلك من أجل الأطفال المراد تربيتهم. ربما تكون إليزا على استعداد لمجاراته في أفكاره التي تختلف تماماً عن أفكار الجيل السابق، ربما سينجح في إقناعها، على الرغم من العوامل الوراثية البرجوازية الواضحة، بالتخلي عن الدور الاجتماعي للزواج، ولكن كيف سيمكنه أن يلومها على الحفاظ على قدميها على الأرض عندما يصلان إلى موضوع الأطفال؟

إن لغز الولادة، والعبور من العدم إلى الوجود، ومن الخلود إلى الزمن، لن يثيرا حماس الشعراء الرومانسيين. «ها أنت تنسى الطفل مرة أخرى!»

كانت إليزا تقول له ذلك أمام لوحة رافائيل. وهو الآن يفهم معنى هذا التحذير الخفي. سترافقه زوجته بقدر ما يشاء على الطريق المؤدي إلى أراض مجهولة، وربما ستتقدمه أحياناً، إذا أراد أن يتذكر كيف، في نزهاتهما الطفولية وألعابهما على شاطئ البحر، كان دائماً هو الذي يراقب الوقت ويكسر سحر المساء بإعطاء إشارة العودة، بشرط أن يتركها تسخر للأطفال الذين سيولدون من ارتباطهما كل الاهتمام الذي ستعتبره ضروريًا.

ولكن، بعد ذلك، وهذه الفكرة أجبرته على النهوض بقفزة ومتابعة طريقه ليخفف الألم الذي أصاب عضلاته للتو، هل يمكن لرجل وامرأة العيش معًا بالحب النقي؟ أليس الحب النقي مجرد وهم؟ وهل في العالم متسع لكائنين مرتبطين فقط برغبتهما الوحيدة في أن يكونا معًا؟

نظر للمرة الأخيرة إلى صورة إليزا قبل أن يدسها في الجيب الخارجي لحقيبته لأن سترته الصوفية كانت خالية من الجيوب. للحظة، نظر إلى وجه خطيبته، الوجه الذي سيصبح وجه زوجته بحتمية قدرية يمكن أن يلقي فيها باللوم على العادات الاجتماعية وعلى خطة الخلق ونظام الكون اللذين يصعب على كل رجل وامرأة التحرر منهما..

الفصل الرابع

وكي لا يستنفد في برلين ما بحوزته من مال، ذهب فريدريش إلى أكاديمية الفنون الجميلة. كان الفنانون المهاجرون يعرضون فيها أعمالهم، حسب تقاليد جميع المدن الألمانية. قام بعرض لوحاته التي قلد فيها رسومات رافائيل وغيوتو ودوناتيللو. فأثارت دهشة أساتذة الأكاديمية والطلبة والفضوليين البسطاء ومبعوثي الملكة لويز الباحثين عن صفقة لشراء مجموعة لوحات للملك فريدريك غويوم في قصر شالوتينبرغ..

صور القديسات، وهذه المشاهد من الإنجيل والأطفال العازفين لم تكن تنتمي إلى أي من التيارين اللذين كانا يختلفان في الرأي. كان يبدو أن هذا الشاب لم يسمع من قبل كلمات يواكيم وينكلمان[23] ولا الكنوز التي تم اكتشافها تحت رماد بومباي وهيركولانيوم. هل كان يعرف فقط بضع جمل كان قد كتبها غوته لدى عودته إلى فايمار؟ لقد ألمحت لوحاته إلى أهمية الكتاب الذي سيروي فيه رحلته إلى إيطاليا. «ليس في العالم سوى روما واحدة، وأي شخص يرغب في الرسم أو النحت خارج المبادئ المحددة على ضفاف نهر التيبر سيعلن أنه ليس فنانًا حقيقياً»، لا يوجد شيء روماني في رسومات فريدريش ولا شيء يوناني ولاحتى عمود يذكرنا بأن العصور القديمة كانت قد قدمت لنا قواعد الفن العظيم. هل كان يجهل أن النبل في المواضيع، وكذلك الجمال في الأسلوب لا يمكن الحصول عليهما إلا من خلال تقليد النماذج القديمة؟

23- يواكيم وينكلمان: يوهان يواكيم وينكلمان (1717-1768) مؤرخ فني وعالم آثار ألماني. كان من الرواد الهيلينيين الذين أوضحوا لأول مرة الاختلافات بين الفن اليوناني والروماني.

فريدريش، الذي كان جالسًا أمام مسند اللوحة، ترك نقاده يتحدثون. إذا كان من الممكن الانتقاص من عمله بذريعة المذهب الرسمي الذي يتم تدريسه في الأكاديمية فلن يعمل ذلك على زعزعة مثل هذه الشخصية القوية. كان سيسعده استنساخ الصور المرسومة بملامح واضحة ونقية للغاية على جوانب المزهريات اليونانية. كان القصر الملكي في شارلوتنبيرغ يحتوي على مجموعة صغيرة من القارورات وجرار الزيت التي تم شراؤها من صقلية، فضلًا عن لوحة فوهة بركان بوليسيس والظل الراقص لأورفيوس.

عند التنزه في شوارع برلين، يمكن للمرء أن يتأمل صفوف الأعمدة، والأقواس التي تعلوها التماثيل والواجهات ذات السطوح المتناغمة على غرار القصور الفيزوفية المدفونة تحت الثوران البركاني. كان الجنون قد استولى على بروسيا وألمانيا وأوروبا بأكملها. كان ذوقه الفطري لوضوح الخطوط وليونة التقاطيع قد قاد فريدريش نحو المواضيع القديمة، ولكن كيف يمكن أن يرسم أندروماك، هوراس، بروتوس، كورنيليا، والدة غراتشي، كاتو المحتضر، بعد لويس ديفيد، سوفيه، غيران وكل المفضلين لدى نابليون، من الذين كانوا يمنحونه خصوصية؟ كان هذا دافعًا أقوى ربما كان سيحول اهتمام الشاب بعيدًا عنهم.

كانت العصور الوسطى وعصر النهضة تبدو بالنسبة له أكثر ثراء من القرون الوثنية. كان كل شيء باردًا جداً، وعقلانيًا جداً، في أيام الساحات والمعابد! عندما كان فتى صغيرًا، كان قد اكتشف تحت الرؤوس المدببة لكنيسة ماريانكريش، ووسط هذه الغابة من الأعمدة التي تتوهج في ظل القباب العالية والزهور والنجوم الحجرية، الغموض والسحر اللذين كانت روحه تتوق إليهما، لكنه كان يستخدم أقلام الرصاص في اقتفاء أثر صور الشخصيات رغمًا عنه. لم يكن يقلقه هذا التناقض كثيراً طالما وجد في صورة السيدة العذراء لرافائيل النموذج الذي تمتزج فيه الأناقة بغموض العاطفة. لم يكن هذا النموذج أقل حدة تجاه فريدريش من المتعصبين في الأكاديمية الذين ظهروا أمامه كمعارضين للعصور القديمة، هؤلاء الذين كانت وطنيتهم تدين أنماطًا ظهرت قبل الثورة

الفرنسية، لكنها توافقت في الوقت الحاضر مع ذوق الطاغية سواء رغبوا أم لا.

أما الفئة الثانية من المنتقصين فكانت تضم الطلبة والشباب، هؤلاء الذين كان استحسانهم سيكون ثمينًا بالنسبة له. لقد عانى لرؤيتهم عدائيين للغاية، ليس من دون أن يتأثر بحججهم، فإذا كان يرفض الكلاسيكية الجديدة التي اتسمت ببروز ملامح الأسلوب الإمبراطوري بما في ذلك الأثاث والملابس، وإذا كان ينوي عدم الاستعارة من أثينا ولا من روما، فلماذا لم يظهر نفسه على أنه ألماني أكثر؟ كنائس ريفية، كاتدرائيات ذات قمم مزخرفة، أديرة منفردة، قلاع محصنة تنتصب وسط الضباب، مقابر مهجورة، وشواطئ كئيبة، هذا ما كان المرء يود أن يراه في رسوم فنان شاب متعطش لاستكشاف الإرث الوطني. أية مهمة أكثر نبلًا يمكن أن يقوم بها أكثر من تمجيد الروح الألمانية في رسومه المبهرة؟

بعد يومين، لم يكن فريدريش قد باع شيئاً، بل أبعدت لوحاته البرجوازيين، الذين لم تقف كروشهم المتكورة ولا أوداجهم القرمزية من البيرة حائلًا بينهم وبين معتقداتهم اللوثرية.. لقد أعلنوا أنهم مصدومون من تناقض الورع الذي تعكسه صور العذراء في لوحات فريدريش مع بلد الإصلاح الذي يعيشون فيه! وعندما أراد طالب شراء لوحة (تفتح العذارى) لغيوتو، لأنه كان يعتقد أن كل ما ينبثق من العصور الوسطى كان يصب في البوتقة القوطية التي يمكن أن تولد منها ألمانيا من جديد، بحث في جيوبه فلم يجد قطعة نقدية واحدة..

كانت الحياة في برلين واللقاءات التي أجراها فيها ممتعة بالنسبة لفريدريش لكنها لم تنل رضاه. كانت بروسيا، كما كتب لوالده، الدولة الألمانية الوحيدة التي لم يتم احتلالها، لكن التأثير الفرنسي كان طاغيًا عليها أكثر من أي مكان آخر. كانت قد احتفظت بأحد القصور الملكية الذي ترك فيه فولتير آثاره بعد إقامته فيه بدعوة من الملك فريدريك الثاني.

في الأكاديمية، كما في الفندق، كان فريدريش ينزعج من النبرة الجافة والساخرة التي يقابله بها زملاؤه. ذات مساء، تحدثوا عن الكتاب الذي كانت

تكتبه مدام ستايل[24] عن مجد الكتّاب الألمان. كانت ذكرى رحلتها إلى برلين منذ سنوات حية في ذاكرتها، وكانت قد حكمت على الأدب الفرنسي بكلمة أكسبتها تعاطف قراء الكاتبين الفيلسوفين ليسينغ وغوته، قالت: «الذوق الجيد في الأدب مثل النظام في ظل الاستبداد، من المهم أن تعرف بأي سعر يمكن شراؤه» إشارة منها إلى الكاتب أوجست فيلهلم شليغل[25] الذي احتكره الإمبراطور بتوطينه في سويسرا مقابل 12 ألف فرنك سنويًا. كان فريدريش يستمع إلى تلك الأحاديث بفضول كبير. كان يشعر بأن الفنان الذي يريد أن يُحسب له حساب لا يمكن أن يبقى ريفيًا. لقد أدهشه ما سمعه عن الشقيقين شليغل المفكرين المشهورين بالرومانسية، وكان قد قرأ رواية (لوسيند) الصادرة حديثًا لفريدريش، الشقيق الأصغر لأوغست فيلهلم، كان سيعيرها لوالده لولا الخشية من عبارة وردت فيها وقد تسيء للرجل بغيرحق: «الاندفاع والمنفعة، هما ملاكا الموت اللذان يحملان سيوفًا من النار ويمنعان المرء من العودة إلى الجنة».

كان فريدريش شليغل يصنف الحب إلى ثلاث فئات، وكانت الدرجة الثالثة هي الأسمى لأنها تعني الشعور الذي نخفيه ونتحدث عنه بغموض والذي يمكن للشاب الذي يحمله أن يحب ليس كرجل فقط بل كامرأة، فهل كانت مدام دي ستايل قد ناقشت ذلك في كتابها؟ تلك الروائية السويسرية المعادية لنابليون، لكنها مع ذلك، كانت فرنسية بروحها، وفساتينها وقبعاتها، وكانت مفتونة باثنين من القوميين الألمان لدرجة إقناع أحدهما بالانضمام إليها، وكانت تنشر الكلام الطيب في أرض ملحدة.

24- مدام ستايل: آن لويز جيرمين دي ستايل هولشتاين، ولدت في 1766 – وتُوفيت في 1817، اشتهرت باسم مدام دي ستايل. كانت سيدة أدبٍ ومنظرة سياسية. وكانت صوت الاعتدال في الثورة الفرنسية والعصر النابليوني حتى استعادة فرنسا. وكانت قد اكتشفت قبل غيرها الطابع الاستبدادي لنابليون ومخططاته فنفاها نابليون من فرنسا.

25- أوجست فيلهلم شليغل: كاتب وشاعر وناقد ومترجم ألماني. ولد عام 1767، ومات عام 1845. عمل منذ عام 1818 أستاذاً لتاريخ الفنون والأدب في جامعة بون.. وقدم بالتعاون مع أخيه فريدريش شليغل الأساس النظري الذي اعتمد عليه الرومانسيون الأوائل.

كان فريدريش راهبًا شغوفًا بالفن لكنه لم يجد في رفاقه نفس الحماسة التي تتوقد في داخله، كانت السياسة فقط هي التي تثير حماسهم، كانوا يعودون من محاضرات الفلسفة في الجامعة ورؤوسهم ملتهبة بمستقبل الأمة الألمانية، وكان فريدريش يعتقد بحزن أنه من بين مائة شاب قادرين على منح أنفسهم لقضية ما، فإن تسعة وتسعين شابًا يلقون بأنفسهم في السياسة، مقابل شخص واحد فقط يرى أن تجديد المجتمع يخضع لتجديد الأدب والفن.

في قصر شارلوتنبيرغ، في وسط الريف، في الأجنحة التي أقام فيها فريديك الثاني، وحيث كانت الملكة لويز المعروفة بلطفها تسمح للزوار بالدخول مجانًا، رأى فريدريش لوحتين للرسام أنطوان واتو[26] كان الملك قد اشتراهما في باريس. كانوا قد وصلوا في نفس العام الذي وصل فيه فولتير وشاهدوا بعيون الخبراء أروع نماذج من الرسم في برلين.

أثار هذا الفن الدنيوي المصنوع من الجمال والعفوية استياء نجل رئيس بلدية لوبيك، إذ أشارت لافتة معلقة في المكان إلى ما كان عليه المعرض والزبائن. قال لنفسه: «من الأفضل لي أن أترك فرشاة الرسم والألوان بدلاً من تقليد هذه الرسوم».

أمرت امرأة أنيقة ترتدي فستانًا من الحرير الوردي رجلين منشغلين برزم صندوق بترتيب القش بعناية فائقة لتغليف اللوحة التي ابتاعتها.على مكتب المتجر، كانت تجلس امرأة بلهاء وهي تبتسم بتكلف أمام المرآة، بينما ركع ماركيز بملابس مغبرة على ركبتيه أمام مشهد أسطوري بارع وهو يفحص من خلال نظارته مجموعة من الحوريات الفاتنات.

هل كان ينبغي على الرسم أن يلبي رغبة الزبائن، لا أكثر ولا أقل من تجارة براميل النبيذ لوالده؟ أليس هناك من أخلاق أو طموح لدى رسام قادر على أن يحط من قدر نفسه! تمنى فريدريش لو تمكن من إطلاق الكلب

26– أنطوان واتو: رسّام فرنسي ولد سنة 1684 وتوفي سنة 1721 م، استوحى فنه من أعمال روبنس والمدرسة الفينيسية (نسبة إلى مدينة البندقية)، وعايش فترة الرخاء التي عرفها المجتمع الفرنسي فصور مشاهد الحفلات الراقية، وهو النوع الذي استحدثه واختص به عن غيره.

الذي كان ينام في زاوية اللوحة لكي يمزق قطعة من الحرير الوردي لفستان الزبونة الثرية اللحوحة؟

في وقت مبكر جداً، ومن خلال مرافقة والده على أرصفة الميناء حيث كانا يصادفان الحمالين والعتالين وعمال الشحن والتفريغ، اكتسب فريدريش احترامه العميق لعالم العمل. كان رئيس البلدية المؤمن بما ورد في التوراة عن شرف العمل الشاق، قد أرغمه ذات يوم على إفساح المجال أمام مكتبه لعامل مسؤول عن مطعم بحري.

أثارت لوحة (الإبحار إلى جزيرة كيثيرا) سخطه بشكل كبير. كانت تافهة من حيث الجوهر، لطيفة بشكل مصطنع من الخارج، كانت هذه اللوحة إهانة للحب الذي كان البحث عنه يشغل كل تفكير الشاب تقريباً. أي قلب ينبض في صدور هؤلاء السيدات والسادة وهم يمزجون الإثارة العابرة لحواسهم بالشعور الأسمى والأكثر كمالًا؟ لقد تواجدوا في جزيرة إفروديت كما لو كانوا يحضرون حفلة ريفية.

كانت بوابة براندبورغ هي الأكثر ازدحامًا في برلين، وكان المشاة يتوافدون من جادة إنتردين ليندن ويطوفون المكان قبل الهبوط نحو المدينة.. أعاق حشد من المتفرجين والبائعين المتجولين والجنود القادمين في إجازة والأطفال المرور بين الأعمدة الضخمة، ولم يبتعدوا إلا لإفساح الطريق لعربة الملكة لويز. لقد فهم فريدريش بشكل أفضل حماس رفاقه في برلين وهو ينظر من باب العربة إلى الملكة الجميلة الكئيبة.. كانت أيامها معدودة -كما كان يقال- بسبب مرض في الصدر، وكانت تذهب إلى أحد قصورها الريفية لتحظى بهواء أنقى. كان الحشد يصفق لتلك التي حاولت أن تثني نابليون للحصول على ظروف أقل قسوة في معاهدة تيلسيت. وتحت الأشجار التي كانت تحيط بالمكان، كان الرسامون يحملون مساند لوحاتهم ويستلهمون من ممرات البلوط في تيرجارتن ذكرى غابة أسلافهم، الغابة البدائية في ألمانيا القديمة.

توقف رجل بلباس حكومي، محاطًا بزوجته وولديه الشابين أمام قوس النصر. كان السخط قد جعل سلسلته الذهبية ترتعش على بطنه المضغوطة

في صديرية ذات مربعات، بينما ترتجف في أعلى رأسه خصلة شعر أصهب مستعار.. أومأ لعائلته الصغيرة بطرف عصاه التي كان يهزها بحركات حربية مشيرًا إلى قمة السطح حيث اختفت منذ ثلاث سنوات خيول العربات المتوجهة إلى باريس بعد الهزيمة في جينا.

كانت أعمدة دوريك العالية وقباب التتويج العتيقة المستنسخة من معبد البارثيون تنتصب في السماء الفسيحة مثل أصابع اتهام ضد الطاغية. واجتذب الخطاب الوطني بضعة جنود واثنين أو ثلاثة من الشباب الذين أومأوا برؤوسهم مؤيدين له وتبادلوا ملاحظات قاسية حول لامبالاة أغلب المارة.

كان هناك شخص آخر يقف جانبًا ويراقب المشهد من دون أن ينبس ببنت شفة، اقترب من فريدريش وخاطبه بلا تكلف:

– هل هذه هي المرة الأولى التي تأتي فيها إلى هنا؟

أجاب فريدريش بأدب وهو يرفع قبعته:

– نعم يا سيدي.

أرغم الغريب فريدريش على النظر إليه عندما لكزه بيده فلم يفاجئ ذلك الشاب المسافر إذ كان عمر الطالب وهيئته يدلان على أسلوبه غير المهذب في رفع الكلفة بينهما. فقال له ملاطفًا:

– أنا أشاركك غضبك بشكل كامل. لقد ظهر نابليون على حقيقته على الرغم من توسلات الملكة لويز.

رد الصبي الغريب قائلاً:

– في البداية، ارفع الكلفة معي إذا أردت أن تكون صديقي.

اعتقد فريدريش أنه سيمد له يده، لكن الصبي المختال شبك ذراعيه على صدره وقال:

– من هيئتك الريفية، ظننت أنك تعرف كيف تحافظ على نفسك نقياً. تلك التعبيرات المبتذلة عن الكياسة والحيل الفارغة أو النفاق الذي يتنكر تحته الفكر، ألا تثير اشمئزازك؟ أنا لا أستخدم الصيغ الرسمية في الحديث

ولا أرفع قبعتي بقصد التحية وأحاول إعادة الكلمات إلى معانيها الدقيقة فما هو هدفك في الحياة؟ لأية غاية تعتقد أننا قد أُلقي بنا في الأرض. أنت تتعامل بتهذيب مع الناس الذين لا يعنون لك شيئاً، بينما هذه الدقائق الثمينة مخصصة للبحث عن الحقيقة.. هل تريد الانضمام إلينا؟ هل تريد الانضمام إلى الجماعة؟

كان الشاب قد أمسك فريدريش من زر في سترته وظل يداعبه بخشونة بأصابعه المحمومة. كان يمتلك عينين سوداوين رائعتين وخصلة شعر متمردة كانت تتحرك بهياج مع كل قول من أقواله التي كانت تتناقض مع وجهه البيضوي الرقيق. لم يكن يفسد هذه السحنة الجميلة إلا تجويف واضح بين الشفة السفلى والذقن..

«لو كان لي أن أرسمه فسأرسم الوجه فقط» قال المسافر لنفسه وهو يشعر بالحيرة من هذا الحديث الغامض ويساوره القلق على زر سترته خصوصاً لأن والدته ليست موجودة لتعيد خياطته.

«الجماعة»، إلى أي طائفة كان ينتمي؟ كانت الجماعات تتكاثر بشكل متسارع في ألمانيا وسط الاضطراب السياسي للدول المتحالفة مع نابليون بما يشبه الاستقلال أو الخضوع التام، منها الجماعات العسكرية التي كانت تزود الرائد شيل بالأسلحة، وجماعة الوحي الديني مثل جيلسوميتنيس في بافاريا والمستشرقين وجماعة الإخوان المنحدرين من آسيا، ومقرها في فيينا، وجماعة أصدقاء الفضيلة وجماعة الولاء الماسوني من فيلادلفيا، وجماعة اليعاقبة المتحزبة للديمقراطية، وجماعة المعالجين الذين يمارسون الوعظ في المستشفيات.. كان هنالك عدد لا يحصى من الجمعيات السرية الصغيرة التي سمع الناس يتحدثون عنها كثيراً في لوبيك، حيث لم يسمح لهم الحزم الخاص بالمعتقدات اللوثرية والحس التجاري بتأسيس جماعات أو الانتماء إليها. كانت هذه هي المرة الأولى التي اضطر فيها إلى التعامل مع أحد هؤلاء الحالمين، وانزعج من لهجته الفظة وافتقاره التام للاحترام الإنساني ولامبالاته تجاه ردود فعل محاوره لولا بلاغة المتحدث الرائعة..

– منذ متى وصلت إلى برلين؟

استأنف من دون انتظار إجابة فريدريش. استمع إلى نصيحتي، إذا لم تكن تريد الوقوع في الخطأ الذي وقعت فيه لأول مرة مع صديقي فيليب، تجنب الإخوة مورافيا، حتى لو كان لديهم العديد من الأشياء التي يمكن تقديرها فهم لا يعرفون التميز بين الأغنياء والفقراء، وإلا، كيف أصبحوا إخوة إذن؟ ولا يوافق أيّ من عمالهم على صنع أي سلاح من أي نوع سواء كان سيفًا أو سهمًا أو درعًا. إنهم يسكنون القرى بشكل خاص ويفرون من المدن ليتجنبوا العدوى الجسدية وكذلك العدوى الأخلاقية.. إنهم يكرسون أنفسهم للزراعة حيث يتبادلون المحاصيل مستبعدين فكرة بيعها، أما الطريقة التي يعقدون بها زيجاتهم فهي تستحق الثناء لأنها تخلو من الفائدة حيث لا تقدم العوائل طلبات زواج بل تقرر (القرعة) فقط اختيار العروسين من الشباب من الجنسين الخاضعين للعبة اليانصيب -إذا جاز التعبير- بعد التأكد من رضاهم بعضهم عن بعض بشكل متبادل.. كما أن الجماعة، وليس الآباء من يمنح المهر للخطيبين. ويتم اختيار رجل عجوز لصلاحه وحكمته ليبارك اتحادهما. ألم تكن إزالة العقبات الاجتماعية والحيثيات المالية التي تفسد الزواج المسيحي بدعة رائعة؟

هتف الصبي من دون أن يلاحظ كم ضاعفت هذه الكلمات من اهتمام فريدريش. ثم استأنف قائلاً:

– مع ذلك، فإن كرم الإخوة مورافيا يعرضهم لضرر آخر، إذ عليهم حماية أنفسهم من تأثير هؤلاء الذين ينضمون إلى الجماعة لمجرد الاستمتاع بحرية الأخلاق أو الفوز بفرصة زواج. كنت على وشك الزواج بإحدى الفتيات الصغيرات التي وضعها الحظ وتسامح الجماعة تحت تصرفي، لولا أن وسواسًا محيرًا أوقفني وتساءلت: «من يدري، إن كنت قد جئت إلى هنا لتطهير قلبي بحياة الاعتدال والزهد؟» «أم أن الشيء الرئيسي الذي اجتذبني هو سهولة الاتصال مع الجنس الآخر؟ لقد قال لي فيليب الذي قادني إلى هذه المغامرة إنّه يشعر بالشيء ذاته، لذلك انفصلنا عنهم واخترنا الانضمام إلى (الكويكرز) الذين لا يرفعون قبعاتهم ولا يستخدمون الصيغ الرسمية في التخاطب مع الآخرين كما يعتبرون الزواج عرفًا ومعاشرة النساء معصية، ولا يقولون إلا ما يؤمنون به وليس لديهم أغنياء أو فقراء مطلقًا ولنفس

الأسباب، فلا يوجد صداقة حقيقية بين الأغنياء والفقراء، والغني الذي يقول للفقير: أنا أحبك، أنت صديقي، فمثل هذا الرجل كاذب بالضرورة، فإذا كان صديقه فعليه مشاركة ممتلكاته مع الفقير وسيكف عندها عن أن يكون غنيًا، فجماعة (كويكرز) يعادون التملك ويعيشون بعضهم مع بعض ويتقاسمون ممتلكاتهم ويطبقون المساواة المطلقة، وما يكسبه كل منهم من عمله في النهار لا يخصه وحده بل يمنحه إلى الجماعة ليلبي حاجات الجميع. إنهم يكتفون بما هو ضروري فقط لتلبية احتياجاتهم الأساسية في الحياة مؤمنين بأن السعادة تكمن في اعتدال الرغبات وليس في حجم الممتلكات. إنهم لا يكدسون الذهب أو الفضة ويجنبون أنفسهم كل نشاط تجاري ويعملون حتى الساعة الخامسة فيتطهرون قبل الصلاة ويتناولون وجباتهم حول طاولة مستديرة لتجنب مسألة الأسبقية، كما أن اللطف والوفاء والرزانة والجدية والأدب هي التي تتحكم في تصرفاتهم. إنهم يعرفون الفوائد الطبية للنباتات والصخور، لكنهم يحتقرون الفنون باعتبارها ترفًا لا طائل منه».

أضاف الشخص الغريب مشيرًا بذقنه إلى رب الأسرة وبقبضته إلى حفنة العاطلين عن العمل الذين تحلقوا حوله:

– دعهم يصرخون كما يحلو لهم من أجل الأمة الألمانية! هل تعتقد أنهم يهتمون بأسرار البرونز والقولبة والصب، أولئك الذين يصرخون ضد رحلة الكدريجة[27] مفتعلين ضجة كوميدية ليراهم جواسيس فريدريك غويوم.. لقد كنت أراقبك من بين الحشد، كنت الوحيد الذي تأثر بمغادرة الخيول بشكل واضح..

كان الصبي قد تحدث دفعة واحدة، وبعد مرور اللحظة الأولى من الدهشة، اعتبر فريدريش هذا اللقاء أكثر ثراء من المحادثات التي كانت تدور حول طاولة الفندق. كان الغريب قد تطرق إلى الموضوع الأكثر أهمية بالنسبة له، كان قد أنصت له على أمل العثور على ما يلهمه لكتابة الرسالة التي سيكون عليه أن يكتبها إن عاجلًا أم آجلاً إلى إليزا. من المؤكد أن

27- الكدريجة: هي عربة قديمة مثبتة على عجلتين، يتم تسخيرها بواسطة أربعة خيول موضوعة جنبًا إلى جنب، وتستخدم كمركبة احتفالية.

الكويكرز كانوا مخطئين إذا اعتقدوا أن الحب مشروط بالعفة، لم يستطع مجاراتهم حول هذه النقطة، لكن كل ما كان قد سمعه عن حياتهم من اعتدال وتقشف بمعزل عن أعمالهم المربحة بدا فاتنًا للغاية لهذا الذي نشأ وسط الأرقام والسجلات الحسابية.

وبعد ذلك، مادام كان عليه أن يعرفها، فإن هذه المدينة الفاضلة كانت خاضعة لقوانين رهبانية إلى حد ما، أكثر مما كانت ثمرة للجهل والغباوة. ألم نكن نعيش في عصر دموي حيث كان من اللازم تعويض عنف الحرب ورعبها بنبل المثل العليا؟

من بين جميع الطوائف المنتشرة في ألمانيا، لم تكن جماعة من الإخوة مرتبطة بحب الفن والتفاني من أجل الجمال. (في وقت لاحق، وعندما حاول أن يتذكر مع رفاقه في أية لحظة بدأت فكرة مشروعه الكبير) شاهد مجددًا بوضوح زر سترته الذي انتهى بالسقوط على العشب ولم يكن يجرؤ على التقاطه على الفور. وتذكر أيضاً أنه يود معرفة ما إذا كان هذا المتشدد قد عفا عن الرسم. وفجأة، لم يجد الغريب بجانبه.كان هنالك رجل ثلاثيني قد غرس مسند لوحاته ليرسم، ليس فقط أشجار البلوط في المتنزه بل قوس النصر ذاته، وعندما لاحظ خيبة أمل فريدريش قال له:

– أتعرف لماذا تحدث معك بهذه الطريقة؟

صاح فريدريش الذي لم يمتلك الشجاعة ليسأل الكويكرز عن اسمه خشية أن يبدو له فضوليًا.

– أنت تعرفه إذن؟

ضحك الآخر وقال:

– إنه ليس بهذا السوء.

كانت العربة التي حملته إلى باريس من عمل والده جوتفريد شادو.

هتف فريدريش بسذاجة:

– شادو، هل من المعقول أن الذي التقيته هو ابن جوتفريد شادو؟ هذا الذي ذكره نوفاليس في كتابه (تاريخ النظام الملكي البروسي)، سيكون

على المجتمع الراقي في برلين أن يسعى لاقتناء مجموعة لوحات شادو، وإقامة تمثال له ووضعه في قاعة الاجتماعات.

– هو ذاته! إذا كان فيلهلم قد انضم إلى طائفة الكويكرز التي تحتقر الفن في الواقع، فلأنه كان يشعر بالحزن لرؤية والده يترأس، بأمر من نابليون، اللجنة المسؤولة عن اختيار وإرسال لوحات المتاحف الألمانية إلى فرنسا. تصور إذن، ماذا كان يعني، بالنسبة لصبي في السابعة عشرة من عمره، أن يشهد رزم وشحن لوحات رمبرانت وروسديل من كاسل، ودوريه من نورمبيرغ والتدورفير من مونيش وهانز بالدونج جرين من برلين.. هو ذاته كان قد بدأ الرسم مع صديقه فيليب فيت، الذي غادر الكويكرز ليتابع رسالته.. لن أتفاجأ إذا غادر فيلهلم بدوره يومًا ما لينهي دراسته في دريسدن.

أنا أعرف هذين الصبيين، فيليب هو ابن مصرفي يهودي من برلين، الذي تركته والدته لتتزوج من فريدريش شليغل. ليس من المستغرب إذن أن يشعر الطفل بالتشتت مابين والده ووالدته.كان قد وجد في الكويكرز عائلته الثانية، لكن ميله للرسم كان الأقوى. أما بالنسبة لفيلهلم، فلن يتمكن من إنكار مواهبه الخاصة إلى أجل غير مسمى بسبب رفض والده. لقد رأيتك بين المتسكعين في قاعة الأكاديمية، لم تبع أيًا من لوحاتك، لاتستسلم للإحباط! الصعوبة الرئيسية التي يجب التغلب عليها، بالنسبة لفنان اليوم، هي عدم فهم الجمهور والإحباط أخيرًا، بالنسبة للفنان الرسام..

أنهى كلامه بحسرة:

– لأنه بالنسبة لي، أرى الطريق شائكًا ومليئًا بالعقبات الأكثر خطورة.. فريدريش شليغل، كان قد سمع هذا الاسم للمرة الثانية كرجل وليس كمؤلف لرواية (لوسيند) التي كانت تذكره بدريسدن، المحطة المقبلة للمسافر على طريق النمسا ومقعد كلية الفنون الجميلة الذي ينتظره، لاحظ الحزن الذي ارتسم على وجه محدثه بشكل ظاهر وهو يذكر عزلة الفنان ويلمح إلى وجود عقبات غامضة ما أثار تعاطف فريدريش وفضوله.

تجاذبا بعد ذلك أطراف الحديث. استحوذ صديق فريدريش الجديد على اهتمامه عندما قام بسحب لوحة بالألوان المائية من صناديقه تصور

مبنى الكابيتول.. نظر فريدريش باهتمام كبير إلى الأعمدة الدورية الستة لبوابة براندبورغ. إذا كان الرجل الذي سافر من روما وصعد سلم ماركوس أوريليوس إلى الساحة التي صممها مايكل أنجلو كان قد وجدها جميلة بما يكفي لإعادة إنتاجها بيده، ربما كان يمكن مسامحتهم لإعجابهم بنابليون.

لم تفلت لحظة التردد هذه من الصبي الغريب فقال:

- لم يعد جيلكم يريد أن يسمع شيئاً عن الأعمدة والعصور القديمة. لكننا ومن سوء حظنا أننا سنكرس أنفسنا للهندسة المعمارية.

سأل فريدريش:

- هل أنت مهندس معماري؟

- أنا مهندس معماري وتفرغت للرسم والتلوين لعدم وجود طلبات. لقد استنسخت في صقلية معابد سيجيست وأغريجينت، والكولسيوم والبانثيون في روما، والساحات في فيرونا. لقد قام كارل لانغانس بعمل هذا الباب جيداً، أوكد لك. انظر إلى الفجوة التي تتناقص بين الأعمدة كلما ابتعدنا عن المركز. وماذا تقول عن الأوبرا التي بناها جورج كنوبلسدروف، بأعمدتها العالية المزينة بالتماثيل.

كان فريدريش يقف ضد استبداد الأشكال اليونانية بكل عنف، ربما، لأنه لولا تأثير رفاقه الذين سمعهم يطالبون بصوت عال حول الطاولة بـ (فن ألماني)، لكان قد اعترف بأن نقاء الخطوط القديمة كان يستهويه أكثر. وكم كانت دهشته كبيرة عندما سحبه محدثه، بعد أن تركه يصرخ ضد منافسيه، من يده وقدم له نفسه:

- كارل فريدريش شينغل. كارل فريدريش شينغل؟ الرسام الشهير للكاتدرائيات والقلاع المحصنة؟ من بين كل الفنانين الألمان، هو الذي كان أكثر من يساهم في إحياء التراث القوطي عبر لوحاته التي كانت تتفجر فيها قوة الخيال في مناظر طبيعية حالمة.

إحمر الشاب خجلاً ولم يعرف ما يقول:

- هل تفاجأت لسماع هذا الذي يعتبر نفسه مدافعًا حصريًا عن العصور الوسطى وهو يدافع عن الحواف والأقواس؟

ظل فريدريش صامتًا.

أجاب شينغل:

- لم يشاهد أحد لوحاتي حتى الآن، إذا كنت مستعدًا لمساعدتي في حمل مسند لوحاتي فسوف أصطحبك معي إلى المنزل. لا تنسَ أن تلتقط زر سترتك. منذ كارثة جينا، لم نعد نمتلك الحق في إنكار الحاجة إلى العودة إلى ماضينا الوطني. هل تابعت أنت أيضاً دروس فيشت في الجامعة؟ إذا كان من واجب الفيلسوف المسؤول عن تعليم الشباب تمجيد بلده من خلال التقليل من شأن كل ما يأتي من الخارج، فإن الفنان الذي سيستمع ربما إلى هذا الخطاب سيسعى إلى حتفه. لا يمكن تجاهل تراث روما واليونان، ولم يكن تتويج نابليون ذريعة كافية لرفض العصور القديمة دفعة واحدة.

كان أول عمل شاهده فريدريش في المرسم هو لوحة بالألوان المائية لكاتدرائية كولونيا. وقد أظهرت الكنيسة الضخمة غير المكتملة في اللوحة إلى أي درجة من البؤس والانحلال كانت قد انحدرت إليه الأمة الألمانية. فمنذ نهاية العصور الوسطى، لم يجد أحد القدرة اللازمة لإكمال صحن الكنيسة، إذ تم بناء موضع جوقة الكنيسة فقط، وكانت هنالك فجوة كبيرة تفصله عن برجي الواجهة، هذين البرجين اللذين ارتفعا إلى المنتصف وكانا يتصبان مثل جذعين ويفتقران إلى الأجراس.

فكر فريدريش: «شينغل النقي»، ليس من دون أن يتساءل عن كيفية التوفيق بين هذه الرؤية المأساوية والممزقة للفشل الوطني مع الحنين إلى اليونان والخطوط الواضحة. لقد اكتشف في لوحاته الزيتية، هذين الاتجاهين المتراكبين. هنا، معبد دوري، بنسب مثالية، وبمحاذاته يمتد الصف المزدوج من الأعمدة وسط فوضى الصخور الشديدة الانحدار والأشجار الملتوية بفعل الرياح الشديدة. كانت هنالك كاتدرائية ذات أبراج تثير الدوار منحوتة كالدانتيل، لكنها مضاءة من الخلف بواسطة مصباح ذهبي لم يكن من الممكن أن ينبعث إلا من اليونان.

علاوة على ذلك، فإن هذا البناء الهائل المزخرف، الذي بدت أبراجه الأربعة المزودة بالأجراس كأنها أرغن ضخم في السماء الواسعة، ربما يمثل

انتصارًا أخيراً للعصور الوسطى؟ لأنه إذا كان يمكن أن تنخدع العين برؤية حشد من البحارة والحمالين مشغولين بتحميل قارب في أعلى النهر، فلن يمضي وقت طويل حتى يمكن تمييز رواق صغير تعلوه قاعدة بين منازل قديمة مكومة على حافة النهر. ثم في أعلى القرية، مبنى دائري صغير ذو أعمدة يذكّر المرء بمعبد العرافة في تيفولي.

قال شينغل مبتسماً:

- لا شيء يفلت منك، إن فن المشاهدة هو الموهبة الأولى للرسام. ولكن، لماذا تبدو مندهشًا؟

ثم أوضح له أن فن الغد، فن الجيل الجديد، لا يمكن أن يكون تقليدًا منصاعًا للقدماء ولا عودة خالصة وبسيطة إلى العصور الوسطى، لكنه مزيج متناغم بين أسلوبين، يمتاز الأول بانضباط الأشكال وجمال النسب، ويتحلى الآخر بالحماسة الصوفية والتطلع إلى اللانهائي. وأضاف أنه هو نفسه فشل في التوفيق بين المناظر الطبيعية الألمانية الشاسعة والغامضة والشمس الجنوبية القاسية والمشرقة. في لوحاته، تنافرت الغابة الكثيفة مع المنحدرات الرخامية والأقواس مع أعمدة الواجهة، لكن الفنان الشاب القادر على توحيد الشمال والجنوب كان سيظهر عاجلًا أم آجلًا.

استمع فريدريش إليه بإنصات ديني، وبدت له هذه الكلمات كأنها تعبّر له بوضوح عن أن عقله لم يكن ناضجًا بما يكفي للوصول إليه، أما السلطة فلن يمتلكها إلا الرجل الذي سافر إلى إيطاليا، والأفكار التي كانت تؤرقه في لوبيك وفي الطريق إلى برلين؟

في بعض الأحيان، كان يميل إلى الانصباب الوجودي الذي يضطره إلى استعادة السيطرة على نفسه، هذا الاندهاش المتهيب لكل ما تقدمه الطبيعة الرائعة والسامية، جنبًا إلى جنب مع الحاجة إلى ملامسة الأشكال المحددة بدقة كافية. كان هذا المزيج من الحماس نحو المجهول والحذر من التخلي عن مهمته هو ما صنع أساس شخصيته منذ طفولته البعيدة. ربما جعله ذلك يلعب دور الوسيط لمزج الروح القوطية وروح البحر الأبيض المتوسط. شيطان ألمانيا المظلم والمعذب مع عبقرية روما المتوهجة، للتوفيق بين

فاوست وأبولون، ولوثر وفيرجيل، أي طموح آخر كان يمكن أن يدفع فريدريش أوفربيك إلى اجتياز جبال الألب؟

- لكن، كيف سيمكنكم بناء مبنى هائل كالكاتدرائية بشكل أفضل؟ بالصخور أم بالطوب؟

خفض شينغل رأسه بحزن بعد أن كان مرحًا ومبتهجًا.

- لقد حدثتك بهذه الطريقة لأن طريقك هو الرسم، ولكن، بالنسبة لمهندس معماري، سيكون عليه أن يختار. وأضاف وهو يسحب لوحة أخرى من صندوقه بعنوان (قبة ميلانو):

- انظر، هذا هو ما أريد بناءه. لا أعرف شيئاً أكثر روعة وسحرًا وإثارة، لكن هذه الصفات يتم اختيارها بشكل سيئ. في صقلية، حيث ذهبت لنسيان هذا الانطباع القوي عن العصور الوسطى الذي تلقيته في ميلانو، أعجبت لفترة طويلة بروائع العظماء. كانت معابد أريجينتي ودي سيجيست ومسرح تورمين بقايا رائعة للعظمة القديمة، لكن أحجارها كانت صامتة دائماً. إنها آثار بلا موسيقى. ربما كانت أكثر صمتًا أيضاً في زمن بهائها عندما كانت سليمة وأضفى عليها الخراب اللامحدود لغزًا لم يكن موجوداً فيها. أصخت سمعي إلى تلك الأنغام غير المحسوسة التي كانت تطفو تحت قبب الكاتدرائية حتى عندما كانت آلات الأورغ تصمت.

- لكن المال؟ أجاب بعد وقفة بدا خلالها كأنه يستمع إلى نغمات غامضة ومحسوسة له فقط.. أرباب العمل، الزملاء، التقاليد الحرفية؟ لا، سيكون هذا جنونًا، أنا أضع هذا الرسم بالألوان المائية لكاتدرائية كولونيا على الحائط لعرضه باستمرار. في زمن كثرة البنائين وقوتهم، لن تكفي ثلاثمئة عام لإتمام العمل، فكيف يمكن لرجل وحيد أن يفعله في هذه الفترة القصيرة من حياته؟ كان حلمي يتلاشى قبل الوصول إلى بداية تحقيقه، لهذا السبب رأيتني أمام بوابة براندبورغ وأنا أنسخ في كراستي أعمدة لانغاس الدورية الستة.. لقد أورثتنا الروح العملية لليونانيين نماذج في متناول أيدينا. سأستعير أسلوبهم وسأصبح شهيرًا في برلين.

الأعمدة، الأقواس، وأقواس النصر لن تعيد إحياء الإمبراطورية المقدسة،

لكن البروسـين سيباركونني ذات يوم لأنني منحتهم تكلفة قليلة لعاصمة تستحق هذا الاسم. ماذا تقول عن هذا المشروع لحراسة القصر الملكي؟

كان فريدريش سعيداً لرؤية صديقه يرفع رأسه ويبرهن عن رغبته بالمجد مع هذا القرار. كان متألمًا قبل دقيقة لشعوره بأن رجلاً مازال شابًا كان يمكنه ترك طموحه والاستسلام بسهولة.

فكر في نفسه في اللحظة التي اعترف فيها شينغل بالتنازل عن حلمه:

- لست أنا الذي كان سيعتنق مهنة فنية ليراقب بحذر إمكانيات تحقيق مشاريعه، ويعمل حسابات تليق بوالدي النبيل تاجر النبيذ في لوبيك. يعجبني فيلهلم شادو أكثر: لابد من التخلي عن الفن ما لم نستطع البقاء أوفياء لأفكارنا! هل يشكل المال إذن قيدًا استبداديًا مثل نابليون؟ نعم، يجب أن أهنئ نفسي على اختيار الرسم! وإذا كانت ألمانيا هي البلد الخاضع لنابليون وللمال، فأية سعادة ستكون بالمغادرة إلى إيطاليا!

الفصل الخامس

بين برلين ودريسدن، توقف فريدريش في فيتنبرغ، كان بإمكانه اختيار طريق آخر، عبر كوتبوس أو روهلت، لكن غريزة غامضة دفعته نحو المدينة التي كان لوثر قد عاش فيها لمدة ثلاثين عامًا. اختلط بالحشد الصغير من الحجاج الذين كانوا يتجددون باستمرار عند مدخل القلعة، ورأى الأبواب الشهيرة حيث كان مصلح الكنيسة قد عرض طروحاته للمرة الأولى. كان سلوك فريدريش يحمل الكثير من الولاء والاحترام الذي بدا طبيعياً من جانب شاب تربى على الإيمان البروتستانتي.

سار في الوحل أمام بوابات القلعة لفترة طويلة ليخبر نفسه بقناعة أكبر عبر الرطوبة القارسة التي كانت تتخلل الجلد الخفيف لحذائه، بأن اختيار مدينة القديس بيير لإنهاء فترة تعليمه لن تشكل ضررًا في مذهب والديه. ثم عاد إلى النزل وجلب ورقة إلى الصالة المشتركة، خلع حذاءه ووضع قدميه العاريتين أمام النار.. بدت الفرصة سانحة أخيراً للكتابة إلى إليزا، لكن الشاب، وبسبب تشتت أفكاره، رأى أنه من الضروري إرسال برقية إلى فرانز، الذي كان ينبغي العثور عليه في غضون ثلاثة أسابيع وألا يتركه لبضعة أشهر.

بالتأكيد، كان يمكن تفسير هذا التسرع: السقوط على غير استعداد سيكون ممتعًا، لكن نُزل ستامب حيث استقر فرانز منذ وصوله إلى فرانكفورت، كان يحتل موقعًا رائعًا على جرابن، وهو المكان الأكثر مركزية في فيينا حيث كانت ميزة انخفاض الأسعار فيه قد جلبت له العديد من الزبائن. أراد فريدريش التأكد من حصوله على حجرة قريبة من تلك التي يشغلها صديقه.

لحسن الحظ، كان الطلبة يفضلون السكن في الحي الجامعي، في الجانب الآخر من كاتدرائية سانت إيتيان بين كنيسة اليسوعيين والنهر، وإلا لما كان هنالك أمل في العثور على حجرة في نزل ستامب، خصوصاً في نهاية الفصل الدراسي خلال فترة الامتحانات. اضطر فرانز الذي كانت صحته شديدة الحساسية وكان يعاني من نوبات سعال مؤلمة إلى الهرب من منطقة الدانوب والعيش في منطقة صحية. كانت صاحبة المنزل، وهي خادمة عجوز ودودة، سعيدة بإيواء طالب شاب بدلاً من مندوبي المبيعات المعتادين، وكانت تطعمه مرقًا من طعامها الخاص.

كان فرانز قد وصف لفريدريش اهتمام مضيفته به ففكر أن يشكرها بأن يرسم لوحة على نافذة المرأة التي ساعد حساؤها على تخفيف احتقان قصبات صديقه الهوائية. حدد فرانز وصوله في آخر يوم أحد من شهر أيار على أقل تقدير، لكنه لم يجرؤ على تخيل سوء الحظ في أن الحرب قد تمتد إلى شرق بافاريا، وقد تنقطع الطرق في هذه الحالة. كانت العداوات قد عادت بين فرنسا والنمسا.. كان الأرشيدوق شارل قد تعرض للضرب في أكمول؟ فهل سيطلب فرانسوا الثاني السلام؟ وهل سيرغب نابليون في السير نحو العاصمة كما حدث بعد أوسترليتز؟ انكب فريدريش على خرائط مجلس القيادة التي زودته بها صاحبة النزل، وقام بحساب الاستراتيجيات المختلفة التي يمكن أن يعتمدها المحاربون. تخيل فيينا المحاصرة، والجيوش الفرنسية التي تخيم لفترة طويلة خلف الأسوار، والمعاقل المليئة بالمدافع والدخان في ساحة المعركة، والخيول التي تعدو في السهل.

إذا كان لرسالته فرصة الوصول إلى وجهتها قبل عزل المدينة تماماً، فهل يجب أن تقتصر فقط على استجداء حضور فرانز وأن يطلب منه العناية بصحته؟ ألم يحن الوقت لمعالجة القضية التي كان يحجم عن تناولها منذ اجتماعهما الأخير؟ استبدل البرقية القصيرة برسالة طويلة، إذ كان يجب أن يوضح لفرانز لماذا كان قد تخلى عن الأرغن وكرس نفسه للرسم فقط، كانت مهمة صعبة، فقد ارتبطا بالأرغن بكثير من العواطف المشتركة والنقاشات المحتدمة أمام لوحة المفاتيح! كانت صداقتهما قد بدأت من خلال علاقتهما بالأرغن. قبل عامين، نزل فرانز من عربة المسافرين القادمة

من فرانكفورت. كان قادمًا لإكمال فترة تدريبه العملي في المدرسة الصيفية في لوبيك، وهي الأعلى تصنيفًا في ألمانيا.

كانا قد تعارفا لدى كابيلميستر التابعة لكنيسة ماريانكريش. يالها من صدمة من النظرة الأولى! ياله من تيار قوي من العاطفة منذ الكلمات الأولى! ولكن، إذا كان قد سمح لنفسه أن ينجرف مع ذكريات الصيف الأول، مستحضرًا، على سبيل المثال مشهدًا لا ينسى إلى الأبد في الحديقة فربما لن يذهب بعيدًا في رسالته. من الأفضل أن يقتصر الأمر على الإقامة الثانية في الصيف الماضي (تذكر أنهما لم يكونا معًا إلا مرتين في الشهر، وأن تلك الأسابيع الثمانية كانت تكفي لتربط بينهما إلى الأبد!).

وصل الشاب سيرًا على الأقدام، كان ميتًا من الجوع والعطش لكنه كان مبتهجًا لأجل الأرغن، ولإقناع صديقه ألا يترك الموسيقى، كان من الممكن أن يواجه فرانز التعب أكثر بعشر مرات لمجرد المحاولة. قبل مائة عام، ألم يسافر باخ من أرنشتات إلى لوبيك؟ سار مائتين وخمسين ألف ميل دون أي هدف آخر سوى حضور الحفلات الموسيقية المسائية التي كان ينظمها ديتريش بوكستهود، عازف الأرغن في كنيسة ماريانكريش، للاحتفال بأعياد الميلاد.

سأل فريدريش الذي كان قد قاده على الفور لتناول الطعام في نقابة البحارة ليستعيد قوته وطلب له طبقًا من السمك المملح بالبصل والخيار والبطاطا المقلية:

ابتلع فرانز نصف السمك المملح وشرب قدح ماء بارد:

– كان باخ سيرغب في ترك مدينة أرنشتات نهائيًا ليستقر في لوبيك كعازف أرغن، ولكن، لم يكن بإمكانه الحصول على خلافة بوكستهود إلا بالثمن المحدد في العرف: الزواج من ابنة السيد العجوز. كان التلميذ بالكاد يتجاوز العشرين من عمره بقليل بينما كانت الفتاة تفوق الثلاثين من العمر. لقد قلب كل معاني شروط الصفقة: أن يأخذ الزوجة والمكان معًا أو يخرج خالي الوفاض.

– وماذا بعد ذلك؟

- تذكر باخ أن الإجازة التي حصل عليها من مراقب محكمة أرنشتات كانت قد وصلت إلى نهايتها. رفض عرض آنا مارجريتا وعاد بسرعة إلى تورنيجيا، وبعد خمسة وعشرين عامًا، أراد إحياء الذكرى بأن يشكر الخطر الذي هرب بسببه من العدالة، فأرشد صديقًا له ليطلب من نجار ماهر من لوبيك نموذجًا لسفينة ليطلق عليه اسم (بروفيدنس) ويعلقه في سقف النقابة، مثل رمز للشكر لهذا الإله الذي كان السبب في منحه حريته.

توقف فريدريش فجأة وغمر أنفه في قدح البيرة كي لا يرى زائره احمرار وجهه من الخجل. سأل نفسه فجأة: لماذا روى هذه الطرفة، ولماذا لم يروِها لإليزا؟ ولكن لم يبدُ على فرانز أنه لاحظ اضطرابه. حتى إنه لم يشر إلى ذلك إلا بعد عام من عودته من لوبيك. كان باخ قد تزوج ماريا باربارا وأنجب منها سبعة أطفال في ثلاثة عشر عامًا، قبل أن يتزوج من آنا ماجدالينا التي منحها ثلاثة عشر عامًا أخرى.

كان الشاب الجائع غير مكترث للدافع الذي دفع يوهان سيباستيان باخ إلى الفرار، كان يحرك شوكته في قاع صحنه الخزفي ليلتهم ما تبقى من البطاطا والسمك المملح، بينما أزاح قدح البيرة ذات الرغوة الذي أحضره له النادل رسميًا. أفرغ في ثلاث جرعات كبيرة ما تبقى من ماء في الإبريق الزجاجي. ثم قام بحيوية مستعدًا للعزف على الأرغن الكبير، لذا سحب فريدريش إلى الكنيسة ودفعه أسفل السلم الحلزوني إلى لوحة التحكم بمفاتيح الأرغن.

- هل أنا متعب؟ هل تجدني في مزاج سيء؟ لماذا علي أن أضيع الوقت في الاغتسال؟

كان محقًا، فقد كان يبدو نشطًا وجاهزًا كأنه لم يقطع أكثر من ثلاثة آلاف ميل في اثني عشر يومًا. يداه، رقبته التي كانت بيضاء ونظيفة، حتى إن غبار السفر لم يعلق بجلد حذائه الطويل. كان يبدو كأنه طار فوق جبال هارز وسهول هيس وستيفالي أكثر مما كان قد قطع الطريق تحت شمس تموز.

كان أرغن بوكستهود ينتصب تحت النافذة الضيقة في الجدار الأمامي. وبجواره خزانة واسعة من ثلاثة طوابق تستند إلى أعمدة حجرية. كانت

أكاليل الزنابق والخشخاش المرسومة على جدران القبو هي الميزة الوحيدة التي تشير إلى الذوق الأكثر زخرفة للقرن الثامن عشر..

ظل فريدريش واقفاً خلف المقعد الذي جلس عليه فرانز أمام الأرغن بينما مد ساقيه وذراعيه، وضغط على عدد من المفاتيح لينشط أصابعه. ومع عزف النوتات الموسيقية الأولى للمقطوعة الموسيقية، تدفق إعصار صوتي صاخب بقوة غير مسبوقة في الصحن المهجور في هذه الساعة، فتجمد العجوز الذي كان ينظف الأروقة في الممر. منذ تلك اللحظة، كان يمكن أن يوقف فريدريش صديقه ويقول له إنه لن يتوصل إلى إقناعه. إذا كان قد قدم من فرانكفورت ليقوده إلى الأرغن ويلمس الآلة الرائعة لبوكستهود فإن جهوده ستبقى بلا فائدة، وعليه أن يختار بين الرسم والموسيقى، وبين لمس الأرغن وحمل مسند اللوحات.

ربما كانت كلمة (لمس) جديدة لتجعله يعيد النظر في قراره. كان يمكن اللعب على آلات أخرى لكن الأرغن يمكن (لمسها)، كما لو أن الموسيقى التي تنبعث في الكنيسة كان يتم نسجها بالأصابع. أي وهم! وأي تضليل؟ كان قد تم اختراع مصطلح (يلمس) كواحدة من الخدع اللغوية المخصصة للتشجيع، وكان من الضروري طمأنة عازف الأرغن تجاه العاصفة التي سيثيرها عزفه بإقناعه بأن (لمس) الأرغن يجعله يشعر بأنه كمن يجلس في مركز القيادة ويتحكم بأدواته.

نظر فريدريش إلى وجه فرانز وشعر بتزايد خوفه، كانت شفتاه منفرجتين وعيناه مثبتتين على أفق غير مرئي ونظرته تائهة.. وكانت يداه مرسومتين بشكل جيد، دقيقتي الحركات وبارعتين في التعامل مع مفاتيح الآلة.. إنهما يدا فنان وعازف أرغن حقًا.. كان الشاب يحوم في الأعالي، كانت الموسيقى قد منحته أجنحة مثل ملاك وحملته بعيدًا جداً إلى منطقة مجهولة. متجردًا من نفسه، استسلم لسعادة خالصة نقية. بينما شعر فريدريش أنه عاجز عن اللحاق به وأنه مرتبط بالأرض.

تساءل: هل سيحبني فرانز عندما سأخبره بقراري.. يبدو أنني لم أكن مخلصًا للاتفاق الذي أبرمناه في الحديقة. إذا كان هنالك فن يبعد الإنسان

عن حدوده فهل تكون الموسيقى؟ وإذا كانت هنالك آلة تسمح باكتشاف العدم، فهل ستكون الأرغن؟ مع ذلك، فإن تجارب فريدريش الطفولية لم تكن قد عودته على الحياة مع أصوات مغامرة مثيرة أيضاً..

حتى سن الرابعة عشرة، كان قد غنى في مدرسة المرتلين لكنيسة ماريانكريش. وكل أحد، كان العازفون يقدمون نشيدًا مختلفًا ليوهان سيباستيان باخ. وبعد جوقة الدخول، حيث كان المغنون الثمانية والعشرون يوحدون جهودهم، ثم يأتي دور العازفين المنفردين، ومثلما كان رافائيل يرسم بألوانه، كان باخ يرسم بموسيقاه..

من بين كل الرسوم التي تدرب عليها في الفن الإيطالي، كان يضع في المقدمة ملائكة فرانجليكو، وأطفال لوكاديلاروبيا ملائكة دوناتيللو. صعقته تلك الرسوم، ليس لأنها كانت تمثل الأولاد الصغار المجنحين، الذين يفتحون أفواههم ويغنون بل لأن الغناء في فلورنسا كان دقيقًا مثل الرسم، وكان يكفي فناني عصر النهضة خطٌ واحد ليرسموا تقاطيع وجه طفولي مثلما كانت تكفي باخ جملة موسيقية واحدة ليتسلق سلم الأصوات وينتج قطعة موسيقية رائعة.

كانت هناك طريقتان لصنع الموسيقى، طريقة صاخبة تضلل المستمع وتجعله يغوص في غيبوبة، وأخرى بطيئة تنسكب في الأذن بتناغم ونقاء وأثيرية. وبقدر ما كانت موسيقى الأرغن تزعج فريدريش بتنقلها بين العنف والظلمة، كان يشعر بحرية وهو يغني مع هؤلاء الشباب الفلورنسيين، لكنه لم يكن قادرًا على الصعود مع الصوت الجهوري الصادح حتى أبواب السماء، أو الغوص مع الصوت الواطئ في ظلام الليل. لأجل هذا، تم استبعاده من مدرسة المرتلين.

بناء على نصائح الدكتور دانكمارت الذي كان يراه متحمساً لأجداده الساكسونيين القدامى، دفعه والده لدراسة الأرغن، لكن خيبة أمله فيه جعلته يتحول إلى دراسة آلة وترية. كان النقاء الوتري للكمان أكثر ملاءمة لشخصيته من المطارق الضخمة الصاخبة للأرغن. ربما كان سيصبح موسيقيًا بدلاً من التحول إلى أقلام الرصاص وفرشاة الرسم.. لكن الرسم هو الذي كان

سيجعله بمواجهة نفسه وسيمكنه تطوير قدراته على الإصغاء والتحليل. إذا كان بإمكانه، ومن دون التخلي عن ذوقه الصارم، أن يستخدم الكمان مثل صوت لروحه، ربما كان سيجد في نفسه مكانًا مهمًا للحلم والرغبة بلا هدف، والحزن الذي لا يمكن تحديده.

ومع ذلك، ما الذي تخبئه الموسيقى لجيلهم، وما الذي يختلف اليوم عما كانت عليه قبل عشر سنوات؟ مع موزارت، وغلاك وهايدن، يمكن للمرء أن يؤمن بشكل قاطع بالتخلي عن الطريقة الصاخبة والمضطربة في صنع الألحان. ما مدى شفافية هؤلاء الملحنين الثلاثة؟ وما مدى وضوحهم في أكثر أعمالهم تعقيدًا؟ لكن القرن الجديد الآن يرفضهم ويعتبرهم من الطراز القديم.

اليوم، لا يقسم الشباب إلا باسم بتهوفن، وقد تأخر فريدريش كثيراً ليكون في فيينا ويستمع إليه وهو يقود سمفونيته المقبلة، وكم اختلط نفاد صبره بتخوفه! فهو يشعر بالإحباط بسبب استقبال غير المثقفين له في العاصمة النمساوية، حيث انزعج المايسترو بشدة لأن الموسيقى الإيطالية الشعبية كانت تسود هناك بدلاً من الموسيقى الألمانية الجادة.

سرت شائعات بأن جيروم بونابرت، ملك ويستفاليا الجديد، كان قد دعاه إلى بلاطه، ويشاع أيضاً أن الأرشيدوق رودولف أمير لوبكوفيتش والكونت كينسكي كانا قد تعهدا بأن يدفعا له أربعة آلاف فلورين في العام، بشرط أن يبقى في فيينا ويعطي دروسًا للأرشيدوق.

الفصل السادس

في دريسدن، خطط فريدريش للذهاب مباشرة إلى منزل ذلك الذي كان يعتبره أعظم رسام ألماني منذ دوريه الذي كان يمثل النهضة الوطنية في نظر جيله. كان ما لاحظه من هذه المدينة الشهيرة للغاية وهو يهبط من أعلى التلال المشجرة التي تهيمن على انعطافات مجاري الألب، نحو البنايات الرائعة المتراصة على طول النهر قد ولد لديه انزعاجًا وحيرة فتوقف في منتصف الجسر وشعر بتضاعف عدم يقينه.

كانت كنيسة فراونكيرش بقبتها المليئة بالزخارف والأشكال الحلزونية، تختلف تماماً عن الأبراج العارية لكنائس لوبيك، وكانت الأوبرا التي تواجهها تتصدع تحت طبقات الرخام الأبيض والجص المذهب، وقصر وكنيسة زوينجر بزخارفها النفيسة، كانت كل هذه الآثار التي لمس فيها فريدريش الروح واليد الكاثوليكيتين قد فتنته بأناقتها وثرائها.. كانت جديدة بالنسبة له بأشكالها الجريئة، لكنها أثارت عدائيته في نفس الوقت لتجاوزها المثل العليا للصرامة التي مازال يحملها في داخله.. ولكي يتجنب دفع ضريبة إعجابه الثقيل بها، الذي كان قد ندم عليه كأنه خيانة لبلده، أعلن أن العمارة القوطية كانت جديرة بالاحترام طالما أنتجت أعمالها الخالدة من دون الكثير من المال ولا التأثيرات، وبمادة بسيطة وفقيرة من القرميد المفخور.

مع ذلك، وطالما لم تكن هذه الساعة مناسبة بعد للعودة إلى المنزل الصغير في ضاحية بيرنا، فلديه متسع من الوقت لاستكشاف المدينة أفضل.. وأمام مسرح الأوبرا الذي كان يعلن عن أوبرا (رينالدو) لهاندل، لم يتمكن من منع نفسه من التفكير في أن يوهان سيباستيان باخ، القادم من لايبزك غير

البعيدة حيث كان يقيم، كان قد سافرغالبًا من دريسدن واجتاز أبواب نفس هذا المبنى، ليستمع إلى مغنية الأوبرا فاوستينا بوردوني أو بضعة فنانين إيطاليين آخرين معروفين في عاصمة ساكسونيا، ثم يعود ثانية إلى لايبزك ويستأنف مهامه كقائد المرتلين في كنيسة سانت توماس التي كان يكتب لها أناشيد دينية ومشاهد غنائية، وربما كان نادمًا على استقراره في مدينة لوثرية بالغة الصرامة، حيث لم يكن يوجد مسرح للأوبرا وكانت الموسيقى العلمانية محظورة فيها..

كانت مغامرات باخ الدنيوية في دريسدن وحضوره عروض الأوبرا، والصداقة التي كانت تربطه بمغنية الأوبرا فاوستينا بوردوني وبزوج قائد المرتلين الساكسوني الإيطالي أدولف هاس قد أثبتت أن باخ لم يكن قد كتب للمسرح ليس ازدراءً له باعتباره نوعاً من أنواع الترفيه الملحد، ولكن لأنه لن يمتلك الفرصة في الحصول على أوبرا في لايبزك.

فريدريش، الذي كان لا يزال متأثرًا بذكرى الأروقة والمعابد الرومانية، وجد نفسه يحلم بالتحف التي كان بإمكان باخ أن يمنحها للمسرح لو سمحت له الصدفة بذلك، لكنه استاء من هذه الفكرة معتقدًا أن معظم مسرحيات الأوبرا –ورينالدو في مقدمتها، التي كانت عن قصة نابضة بالحياة لفرسان مغامرين ينشدها فتيان مخصيون وهو أكثر الانحرافات الأخلاقية في العالم– لا تقدم إلا جزءًا من المائة من الجدية التي نجدها في أوبرا (الكاهنة)... كانت تلك الأعمال الإيطالية الفقيرة فنيًا تكتفي بقول الهراء وتختبئ خلف حركات بهلوانية صوتية خالية من الكرامة الفنية..

ما إن دخل إلى متحف الرسم الذي كان يحتل مكان الإسطبلات القديمة لقصر نوفومارشيه، حتى شعر فريدريش للمرة الثانية بتأجج الصراع في قلبه والذي سيستلب قوته بلا شك بعد وصوله إلى إيطاليا، وخصوصًا إذا اختار التوقف في روما، مدينة البابوات. استغرقت زيارته للمتحف ساعتين.. يالها من لوحات رائعة! لم تكن المدن الألمانية الأخرى التي مر بها تمتلك سوى حجرات غريبة كان يعرض فيها عدد قليل من اللوحات إلى جانب مجموعة من الأشياء المتنوعة مثل الأسلحة والمجوهرات وتذكارات الصيد (كجلد الحيوان أو رأسه)، وأواني المائدة الخزفية، وحتى علب السعوط، بينما

كانت دريسدن حالة فريدة وكانت تقدم معارض حقيقية للرسم. كان الشاب يعرف السبب على الرغم من أنه فضل أن ينسب هذا الاستثناء إلى الأذواق الفنية للأمراء الحاكمين.

عندما أراد ناخبو الساكسون الاطمئنان على عرش بولونيا، اعتنقوا المذهب الكاثوليكي، وهو ما يفسر كثرة القباب ووفرة المباني المخصصة للأوبرا والعروض الغنائية والغناء الإيطالي الوثني، وهذه المجموعة المرموقة من اللوحات..

كان فريدريش منحدرًا من شعب من قراء الكتاب المقدس، وقد رباه والده على عبادة النصوص والحذر من الصور وخصوصًا تلك التي تمثل القديسين ومريم العذراء والرجال والنساء العراة. كان فريدريش مرغمًا، مهما كلفه الأمر، على أن يدرك أنه بوجود دين يؤمن بالصور، فلابد أن تتلقى الفنون الجميلة تشجيعًا غير متوقع.. فلو بقي فريدريك أوغست الأول بروتستانتيًا لما تم في إيطاليا شراء لوحات (الليلة المقدسة لكوريجيو، ونوم فينوس لجورجونيه، والقديس سيباستيان لانتونيللو من ميسينا، والقديس سيباستيان لبيروجينو)..

هذا التفكير المرير جداً لمن يرغب في أن يصبح رسّاماً جيداً من دون أن يتوقف عن أن يكون ألمانيًا جيداً، لم يمنع الزائر من الوقوع في النشوة أمام لوحة رافائيل. لقد رآها أخيراً، هذه القديسة السيدة العذراء التي عشقها منذ سن الثانية عشرة، هذا التناقض بين الأحمر والأخضر، والتناغم غير المتوقع بين الأصفر والأزرق، كل هذا التوازن الجريء للألوان، لم يكن من الممكن أن يراها في رسوم الأخوين ريبنهاوزن..

كانت أكثر من مجرد امرأة، كانت مظهرًا خارجيًا، شخصية مثالية، وهمًا مولودًا من حلم، بدت كأنها ترقص في مكانها، ويتناغم التأرجح الساكن لجسدها مع راحة وحيوية الحركة. كانت نظرتها تعكس شعورًا قاتمًا وكانت تحدق في نقطة غير مرئية بعيدًا عن المتفرج الذي لن يشعر مع ذلك بأنه بعيد عنها. قارن فريدريش نفسه بأحد الملاكين اللذين كانا يظهران في أسفل اللوحة، وهو يدير عينيه المنذهلتين أمام هذا المنظر لتلك التي تحمل

صفة إلهية باهتة للغاية أمام القوة الوديعة التي وضعها رافائيل فيها، والتي لا تتناسب مع الأرض التي سيكون من الضروري العودة إليها عندما ينتهي من تأملها.

تذكر الشاب أنه لن يكون مضطرًا إلى وصف السيدة العذراء كنجمة معلقة في السماء فقط في الرسالة التي سيرسلها إلى إليزا ليحدثها فيها عن انطباعاته عن المتحف، بل سيكون عليه أن يصف لها بأي حزم أمومي كانت تحمل طفلها بين ذراعيها. كان سيقول ذلك ليقنع ابنة عضو مجلس الشيوخ حول مهنة الرسام واحتمالات النجاح المادي الذي كانت عائلة مالكي السفن تشكك فيه، سيقول لها إن تلك اللوحة كانت قد أصبحت في صالة عرض دريسدن منذ ستين عامًا، بعد أن اشتراها الأمير أوغست الثالث من الرهبان السود في دير سان سيستو بمبلغ رائع قدره 25 ألف كرونه.

كان كاسبار ديفيد فريدريش قد عاد إلى دريسدن في منزل صغير في ضاحية بيرنا، على ضفاف نهر البه. ونادرًا ما كان يعود إلى مقاطعته الأصلية بوميراني في غرايفسفالد في ميناء البلطيق التي غادرها إلى عاصمة ساكسونيا ليس بعيدًا عن لوبيك.. كان كاسبار ديفيد قد فر من سهول أقصى الشمال هربًا من ذكرى مروعة.. ذات يوم، حيث كان قد ذهب للتزلج مع شقيقه كريستوف في بركة، انكسر الجليد تحت قدميه فأخرجه كريستوف من الماء لكنه سقط في الصدع وغرق. كان ذلك كابوس طفولته الذي لم يكن عليه أن يوقظه بالحديث عن هذه الأراضي النائية المغطاة بمعطف جليدي أبيض طوال ستة أشهر كاملة.

فتح الرجل المنعزل باب منزله الصغير بنفسه، ولم تظهر عليه الدهشة وهو يجد نفسه أمام شخص غريب، فقد كان يعكر صفو هدوئه قدوم هواة الفن والحجاج والتلاميذ القريبين والبعيدين. لقد كان رجلاً بعيون صافية وهيئة نحيلة، وكان شعره الناعم والأشقر المفروق في الجزء العلوي من الرأس برقة يتناثر خلف صدغيه، على الرغم من أنه لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره.

لم تكن الذقن بنفس لون الشعر لكنها كانت تميل إلى اللون الأصهب

قليلاً، وبدلًا من الحاجبين، كان هنالك خط رفيع من الشعر عديم اللون منحنيًا بالكاد فوق تجويف العين.

شعر فريدريش بالحرج من مظهر شعر الفنان، الذي بدلاً من أن يكون شعارًا للحيوية والنشاط كما هو الحال مع جميع الرجال في مقتبل العمر، كان يدل على توتر مبكر، فضلًا عن تصبغ الجلد ولون الجبين البني الملحوظ الذي يدل على إرهاق وحزن خفي لا يمكن علاجه. لم تصدر عنه أية علامة تدل على نفاد الصبر وهو يستقبل ضيفه، لكنه لم يُظهر فضولًا خاصًا أيضاً. أكثر ما أزعجه أن نظرة الرسام لم تستقر على وجهه، بل بقيت ثابتة على أعلى كتفيه. لم يكن ينظر إليه ليرى مع من كان يتعامل. كانت ابتسامة ترحيب تطفو على شفتيه، لكن هذه اللامبالاة العميقة بهوية الشاب، كانت تعادل قرار النفي..

ليحافظ على مظهره ويداري ارتباكه، بدأ يتفحص الأثاث، كزائر متحفظ لا يجد ما يكفي من الاهتمام لخوض محادثة مع سيد ذي سمعة عظيمة، فاكتفى بملاحظة الأماكن التي عاش فيها والتي شكلت وجوده. لم يكن هناك رواق، وكانت غرفة المدخل التي تم تحويلها إلى ورشة عمل بدائية، لا تضم سوى كرسي خشبي ومنضدة متداعية مليئة بأدوات الرسم. كانت هنالك لوحات بمواجهة الحائط وكان بعضها يستقر على الأرض، أما السقف والجدران فكانت مغطاة بطبقة من الطلاء الأخضر المتقشر في أكثر من موضع.

فتح كاسبار ديفيد باب الحجرة الثانية حيث جلب منها كرسيًا.. كان فيها سرير واطئ يختفي تحت لحاف ضخم وخزانة من الخشب الأبيض هي كل ما في حجرة نومه من أثاث. أشار الرسام للشاب أن يجلس على الكرسي، وانحنى ليلتقط واحدة من اللوحات المواجهة للجدار ووضعها على ركبتيه. كانت لوحة ذات أبعاد صغيرة إلى حد ما، ممتدة بالعرض ومقسمة إلى قسمين بخط أفقي. كان الرسم السفلي والرسم العلوي يمثلان لونًا متجانسًا تقريباً، ما بين الرمادي والأخضر. بدا الجزء العلوي لفريدريش كأنه امتداد لسماء خريفية، أما الجزء السفلي فكان يمثل السطح الأخضر الشاحب للبحر.

درس فريدريش اللوحة بصمت، إذ كان هذا الموقف المحترم سيجذب

انتباه الرسام أخيراً إلى معجب كان لبقًا بما يكفي لتجنب أي تعليق بغيض. تركه كاسبار ديفيد يتأمل على مهل.

قال له بعد خمس دقائق بدت طويلة جداً بالنسبة لفريدريش:

- أنت تنظر إليها بالمقلوب. لقد نظرت إلى السماء بدلاً من البحر والبحر بدلاً من السماء.

سارع فريدريش لإرجاع اللوحة إلى مكانها، وهو يحاول إخفاء ارتباكه. كان ينوي امتداح الوفاء الجدير بالملاحظة للرسام تجاه أماكن شبابه. منزله على ضفاف النهر، ساكسونيا، العمق اللانهائي للعناصر! لكنه ضبط نفسه في الوقت المناسب..

استأنف كاسبار ديفيد:

- إذا كنت قد نظرت إلى هذا البحر بالمقلوب وأعجبك مع ذلك، فهذا لأني نجحت في إيضاح قصدي. الأشياء في الأسفل ليست شبيهة بتلك الموجودة في الأعلى؟ لقد قال هيرميس تريسميجست ذلك في كتابه «طاولة الزمرد».

كان الإمضاء مفقودًا على اللوحة، لكي يخضع كل زائر للاختبار والوقوع في الفخ بلا أدنى شك. لم ير فريدريش اسم الرسام في أي من اللوحات التي فحصها بعد ذلك، بل إن التاريخ أيضاً كان مفقودًا. قال لنفسه إن رجلاً يسعى إلى الاستيلاء على روح العالم لدرجة اعتبار أن عناصر الكون قابلة للتبادل، يمكن لأجله أن تمتزج السماء بالبحر مثل نصفين متساويين.

لم يكن الرسام يكتب اسمه على أعماله وهو ما فعله أيضاً في العام السابق عندما رسم لوحة (مذبح تشيتشين) الشهير للكونتيسة دي ثون، وكان قد تسبب في فضيحة، فبدلًا من اختيار وجه السيد المسيح أو بعض القديسين كما جرت العادة في رسم لوحات المذبح، كان الرسام قد رسم أرضًا صخرية تحيط بها أشجار التنوب، ومن خلف الصخرة، تنبثق حزمة من الأشعة التي تنتهي بصليب صغير في عرض السماء الشاسعة. كان قد اختزل السيد المسيح إلى تمثال صغير يختفي تقريباً خلف خشب الصليب بمواجهة غروب الشمس.

لماذا استبدل الوجه البشري بمنظر طبيعي؟ لم يكن فريدريش ليلوم الرسام مثل باسيليوس فون رامدوهر الذي هاجمه بقسوة في مقاله لجعل أشجار التنوب تتسلق جدار المذبح. كان قد اعترف بأن الله يمكنه أن يسكن في شجرة أو غيمة ولا يحتاج إلى الظهور بمظهر الشهيد أو القديس. ومع ذلك، فقد اعتقد أن هذا النفور من الشكل البشري كان بسبب تأثير سلبي من التربية البروتستانتية. هل كان ازدراء كل ما ينتمي إلى الفرد يُعد انكارًا، في نهاية الأمر، لكل ما كان دائماً موضوعًا للرسم؟

طرح فريدريش السؤال أمام اللوحات الثلاث التالية، محاولًا نسيان الحرج الشخصي الذي كانت قد سببته له لامبالاة الفنان، وإيجازه الكلام، ورفضه الاهتمام بمشاعر الغريب الجالس على كرسيه، ففي كل مرة كانت عيناه تلتفتان إليه، لم ترتفع نظراته قط أعلى من الكتفين والرقبة كما حصل عندما فتح له الباب. كيف يبدو هذا الوجه الذي كان يمكن أن ينظر إليه ليرى رد فعله تجاه لوحاته؟ هل كان قد فحصها بكل سرور أم تفاعل معها من باب التهذيب فقط، لم يكن كاسبار ديفيد يهتم قط.

لقد أغرقت هذه الأعمال الثلاثة فريدريش في ذهول رهيب، فلم يسبق للرسام أن أظهر مثل هذه العبقرية، ولكن لم يظهر أيضاً مثل هذا الشعور القوي بالضيق في إبداعاته.

لكن لوحة (الراهب)، بالكاد كانت صورة ظلية مرسومة من الخلف، مثل بقعة سوداء. لم يكن هناك شجرة على الأرض ولا سفينة في عرض البحر، لا شيء سوى العزلة التي لا نهاية لها، وهذه التفاهة لرجل أضنى نفسه بتأمل الفراغ. كانت تذوب في اللاوجود وتسمو أيضاً بشعور عدم ثباتها. هل هذا مكان يدعوه نوفاليس والإخوة شليغل بالرومانسية؟ كان من الممكن أن يُظهر كاسبار ديفيد ألف ميل مربع من براندبورغ حيث تعوي الذئاب والثعالب أمام خراب الأرض وشحوب الماء الأخضر.

أما لوحة (دير في الغابة) فيظهر فيها جدار طاله الدمار، وأشجار جرداء تلتوي جذوعها تحت سماء تميل إلى الاحمرار، ونافذة قوطية مثل غصن ميت. كان يبرز دائماً هذا الميل للعدم والذوبان في اللامحدود.. ألم يكن

الرجل الرومانسي يعول على شيء وسط الطبيعة؟ أليس هناك مكان يمكن أن يجد فيه نفسه؟ ليس على قمة جبال الألب في كل الأحوال.

بينما كان فريدريش ينحني لرؤية لوحة (صباح على الجبل) محاولًا التعرف على الشخصيتين الضئيلتين اللتين كانتا تحاولان صعود الصخرة، شعر بلمسة يد على كتفه، كان كاسبار ديفيد قد أظهر له البحر كضباب قطني يطفو في البعيد في أعلى سلسلة القمم الجبلية..

آه، إذا كانت طفولته على ضفاف البلطيق، ومشهد الأمواج الصاخبة والغيوم، وإذا كانت ساعات المشي الطويلة على سواحل بوميراني الممتدة على مدى النظر، وإذا كانت هذه الحميمية مع الموجة والسماء والبحر قد قادت جميعها هذا الرجل إلى عدم الاهتمام إلا بالطاقة الكونية المختبئة في قلب الأشياء، فقد كان على فريدريش أن يهنئ نفسه على مغادرة لوبيك وسواحل شليسفيغ المنبسطة للذهاب والتعلم من الاتصال بالإيطاليين حب الأشكال المحددة الجامدة. أي رهان بالنسبة للرسام سوى الرغبة في الإمساك باللامرئي؟

في إيطاليا، كانت هنالك آفاق قياسية، ومناظر طبيعية مرسومة كما في لوحات فرا إنجيليكو، ونقوش بملامح واضحة، كأشجار السرو في التلال، وكانوا يدرّسون الرسامين أن يعتبروا الرجال والنساء مثل أحاديات صغيرة تدور في فضاء الكون الفسيح. أما الوجوه المقدسة بالنسبة لهم مثل الله فيضعون عليها شعاعًا مثل القديس فرانسوا داسيس الذي كان يتحدث أيضاً إلى الطيور.

كان فريدريك غويوم الثالث، بناء على نصيحة الملكة لويز، قد اشترى اللوحات الثلاث للتو لقصره في شارلونبيرغ. يا له من ملك، قال الشاب لنفسه وهو يتذكر رؤية عربة الملكة في برلين، كان قد أنفق أكثر من خمسة آلاف تالرز ليفقد نفسه ويغوص في عمق اللانهاية مجانًا.. لكننا بشر بسطاء، وفي منتهى الهشاشة، فهل يلزمنا أن نتخلى عن أنفسنا لننصهر في العناصر؟

كان والدي قد أخبرني بأنه في اليوم الذي سجل فيه اسمي واسم عائلتي في سجلات دار البلدية، كنت قد ولدت فعلًا. ربما تكون الحالة المدنية

تكفي كضمان معنوي للتاجر. أما أنا، فأعتقد أني انصهرتُ في الوجود من خلال العمل الفني.. إنه الرسم الذي سينقذني من هذا الشعور المؤلم بعدم الاستقرار، وهو الذي يلتصق بالعالم الذي يمجد كل تفصيل من الخلق بدءًا من الوجه البشري.

لم يسعه الامتناع عن سؤال الرسام:

- إذن، لا يدخل مرسمك رجل أو امرأة مطلقًا ليكونا موديلًا بالنسبة لك؟

بلا إجابة، فتح كاسبار ديفيد الباب وانتصب واقفاً على العتبة. كانت الشمس قد بدأت تغرب في الجانب الآخر من الألب.. كانت هناك شجرة صفصاف تؤطر الفتحة المستطيلة، وكان يمكن رؤية الشجرة بأكملها من الأعلى إلى الأسفل وهي تنحني بأغصانها اللدنة على النهر الذي كانت تنعكس فيه أوراق الأشجار الفضية الرقيقة.

عاد إلى مسند اللوحات، وركز نظره في اللوحة الموضوعة عليه.. كان فيها رجل طويل القامة يقف في مقدمة اللوحة متسلقًا القمة وهو يتأمل بحرًا من الغيوم عند قدميه. وهذه المرة، ضمت اللوحة بعض التفاصيل مثل بدلته الخضراء ومعطفه الطويل وعصاه الجبلية وياقة قميصه وشعره الأشعث. تنهد كاسبار ديفيد، طالما أن التخلي البطيء عن المنظر الطبيعي في اللوحة كان بمنزلة انتصار نسبي له، كما دون فريدريش في كراسته.. كانت الشخصية في اللوحة قد أدارت ظهرها للمشاهد.. لقد كان رجلاً بلا وجه أيضاً، وكان يقف أمامهم من أعلى هذه القمة التي يتعذر الوصول إليها، لكن نظرته وروحه وأحلامه بقيت مركزة على الجبال البعيدة.. كان جسده موجوداً لكن روحه كانت تطوف في الفضاء ممتزجة بضخامة الكون.

كانت هذه اللوحة جميلة جداً، بما فيها من عمق في الإحساس فجّر في قلبه حنيناً مؤثراً للغاية، لدرجة أنه مال إلى الاعتقاد أنه كان مخطئاً بمطالبته بالدقة والوضوح بينما يبدأ الفن الحقيقي العظيم من نقطة تتلاشى فيها الخطوط العريضة في صبغة واحدة غامضة، ما يسمح للعقل بالتحليق بحرية فوق الأرض وغير مرتبط بالأشياء التي تشوه الرؤية.

كان كاسبار ديفيد قد سار ذهاباً وإياباً في الغرفة الصغيرة، كما لو أنه

لم يغفر لنفسه إدخال كائن غريب إلى لوحاته. كان يتنهد وهو يمسد لحيته الروسية الحمراء بأصابعه. لم يجرؤ الشاب الصامت على مقاطعة تأملات مضيفه. كان هو ذاته بحاجة إلى ترتيب أفكاره بعد أن اكتشف أن كل هذه اللوحات الغربية، والتقدم التقني الذي تم إحرازه منذ العصور الوسطى، واكتشاف مواد التلوين الجديدة، واستخدام الزيت، والتوفيق بين قوانين المنظور، والتطور المتعاقب في الرسم، ربما كان كل هذا الجهد قد ساعد فقط في تمهيد الطريق لإلغاء هذا التقدم الغامض للألوان والغوص في العدم.

كان فريدريش على وشك الاستسلام للاقتراح السحري لهذا الفن عندما سقطت عيناه على حقيبته التي كانت مودعة في ركن الغرفة.. برزت صورة السيدة العذراء أمامه مباشرة فمدّ يديه نحوها بحركة غريزية كأنه يستعطفها.. لا، لم يكن الفن الروحي يقوم على تذويب الأشكال في العدم، لابد أن يميل الرسم إلى هذا الهدف عن طريق الأشكال الكاملة. في وجه السيدة العذراء، تنعكس صورة الله ذاته. لا أحد يمكن أن ينكر أن هذا الوجه كان ينتمي لامرأة، وأن رافائيل كان قد رسم الله من خلال امرأة، ورسم الكل من خلال الخاص.

قال فريدريش لنفسه:

إيطاليا، إيطاليا، لقد عرف الإيطاليون وحدهم أكثر من أي وقت مضى كيف يضعون الإنسان وسط الطبيعة..

كانت صورة إليزا تجاور صورة السيدة العذراء لرافائيل، كان سيتعلم في إيطاليا ويرسم وينسخ الأعمال القديمة لكبار الفنانين بلا كلل، ليتشبث بطريقتهم ويجيد إعادة إنتاج ملامح الوجه. لقد لمس التناقض بين الرقة الظاهرية والقوة الداخلية لإليزا، بملاحظة الخصلة الشقراء لشعرها المعقود بشكل ضفائر حسب الموضة الألمانية القديمة.. ألم يساعد هذا على نضوج قراره بدراسة أكثر عمقًا للفنون الجميلة؟

اليوم، فكر بأن طموحه لرسم صورة للفتاة الجميلة كان قد حدد رسالته الفنية، وللمرة الأولى، استطاع أن ينسب هربه من لوبيك إلى حبه لخطيبته. إنها حقيقة مفاجئة طردت من ذهنه الندم المتقطع لأنه لم يجد بعد الفرصة

للكتابة إليها. ما الذي يمكن أن تعنيه الجمل القليلة لرسالة بالمقارنة مع هذه الإرادة القوية في أن يصبح فنانًا كبيراً بما يكفي لتخليده؟

كان يرسم لها صورًا عديدة كما فعل رامبرانت مع ساسكيا، ورافائيل مع فورنا رينا، وفيليبو ليبي مع لوكريزيا بوتي، وكان يضع إمضاءه عليها. كان سيرسمها بمئة طريقة كراعية أغنام، كالسيدة العذراء، كقديسة مثل فينوس، مثل سالومي، وبهيئات مختلفة، ولكن دائماً ما كان يشكر نعمة وجودها في قلبه، فمن أجلها، هي وحدها، قرر أن يصبح رسّاماً.

فكر بأن مجرد وضع لمسات لونية على قماشة اللوْحة ستكون إطراءً مباشرًا لإليزا، ووسيلة لإظهار حبه لها، ورابطًا إضافيًا بينهما. إنه يشعر بسعادة كبيرة لدرجة أنه سيقفز على قدميه وربما سيردد واحدًا من ألحان باخ القديمة التي كان قد تعلمها فيما مضى في كنيسة ماريانكريش، غير مبال بالكآبة الشديدة لمضيفه الذي لم تعد لوحاته تمارس سحرها عليه منذ أن أدرك أن عالم كاسبار ديفيد هو عالم بلا حب.

وقف الرسام من جديد على العتبة، كانت الشمس مثل كرة قرمزية تتدلى بين التلال، وتحتضن السماء والماء، وكانت روعة هذا الشفق تتناقض مع تداعي المنزل حيث لم تعد ألواح الأرضية تلمع منذ وقت طويل وكان الأثاث باليًا تغطيه طبقة من الغبار ما يدل بوضوح على عدم وجود امرأة تعتني بالمنزل. ألم يحب قط؟ ألم يتعرف على معجزة الحب؟ أم إنه أقسم على نفسه ألا ينظر في وجه أحد أبداً من منطلق الولاء لذلك الوجه الذي ابتلعته المياه أمام عينيه؟

وبينما ابتعد فريدريش على طول النهر من دون أن يجرؤ على الاستئذان من الرسام إلا بإيماءة من رأسه لم يقابلها الرسام بأي رد، شعر الشاب بالارتياح كما لو كان قد نجا للتو من الأذى.

الفصل السابع

من دريسدن إلى فيينا، التي كانت قد سقطت قبل أيام في أيدي الغزاة، كان الطريق الأكثر مباشرة يمر عبر براغ. ولكن لم يكن من الضروري التفكير في عبور خط الجيوش للدخول إلى بوهيميا.

من دون مغادرة ساكسونيا، التي كان ملكها حليفًا لنابليون، سار فريدريش على طول الحدود نحو الجنوب. كان سيمر بسلاسة عبر بافاريا وهي مملكة أخرى حليفة للفرنسيين للوصول إلى الدانوب وعبوره نحو رايتسبون التي خسرها النمساويون بعد هزيمتهم في أكموهل.

من رايتسبون، كان نابليون قد انسحب مع قواته من الضفة اليمنى للدانوب من دون إطلاق رصاصة حتى فيينا، التي استولى عليها لانز بأسلحته الرهيبة. أما الأمير تشارلز المهزوم في أكموهل فقد انسحب مع قواته من الضفة اليسرى من الدانوب وعسكر بمواجهة فيينا على الجانب الآخر من النهر. حيث أدت فيضانات الربيع إلى تضخم مياه الذراعين اللتين تفصل بينهما جزيرة لوباو.

كان فريدريش يتفحص الخرائط التي أعطاها له صاحب فندق وتنبيرغ ويأمل التسلل إلى العاصمة النمساوية عن طريق اتخاذ الطريق الذي سلكه جيش نابليون. وكان سعاة البريد في مقاطعة فيينا قد أفادوا بأنه فيما بعد رايتسبون التي دمرتها القذائف والحرائق، بقيت القرى سليمة. كانت الحقول تتموج في ظل وفرة المحصول الاستثنائي، لم يكن الدقيق ولا اللبن مفقودين في الحقول، ولم يكن يعيق سهولة السفر إلا شدة الحرارة التي كانت تثقل على السهل في أوائل الصيف.

فكر الشاب بأنها كانت فرصة مناسبة له لكي يتجنب براغ حيث كان قد واجه فيها ما أنتجه الفن الكاثوليكي المنمق البغيض. إغماءات القديسات، تشنجات وجوه الشهداء، تلك المشاهد المسرحية للعذابات والصلب، وهذه الجماعات الضخمة من الملائكة التي تحتشد في توازن غير مستقر على مذابح وأعمدة الكنائس، لا، لم يكن يرغب في أن يتذكر أن إيطاليا لم تكن فقط موطن غيوتو ورافائيل فحسب، بل كانت أيضاً موطنًا لمناهضة الإصلاح وانحطاط الأسلوب. ألم يكن المهندسون المعماريون والنحاتون الإيطاليون أو النمساويون الذين تدربوا في روما ومدرسة الفارس بيرنين قد شوهوا قبل قرنين من الزمان وبعد سحق التشيك في الجبل الأبيض عاصمتهم التي كانت تفتخر بآثارها القوطية؟

ولإكمال الهزيمة العسكرية بإذلال معنوي، قام المنتصرون النمساويون بتلطيخ المباني النبيلة في بوهيميا بالرخام والطلاء المذهب والجص لمذهب متصنع ومزيف. كان رئيس بلدية لوبيك يستشهد غالبًا بهذا المثال لتعزيز إيمان ابنه اللوثري وتحذيره من عبادة الصور. كان يقول له: «الفن ليس بريئًا أبداً، فريدريش!»

لم يكن فريدريش، حتى قبل عبوره جبال الألب، يريد أن يشكك في حلمه في التوفيق بين قيم الروح الألمانية وأشكال العبقرية الإيطالية، كان سعيداً جداً لأن فرصة الحملات النابوليونية أعفته من التوقف في المدينة حيث يتم عرض الفن الرجولي والذوق اليسوعي السيئ الذي من شأنه أن يجبره على الانحياز له. قال في نفسه:

– «أنا لا أحب، ولن أحب الأسلوب الباروكي أبداً». وهو تأكيد حسم مؤقتًا الصراع الذي ولد في قلبه في دريسدن، عندما كان قد أدرك إلى أي سمو رائع بلغت الفنون الجميلة في الحضارة التي لا ترفض ملذات الحواس. قرر فريدريش أن يحافظ وسط الفوضى والتراخي في روما على الحكم الصائب لعقل نشأ على تعاليم الدين الحقيقي. لم يستطع والده ولا السيناتور بولك ولا إليزا اتهامه بالانحراف عن مثال البساطة والاستقامة للفن الألماني القديم. ومن بين ذخيرة من الأشكال التي تفتخر بها مدينة البابوات، كان ذوقه يميل إلى تلك التي تتوافق مع الأقل سوءًا من قناعات

أسلافه مثل الكنائس الصغيرة المتواضعة للقرون الوسطى أو قطع الفسيفساء التي تتلألأ في ظلام المحراب.

في هذا الصباح الجميل ولكن الحار بالفعل في الأسبوع الأخير من شهر أيار، كان يسير على الضفة اليمنى لنهر الدانوب بين الشابين اللذين كانا يرافقانه من دريسدن. لقد ذهبا أيضاً إلى فيينا ليكملا فيها دروسهما، كان الأول فيلهلم شادو الذي التقاه في برلين، والذي وفقًا لتكهنات شينغل، كان قد تأخر في استعادة فرش ألوانه، على الرغم من ازدراء الكويكرز للفنون الجميلة. وفي دريسدن، التحق بصديقه فيليب فيت، الذي انشق عن الطائفة بسبب حبه للرسم. كان فيلهلم وفيليب يسيران مع فريدريش وهم يتجاذبون أطراف الحديث. كان فيليب قد عاد إلى فيينا حيث كانت والدته قد تزوجت للمرة الثانية بفريدريش شليغل صاحب النظريات الرومانسية! وضمير ومنارة جيلهم!

يمكن التكهن بأن الحديث بين الشباب الثلاثة لم يفتر، فقد كان فريدريش أوفربيك مهذارًا، ولم يكن يتوقف عن تمجيد القاعدة التي وضعها الكويكرز بقول كل ما يفكرون فيه فقط، أما الشاب فيت فكان مستاءً من زوج والدته لأنه كان السبب في طلاق والديه.

صاح فيليب مجيبًا على تعجب متحمس من فريدريش:

– ألمانيا الجديدة، لنتحدث عنها! هل تعرف الإهانة التي كان على والدتي أن تتحملها عندما جاءت لرؤيتي في دريسدن؟ كان عليها أن تدفع الضريبة الخاصة باليهود، علاوة على ذلك، الحصول على تصريح إقامة صالح لمدة أسبوعين، وقابل للتجديد مقابل فلورين واحد في اليوم. من الجيد أن نلتقي في المقاهي وأن نكتب في المجلات الأدبية، لكن حتى يضعوا المساواة مع اليهود في برامجهم، فلا يمكنني قبولهم.

أجاب صديقه:

– لم يكن من الضروري أن نصبح مصرفيين.

كان فريدريش يعرف جيداً نظريات فيلهلم وازدراءه المعلن لكل الأنشطة التجارية، لكن قسوة هذه النبرة عند مخاطبته صديقه أزعجته كثيراً.

تفاعل فيليب معهما بحيوية، إذ يبدو أن هذا لم يكن أول نزاع بينهما حول هذا الموضوع، وأنه بين حفيد موسى مندلسون والكويكرز المتمسك بموقفه كان المال يشكل دائماً فرصة للاحتكاك بينهما. قال بجفاف:

– لو لم يمنع لوثر المسيحيين من المتاجرة بالمال لما كانت الأعمال المصرفية واحدة من المهن القليلة المتاحة لليهود.

لم يكن فيلهلم قادرًا على دحض هذه الحجة، فدمدم متذمّرًا ببضع كلمات غير واضحة.

كان الثلاثي قد اجتاز مدينة لينز باتجاه سانت بولتن وهي المحطة الأخيرة قبل فيينا. عندما قال فيليب:

– كان جدي مصرفيًا، نعم، مصرفيًا، فيلهلم، وكان له عيوب أكثر من مزاياه. كان هناك مائتان من اليهود داخل أسوار المدينة، وفي فترة شبابه، وللحصول على لقب «اليهودي المحمي» والحق في الإقامة، كان على المرء أن يدفع ضريبة قدرها خمسة عشر فلورين لغرض دخول المدينة، بالإضافة إلى حصة سنوية من نفس المبلغ، (2) فلورين في العام لدار الأيتام، وبضع عشرات من التالرز لتسديد ضرائب مختلفة على السكر والأوز وأكباد الأوز ولسان العجل واللحم. وعندما كان جدي يقرر الذهاب في رحلة، كان عليه أن يدفع ثلاثة كروتز لكل ميل أو ميلين فيما وراء الأسوار، واثنين وأربعين كروتز لما هو أبعد من ذلك. ثم يتم إلقاء اللوم على الأطفال لمعرفتهم كيفية التعامل بالأرقام!

اعتقد جدي أنه مع وصول الفرنسيين الأوائل، جنود الجمهورية، ستبدأ حقبة جديدة من المساواة والحرية بالنسبة لهم. لن أهتم بالمساواة! كان هنالك تقليد قديم يمنع اليهود من امتلاك منزل في هامبورغ في زاوية بين شارعين. وكان هذا المنع قد تم إهماله قبل ولادة جدي الذي اشترى منزلًا في زاوية جورجستراسه وسوليرجاس. لكن أعضاء المجلس المحلي استغلوا الوصاية الفرنسية لإعادة المنع. كان جدي قد التجأ إلى بروسيا بعيدًا عن متناول الفرنسيين. لكن المضايقات بدأت مرة أخرى من جانب البروسيين. ثم استقبل فريدريك غويوم اليهود المطرودين من

ألمانيا الغربية لكنه فرض عليهم ضرائب جديدة. فبالإضافة إلى الضرائب المعتادة، كان عليهم دفع كمية معينة من القطع الذهبية في العام، وكمية مضاعفة للحصول على لقب «يهودي المحكمة» الضروري لمن كان يريد التعامل مع مصرف. من احتج على هذا الظلم؟ من خرج للدفاع عنهم؟ لا أحد. دعا الفيلسوف فيشته إلى التمرد، لكن زوج والدتي مجّد، من خلال الشعر والنثر، ذكرى أرمينيوس زعيم الجرمان، لكن أبطال الوحدة الوطنية لم يكونوا قد اتخذوا موقفًا علنيًا ضد التعصب المتعلق باليهود. وأضاف بعد وقفة:

– ماذا كان بإمكان جدي أن يفعل؟ هل يرحل مرة أخرى؟ لقد بقي في برلين. ولم يخسر جميع الذين وصلوا إلى بروسيا، حتى إن بعضهم وجدوا مصلحة في ذلك. أليس كذلك، فيلهلم؟

ارتعد فيلهلم، بينما واصل فيليب موجهاً كلامه إلى فريدريش:

– يجب أن تعلم أن والده وليشتري عربة كدريجة من البرونز من باب براندبورغ، اقترض من جدي، فبدون أموال موسى منلسون، ربما لم يكن غوتفريد شادو ليصبح النحات الأول في ألمانيا.

تمتم فيلهلم:

– الفن دائماً فاسد، الكويكرز كانوا محقين في تحريمه.

أجاب فيليب، من دون أن يغفل إثارة جدل جديد يغذي صداقتهم:

– إنهم ينادون باسم الوطن الأم، وهم يتحسرون على الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة، ولكن في العشرات من بياناتهم، في الآلاف من أبياتهم الشعرية، لن تجد سطرًا واحدًا لمصلحة اليهود. وخلال هذا الوقت، قاموا بإذلال أمي بإجبارها على تقديم فلوريناتها في مكتب الشرطة، إذا كان الله يريدنا أن نكون مرفوضين إلى الأبد..

قاطعه فريدريش:

– بالطبع لا.. لقد أمر نابليون بفتح الأحياء اليهودية. لدي صديق في فرانكفورت روى لي المشهد المرعب لآلاف اليهود وهم يتدافعون عبر الثغرة التي أحدثها خبراء المتفجرات الفرنسيون. لقد كانوا محصورين منذ

قرون خلف السور، وكانوا يعيشون في قذارة وظلام الزقاق النتن. ها قد انتهى كابوسهم في الوقت الحاضر.

بدا فيليب منزعجًا، ثم قال متلعثمًا وهو يحاول استعادة رباط جأشه:

- إذا كان نابليون قد فتح الأحياء اليهودية في فرانكفورت، فهذا لأنه كان بحاجة إلى المال من روتشيلد!

أصر فريدريش، الذي كان صريحًا للغاية بحيث لا يخفي أن الدول المكروهة يمكن أن تتخذ مبادرات جديرة بالثناء:

- لقد تم اتخاذ نفس الإجراء بالنسبة لمدينة البندقية وروما وأمستردام.

احتج الآخر بضعف:

- ربما.. في مدن المصرفيين.

استمر النقاش على هذا النحو، من دون أن يتظاهر فيليب بالاستسلام لأي من الحجج التي كانت تعارض آراءه. هل كان خائفًا من الظهور بمظهر اليهودي أكثر من كونه ألمانيًا؟ أم كان هنالك سبب أكثر سرية يمنعه من الابتهاج؟ بأية بهجة مريرة كان قد عامل إخوته في الدين، وارتبط بجده، البطريرك الشهير ونصير أدباء وعلماء برلين لقب سيئ السمعة؟ يبدو أنه لن يستطيع إقناع نفسه على قبول أنه في المستقبل القريب ستعرف مكانة اليهود تحسنًا كبيراً.

تفاجأ فريدريش في البدء بهذا العناد ونظر إلى الوجه الصغير الشاحب الذي كان قد دافع عن نفسه قدر استطاعته، مثل كل أولئك الذين نشأوا كمنبوذين في مجتمع عدائي.. لم يكن يمتدح بسهولة المظهر الذي يشمل المستبعدين. كانت تحيطه هالة من التعاسة، على الرغم من مطالبته بمساواة الحقوق. بمثل هذه المجافاة للمنطق، كان يتحدث عن المعاناة الطويلة لأبناء جنسه بدلاً من إزعاج فريدريش، ما جعل رفيق شبابه الأغلى فيلهلم الذي يصغره بأربع سنوات يعطي تفاصيل جديدة عن طرد جده من هامبورغ كلما صادفوا بدلة رسمية زرقاء وبيضاء. برز في صوته الفخر أكثر من الغضب مؤكدًا أن اللعنة لن تتوقف عن الارتباط بعرقه، ووجه كلامًا ساخرًا لرفاقه قائلاً:

- «زقاق فرانكفورت النتن» هل كان يكفي لتحويل نابليون إلى منقذ؟

لم يجبه فريدريش لأنه كان يجيد قراءة أعماقه. كان فيلهلم، الذي انزلقت

قبعته على عينيه، يفكر في نقل الأعمال الفنية إلى فرنسا. بتذكيره بأن شراء الكدريجة كان يعتمد على مصرف مندلسون، لم يجد فيليب حجة أفضل لإقناعه بفضائل الصمت. فهو الدواء لكل التناقضات.

على حافة الطريق، لاحظ الأصدقاء الثلاثة أحصنة مربوطة إلى وتد والجنود الذين كانوا يركبونها، منجذبين لبرودة الماء. كانوا قد ذهبوا للاستحمام في النهر. تسلل فيليب بين الأحصنة ثم شوهد وهو يفك لجامها ويدفع الحيوانات أمامه ليجعلها تهرب بعيدًا..

سأل فريدريش:

– ماذا فعلت؟

بدأ الثلاثة بالجري نحو الغابة الصغيرة، وعندما اختبأوا تحت الأشجار، بمنجى من الفرسان المرتزقة للجيش البروسي، التفت فيليب ساخرًا من رفاقه. ألم يكونوا يعلمون، مع طبعات قرون الوعول على أفخاذها، لمن تعود هذه الدواب؟ أم إنهم يؤيدون ملك فورتمبرغ الذي كان قد انضم إلى تحالف نهر الراين وكان يزود الغزاة بالقوات القتالية؟

كان فيليب سيبقى لمدة عام واحد فقط مع فيردريش وفيلهلم وأصدقاء آخرين من مجموعة فيينا، وسيعود إلى الرسم فقط في عام 1814، بعد مشاركته في حرب التحرير، مختبئًا في باريس مع فيلقه من القناصين الفرنسيين، ليثبت أن من كان في «الزقاق النتن في فرانكفورت» لا ينخدع بالطبيعة البربرية الوحشية للاستبداد. كان يمكن العثور عليه بعد ذلك في روما، ولكن عندما لم يزل زعماء القضية هناك.

على العكس من ذلك، كان فيلهلم شادو فتى يفضل الدراسة والمتابعة عن كثب. كان في حالة مزاجية كئيبة في ذلك اليوم، وتجلى ذلك من خلال همهمات قصيرة ومختصرة، وكان نصف وجهه مخفيًا تحت الحافة السفلية من قبعته، وإذا كان وقت فيليب لن يحل أبداً، فإن وقت فيلهلم لم يحل بعد!

لم يكن هذا هو الحال مع الشخصية الرابعة التي ستحتل المشهد.. فرانز الذي ما إن أطل عليهم حتى ابتهج فريدريش وتوجه نحوه فرحًا ليتعلق برقبته وهو يهتف:

– فرانز، كم كبرت!

كان المشهد قد حدث في ساحة جرابين في فيينا، أمام عتبة فندق ستامب. نفد صبر فرانز وهو ينتظر فريدريش في حجرته في الطابق الرابع من البناية التي شوهت واجهتها قذيفة أطلقت خلال الحصار.. كانت الطفرة في النمو غير المتوقع من صبي في العشرين من عمره سببًا كافيًا للدهشة التي اعترت فريدريش، حتى لو كان من الممكن تفسير الصرخة التي أفلتت من فريدريش بطرق أخرى عديدة كانفعاله لرؤية صديقه الأغلى مجددًا وبعد فراق طويل، والخوف من عدم إيجاد الكلمات التي تعبر عن مثل هذه اللحظة. كانت كمية الأخبار التي تبادلوها قد منعت الصديقين من الخوض في أسرارهما والتركيز على مشاعرهما.

أنزل فريدريش أمتعته في الحجرة التي كان فرانز قد حجزها له إلى جانب حجرته، لدى السيدة ستامب. خلع قميصه الغارق في العرق، واقترب من منضدة الزينة بانتظار الماء الذي ذهب فرانز لجلبه من مدخل الفندق حيث كان خزان الماء. كان يتشوق لرواية قصته! الحرب، الحرب! أين كنا منها؟ روى فريدريش، وهو يغسل ذراعيه وصدره، كيف اكتشفوا وهم يقتربون من فيينا، الآثار الأكثر قسوة للمذبحة. الخيول الميتة، حقول الحنطة المحترقة، الأشجار المتفحمة، المنازل المدمرة، ثم في الضواحي، حيث كانت الإطلاقات النارية قد تركت ثقوبًا في الجدران وآثار الحصار والهجوم الذي سمعوا عنه أثناء رحلتهم. أمام حديقة قلعة شونبرون الإمبراطورية، كانوا قد واجهوا الحراس الفرنسيين مما يدل على أن نابليون كان يقيم في فيينا ويتابع حملته. من دون أن يتوقف عن الكلام، خلع فريدريش بقية ملابسه وأصبح عاريًا تماماً في الوقت الحاضر. رش نفسه بالماء البارد من رأسه حتى أخمص قدميه، وكان فرانز قد أفرغ له إبريقًا ثانيًا من الماء في الوعاء وذهب ليجلس في الطرف الآخر من الحجرة. وعندما توسل إليه فريدريش أن يفرك ظهره بالإسفنجة، بقي جالسًا كأنه لم يسمع شيئاً. سأله فريدريش:

– ألا تريد الاستفادة من الماء الذي بقي في الوعاء لتغتسل أنت أيضاً. الحرارة خانقة، ألا ترى ذلك؟

قال فرانز باسمًا:

- لكن لا، هذا صحيح، الكل يشكو من الحرارة هنا.

لكنه لم يكن يتعرق، كما لاحظ فريدريش، على الرغم من صعوده الطوابق الأربعة وحمل المضخة الثقيلة في الدهليز. نظر بعد ذلك إلى صديقه للمرة الأولى. فرأى عينين واسعتين صافيتين، وأنفًا مستقيمًا، وشفتين رقيقتين ومرسومتين بشكل جيد، وشعرًا مفروقًا عند منتصف الرأس وخصلات متناثرة على جانبي الصدغين. كانت هيئته جادة ومحافظة، ولم تكن ملامحه تحمل جمالًا خاصًا لكنه كان يشع نورًا داخليًا يجتذب الأنظار في الشارع ويجعل النساء يلتفتن إليه، على الرغم من خلو قلبه من الغرور.

لاحظ فريدريش أن ثمانية أشهر قضاها فرانز في فيينا عاصمة المتع واللذائذ لم تجعل الشاب ينحرف عن خطه الذي كان لا يزال نقياً، ولم يحصل له أي تغيير عدا التناقض بين التطور الرجولي لجسده وغياب العرق عن جسده، وهذا الصفاء الجسدي كأنه نال موهبة المرور عبر الموجة الحارة سالمًا. عاود فريدريش ارتداء ملابسه، وبلا تأخير أكثر، قاده فرانز إلى الشارع نحو باب كارينثيا.

- دعني أخبرك بما حدث في فيينا!

قال فرانز وهو يشير إلى الحشد المتجمهر أمام بوابة أمير ساكسونيا - تيشين. في الشرفة، وعلى عصا رمح، كانت ترفرف الراية التي تحمل نسر نابليون، كان المارشال لانيس قد جعل من هذا القصر مقرًا له، وغرس على الشرفة التذكار الذي فاز به عند سفح الإهرامات، في هذه اللحظة بالذات، بعد أن أصيب في معركة إيسلنج وبترت كلتا ساقيه، كان فاتح فيينا يتألم خلف الستائر المغلقة جريحًا. سأل المسافر:

- معركة إيسلنج؟

- كيف؟ ألا تعرف؟

بدا أن الأحداث الهائلة قد سحبت فرانز من لامبالاته المعتادة ليجد نفسه على علم دقيق بالموقف، لم يستطع فريدريش تصديق عينيه عندما رآه يخرج من جيبه خريطة مفصلة للمدينة والضواحي. لم يكن الاستيلاء على

فيينا كافيًا لنابليون. كان قد وضع في رأسه فكرة مهاجمة الجيش النمساوي المنسحب على الضفة اليسرى من الدانوب، وعندما نجح الجيش الفرنسي في اجتياز النهر بالسفن، بدأت المعركة. لقد قام الأرشيدوق شارلز بالمناورة بشكل جيد لدرجة أنه كان سيدفع قوات العدو مرة أخرى إلى الماء، لو لم يكن نابليون قد أمرهم باجتياز الذراع الصغيرة للنهر والتخندق في جزيرة لابو. «إنه العائق الأول لنابليون»

تعانق الصديقان. ولكن ماذا سيحدث الآن؟ هل سيحل السلام؟

سيظل فيضان نهر الدانوب الذي ساهم في فشل الفرنسيين، العقبة الرئيسية أمام محاولة هبوط أخرى. كانت الذراع الكبيرة التي تفصل لابو عن فيينا وتعادل ربع المكان تقريباً، تحمل جذوع الأشجار التي كانت قد أتلفت متون السفن. هل يجرؤ نابليون، من دون أن يكون واثقًا من تواصله مع المؤخرة، أن يطلق قواته للهجوم للمرة الثانية؟ قيل إن ثلاثين ألف رجل عملوا بلا كلل في جزيرة لابو لتأمين الجسور. كانت كل فيينا تناقش هذه الاستعدادات، وتنحاز أحياناً نحو التخمينات. كان الحديث يدور عن نقل مائة مدفع من العيار الثقيل إلى الجزيرة، وهي علامة أكثر إثارة للقلق، فالتعزيزات كانت تتدفق من كل مكان إلى العاصمة. من كان قد لاحظ رجال الساكسون للمارشال بيرنادوت وجنود الخيالة للمارشال دافو. لقد تم الإبلاغ عن جثث مارمونت وأودينو. كان من المتوقع أن يكون الأمير أوجين على رأس الجيش الإيطالي.

شق الصديقان طريقهما بصعوبة وسط الحشد. ومد البعض رؤوسهم لينظروا إلى الخريطة التي أبقاها فرانز تحت عينيه. كان كل واحد منهم يريد أن يقول كلمته أو يضيف تفصيلة ما.

«مائتا قنينة من الشامبانيا، أقول لك»! أكد الموظف ذو الرأس الأصلع والنظارات المذهبة الذي تشبث بفريدريش أنه شاهد عدة بغال من الإسطبلات الإمبراطورية تتوجه في موكب نحو لابو مع حمولة ثمينة.

أضاف وهو يهز الشاب من كمه ليجعله يُعجب بأهمية تشخيصه:

– ومن لا تثيره فكرة أن هدية فخمة مأخوذة من القبو الشخصي

لنابليون، أُرسلت لمكافأة خبراء المتفجرات الذين اخترعوا طريقة إعجازية لضمان صلابة الجسور!

أُطلقت اثنتا عشرة إطلاقة مدفع على فترات منتظمة لتفرض الصمت على الحشد، فارتفعت الوجوه نحو شرفة القصر. ظهر ضابط ليقوم بتنكيس الراية، ثم دق ناقوس الكنيسة لإعلان الحداد. كان الجنود الفرنسيون المحيطون بفريدريش يبكون، بينما كان أهالي فيينا يهزون رؤوسهم بصمت، أو يمتدحون بصوت واطئ ولاء ذلك الذي كان قد أنقذ حياتهم من السلب والنهب بعد هرب الأرشيدوق ماكسيميليان، وبعد أن أشاروا إلى النساء، أخذن أطفالهن على عجل وغادرن المكان خوفاً من أن يؤدي اختفاء هكذا شخصية كبيرة إلى حدوث اضطرابات.

هتف فرانز:

- كفاك تفكيرًا في الحرب!

كان قد نفد صبره من إظهار قصر أكاديمية الفنون الجميلة لصديقه، حيث تمرن على العزف على الأرغن بالتوازي مع دراسته للرسم. كان فريدريش يود معرفة ما إذا كان والده قد كتب للبروفسور فوجيه مدير الأكاديمية ليبلغه بقدومه ويوصيه به خيرًا، أم كان غاضباً لدعم ترشيحه. انعطفا إلى شارع سانت آن بمواجهة الكنيسة، ثم توقفا أمام مسكن جميل مكون من أربعة طوابق. كم عدد الأساتذة؟ كم محاضرة في الأسبوع؟ كم عدد الطلبة؟ ألا يزال وينكلمان موجوداً؟ فكر فريدريش، وبعد عدة أجوبة غامضة، جاء السؤال الأخير: هل قام فرانز بتكوين صداقات جديدة؟

كان سؤالاً طبيعياً تماماً، بعد ثمانية أشهر من الغياب، وأمام المنزل حيث كانت تخرج أسراب من الطلبة الشباب وهم يحملون تحت أذرعهم لوحات رسم، ولا يغفلون إلقاء تحية مرحة على رفيقهم. اندهش فريدريش لسماع ضربات قلبه بانتظار الرد. لقد بذل قصارى جهده ليواصل الابتسام وهو يستمع إلى امتداح فرانز لروح وسحر يوليوس شنور فون كاروسفيلد، وهو نبيل شاب من أصل هنغاري موهوب أيضاً في ركوب الخيل كما في الرسم، فهو شاب لامع وجميل جداً..

سأل على حين غرة متفاجئاً من هذه الأخبار ومندهشاً من أن مثل هذه الصفات يمكن أن تجذب انتباه صديقه. احتفظ بنبرة خفيفة في صوته وهو يقول:

– أوه، فرانز! ربما كان هذا نوعاً من التظاهر.

– لماذا، إذن؟ إنه ليس بحاجة إلى هذا ليلفت إليه الأنظار. لقد وضعت الجنيات في مهده كل الهبات.

قال فريدريش متلعثماً:

– و... هل ترون بعضكم بعضًا غالبًا؟

لم يكن والده قد علمه ركوب الخيل! لاعنًا أصله البرجوازي والتجاري، كان يرغب أن يشعر بأنه أقل ثقلًا، وأقل انتماءً إلى لوبيك، من أجل التنافس مع هذا المنافس غير المتوقع والتفوق عليه. كان يتخيله وهو يقفز الموانع في مدرسة الفروسية لترويض الخيل.

– إنه من غلمان البلاط، وعندما هربت العائلة الإمبراطورية –كما تعلم– كان عليه مرافقة سادته إلى بودا.

– متى غادروا؟

– في الرابع من أيار، مع كل أفراد البلاط، وكل الأمراء.

فكر فريدريش: «آه، إنه يعرف اليوم المحدد الذي تركه فيه يوليوس»

سأل فرانز:

– ولكن، ماذا دهاك؟ أنت شديد الشحوب.

باعد فريدريش ما بين شفتيه ليبتسم، لكن فمه افترّ عن ابتسامة مفتعلة وقال بصوت خافت:

– لا شيء، ألست حراً في اختيار أصدقائك؟

هز فرانز كتفيه، وهمس في أذنه:

– أحمق، صديقي المختار هو واحد فقط.. إنه أنت! تعال، سأجعلك تستمع إلى أرغن سانت آن. ست وثلاثين مقطوعة فقط.

تألقت الكنيسة المذهبة بأضواء باهرة، كان فريدريش، الذي اضطهدته حرارة الشارع، سعيداً بالجلوس في نهاية صحن الكنيسة في الظل البارد،

على الرغم من أن كل الأفكار القاتمة لم تغادر قلبه! تساءل: هل أحب رسالتي عن الأرغن؟ ألم تفقد أهميتها عندما تحولت اهتماماته نحو الخيول؟ هل بدأ يعزف ليمنحني بعض التغيير. ثم شعر بالخجل من التفكير على هذا النحو. ذكرته الموسيقى التي كانت تتصاعد بلطف من تحت أصابع فرانز بلقاءاتهما ومشاعرهما الأولى. سيمر عامان تقريباً منذ أن تبادل الصبيان دماءهما في حديقة منزل أوفربيك، بعد أن قاما بجرح معصميهما، وكانا قد أقسما في عيد ميلاد فريدريش الثامن عشر على الارتباط بصداقة أبدية.

استرجع فريدريش كل تفاصيل إقامة فرانز في لوبيك: النزهات على شاطئ البحر، صيد القريدس عند مصب نهر تراف، الخوف من قنديل البحر الرخو، تسلق السلالم إلى قاعدة الأبراج المدببة، هذيانات الأرغن في كنيسة ماريانكريش، الحلويات التي كانت والدته تضعها تحت تصرفهما بمحاباة استثنائية. الضحكات المجنونة، البطاطا غير المطبوخة جيداً بعد خلطها بالسمك المهروس المثير للاشمئزاز والبصل، والتذوق الاحتفالي لسمك الرنجة الناعم في نقابة البحارة، ولكن خصوصاً العهود التي قطعاها للمستقبل والرغبة في مواصلة دراستهما معًا، بمجرد أن يجد فريدريش، الذي كان ملزمًا من قبل عائلته، وسيلة للهروب وتحقيق طموحهما في أن يصبحا فناني ألمانيا الجديدة، وتحقيق مشروع التزاوج بين الرسم والموسيقى، والحلم أخيراً بالرحيل إلى إيطاليا حيث سيوحدان في أعمالهما جمال عصر النهضة بالقوة الروحية للقرون الوسطى.

عندما نزل فرانز من مقعد الأرغن، وجد صديقه هادئًا. كان عليهما مواجهة الشوارع الضيقة للمدينة القديمة واختلاط الروائح من جديد، وعلى حافات بوابة كارنيثيا، في المكان الذي تحول إلى حجرة بخار بسبب التعرق، كان الفرسان المدرعون من الفيلق الخامس قد احتشدوا أمام القصر حيث كان المارشال لانيس قد توفي للتو.

توافد الجنرالات ببدلات الاستعراض والزوار أمام القصر، لم يكن قد بقي من مجده الذي أثار انبهارهم بمآثره الأولى في مصر، لم يبق إلا هذا الرمح المملوكي حيث علقوا راية حدادهم. لم يجرؤ فريدريش بعد ذلك على قول ذلك، أو إدانة الحرب التي كانت قد أبعدت أهل هابسبورغ

عن فيينا، أو الاحتلال الفرنسي الذي أبقى الفارس الشاب من أصل هنغاري منفيًا.

طلب فريدريش من فرانز عدة مرات التوقف بالقرب من الينابيع ليرش الماء البارد على شعره ورقبته. كان فرانز واقفاً ينتظره بهدوء. فكر في نفسه: «لم يكن بحاجة إلى ذلك، كانت يداه جافتين تماماً» ولم تكن تلتمع قطرة عرق على وجهه. بدا أنه يتجاهل الحشد الذي كان يدفعه في الشارع، وكذلك بعض الإهانات التي تواجه الإنسان العادي والتي بدا له أنه نجا منها.

في الليلة الأولى لوصوله إلى فيينا، منهكًا من التعب والمشاعر المرتبكة، انسحب المسافر إلى حجرته.

الجزء الثاني

تحت حماية القديس لوقا

الفصل الأول

فيينا التي تعتبر مدينة للتسلية والمتعة والطعام الجيد والمسارح والحفلات الراقصة ومركزاً للحضارة الكاثوليكية، ربما لم تكن لتسعد فريدريش كثيراً، إذا كان نقص الطعام والترشيد المفروض على الإنارة المحلية وإغلاق صالات العروض وانخفاض مستوى المعيشة بعد الضرائب التي يفرضها المحتل والتهديد باستئناف الحرب، قد أثرت على الحالة المزاجية الجيدة وجعلت الأرواح تميل إلى الجدية. لكن القيود التي لم تكن تبدو مملة بالنسبة للشاب كانت قد سهلت تعوده، فكان يتناول طعامه في الفندق مساءً مع فرانز. أما في الظهيرة، فكان يتخذ مكانه حول واحدة من الطاولات الطويلة مع رفاقه في مطعم الأكاديمية، حيث كانت قناني النبيذ الأبيض هي السلعة الوحيدة التي بقيت تصطف بوفرة على الرفوف المستديرة.

كانت السهول المحيطة بالمكان مزروعة بالكروم، ألم يكن يعرف ذلك؟ كان لودفيج فوجل، أحد أوائل الطلبة الذين عقد معهم صداقات قد امتدح له تلال جرينزينج، حيث كان والده يسكن تلك الضاحية الشهيرة عند سفح منحدرات النبيذ. ومع رؤية هذا الصبي المرح والشديد الحيوية دائماً بخدين ممتلئين وبشرة وردية، اعتقد فريدريش أن الشراب الذي يتبنونه كان يؤثر على عقلية السكان، وأن أحد الاختلافات الرئيسية بين ألمانيا والنمسا ربما يعود لتأثيرات البيرة والنبيذ.

لم يكن للثمالة الشديدة لهؤلاء الذين يشربون الخمر وهم مخدرون أمام كؤوسهم الفارغة أية صلة بالبهجة التي كانت تسود مقهى الجنود في نهاية الوجبات حيث تتدفق النكات اللطيفة.. لهذا فكر فريدريش ولكي يكسب

ود صديقه أن يغفر له صداقاته مع الآخرين لأنه ربما كان وحيداً.. ووحيداً جداً في بداياته في الأكاديمية.

كان فرانز يقضي وقتاً أطول في مرسم العمل مما يقضيه في قاعات الدرس متفاخراً بممارسة المهنة التي مارسها والده. بينما بدا لودفيج مهتمًا جداً بمعرفة أنه بسبب الحصار القاري وإغلاق الممرات البحرية، اضطر السيد لوفربيك إلى استيراد نبيذه الخاص من بورغوندي، بدلاً من تخزينه في بوردو. أما فريدريش فلم يعرف قط إذا كان والده قد أرسل إليه خطاباً وتوصية بعد أن عرف بأن البروفسور فوجيه كان قد تقاعد منذ ستة أشهر وكان البريد معلقًا بسبب الظروف. لقد تم قبوله بسهولة ضمن العدد الإضافي وبشكل مجاني. كانت الحرب قد خففت من شروط القبول في الأكاديمية، وكان الفصل الدراسي قد تم تقديمه وما كانوا ليجعلوا طالباً وصل متأخراً واجتاز منطقة الجيوش يدفع الأجور. ونظراً لنفاد إمداداته من المال، فقد كان سعيداً جداً بهذا الإجراء. كان رفاقه يكسبون المال من بيع لوحاتهم لضباط جيش الاحتلال لكنه لم يكن يرغب في تعريض نفسه لخطر المشاركة في تجارة كانت تسيء إلى ضميره الوطني. سخر منه لودفيج، ولتهدئة مخاوفه، لم يكن أمامه إلا أن يفعل مثلهم، ويبيع رسومه إلى الفرنسيين أغلى مرتين مما كان يبيعه إلى أبناء فيينا.

في صفهم، لم يكن هنالك إلا طالب واحد كان يقف جانباً ويتسلى نادراً.. شعر فريدريش بالحاجة إلى الاقتراب منه كرد فعل على الجو المبتهج للأكاديمية الذي كان يتعارض أيضاً مع عاداته الصارمة. كان لجوزيف ونترغيست هيئة فتاة، كان شعره الأشقر الحريري يصل حتى كتفيه، كما جعلته رقة بشرته وسهولة احمرارها محط سخرية رفاقه. كان من الممكن اعتباره جميلاً لولا هذا النقص في الخيال الذي يطفئ نظرته وهذا الانقياد الصامت الذي جعله يتفق مع الجميع. ربما كان شعاره «لا مزيد من القصص».

كان والده قد قُتل في معركة أوسترليتز وعندما كان يبيع رسومه فقد كان يفعل ذلك ليدير فندق والدته الصغير. لم يكن لديه أي طموح آخر في الحياة وكان التعليم في أكاديمية يرضيه تماماً، الأمر الذي جلب له المزيد من التهكم.

كانت الثورة تغلي في أروقة القصر في شارع سانت آن، بينما كان يخرج لسانه ويبلل قلمه وينسخ بدقة فسيفساء بومباي وتماثيل معبد أرخيثيون، كما لو أن الفنون الجميلة تقتصر فقط على إعادة إنتاج الأعمال الكبرى للعصور القديمة.. المغفل! ففي اللحظة التي كانت ألمانيا تشهد فيها أحداثاً مثيرة، ألم يكن إرغام الشباب على رسم نماذج قديمة عمرها عشرون قرناً محبطاً لآمالهم؟

كان الطلبة ينتقدون أيضاً القواعد النظرية لتعليمهم، إذ كانوا يقولون لهم طوال اليوم: «ارسموا، ارسموا، قبل أن تحلموا بالرسم». كان عليهم اكتساب المهارات الفنية وسهولة العمل وسرعة التنفيذ، ثم يأتي الفن من تلقاء نفسه، إذا كانوا يمتلكون أولاً موهبة كافية.

فريدريش، الذي اختار فيينا ليتعلم فيها الرسم، حيث تركزت عقيدته الفنية بالكامل تقريباً في مذهب رسم الملامح، لم يميز في البداية ما هو سيئ للغاية في هذه العقيدة. قال لرفاقه:

– ألم يكن ينبغي على الجميع إتقان أدواتهم؟ لا شيء كان أكثر حكمة في رأيه من فصل التدريب المهني عن الإلهام الشخصي، وهو الرأي الذي قوبل بسخرية رفاقه واحتجاجهم ما أثبت له أنه لم يكن إلا ضحية متخلفة للمدارس الفلسفية الشهيرة في العصور الوسطى، إذ كان يعتبر القديس الأكويني مرجعًا له مع أن فريدريش لم يتحدث قط عن القديس توما الأكويني[28] أمامهم لكي لا يبدو في نظر رفاقه اللامعين ريفيًا جاهلًا.. لقد استمع حتى النهاية لكلمات التوبيخ المحشوة بمفردات لاتينية من دون أن يكون متأكدًا تماماً من فصل الجدية عن المزاح.

من خلال الخلط بين المفهوم الفلسفي والمفهوم الاجتماعي للفن في حالة حرة، أنشأ القديس توما التسلسل الهرمي غير المبرر بين الفنون «الليبرالية»، تلك التي تتطلب عملًا فكريًا فقط، مثل القواعد، المنطق، علم

28- القديس توما الأكويني: ولد عام 1225 وتوفي في 1274. كان راهباً دومينيكانياً، وفيلسوفاً، وكاهناً كاثوليكياً، في الكنيسة الكاثوليكية وعالم لاهوت، وفقيهاً وكان تأثيره على الفلسفة الغربية كبيراً.

الحساب، الشعر، والفنون «الذليلة» التي تتطلب أيضاً جهدًا يدويًا. وهو ما يتناقض مع حالة الإنسان الحر في العصور الوسطى، مثل الرسم والنحت. بالنسبة للقديس توما، كانت الفنون الليبرالية فقط هي التي تستحق اسم «الفنون».. أما الأنواع الأخرى التي تقوم على العمل على مادة خارجية، مثل العزف على آلة موسيقية، وقطع الخشب، ونحت الحجر، ووضع الألوان، واستخدام قلم الرصاص، فلم تكن فنونًا بل تقنيات بسيطة أقل شأنا من حيث الجوهر، لأنها تتطلب مشاركة الجسد الخاضع للروح، التي هي وحدها حرة، وهي عملية تعتمد على العقل فقط، هكذا تم تعريف الفن في عام 1260، لاعلاقة له بالعقل، بل تستخدم فيه اليد ويعتبر الفنان مجرد عامل..

ظل أنصار توما الأكويني يواصلون التدريس في الأكاديمية، مع تميزهم بالتقنية والفن عن الحرفة والإلهام. وإذا كان فريدريش يرغب بأن يحمل رأس حمار بدلاً من رأس طالب، فعليه إذن أن يتخلى عن هرطقة لا تليق بقرن هولدرلين[29].

قال المتحدث ملوحًا بقنينة من جرينسينج:

– التقنية في حد ذاتها ليست سوى تمرين بارد، إذ يجب أن يكون الدافع الإبداعي للرسام وحماسته ومثاليته الفنية هم أساتذته الوحيدين. نحن نعلن وبشكل قاطع أن هذه العناصر تؤدي إلى الاتحاد بين الروح والجسد، ولذلك نطلب منك التخلي عن هذه الزجاجة.

قال جوزيف بعد ذلك لفريدريش:

– لقد تحدث بشكل جيد، من دون أن يتخلى عن التردد على المحاضرات واستنساخ الرسوم. كان يبقى وديعاً في كل مناسبة ولم يطلب شيئاً من الحياة أكثر من أن يكون قادراً على السفر وبيع رسومه لأجل سحب بعض قطع النقود الإضافية ليودعها في صندوق توفير العائلة. كان المشهد الهزلي الذي انتزع فريدريش من مفاهيمه الساذجة حول التمييز الحاد للغاية

29– هولدرلين: يوهان كريستيان فردريش هولدرلين، ولد في 1770 وتوفي في 1843 ميلادية ويعد من بين أشهر الشعراء في تاريخ الأدب الألماني.

بين الشكل والمحتوى وقاده نحو إدراك أكثر نضجًا لفنه، وجد جوزيف أنه من خلال إطلاق العنان لتطلعاته فإنه كان سيمنح يده المزيد من الراحة.

لا يزال عليه التطلع إلى شيء ما وألا يكون محروماً من الخيال الجامح، ومع ذلك فقد كان هذا الوجود الذي يبدو بلا فائدة أو متعة يبتلعه من خلال الروتين اليومي المتمثل في التنقل صباحًا من شارع دوبان إلى شارع سانت آن، وفي المساء من شارع سانت آن إلى شارع دوبان، لكن سلسلة الأيام الرتيبة كانت تخفي لغزًا اكتشفه فريدريش مصادفة وهو يلفظ اسم (بتهوفن) إذ شحب لون جوزيف وكاد أن يغيب عن الوعي. وكان يمكن التساؤل هنا عن سوء الفهم الوحشي الذي أعقب ذلك، فقد دفعت يد هائلة وغير مرئية هذا الصبي الضعيف الشخصية والخاضع تماماً إلى العمل منذ أكثر من عام بقليل، بصفة ناسخ لدى الموسيقار المندفع والنزق، وعند معرفة فيردريش بتردده على مؤلف السمفونيات، انتابته رغبة شديدة في معرفة عادات وأذواق وساعات العمل للموسيقار الذي سحرت عبقريته شباب العالم الحر.. كان مندهشًا لأن جوزيف لم يكن يفتخر بهذه الألفة التي استمرت لمدة عام، وقد عزا لتواضع رفيقه في البداية منحه شرف الاستماع إلى قصته بعد صبر طويل.

كان جوزيف يصعد كل صباح إلى الطابق الرابع لمنزل تاجر الجملة باسكوالتي، حيث استأجر بتهوفن حجرتين فوق الحصون المواجهة للريف. كان الاستقبال الأول جافاً، لكنه سرعان ما رضي عن العناية التي كان ينسخ بها جوزيف سمفونياته، ثم اتخذه الموسيقار صديقاً له.

ذات يوم، فتح النافذة، ودعاه إلى رؤية الجداول التي تجتاز الوادي في نهاية المرج، وهو يسأله ما إذا كان يستطيع أن يستذكر أعماله الـ (68) سمفونية رعوية. في نفس الوقت، شعر جوزيف بأن هنالك من يحتضن كتفيه. كان بتهوفن قد احتضنه وجذب رأسه نحوه، وأمضيا دقائق طويلة وهما يتأملان المنظر الطبيعي.

أية سعادة، قال الطالب لنفسه، بأن يتمكن من تخفيف آلام رجل عظيم جداً ومعذب جداً! كان بتهوفن قد اعترف بأنه كان يعيش وحيداً، وبأنه كان مسجوناً داخل صممه الكامل تقريباً، ولم يكن يستقبل أحداً باستثناء

بعض ناشريه الذين كان يستقبلهم عند الباب، وبعض المعجبين الذين كان يستقبلهم بحذر. أما جوزيف فقد نال ميزة زيارته كل يوم ونسخ سمفونياته لدرجة اعتبار ذلك واجباً، كما بدأ يشعر بأن جزءًا أساسيًا من خدمته له كان تلك المبادرات الصغيرة التي كان يمكن أن تخفف إعاقته وتمثل بالنسبة له مفاجآت ممتعة. كان يجلب له أحياناً باقة زهور، أو يجمع الصحون المتسخة التي كان الموسيقار يتركها تحت البيانو ويضعها في الحوض. كان ينتظر كلمات حنونة وملاطفة من الشخص الذي لم يكن يقابل تلك المبادرات بلامبالاة كاملة. ربما كان ذلك يكفي لتقدير إخلاصه. كان يبدو أن الرجل الأصم قد اقتنع ولو لمرة واحدة أن يروض نفسه. أما جوزيف فقد أيقن دون مباهاة أنه كان قد تمكن من إخراجه من سجنه الداخلي وغرس فيه حباً جديداً للحياة. وقد ظهرت الآثار المفيدة لهذه العناية في مقدمة الكونشيرتو الخامس بالنسبة للبيانو والأوركسترا التي كانت قيد الإنجاز آنذاك.

قال الشاب وهو يحمرُّ خجلاً:

– لم أكن أنا من قال ذلك، ولكن كل أولئك الذين سنحت لهم الفرصة لسماع هذا العمل الجديد وامتدحوا دوري فيه. هل أستحق ذلك، بعد أن نجحت في بناء هذا المناخ من الثقة فيما بيننا أن نكون.. أن نكون ماذا؟

كان الحدث الذي يشير إليه يملؤه بالرعب لدرجة أنه توقف بحدة وعجز عن سرد بقية حديثه، وكان على فريدريش أن ينتظر يومًا مناسبًا أكثر لسماعه، بينما كان جوزيف يزداد إحجاماً عن الاستمرار خشية الحديث عن فظاظة بيتهوفن المزعجة والصبر الذي كان عليه أن يتحلى به ليتحمله. لقد أدرك جوزيف أن باقات الزهور والقليل من اللطف لم تكن تنقذ الناسخ من التعرض لهجمات من خلال الاتهامات في منطقة لم يكن يستطع إلا......

يا له من صمود، في الحقيقة، كان يظهره أمام بتهوفن وهو يشتكي أمامه يومياً من الأذى الذي يتعرض له من قبل شقيقه كارل! قال إن شقيقه كان يحبه بحنان وقد أصبح وصياً عليه بعد وفاة والدته المبكرة، وكان يعتمد عليه في التفاوض حول عقوده مع الناشرين، وعلى الرغم من الدلالات الاستثنائية لوفائه، فقد كان يخونه.

كان جوزيف قد غامر بسؤاله وهو يكتبه على اللوح الذي كان يستخدمه المعاق للتواصل مع الآخرين:

- ما وجه هذه الخيانة؟

فأجاب بتهوفن وهو يباعد ما بين ذراعيه مشيرًا إلى فوضى النوتات والأوراق من كل نوع التي كانت تكتظ بها الشقة الصغيرة:

- ألا ترى الحالة البائسة التي أوصلني إليها؟ هو، شقيقي المحبوب، دمه من دمي، ابني أكثر مما هو أخي.. ألم أمنحه كل شيء؟ الحياة، الحماية، الحنان، التعليم، ومصروف جيب شهرياً؟

أمام سيل الذم المرير والشكاوى المرهقة، تجرأ جوزيف على سؤاله مرة أخرى:

- ألم يكن أمينًا في عمله؟ هل أهمل مصالحك؟ هل تركته يسرق عبر ناشريك؟

يبدو أن الأمر يتعلق بالكثير من المال! الوغد، بسلوكه الشائن، كان قد سلبه النوم، وحرمه من راحة البال، ودمر صحة جسده. لقد كلفه مرض الأمعاء الذي كان يمزق أحشاءه بلا توقف أربعة كروترزات للأدوية في اليوم، وأرقًا مرهقًا.

كانت كل الأخطاء المنسوبة إلى كارل تعود في الحقيقة إلى خطأ واحد بدا باهظًا جداً بالنسبة للشاب لدرجة أنه رفض تصديقه في البداية. في الواقع، اعترف فريدريش بأن بتهوفن كان غير إنساني بما يكفي لحرمان شقيقه من حق الزواج. وهذا بالتحديد ما كان بتهوفن يريد الحصول عليه من كارل: التخلي عن البحث عن السعادة في أي مكان آخر غير الخضوع المستمر لتملك شقيقه الأكبر. لم تكن الزوجة ذاتها هي السبب بأي حال من الأحوال. اعترف بتهوفن بأنه لم يتعرف عليها ولا يريد معرفتها.

سأله جوزيف إن كان كارل قد أعلن أنه لن يكون سكرتيره بعد الآن وأنه سيتركه؟ فقال بتهوفن:

- لا أكثر، ولكن هل يمكنك الوثوق برجل يفضل امرأة عليك؟

هذا هو الاتهام الذي كان يعاود الظهور باستمرار وراء اللوم الموجه إلى

أخيه، دون أن تتم صياغته بهذا الوضوح، كما لو أن الأخير، باختياره زوجة، كان قد انتهك محظوراً غامضاً، لذا قام بتهوفن بسحب إدارة أعماله منه، الأمر الذي أجبره -وهو موضوع شكوى جديد- على دفع تعويض لمحام كان عليه التنازل له عن نسبة من دخله الضئيل بالفعل.

على أية حال، كان يمكنه وضع صليب على إطار ساعة جدارية من البورسلين من ساكسونيا كان يريد شراءها من بائع الانتيكات الذي يقع متجره بمواجهة القصر الشتوي للأمير أوجين. كانت ساعة رائعة للغاية، تمكن رنينها، من خلال هبة من العناية الإلهية، من عبور الجدار المتصلب لطبلة أذنه وإيداع الضجيج الذي يصدره نقار الخشب وهو ينقر الشجرة في أذنه. لقد كان بحاجة إلى سماع هذا الصوت لإعادة إدخاله في القطع الموسيقية لسمفونيته الرعوية، كانت حاجة ماسة وملحة. ومع هذه النفقات الإضافية التي فرضها عليه هذا الوغد، أين كان سيجد الجنيهات الثلاثين التي يحتاجها؟

وصف جوزيف لفريدريش اليأس الذي كان يستولي على بتهوفن في كل مرة كان يحاول فيها إدخال صوت نقار الخشب في مقطوعته، إلى جانب طيور السمان والوقواق. ولعدم امتلاكه إطار الساعة الجدارية الإعجازي كان قد ادعى بأن المشهد سيبقى غير كامل وأن عمله لن يكتمل إلى الأبد. وتبع ذلك صرخات ولعنات وأزمات صمت كان يلبث خلالها راكعاً، واهناً، وعاجزاً عن الكتابة ما يضاعف من اضطراب جوزيف لدرجة التفكير في مشروع مجنون حقًا.

في البداية، ذهب لرؤية الساعة التجارية في واجهة متجر الانتيكات، وقرع الجرس. ثلاثون جنيهًا ذهبيًا! كان الجنيه الذهبي يعادل تسعة تالرز ألماني والتالرز يعادل ثلاثة عشر غيلدر ونصفًا. ولكي يحصل على مبلغ 405 فلورين في أكثر من عام بقليل بعدد فلورين واحد في اليوم، فهل يمكن أن يأمل بجمعها؟... كان الفلورين يعادل 60 كروتزر ولن تجلب له رسومه إلا 50 كروتزر فقط، فكم سيبيع شهريًا؟ ومن خلال إجراء حساباته وإعادة إجرائها، كان قد توصل إلى قرار الالتزام بالعمل كموديل عار في مدرسة النحت. كان يقف في الليل، بعد عمله في النسخ، خلال الساعة التي يدفعون فيها أكثر. لكن هذه الوسيلة بقيت غير كافية، كان قد استسلم لجماعة

تتعارض مع ضميره، وكان يخفي أرباحه عن والدته بل كان يخترع ذرائع ليبرر بها موت روحه، وكان يسحب في الليل بضعة قروش من علبة التوفير خلال نوم والدته وعسى أن يغفر له فريدريش ذلك! ولكن هل كان ليسمح بمثل هذه السرقات لولا إيمانه بالتحفة الفنية التي ستنتج من اختراق صوت الساعة أذن الفنان الأصم؟

وبينما كان يتفاوض مع بائع الأنتيكات المتشكك للحصول على خصم لإطار الساعة الجدارية مقابل الكمبيالات المصدقة من قبل مدير مرسم العراة (لزيادة إذلاله)، واصل بتهوفن التأوه والتذمر بسبب ألم آخر أضيف إلى آلامه المعتادة تجاه زواج كارل. كان يكرر باستمرار:

– ما الذي دفع شقيقه للعمل ككاتب لدى رئيس البلدية؟ ألم يكن لديه ما يكفيه من وسائل العيش علاوة على راتب شهري؟

كان قد أفسد شقيقه الأصغر بمنحه استقلاليته المادية ما أثار دهشة جوزيف الذي كان يعرف جيداً مدى بخله من خلال بعض المواقف التي كانت تحدث مع الخدم.

لم يصدق فريدريش أن جوزيف يخبره بكل هذه التفاصيل ليقلل من شأن بتهوفن الذي سيظل عملاقًا حتى النهاية.. وبمعرفة ما هي التفاهات التي يخضع لها العبقري، علينا ألا نقيم عظمته من خلالها، فقد كان بتهوفن يطلب من جوزيف التحقق من دفاتر حساباته والاستفسار من تجار الحي إن كانت طباخته تسرقه.. كان يشك في كل الناس ويتصور أنهم يريدون منه مالًا، ولم يكن يدخر جهده أو وقته ليشرف بدقة على أصغر النفقات. كان يسأل عن ثمن الشموع وعن كمية الزيت والخل التي تستخدم كتوابل للسلطة. كانت ناني واحدة من الطباخات العديدات اللواتي لاحظ جوزيف تعاقبهن على خدمته، وكيف لم تصمد أي منهن أكثر من بضعة أسابيع أمام الشك الخانق الذي كان سيّدهن يحاصرهن به. كانت الخادمات يغادرن المكان مذعورات تاركات الأطباق قذرة على حوض الغسيل والأثاث مقلوبًا.

كانت ناني تحصل على رغيف واحد في اليوم؟ وكان عليها أن تدفع أجور غسل ملابسها. طلب بتهوفن من جوزيف أن يخبر ناني بأن غداً هو

يوم للصوم وأن عليها أن تحظى بوجبة واحدة ساخنة فقط.. هل سيخبرها جوزيف بذلك؟ كان يجبر الفتيات الفقيرات على أخذ الدقيق إلى الخباز لكي يضمن عدم الغش في الوزن، وكان يرسل جوزيف إلى السوق ليبحث عن عنوان المتجر الذي يبيع الدهان الأرخص.

ذات يوم، وبينما كان يعنف خادمة على إنفاق أربعة كروتزر لشراء كيلو غرام من الملح، كان على جوزيف أن يعمل على تذكيره بأن الملح هو سلعة تحتكرها الدولة ولذلك فهي تباع بنفس السعر في كل مكان.

عندما اقترب الجيش الفرنسي من فيينا، وبدأ الناس يرتجفون خوفاً من حدوث معركة كبيرة، قرر تاجر التحف الذهاب إلى البلاط في بودا، ولكي يخفف من حمولة تجارته القابلة للكسر، سلم الساعة الجدارية إلى جوزيف مقابل إقرار بالدين إذ تبقى بذمته أكثر من مئة كروتزر.

كان بتهوفن قد أنهى سمفونيته منذ وقت طويل. قال الشاب لفريدريش الذي أخبره أنه قرأ النوتة الموسيقية مؤخراً من دون أن يجد فيها أثراً لضربات نقار الخشب:

– لكن لماذا؟ لماذا لم يقم بتنقيح المقطوعة المتباطئة بعد الاستماع إلى رنين الدقات؟

لم يكن السيد راضياً عن عمله واعتبره فاشلًا. إن غياب هذا التفصيل الذي لا يبدو مهمّا كان يستحوذ عليه ويرهقه مثل تناقض في الصورة المتناغمة للطبيعة. وبعد حصوله على الساعة، صعد جوزيف السلم وقلبه يتقافز من الفرح لدرجة أنه كاد أن يفقد توازنه ويسقط على السلالم وهو يحمل هديته تحت ذراعه ويتسلق الطوابق الأربعة راكضاً حتى منزل باسكوالاتي.

وضع بتهوفن بندول الساعة على البيانو وبدأ يعزف مغموراً بالنشوة، ثم جذب انتباه جوزيف له وهو يداعب شعره لوقت طويل وقال له:

– أريد أن أمنحك أكبر دليل على عاطفتي.

صمت جوزيف، تحت سحر هذا الصوت الذي كان قد اتخذ نبرة حنونة، وهذه اليد التي كانت تداعب تجعيدات شعره وتستقر على عنقه، فتابع المؤلف الموسيقي الذي خاطب ناسخه للمرة الأولى بصيغة المفرد:

- سآخذك بشكل كامل ونهائي لخدمتي.

كتب جوزيف على اللوح:

- ما الذي قد يمكنني فعله من أجلك أكثر مما أفعله الآن؟

أجاب بتهوفن:

- يمكنك أن تفعل الكثير من أجل سلام روحي. يكفيك أن تذهب لتجلب أغراضك إلى هنا.

تفاجأ جوزيف، وتابع الملحن:

- نعم، أريدك أن تعيش معي منذ هذه اللحظة.

اعترض جوزيف على الفور قائلاً:

- مستحيل.

نظر إليه بتهوفن بغضب وقال:

- مستحيل؟

- كل مساء، وبعد عملي هنا، أعمل كموديل في مدرسة النحت.

- موديل؟ أي موديل؟ ماذا يعني هذا جوزيف؟ ما هو النشاط الذي تمارسه؟ أي موديل تجسده؟ أريد معرفة ذلك. كان بتهوفن يتحدث بنبرة ملحة جداً لدرجة أن جوزيف اضطر إلى الكتابة على اللوح:

- أنا أقف عارياً.

سأل بتهوفن بغضب أكبر وأكبر:

- لماذا؟ لماذا؟ من سمح لك بالظهور عارياً أمام أي كائن.

أجاب:

- جلسات العري هي الأعلى أجراً.

- أنت تقف عاريًا ولم تخبرني أي شيء عن ذلك؟

ثم تابع مع حركة تهديد، كما لوكان يبحث عن شيء يفعله للسيطرة على غضبه:

- أوه! أنا لا أعرف ما الذي يرغمني على........

أجاب جوزيف:

– على أية حال، قد لا يمكنني العيش معك.

سأله بتهوفن باحتقار:

– حتى بعد أن تكون مرتدياً ملابسك؟

كان الشاب الحالم الذي ضحى بنفسه ليقف أمام فئة ساخرة من النحاتين المبتدئين وهم يتفحصونه، قد ابتلع هذه السخرية من دون أن ينبس ببنت شفة وكتب بهدوء:

– والدتي وحيدة، وعليّ أن أعود إليها في المساء.

بدأ بتهوفن يتمشى رواحاً ومجيئاً، كما لو كان قد نسي سخطه الأول مركزاً استياءه على هذه الجريمة الثانية، وصار يلوح باللوح وهو يردد بصوت حاد أعلى وأعلى: «والدته! والدته!».. كان يصرخ «والدته» كما لو أن جوزيف لم يكن أمام عينيه، وفي الواقع، كان قد تقرّر طرد الشاب المسكين بالفعل.

رافق هذا الهجوم المباغت سيل من الإهانات فقد وبخه لأنه دافع عن الخادمة، ولأنه تناول البيرة خلال جلسات النسخ، ولكن، يبدو أن حرارة الجو المتقدة في هذا الصيف المبكر، والسخط غير العادل وغير المنطقي قد تسببا في إيذاء أذنيه المعاقتين.

قال جوزيف مرتجفًا من ذكرى تلك المحاكمة الرهيبة:

– بماذا سأجيب؟ فجأة، ولأنني كنت قد أخبرته بنبرة صارمة بأني أنوي النوم عند والدتي، قابلني بالشتائم والإهانات وأصبحت ملعوناً ومنحطاً، تضاءلت إلى لا شيء، وكأني أصبحت مداناً بكل الجرائم ومنها قصف فيينا بمدفعية نابليون!

في ذروة غضبه، التقط بتهوفن سترة جوزيف الملقاة على السرير، وفتح الباب وألقاها على السلالم، ثم التفت نحو ناسخه وأمسك به بقوة من كتفيه ودفعه إلى الخارج وهو يصرخ:

– آمل ألا أراك مرة أخرى أبداً!

وبينما كان يتدحرج على السلالم الأولى، سمع خطوات مسرعة في الشقة، ثم رأى بتهوفن بشعر أشعث ونظرة مجنونة مرة أخرى على باب الشقة وهو يحمل الساعة بين يديه ويصرخ:

- كاذب! لقد كذبت علي! لا أريد الاحتفاظ لديّ بذكرى كذبة!

ثم رفع يديه أعلى رأسه وبحركة متحدية وسخط مبالغ به ويأس مشابه ليأس بروميثيوس بمواجهة قوى السماء والأرض، رمى رقّاص الساعة في بئر السلم حيث تحطمت مع ضجيج البورسلين الصاخب.

قام فريدريش بتهدئة صديقه قدر استطاعته ومواساته بالدموع في نهاية قصته.

كان رفاقه يدعونه بسخرية «جوزيف الطيب» منذ مغامرته التي كانوا يجهلون تفاصيلها المحزنة.. كان من الممكن أن يواسي نفسه على إلقائه على السلالم وإهانته، لكن سرقته للمال من محفظة والدته كانت بالنسبة له الغلطة التي لا تغتفر. في كوابيسه، كان يرى والده ينهض من بين الأموات في ساحة معركة أوسترلليتز ويشير إليه بأصبعه. ومنعه افتقاره للخيال من تفسيرسلوك بتهوفن السخيف بينما كان فريدريش يحاول عبثًا وضعه على المسار الصحيح من خلال إيجاد تبريرات معقولة.

ألقى جوزيف باللوم على نفسه بخصوص طرده، كان يبحث عما يمكن أن يكون مذنباً فيه. بانتظار الجواب، فكر بأنه قبل بوصمة عار كعقاب يستحقه، لم يفكر بتعليم الأكاديمية وخنق كل طموح فيه بعد ذلك عندما اهتم بلعب دور في حياة الرجل العظيم ما أدى إلى هذه الكارثة. كان يطمح فقط إلى العمل عندما باح بسرِّه لفريدريش، فتعلق به الشاب مثل ظله، وعندما نهض فريدريش من مقعده في قاعة الصف، ركض جوزيف خلفه في الأروقة ليحمل صندوق لوحاته.

الفصل الثاني

تساءل فريدريش:

- وأنا، هل سيستقبلني؟

لقد كان حريصاً على أن يرى بنفسه كيف كان يعيش الرجل الذي كان يحظى بإعجابه أكثر من أي أحد آخر في ألمانيا، حتى لو كانت موسيقاه تفزعه.

بعد أن كان يتردد عليه لمدة عام، كان ناسخه عاجزاً عن أن يصف له الشقة.. وهذا الافتقار إلى الفضول لم يكن يبشر بخير بالنسبة لرسام مستقبلي. لم يكن «جوزيف الطيب» يهتم بالأشياء من الداخل. أما فريدريش فكان سيدون كل شيء باهتمام كبير، بعد أن تأكد من أن بتهوفن لم يكن يستهين بزيارة الشباب إذا ما وجدوا صيغة مناسبة لذلك. فعلى سبيل المثال، كان البارون تريمون قد وصل إلى باريس في مهمة رسمية حاملاً رسالة لملكه، وتجرأ على طرق باب المؤلف الموسيقي، وهو يرتدي زي مندوب في مجلس الدولة. لم يكن من الممكن اختيار ظرف أكثر سوءاً لهذه الزيارة من عار تقديم نفسه للفنان بزي عدو مكروه. لقد أخطأ البارون في الظهور في اللحظة التي انفجر فيها لغم تحت نوافذ منزل باسكوالاتي. كان نابليون قد أمر بتدمير تحصينات فيينا، وكان قلق خبراء المتفجرات للجنرال أودينو ينصب على مراعاة بقايا السمع لمستأجر قليل التهذيب.

حسنًا، وعلى الرغم من هذه العقبات التي يبدو أنه لا يمكن التغلب عليها، كان الفرنسي موضع ترحيب كبير. وشوهد الرجلان لاحقاً وهما يتنزهان ويتناقشان بحماس بقدر ما كان يسمح به لوح الترجمة.

صحيح أن الأرشيدوق رودولف، والأمير كينسكي والأمير لوبكوفيتز،

الذين تعهدوا بدفع مبلغ سنوي قدره أربعة آلاف فلورين لحمايتهم، قد تخلوا عنه منذ 4 أيار مع البلاط، وتم تعليق معاشه التقاعدي، لكن هل كان بتهوفن يستطيع، وبعد أن أعلن عن تفانيه لنابليون من خلال سمفونيته البطولية، أن ينتظر أي معروف من إمبراطور الفرنسيين؟ وإذا كان البارون الشاب قد تمكن من مقابلة بتهوفن، فلماذا لا يحاول فريدريش بنفسه؟

بعد ظهر أحد الأيام، توجه فريدريش إلى منزل باسكوالاتي الذي كان يحتل موقعاً بالغ الجمال فوق السور. وليس من المستغرب أن يوحي المشهد الرائع الذي كان يمتد حتى حدود السهل بالتناغم الريفي للسمفونية الرعوية.. وبينما صعد السلالم الأولى، المضاءة بالكاد، لاحظ من أسفل السلم المتداعي والضيق شيئاً لامعاً، فانحنى ليلتقط قطعة من البورسلين وتعرف فيها على حطام بندول الساعة. كان سيتركها تسقط عندما أدرك أنه ربما لن يجد فرصة أخرى لتأمل الأضرار الناجمة عن الطاقات الإبداعية.

كان قد وصل إلى الطابق الثاني عندما انبعثت رائحة احتراق من الطابق العلوي وانتشرت في السلم. من كان يستطيع أن يبقي موقده مشتعلاً حتى الساعة الرابعة بعد الظهر؟ سمع صرخات، وبابًا يصطفق، ثم ضجيج خطوات مسرعة، وفجأة، وجد نفسه وجهًا لوجه مع فتاة شابة كانت تبكي. صرخت:

– آه يا سيدي، ارحمني، أشفق علي!

كانت ترتجف خارجة عن طورها ومرتبكة جداً لإدراكها أنها كانت توجه كلامها إلى رجل مجهول بينما انهمرت دموع غزيرة على وجنتيها، ثم تابعت:

– هل هذا خطأي، إذا لم يكن يرغب بالمجيء إلى الطاولة عندما أبلغته بأنها جاهزة؟

تمالكت نفسها واعتذرت وهي تلاحظ حيرة فريدريش، لكن الرغبة المتعذر كبتها للبوح فاقت قدرتها على ضبط نفسها وعاودت البكاء.

كانت قد رأت سيدها وهو يتجاهل الساعة المخصصة لتناول وجبة الغداء، ولم يرغب بمغادرة البيانو والتوجه إلى طاولة الطعام، فعملت على تدفئة الطعام مرة أخرى، وعند وقوفها إلى جانب الموقد، تسللت الحرارة إلى جسدها فشعرت بالخدر واستغرقت في النوم. لا تدري كم من الوقت

استمر نومها؟ وكان بتهوفن قد خرج مثل المجنون من حجرته ليهز كتفها ويطلب منها وجبته، لكن كل شيء كان قد احترق وتكلس وصار غير صالح للأكل.. فكتب لها:

- خائنة! كيف تخونينني هكذا؟ إذهبي من هنا، لا أريد أن تطأ قدمك منزلي مرة أخرى!

أخرج فريدريش بضعة قروش نمساوية ووضعها في يد الفتاة وهو يتمنى لها أن تجد سيداً متعقلاً أكثر، بينما حلقت أصوات متتابعة من البيانو عندما سحب حبل الجرس. بالتأكيد، كان على بتهوفن أن يغوص وسط حمى التأليف، لأن سوء معاملته للخادمة بهذه الطريقة تبرز غطرسة عبقريته وتفضح تخليه عن الالتزام بالمواعيد واستغلاله الضعف البشري للخدم.

دعا صبي ضخم ممتلئ الجسم وأحمر الوجه الزائر الجديد للدخول.. انتظر فريدريش واقفاً في حجرة الجلوس. كانت حجرة جرداء، فارغة تقريباً وفوضوية في الوقت ذاته. كان الأثاث الوحيد فيها كرسيًا بثلاث أقدام وخزانة يغطيها الغبار وقفصًا فارغًا ملقى على أرضية الحجرة. كما رأى على الأرض أمام الجدران قناني قديمة يغطيها الغبار وصحونًا متسخة وكأسين إحداهما مليئة إلى نصفها بسائل أحمر.

قال لنفسه: ربما كان بتهوفن هو من تركه.. وفكر أن يشرب ما تبقى فيه كسلوك سرّي للولاء، على طريقة الطلبة الألمان، لو لم يصمت البيانو فجأة ويُفتح باب الحجرة، وينتصب عند عتبته رجل قصير القامة، ممتلئ الجسم ببشرة وردية تبرز فيها آثار مرض الجدري. لقد عرف فيه فريدريش ارتفاع ونبل جبينه، وشعره الفوضوي. لم يكن يعرف كيف يبرر زيارته، إلا أن الآخر، وبعد أن حدق فيه لوهلة، بدا راضيًا عنه ودعاه للجلوس بينما كان يواصل كتابة مقطوعته الموسيقية.

لم يكن يتوقف من وقت إلى آخر إلا ليقضم كسرة خبز ضخمة موضوعة على حافة لوحة المفاتيح أو يتناول جرعة كبيرة من النبيذ الأحمر في قدح كان يملأه مجدداً. عندما كان قد أطلق العنان لإلهامه الذي لمس الشاب ثراءه اللحني، ربما لأنه سمح له بالحضور أثناء ولادة عمله الفني الخالد المذهل

أكثر من كل ما كان قد سمعه حتى الآن، نهض بتهوفن وقاده إلى النافذة. كانت نظراته الكئيبة والاحتياطات التي اتخذها لكي يسمعه فريدريش وحده، هي أكبر دليل على رغبته في الاستفادة من هذا الزائر بأن يشكو له آلاماً جديدة. كان قد تجاوز اللياقة عندما روى لفريدريش أن جوزيف دمره وحطمه برفضه خدمته والعيش معه، لأن الفتى الذي جاء بعده هو غبي حقيقي ولا قيمة له، وكان عليه أن يعاني هذا الغضب الإضافي من (القدر) عندما اضطر لإنهاء عمله الفني الـ 73، إذ كان دخله مدعاة للمزيد من الشكوى الأكثر مرارة وكان عليه أن يدفع ضريبة الحرب التي فرضها نابليون.

ولكن، وبعد شكواه من جوزيف والفرنسيين ومن دون أن يفكر في اتهاماته المتنافرة التي ألقاها أمام رجل غريب، انتقل إلى الشكوى من أخيه كارل الذي تأكد فريدريش أن استياءه منه مزق قلبه، فلم تعمل انفجارات الألغام التي كانت تتواصل تحت نافذته وتهز أصداءها حطام طبلة أذنه بشكل مؤلم، ولا هروب الأرشيدوق على الرغم من تعليق الدخل السنوي، ولا حماقة الخادمة التي أحرقت الطعام على إثارة غضبه أكثر من «خيانة» كارل. لقد منحه كل شيء وضحى من أجله، وكان له أباً وأماً، وكان واثقًا من بقائه معه، لكن هذا الجاحد أعلن عن رغبته بالزواج.

لم يكن فريدريش يعرف بماذا يجيب، كما أن بتهوفن لم يطلب رأيه.. وهتف قائلاً:

– عندما عرض علي كارل التفاوض مجدداً مع الناشرين، قلت له: لقد سمحت لك بأن ترتبط بامرأة، وأورثني ذلك الحزن على سلوكك الذي سيقودني إلى القبر.. ابتهج، طالما أنك أردت ذلك، ستراني أغرق في الفقر وأموت على القش بسبب الخطأ الذي اقترفته، إذ سيكون علي التنازل عن نصف أتعابي إلى وكيل.

في هذه اللحظة، استولى عليه ألم شديد في أمعائه، فاندفع نحو الباب وتدافع مع الناسخ الجديد وهو يجري نحو الحمام.

قال الناسخ الشاب مع ابتسامة بليدة:

– إنه يعاني يومياً من هذه العوارض.

عاد بتهوفن للظهور وهو يعقد يديه على بطنه وسأل فريدريش عن محل إقامة والديه، وإذا كانا سيمكثان في لوبيك وكم من الوقت ستمتد إقامته في فيينا، مع أن بقاءه في العاصمة لمدة عام جعله يشعر بالرضا.

كان الشاب قد شعر بالضيق من نظرة الموسيقار المحمومة متسائلاً عن كيفية انسحابه من منزله. كان مفتوناً بالحصول على امتياز الدخول في علاقة حميمة مع ذلك الذي كانت ألمانيا تنتظر أعماله المقبلة باضطراب، ولكن لم يكن لديه أدنى رغبة في وضع رأسه كقربان على مذبح الكونشيرتو الخامس أو السمفونية السابعة. ومع الإطراء الأول من مضيفه، سيتذرع بالتزاماته في جدول الأكاديمية.. بأية عين جليدية كان يحدق به! سارع قبل أن يتعرض للغضب الذي كان يتراكم تحت الحاجبين الكثيفين إلى الخروج من الغرفة. وعندما شاهد في الرواق ما تبقى في كأس النبيذ على أرضية الحجرة، هنأ نفسه أنه لم يجد الوقت ليشربه.

هبط الطوابق الأربعة بسرعة وهرع إلى الشارع. كان يرتعد لنجاته من خطر البقاء سجيناً في شقة صغيرة، ومن تسلط المستأجر الرهيب، الذي كان يعيش خارج العالم منعزلاً في عالمه الخاص، ولكي يعجبه، كان عليه البقاء مسجوناً معه إلى الأبد. فعندما يُطلب من الآخرين التضحية بكل ما لديهم من عواطف وإجراء مسح شامل لمصالحهم، فلابد أن يكون الله فقط هو من يطلب مثل هذا الطلب. كان بتهوفن يتمتع بعظمة فريدة لكنه كان يعكس شذوذاً وحشياً أيضاً. لم يكن يكتفي باحتلال مكان بين نظرائه كحلقة ضمن السلسة البشرية الهائلة، بل كان ينوي الوقوف منفصلاً فوق حدود الزمن باعتباره الكائن الوحيد والأول في الخلق. لم يكن هو الرجل الذي ولد في بون وعاش في فيينا وعاصر نابليون لكنه كان رجلاً بلا عمر ولا وطن أو منزل.. كان موجوداً قبل سفر التكوين متأملاً العالم الذي يمتد فارغًا عند قدميه.

اجتاز فريدريش الكنيسة الإسكتلندية، المجاورة لقصر كينسكي حيث كان هنالك تمثالان لمصارعين ضخمين يؤطران البوابة.. دلف إلى الباحة المثلثة لقصر فريونغ.. كان يفكر في مقابلته لبتهوفن، بينما كانت قبضته تمسك بقطعة البندول المكسورة التي كان يحتفظ بها في جيبه. لا يمكن

أن يحكم على أمير الصواعق والغيوم من خلال الآراء الشائعة. على سبيل المثال، قد لا يكون هذا الهوس بالتحكم في النفقات حتى آخر قرش دلالة على جشع دنيء. لقد استغرقت البشرية التي كانت مجرد صياد وطريدة في بدء الخليقة قرونًا وقرونًا قبل التحكم في المال بحدود المعقول. لكن الرجل العبقري كان فريدًا ومبتكرًا في كل شيء. لم يكن لديه إرث ولم يكن يرغب بالحصول على إرث. لم يكن يعرف كيف يتعامل مع المال بدون خوض حروب داخلية مثل تلك التي كان ينتصر فيها البشر منذ أزمنة طويلة. كان كل مبلغ ينفقه يشكل تعذيبًا بالنسبة له.

كان يمكن قول نفس الشيء عن قراءة الوقت إذ كان تعلم الجدول الزمني بالنسبة له مثل مغامرة جماعية طويلة وكان يفضل اختصار الزمن والهروب منه. كان طفولياً في سلوكه وكان يفضل الهروب في بداية المعركة المرهقة مع الوقت، لذلك رمى بندول الساعة أسفل السلم وكانت تلك الحركة واحداً من الدلائل التي أغفل جوزيف إدراكها.

والحب؟ تساءل فريدريش. كان الخوف من أن الكائنات التي تشاركك حياتك سوف تنزلق من بين أصابعك هو أمر آخر من أيام عصر الكهوف عندما كانت العلاقات الإنسانية قائمة على المطاردة والاعتداء والاستيلاء. كان ينبغي أن تحتجز الشخص الذي تريد أن تبقى مرتبطاً به. هل كان الحب موجوداً في تلك الأيام البعيدة؟ وهل كان مفهوم الحب ذاته ممكناً؟ هل كان يمكن أن يثق المرء بالشخص الآخر ويمنحه حريته من دون أن يخشى فقدانه؟

كان بتهوفن يتصرف في كل شيء وكأن العالم لم يتطور منذ نشأته، وأننا كنا لا نزال في ذلك الوقت حيث لم تكن توجد عادات ولا تقاليد أو قوانين: في فجر الحضارة، في العدم حيث ظهر أولاً، مقتنعًا أنه لم يكن إنساناً ضمن التسلسل التاريخي للبشر بل كان الإنسان الفريد، الكائن ذاته. وبالمثل، فإن النوتات الأربع الشهيرة التي تبدأ بها السمفونية، والتي كان فريدريش مندهشًا لترنمه بها وهو يتوجه نحو الأكاديمية، لم تكن أربع نوتات مختارة من السلم الموسيقي لكنها كانت فريدة مثل بدايات الموسيقى أو ولادة الصوت المطلقة: ويقال إن بتهوفن لم يكن يسمعها قط! شعر الشاب لوهلة بالشفقة عليه، لكن حسرته تجمدت على شفتيه، ربما لأنه فهم للتو السبب

العميق لهذا الصمم. لم يكن بتهوفن أصمّ بسبب حادث نفسي، بل بسبب إرادته الشرسة ليس ليكون مؤلفًا موسيقيًا فقط بل ليكون المؤلف الموسيقي الفريد من نوعه في العالم.

منذ بداية الزمن وحتى نهاية التاريخ، جعلته هذه الإرادة مصاباً بالصمم. ولكي يكون قادراً على سماع الأصوات، كان سيضطر إلى الاعتراف بأن الموسيقى موجودة خارجه، ومن دونه، لأن للأصوات وجودًا ماديًا، وعوامل فيزيائية، فالتنوب والقيقب تمثل الكمان، والنيكل الفضي لآلات الفلوت، وخشب البقس لآلات المزمار، والنحاس لآلات الترومبون والأبواق، والنحاس لآلات الصنج، وما لم يكن قد بنى جميع آلات فرقته الموسيقية بيديه، فلا يمكن لأي مؤلف موسيقي أن ينكر أنه المؤلف الوحيد لسمفونياته. كان الصمم هو الوسيلة الوحيدة لإنكار أن للموسيقى حياة أخرى غير تلك التي يصنعها الدماغ. كانت الوسيلة الوحيدة للمساواة مع الله في قدرته على الخلق من العدم.

إن الروعة النقية غير المادية للموسيقى التي تتألق من تلقاء ذاتها، من دون مساعدة الآلات الموسيقية هي الوحيدة التي يمكن الوصول إليها من خلال روح مغلقة على العالم الخارجي للأصوات. ولم يكن هذا كل شيء، بل كان هنالك قيد آخر على سلطة الخالق المطلقة، وهو وجود عدد لا يحصى من المبدعين الآخرين قبله. وسواء أحب ذلك أم لا، فإنه سيعمل في أعقاب الموسيقيين الذين سبقوه. يمكنه أن يقلدهم أو يتمرد عليهم ولكن لا يمكنه أن يتجاهلهم، وعلى الرغم منه سيأخذ عمله مكاناً بين أعمال أخرى وسيشكل جزءاً من تاريخ الموسيقى.

بتهوفن ذاته، قبل أن يصاب بالصمم، كان قد تأثر بمدرسة موزارت وهايدن. لقد نأى بنفسه تدريجيًا، ولكن لم يكن هناك ما يمنعه من الاستمرار في إثبات ذاته مقارنة بأسلافه، إذا ظل في وضع يسمح له بسماع ما كانوا يكتبونه. وعندما أصبح أصم، شطب دفعة واحدة كل الموسيقى السابقة ولم يصبح خليفة لموزارت أو هايدن، بل أصبح مبدعاً بحد ذاته، وتوقف اهتمامه عن أن يصبح نسبياً بل نفى أن يكون أي شخص قد ألف من قبله، وهرب من تاريخ الموسيقى ليهتم بجوهرها فقط بلا منافسة ولا مزاحمة. وكما خلق

الله الوجود من الصفر، فقد استمد بتهوفن إنتاجه الهائل من العدم. ففي فراغ الأصوات، في صحراء الفضاء الشاسع، قام بتأليف موسيقى كان هو باعثها الوحيد والكامل. وكل نوتة كانت تخرج من يده هي أداة مثالية لإبداع مطلق.

كان فريدريش قلقاً للغاية من تقييم نفسه والتمييز بين ما يجب أن يأخذه وما يجب أن يرفضه في هذا التصور الكامل والمنهجي للعمل الفني، فمن بين كل سمفونيات بتهوفن، كان فريدريش يفضل السمفونية السادسة الرعوية المستوحاة من مشهد الوديان والأدغال التي كان يراقبها من أعلى منزل باسكوالاتي، لأنها أقل حدة وأقل تنافراً بل أقل تغطرساً.. كانت السمفونية الوحيدة التي تخلى بها عن تفكيره الغبي في يوتوبيا يكون فيها إلهاً. وبعيداً عن خوض تمرد ضد العالم المخلوق، والتقوقع داخل صممه، رحب بالطبيعة الرائعة لريف فيينا الممتد تحت نافذته وداعبها وقام بتمجيدها.

ألا يبدو أنه تذكر وصية لوثر؟ «الهواء ذاته، هذا الهواء غير المرئي، الذي لا يمكن لمسه باليد، والذي لا يمكن أن ننتظر منه أن يكون موسيقى، فطالما كان هو الصمت ذاته، فهذا الهواء مع ذلك هو شيء حي، يتحرك ويغني، بحيث يمكن سماعه، وبالتالي، يمكن الإمساك به...»

كانت المقطوعة الموسيقية لآلات الكمان، في الحركة الثانية للسمفونية الرعوية، وكان الحفيف غير المحسوس الذي يتضخم إلى همسات، هو اهتزاز الهواء الذي تم تحويله إلى موسيقى، وعندما استخدم بتهوفن، بعد ذلك بقليل، الفلوت لتقليد نغمة العندليب، والمزمار لمحاكاة صوت السمان، والكلارنيت للنغمة المزدوجة للوقواق كان لا يزال يحرص على الالتزام بمبدأ لوثر الذي يوصي بتعلم فن الغناء من الطيور.

ولكن كيف كان يشعر بالدهشة بعد ذلك من أنه، وحسب شهادة جوزيف، كان قد اعتبر هذا العمل فاشلاً؟ لم يكن يعتبره إنتاجاً ذاتياً بل استنساخاً للطبيعة الريفية، وانكاراً لكل الجهود التي بذلها حتى الآن. بأي ضعف وافق على تقليد شيء كان مستقلاً عنه؟ كان التحدث بلغة مستخدمة والبحث عن نماذجه من الخارج خطأ لا يمكن غفرانه. كانت طيور السمان والعنادل وطيور الوقواق تؤلف معه المشهد على حافة الدغل، لدرجة أنه تمنى

استعادة بندول الساعة ليتلقى بدقة أكبر قرع نقار الخشب ويعاود استخدامه في مقطوعاته البطيئة. وكانت قضية البندول قد أثارت انتباه فريدريش، إذ كان بتهوفن قد رمى البندول أسفل السلم ليعاقب نفسه على استعارة ألحانه من أصوات الطيور، بدلاً من تأليفها بموهبته الإبداعية وحدها.

كان فريدريش يتذكر مع أصوات السمفونية الشعور البهيج لـ (الوصول إلى الريف)، و(المشهد على حافة الدغل)، و(اجتماع المزارعين المبهج) و(أغنية الرعاة بعد العاصفة)، حسب العناوين التي وضعها الملحن ذاته. كان ينبغي على فريدريش أن يعترف بأنه استمد من كل هذه العناوين موضوع لوحة ليرسمها.

قال لنفسه وهو يجتاز بوابة الأكاديمية: إذا كانت العبقرية تنتج من ابتكار شيء من لا شيء، فلن أكون عبقرياً.. ألم أصبح رسّاماً لمجرد رغبتي في رسم صورة إليزا؟ كنت سآخذ نماذجي من يد الله؟ وسأرسم لوحاتي من عجائب الخليقة. نعم، كان يقصد امتداح الطبيعة وليس مواجهتها بتنافس محموم، وإمتاع عينيه بكل ما كان جذاباً على الأرض ليرسمه على القماش بأقل ضرر ممكن، وتناغم السموات والمناظر الطبيعية، وجمال الرجال والنساء، ورشاقة الحيوانات. هل يعني هذا أن فريدريش، باختياره أن يكون له مصير عادي، سيكون محكوماً عليه بالبقاء فنانًا متواضعًا؟ هل كان عليه أن يقلق من شعوره بأنه عاقل جداً، ومهذب جداً، وابن رئيس بلدية لوبيك؟ فهل كان ينبغي العيش في الفوضى، والمبالغة بكسر ساعته، والمطالبة بتناول الطعام كل أربع ساعات، واحتقار اللياقة والعادات واحترام الإنسان ليتمكن من إنجاز عمل كبير؟ كان الفنان العبقري عاجزاً عن التعامل مع المال ببراعة وكان يتجاهل الجدول الزمني للوقت ويجهل أيضاً كيف يمكنه التحكم في جسده.

ولكي يطمئن، ذهب الشاب إلى حجرة نزع الملابس الخاصة بالطلبة، وفتح خزانته وسحب منها نسخة من كتاب (حياة الفنانين) لجورجو فازاري التي كان يحتفظ بها دائماً تحت يده، وأعاد فتح الصفحة حيث تبدأ سيرة رافائيل: «لقد وهبته السماء التواضع وحلاوة الروح التي يمكن إيجادها أحياناً لدى الكائنات المليئة بإنسانية مهذبة وعفوية، وكان دائماً مبتسماً ولطيفًا مع الجميع وفي كل الظروف».

في السابق لم يتلق الفنانون من الطبيعة عموماً إلا نوعاً من الغرابة الوحشية التي تجعلهم شاذين ومتفردين، مثل بيرو دي كوزيمو الذي لم يكن يتغذى إلا على البيض المسلوق وكان يطهو العشرات منه دفعة واحدة لاستهلاكها أسبوعياً. قال فريدريش لنفسه: «دعونا نتخلى عن العبقرية فلدينا الموهبة فقط. لا يستحق بتهوفن إلا الإعجاب به من بعيد شأنه شأن رافائيل وأساتذة كواتروسينتو القدامى الذين سأتلقى منهم دروسي».

التحق فريدريش بجوزيف في قاعة الدرس ونظر إلى زميله بكثير من الاهتمام. كان الصبي منهمكاً في محاولة تقليد قالب تمثال وقد بدا عليه الإرهاق، لم يكن يبدو مغرياً، لكنه ما إن يرفع رأسه ويغلق فمه ويزيل الخصلات الشقراء الحريرية التي تساقطت على عينيه، حتى يبرز شيء ما رشيق وأنثوي في ملامحه. لقد قادت هذه الملاحظة فريدريش إلى التساؤل ما إذا كان الخضوع الذي أبداه الشاب لبتهوفن كان يقتصر على ساعات العمل وعلى أنشطة السكرتارية! كانت الشكوك التي راودته وهو يستمع إلى قصة جوزيف قد استولت عليه من جديد. ألم توقظ هذه الملامح الأنثوية لوجه الشاب لدى المؤلف الموسيقي رغبة أكبر في سيطرة تامة عليه؟ أوه! كان فريدريش يخاطر هنا بتكهنات محفوفة بالمخاطر، ولكن لماذا؟ إذا كان قد تمكن من أن يعرف مؤلف السمفونية الخامسة بشكل أفضل من خلال علاقته مع المال والغذاء والوقت والحيوانات فلماذا يتساءل أيضاً حول الجوانب الأخرى لحياته الخاصة؟

كانت مراهقته في لوبيك، في ميناء يتردد عليه البحارة والمسافرون والباعة المتجولون وكل أنواع المشردين البعيدين عن منازلهم، قد أرشدت فريدريش، من دون علم والديه الصارمين، إلى عدد جيد من الحقائق. كانت الشجارات تندلع في الأرصفة في كل مساء، بسبب الحرمان من أبسط الاحتياجات الأساسية والملحة للرجال في مقتبل العمر. كان يعلم أيضاً، من خلال الأشياء التي كانت تحدث خلف مستودعات والده، أن الطبيعة البشرية، عندما تحرم من الإشباع الضروري لتوازنها، فإنها تخطئ، فالأمور ليست بهذه البساطة كما في مواعظ القساوسة. كان لابد أن يكون هناك سبب لسرعة انفعال بتهوفن وعدم استقراره ونوبات غيرته. كان بلا زوجة،

ولا عشيقة، فماذا سيفعل بالطاقة الذكورية التي يفيض بها جسده؟ هل قمع رغباته، غرائزه، وعواطفه ليضع كل ذخيرته من قوته في خدمة أعماله الفنية؟ هل كانت هذه سمة أخرى من سمات العبقرية؟ هل كان يقيم علاقات مع ناسخيه؟ هل سعى إلى إقامة علاقات حميمة مع زواره من شأنها أن تجعل إلهامه أكثر خصوبة؟ أخيراً، ومن أجل أن يركز جميع إمكانياته الإبداعية في الموسيقى، هل كان سيختار علاقاته من الجنس الذي كان يستبعد الرغبة الواعية في التملك؟

عاد فريدريش إلى النزل، وتناول العشاء مع فرانز ثم انسحب مبكراً إلى حجرته حيث ظل يرسم حتى وقت متأخر. كانت الأسئلة تهاجمه ولم يكن يجد لها إجابة من أي شخص، ولا حتى من والده الذي لم يكن يجهل قط أنه كان يذهب ليخوض مغامراته العاطفية في المسكن على ضوء الشموع.. أوه! كانت أربع أو خمس مرات فقط، ولم تمنحه فخراً ولا اشمئزازاً، لا شيء سوى الإدراك بأنه أنجز مهمة ضرورية.. لم يكن هناك شيء من هذا القبيل بالنسبة لإليزا التي أدرك معها أن ارتباطهما كان سيظل نقياً.

في الحجرة المجاورة، كان فرانز يحاول النوم عبثًا بسبب السعال الذي كان يهز جسده ويمنعه من النوم، كان فريدريش يذهب إلى حجرته من وقت لآخر للتجسس على نومه. كان جسده ممدداً تحت الأغطية التي تضيء الظلام بشدة بياضها، وكان يرتفع وينخفض على إيقاع تنفس منتظم. وكانت تتدلى ذراعٌ واحدة من ذراعيه إلى الأسفل خارج السرير كاشفة الغطاء عن كتفه العاري. كان فريدريش يراقب النائم بصمت، ويحسده على كل هذا الهدوء المنتشر على ملامحه.. يبدو أن لا شيء كان يمكن أن يمسه مما يُسعد أو يُحزن البشر، وأنه يتحرك في حاضر أبدي، بلا ذاكرة بالنسبة للماضي ولا قلق بالنسبة للمستقبل. كان فرانز يشغل كل كيان فريدريش.. خلال ساعات نومه، وهو يمشي في الشارع، أو يقف في مرسمه.. رغب فريدريش بأخذ هذه اليد التي سقطت عن السرير ووضعها تحت الغطاء، لكن هذا سيكون بمنزلة تقويض لنظام العالم. وماذا سيفعل لو استيقظ وأخبره عن همومه وشكوكه. لم يكن فرانز يدرك جميع الجرائم التي يتعرض لها البشر العاديون، ولا حتى هذا القلق الجسدي الناجم عن ارتفاع درجات الحرارة الاستثنائي.. هذا

القلق الذي شعر فريدريش بأنه كان بحاجة له والذي دفعه إلى التسكع في أروقة النُزل بينما كانت السجادة الشرقية السميكة التي تمثل ذكرى الانتصار على الأتراك، تخنق صوت خطواته لحسن الحظ.

لوقت طويل، سهر فريدريش في حجرته وهو جالس أمام طاولته حيث كان يعيد نسخ الرسوم التي رسمها جوزيف للوحة إله الريف لهيركولانيوم. كان نزلاء النزل الخمسة عشر قد أطفأوا أضواء حجراتهم. أسقط فريدريش قلمه الرصاص ليرى إن كان أحد سيتحرك، ولكن لا، لم يكن هنالك إلا قلبه الذي يطرق بعنف، بانتظار شيء ما لم يكن يعرف اسمه لكنه كان يمنعه من النوم.

الفصل الثالث

بدا أن معركة جديدة حول الدانوب صارت وشيكة الحدوث، لذا دعا لودفيج فوغل رفاقه للقدوم والعيش معه في جرينزينج، حول منحدرات كالينبيرج. كان سيمكنهم مراقبة مناورات الجيشين من أعلى قمة هذا الجبل من دون التعرض، فيما لو مكثوا في فيينا، لخطر القذائف النمساوية.

اعتقد فريدريش الذي كان يسمع فرانز يسعل كثيراً خلال نومه بسبب التهاب الشعب الهوائية أن منتجعاً وسط التلال وحقول الكروم ربما سيشفي صديقه. هو ذاته كان بحاجة إلى الراحة. وستكون الأكاديمية مغلقة خلال العطل ولن تفتح إلا في الأول من شهر آب.

بعد نصف ساعة بالعربة، وصلوا إلى المنزل الذي كان أكثر سحراً لطبيعته الريفية.. استقبلهم لودفيج في الفناء المطلي باللون الأبيض مع أشقائه وشقيقاته الستة الأصغر سناً، بينما كان والده منهمكاً في المستودع بتصليح برميل للنبيذ.. كان الأب قصير القامة ونحيفاً وله شارب ابيضت شعيراته مبكراً. كان يصلح أضلاع البرميل بمطرقة خشبية.

كانت هناك ثلاثة مبان رئيسية تحيط بهذا الفناء الذي كان طويلاً أكثر مما كان واسعاً، وكان مغلقاً من جهة الشارع ببوابة ذات درفتين، تفتح في الخلف على حديقة نباتات مزروعة بالأشجار، كما تم وضع حوض كبير في ذلك المكان على العشب، وكانت الأم تسحب الغسيل منه لتنشره على حبل ممتد بين أشجار الكرز. التفتت نحو القادمين الجدد، فاحمرت خجلاً، ورفعت يديها المبللتين فيما فوق رأسها لتلوح لهم من بعيد بإشارة ترحيب. كانت تشمر عن ساعديها الممتلئين القويين وتنتصب قامتها موفورة الصحة

في المكان مثل تمثال بومون الذي كان يزين رواق الأكاديمية. وبينما كانت تنحني مجدداً نحو حوض الغسيل كان خاتمها الذهبي يتلألأ في الشمس.

كانت هناك شرفة تمتد على طول الجوانب الثلاثة للفناء، تنبعث منها رائحة الخشب والصمغ والقش، وكانت الحجرات تفتح على الشرفة عبر أبواب من خشب التنوب ملونة بلون قشرة الجوز، مع نوافذ يغطي زجاجها الدانتيل، وكانت تلك هي التفاصيل الوحيدة التي تتنافر مع البساطة الريفية للسكان، بينما احتل المطبخ الواسع الذي كان يستخدم أيضاً كصالة للطعام الطابق الأول للبناية الرئيسية، أما الطوابق الأرضية الجانبية فكانت تضم العربة والبغل والبراميل ومصنع النبيذ.

اغتسلنا في الفناء، في مياه المضخة التي كان الأطفال يتشاجرون حول من سيدير مقبضها منهم ليمنحنا الماء. ثم طلب لودفيج المساعدة لحمل أمتعتنا. كان قد ترك سوالفه تنمو ويؤطر شعره الأحمر الجميل وجهه المستدير معلناً عن روحه الودودة. أما جوزيف فهرع على الفور ليلتقط صرر ثيابه المتعددة، كان ضحية لتواضعه المفرط لذا كان يسعى إلى أية خدمة يقدمها ليثبت بها حضوره. كانت غرف النوم مطلية باللون الأبيض ومؤثثة بأسرة ضيقة ومقاعد من القش وخزانة متواضعة للثياب. ولأن فيلهلم شادو هو الأكثر حساسية بسبب صرامة الرهبنة فقد أعلن أنه سيكون سعيداً بين هذه الجدران العارية.

تمكن لودفيج من اختيار حجرتين متجاورتين له ولفرانز بجوار الشرفة التي تطل على الحديقة. وأمام كل هذا الاهتمام، ظل فرانز لا مبالياً، واقترب من السيد فوغل، ولم يندهش فريدريش لسماعه يخوض نقاشاً طويلًا حول نوع الخشب الذي تصنع منه البراميل. قال لصانع النبيذ:

– لا يوجد اختلاف جوهري بين صناعة الأرغن وصناعة براميل النبيذ.

ابتهج صانع النبيذ لوجود مثل هذا الشاب المتذوق والخبير في منزله فقاده إلى القبو ليتذوق قنينة من ذخائره المخزونة.

قال فرانز وهو يتسم بلطف:

– عذراً يا سيدي، أنا لا أشرب الخمر مطلقاً.

هز والد لودفيج رأسه بلا إصرار.

في المساء، أدرك فريدريش جيداً في النُزل أن صديقه لم يكن يشرب غير الماء، وقد عزا هذا الزهد إلى حرارة الصيف الشديدة. كما اكتشف في النبرة اللطيفة والحاسمة للكلمات الأخيرة لفرانز أن ذلك كان نابعاً من قناعة داخلية. لاحظ فريدريش مدى رقة ولطف فرانز التي عبّر بها عن احترامه لوالده ولم يحتقر صديقه ابن تاجر النبيذ سراً بسبب أصوله.

في ما يخصه، كان فرانز يتظاهر بأنه ليس لديه ما يقوله عن أصوله كأنه لم يكن لديه أب وأم بل ولد من تزاوج الرياح في السماء.أما فريدريش الذي تميز بتربيته خلف واجهة برج الأجراس في مينجستراس، فقد كانت حرية صديقه موضوع دهشته الدائم. ومن خلال دراسة شخصيات رفاقه، كان بإمكانه تقييم تأثير خلفياتهم العائلية بناء على سلوكياتهم.

كان شعور جوزيف بالذنب ينبع من خشيته من عدم المساواة مع والده الذي مات بطلًا في ساحة معركة أوستيرليتز. أما لودفيج فكان ابن عائلة كبيرة العدد وكان يملك اتزان مَن يتعين عليه القيام بآلاف المهام بدلاً من تعذيب نفسه بأسئلة لا طائل من ورائها. في ما يخص فيلهلم، فلم يتوقف قط عن تصفية حساباته مع والده حتى لا يضطر إلى الحكم على الرجل الذي كان قد اقترف خطأ ذات مرة مع أموال رجل مصرفي، ومرة أخرى عند ترؤسه نهب المتاحف الألمانية وهو يحتفظ بقبعته مائلة على عينيه. بينما يمكن تفسير شكوك فيليب حول موضوع الشعراء الرومانسيين بزواج والدته الثاني بكبيرهم. وبسبب استياء اليهودي من صمتهم على الاضطهادات.

كان فرانز هو الوحيد الذي نجا من كل التأثيرات، كما لو أنه لم يولد في مكان معين، ولم يكن يسكن في عنوان منتظم، ولم يكن يسلك يومًا طريقًا معينًا للمدرسة، ولم يكن يعود كل مساء ليتخذ مكانه حول المائدة العائلية، وكان قد وصل إلى نهاية مراهقته من دون أن يحمل عبء السنوات الماضية. مع ذلك، كان الشاب ينتمي إلى البرجوازية الصارمة لفرانكفورت ولم ينحدر من قبيلة من البدو الرحل. لكنه لم يكن يعبأ بالتوجيهات والقواعد والنصائح، وكان يحمل معه غبار حذائه في أي مكان يذهب إليه، ويختفي أثر خطواته.. كمسافر بلا أمتعة.

كان قد وصل إلى غرينسبرغ خالي الوفاض، وكان يمكن أن يختفي فجأة في ظروف غامضة بحيث إنه، وبعد مرور عام، كان قد ظهر أمام فريدريش بعد رحلة على الأقدام لمسافة 300 ميل. وعندما سأله عن طفولته، كانت إجابته مراوغة:

– فرانكفورت؟ لا أتذكر أية تفاصيل دقيقة، بأي شارع؟ عن أي منزل تريدني أن أحدثك؟ كان هناك شارع، ومنزل، وكان والدي يخرج ويعود كل مساء، وكنا نجتمع لتناول العشاء، ولم أعد أعرف ماذا كنا نقول...

كان من الصعب أن نكوّن فكرة دقيقة عن مهنة والده، تاجر؟ موظف مدني؟ رجل سياسة؟ ماذا يهم؟ كان يرسل مبلغاً صغيراً إلى ابنه بانتظام، ولكن ما يثير الدهشة أنه لم يكن يرغب باستلام أي مبلغ من لوبيك للحفاظ على استقلاليته، فلم يكن يعتبر هذه الإعانات مثل رابط عائلي. كان المال يوضع في كيس نقوده مثلما يسقط الندى على الزنابق.

كان يتذكر باعتزاز فقط رحلات القوارب في نهر الماين، عندما كان يترك المجاذيف تطفو على النهر، ويشاهد أرتال القوارب تنحدر نحو ماينيس. وبعد أن علمه الجلفاط[30] كيف يملأ فجوات الألواح الخشبية بحشو القطران، أكد له أنه استمد من هذا التدريب ذوقه للخشب والنجارة. وبسماع الضجيج الإيقاعي لقرش المياه الحارة المرتبط بهسيس الأمواج وخشخشة القروش المرتبطة باهتزاز الشباك، كان قد تعلم أن الاتحاد بين العمل اليدوي والإبداع الموسيقي ربما يكون مثمراً على الرغم مما كان يقال عن عدم التوافق بين الحرفي المنكفئ على أدواته والحالم الذي يتطلع نحو السموات. وربما سيثبت، من جهته، أن نجاح أي أرغن يعتمد على التبادل الغامض الذي يحدث بين المهارات التقنية وإلهام الشاعر. ولكي تستمع إلى نغمة عميقة وصافية، لا ينبغي أن تكون متمرساً في عالم المعادن بل أن تجيد الإصغاء إلى إيقاع العالم!

كانت منازل غرينسبيرغ المكسوة باللون الأصفر والمزودة بشرفات مزينة بالصدف تمتد على طول الشارع المنحدر. ولم يكن أي من هذه المنازل

30- الجلفاط: هو الذي يسد فتحات السفن بالخرق والقير.

جميلاً أو جذاباً مثل بيت فوغل بفنائه الأبيض ورواقه الداخلي، والبئر التي كان يغتسل بمياهها المنعشة يتقدمه واحد من أطفاله وهو سعيد جداً بتشغيل المضخة، أما القبو فكان مخصصاً لعشاق النبيذ وشراب الروم.

كان لودفيج يحضر شراب البنش الذي كان يدعوه إلى نسيان نفسه في نشوة الثمالة، كان يوضح، وهو يسعى إلى الحفاظ على جديته، مدى إسهام الشراب الروحي في إثارة الخيال وقوة الحياة كما تفعل الموسيقى، كان ينبغي مراعاة بضعة مبادئ أساسية في خيارات الشرب، فمن يعشق موسيقى باخ، سيناسبه الشراب المعتق من الروم، ومن يفضل الأوبرا فسيفهمها أكثر مع شراب الموسيل، أما الأوبرا الكوميدية فتناسبها الشمبانيا، بينما تتوافق الموشحات الإيطالية مع خمر التوكاي الهنغاري، في الوقت الذي يبقى الشراب الوحيد الذي يناسب السمفونية الخامسة هو البنش. كان لودفيج يقرن حديثه بالإشارات وقد توهج خداه بتأثير الروم.

رفع الجميع كؤوسهم الخزفية، وبعد أول نخب لبتهوفن والثاني لديونيسيس، بدأ الشراب اللاهب يرطب الأفواه. كان فريدريش محظوظاً لأن رفاقه كانوا يشربون باعتدال ولا يبلغون حد الثمالة لأنهم لا يرغبون بتجاوز حدود العالم الحقيقي والتحليق في الجنة ما قد يشكل عقبة أمام الفن الذي يسعون إلى التفوق فيه بوعي ناضج. أما فرانز فلم يكن يرغب حتى في الاعتدال لأنه لا يشرب قطرة كحول ولا حتى قطرة نبيذ. وربما كان من الطبيعي جداً بالنسبة له أن يروي عطشه فقط من الماء النقي المتدفق من أعماق الأرض!

كان تذوق لحظات السعادة البسيطة قد منح فريدريش وجودًا متناغمًا وكاملًا. لم تكن ساعات العمل تتحدد حسب الساعة بل تتوافق مع موقع الشمس، وكانت فاكهة الكرز في الحديقة في متناول اليد، وكانت هنالك قواعد أبوية للعمل ونزهات في التلال بعد العمل وكل تلك المتعة التي ترافق ممارسة الطقوس الاجتماعية بحرية ومرح.. كانت مختلفة جداً عن ماضيه باعتباره الابن الوحيد تحت السماء الكئيبة لـ (بوميراني)، لم تكن هناك حتى الطقوس التي لاحظها في هذا المنزل الكاثوليكي المتدين. لم تكن الصلاة قبل وجبات الطعام، والتجمع المسائي لسماع صلاة التبشير، ومسيرة صباح الأحد نحو الكنيسة بالنسبة له عادات مستوحاة من الدوغمائية الدينية بقدر ما

كانت تعبر عن متعة الاجتماع وعمل شيء ما معًا، وهو أمر يشجعه هو ورفاقه على إنضاج الخطة التي كانت ستبعدهم عن صراع الإصلاح.

كانت السيدة فوغل ذات طباع ثابتة فهي مرحة ومستقيمة ومهيبة، تتوج رأسها عصابة من ضفيرة معقودة بالغة الشقرة، وكانت تحمل بين ذراعيها الفواكه والخضروات مثل إلهة الأرض وتنتصب قامتها الرائعة التي تفوق زوجها طولاً لأن ظهره انحنى بسبب ثلاثين عاماً من العمل في حقول الكروم. كانت توزع الأعمال المنزلية بين أطفالها وزوارها. ولكن، سرعان ما تبين أن الجميع لم يكونوا يعملون بنفس الضمير. كان فيلهلم شادو مثلًا، وبدلًا من أن ينتزع بذور الفاصوليا، يشرح لهم أنه لن يكون من الضروري شراؤها من السوق بل جعلها تنبت في ركن من أركان الحديقة، فلا يمكن للمال إلا أن يعمل على تلويث قداسة المنتجات الطبيعية، لأن التجارة غبن ومعصية، وربما كان آل فوغل سيصبحون مجتمعًا متكاملًا في اليوم الذي لن يعودوا فيه أبداً بحاجة إلى الحصول على الطعام الضروري لهم من الخارج.

أجابت الأم بضحكة رنانة حفرت في وجنتيها النضرتين غمازتين فتيتين، بأن عائلتها ربما تموت من الجوع بانتظار المحصول.. كان جوزيف ونترغيست قد ملأ بالفعل حوضًا بالبقوليات، أما فريدريش الأخرق، فقد جرح إبهامه وهو يكشط حبة بطاطا. كان قد قام بدون أن يخبر أحدًا بوضع خطته التي ستسهم فيها نظريات فيلهلم بقدر ما ستحتاج إلى تواضع جوزيف الطيب الذي كان مستعدًا لعمل كل الخدمات بتفان لا ينتهي.

كان لودفيج يظهر نوعاً من السلطة والمسؤولية وهو يتعامل مع أسرته باعتباره الأخ الأكبر للأطفال، وهذا ربما لن يكون أقل أهمية في مشروع فريدريش، فلا ينبغي له أن يعول كثيراً على فرانز، لأنه ساعد السيدة فوغل ذات يوم في غسل المطبخ من الأعلى إلى الأسفل ولم يدخر جهداً في مساعدتها، أما في اليوم التالي فقد اختفى في التلال يتبعه أصغر الأولاد الصغير هانز والصغيرة آنا وهما في سن خمس سنوات وسبع سنوات. كان صعب المنال دائماً، وحتى عندما يكون معهم ويشارك في المهام المشتركة، يمكن أن نتكهن بأنه يطيع إلهاماً شخصياً عوضاً عن أن يلبي واجبًا تحدده قواعد التعايش. إنه يسير في العالم مسترشداً بنجمه وبالكتاب الصغير

للهندي (البهاغافاد غيتا) الذي كان يقرأ مقاطعه بصوت مرتفع في الممرات، من دون أن يهتم بما إذا كان وحيداً أو مسموعاً: «أنا القوة، قوي معصوم من الرغبة والجاذبية». كان الطفلان ينظران إليه بصمت ويهرولان في أعقابه. كان الهدوء الذي ينبع من شخصه وتصميمه الواضح في كل حركاته، على الرغم من قامته الطويلة وجسده النحيل يثيران إعجاب أولئك الذين لا يترددون في مضايقة فيلهلم وهو يكافح ضد فساد الطعام. كانوا يقولون:

- نحن لا نفهم لغة فرانز لا سيما تلك المتعلقة بالاقتباسات الشرقية من الكتيب الأزرق لكنه يعطي انطباعاً بأنه يعرف إلى أين يتجه. كان هنالك ضوء غير مرئي يرشده إلى الطريق، ولم يكن بمقدورنا كبحه عندما يغادر إلى سفوح التلال مع لوحة رسومه وأقلامه، مع أنه لم يحقق شيئاً من تجواله عدا وجنتين أكثر شحوباً وتعب واضح من المشي لمسافات طويلة.

اكتشف فريدريش دفتر ملاحظات فيه نوتات موسيقية في حجرة لودفيج. كان الشقيق الأكبر، وبعد أن يتم ترتيب المطبخ وغسل الأطباق ووضع الأطفال في السرير، ينسحب إلى حجرته ليضع نظرياته حول الاتحاد بين غرينزغ والموسيقى العاطفية. كان يكتب ألحانه على ضوء شمعته وهو يحمل في يده كأساً من النبيذ الأبيض، من دون أن يذكر هذا النشاط الذي دفعه إحساسه بالمسؤولية وتواضعه إلى التكتم عليه.

فكر فريدريش:

- أي ظلم؟ يرضى الأول بأن يكون على ما هو عليه ويمنحه الآخرون الثقة عندما يغيب نهاراً كاملاً ليجمع ملاحظات حول المناظر الطبيعية من دون أن نرى له رسماً واحداً، أما الآخر، فهو موسيقي بارع، لكنه يضحي برسالته بسبب التزامه ودوره كابن وأخ. لم يكن أحد حوله يشك في أنه، وبعد أن يطفئ المواقد ويضع الرتاج في بوابة العربات، يقوم بتأليف أغنيات ألمانية رائعة يظهر فيها الراعي حزنه ويغني فيها عندليب وهو يهبط من الجبل..

أليس من الظلم أن يرتضي فريدريش تفوق فرانز بلا أي دليل، حتى بعد اكتشاف ورق الموسيقى في حجرة فيلهلم، ومواصلة تقديره كموهبة موسيقية رائعة. فكر في نفسه:

– يوجد إذن موهبة غامضة تفوق الموهبة الإبداعية.

كان الجميع في المنزل يحترمون فرانز ويعاملونه غريزياً كما لو كان من جوهر آخر وموعودًا بمصير نادر.

في وقت مبكر من صباح أحد الأيام، ظهر فيليب فيت لاهث الأنفاس ومضطربًا واندفع إلى المنزل، كانت العوائل اليهودية الكبيرة في فيينا مثل عائلة آل بيريرا، وآل إيسكليز، وآل أرنستن، قد التحقت بنابليون لكنها لم ترغب بعقد اتفاق مع العدو من أجل المصلحة الشخصية.

صرخ وهو يسحب أصدقاءه نحو قمة كالينبيرغ:

– اتبعوني!

وشاركه نفاد صبره زميله الطالب الذي أحضره معه، كونراد هوتينجير، أحد أصغر طلاب الأكاديمية، كان قصيراً وأشقر وعريض الكتفين وكانت بقع النمش تملأ وجهه المستدير.. انتبه فريدريش إلى أن فرانز وكونراد كانا يتبادلان حديثاً هامساً وهما يتقدمان الجميع في صعود الجبل فتساءل:

– من هو هذا الزميل الجديد؟ يبدو أن فرانز يعرفه جيداً إذن؟ منذ متى؟ ولماذا لم يحدثه عنه مطلقاً؟

وصل الرفاق إلى القمة، ومن أعلى 1500 قدم من قمة كالينبيرغ، شاهدوا بوضوح الجسر الجديد الهائل الضخامة الذي يمتد على الذراع اليمنى لنهر الدانوب، بين فيينا وجزيرة لوباو. كان جنود الجنرال أودينو قد أنجزوا هذا العمل البطولي. لم يكن التجمع البدائي للقوارب إلا بضعة جذوع أشجار دفعها الفيضان وأجبرت نابليون على الانسحاب من ساحة المعركة في يوم إيسلينج والتخندق في الجزيرة، لكنه كان عملاً شاقاً مستنداً إلى الركائز ومحمياً بواسطة حاجز قوي من الأوتاد في الماء. كان هذا الحاجز قد أسلم كونراد إلى اليأس. حاول لودفيج مواساته، لكن الصبي الصغير وجد رفاقه فاترين جداً أمام الخطر الذي يواجهه الوطن. فطالما لم يكن كونراد يبلغ من العمر إلا ستة عشر عامًا، فلم يكن بمقدوره أن يلتحق بالجيش ويصبح رقيباً مجنداً، ولكن، ما الذي يمنع الآخرين من اجتياز النهر؟ وما الذي ينتظرونه ليلتحقوا بالجيش؟ كان نابليون قد حشد 150 ألف رجل في فيينا، وكانت

المدفعية قد أطلقت بالفعل 500 قذيفة مدفع في لوباو. وكان جيش إيطاليا الذي يقوده ماكدونالد، وجيش دالماتي تحت قيادة مارمونت، والبافاريون تحت لوفيفر، والساكسون تحت بيرنادوت على استعداد جميعاً لعبور الدانوب خلف فيلق ماسينا وأودينو ودافو.

كان فيليب قد لاحظ في الجزيرة وحول قرية إيبيرسدورف، على الضفة اليمنى من النهر، أرتالاً من الجنود في حالة تحرك، وعلى الضفة الأخرى، في سهل فاغرام، كان النمساويون محصورين في مواضعهم. لماذا ظلوا بلا حراك؟ كان ينبغي عليهم أن يمطروا المعسكرات الفرنسية بقذائف المدفعية. هل سيسمحون للعدو بأن ينهي استعداداته، فقط على أمل أن يأتي جيش الأرشيدوق جون المتوقع قدومه من هنغاريا في الوقت المناسب للمعركة؟

كان فريدريش بالكاد يستمع إليه. كيف استطاع فرانز غير المكترث بالحياة السياسية والأحداث، أن يرتبط بهذا الصبي الشغوف بالحرب فقط؟

ما إن عادوا إلى المنزل، حتى انطلق فيليب الخائف من توبيخ زوج أمه إلى فيينا وعلى الرغم من تبجحه وادعائه الشجاعة. بينما تردد كونراد بعد أن جذبته رائحة التفاح المشوي والكراميل التي كانت تملأ الفناء، وقرر البقاء. لم يقاوم رغبته في أخذ حصته من الفطيرة التي أعدتها السيدة فوغل ووضعت فيها كل ما هو لذيذ من السكر والطحين والزبيب والقرفة وبقية المكونات المفقودة في فيينا منذ شهر.

كان فريدريش سعيداً جداً لأن كعكة كانت قادرة على إخضاع هذا المحارب وأنه سيفقد جزءاً من هيبته في نظر فرانز. نال فيليب حجرة بمواجهة حجرة فرانز في الجانب الآخر من الفناء، وهكذا اكتملت سعادة فريدريش، وسط التلال الناجية من القذائف، ومع هذه العائلة القروية، لكنه استبعد فكرة المغادرة إلى إيطاليا مع فرانز وحده، فكيف سيكون بإمكانهما مواجهة مصاعب السفر والاستقرار في بلد أجنبي، وكلاهما معدمان، إذ لا يبدو الأمر منطقيًا. فمن الجنون أن يشرع اثنان في رحلة استكشافية مماثلة لأن فريدريش كان قد جرح أصبعه بشدة أثناء تقشير البطاطا بينما كان فرانز عاجزاً عن عمل كمّادة له. كان لودفيج المعتاد على العناية بأشقائه الصغار هو الذي نظف الجرح مستخدماً المقص والشاش ثم وضع الضمادة.

الفصل الرابع

- قتلوهم والآن يذرفون دموع التماسيح على جثثهم!

قال كونراد ساخطاً وهو يعرض لفريدريش البيان الملصق في أركان جرابين وكولماركت، عندما نزلوا ذات يوم إلى فيينا، بعد أن تعمد فريدريش التنزه مع كونراد لكي لا يبدو غيوراً على فرانز لأنه كان أحد أفضل رفاقه، اعتقد فريدريش أن من الحكمة أن يجعله رفيقاً له أيضاً، مع أن طبيعة الصداقة بين فرانز وكونراد ككائنين مختلفين بقيت غامضة بالنسبة له إذ كانا متوافقين تماماً مثل الأرغن والبوق.

قال فريدريش لنفسه ليمنح نفسه الشجاعة:

- لم نعد في عصر الكهوف، أنا شاب عصري تمكنت أن أحكم على بتهوفن كما يجب ولم أخض معاناة من أجل لا شيء.

لكن الشاب المعاصر الذي سرعان ما حكم على كونراد بأنه صبي مليء بالحماس وساذج وعديم الخبرة، ونجل رجل متواضع قام ببناء كنيسة، لم يجرؤ على الاعتراف بأن انتصاره الأول على نفسه ساعده على التغلب على مخاوفه من عودة يوليوس. قال كونراد أمام البيان المعلق على الجدار:

- شنور فون كاروسفيلد، أرستقراطي، غلام في البلاط، وفارس متألق وجميل!

سمع فريدريش ما قاله كونراد الذي كان يدعوه «كونراد الصغير» ليس بسبب قامته التي تبلغ خمسة أقدام وبوصتين بل لإقناع نفسه بأنه ليس لديه ما يخشاه من شخص لا يمكن لأفكاره القصيرة والعاطفية ووطنيته الفجة إلا أن تكون ذات جاذبية محدودة بالنسبة لفرانز.

كان مفوض الحروب لدى المراقب العام في فيينا الكونت مارشال دارو قد أعلن أنه سيقام في كنيسة الإسكتلنديين اليوم 15 حزيران قداس رسمي احتفاء بذكرى جوزيف هايدن، الذي توفي قبل أسبوعين!

كان نابليون قد أرسل حرس الشرف لمرافقة النعش، لكن الدفن جرى بشكل غير ملحوظ.

قال كونراد بغضب:

– الفرنسيون مدانون بقتل العجوز، هل كانوا يعتقدون أنهم سيصلحون غلطتهم بهذا الرياء؟

كان الملحن قد دخل للتو عيد ميلاده الثامن والسبعين، وكان يسكن في منزله الصغير في غامبيندروف بالقرب من شونبرن، عندما اندلعت الحرب مرة أخرى. كانت المدفعية الفرنسية المتمركزة في حديقة القصر قد أطلقت ألف وخمسمائة طلقة مدفعية على المدينة، وسقطت أربع قذائف في حديقته، وانفجرت واحدة منها أمام بابه، بضجة مروعة. رفض هايدن الاختباء خلف الأسوار، واستلقى على سريره، وسرعان ما تضاءلت قواه، ثم توفي في 31 أيار، بعد 18 يومًا من دخول الفرنسيين إلى فيينا.

هل سيحضر بتهوفن الجنازة؟ كانت مائة قدم بالكاد تفصل ما بين فريونغ حيث تنتصب كنيسة الإسكتلنديين ومنزل باسكوالتي. هل سيحرص على تكريم من كان تلميذاً له؟ للوصول إلى الكنيسة، كان بإمكان الأرشيدوق تجنب المرور أمام قصر كينسكي. كان المير فيرناند قد فر مع دخول الفرنسيين، ولم تدفع لبتهوفن الـ (150) فلورين الشهرية التي كان موعوداً بها بموجب العقد الذي تم وضعه في الأول من آذار. ومثلها أيضاً الـ (125) فلورين من الأرشيدوق رودولف ولا الـ (60) فلورين من الأمير لوبكوفيتش الذي كان أكثر بخلاً من سابقه وكان قد تناسى بأن السمفونية البطولية كان قد تم عزفها لأول مرة في حجرة معيشته.

تساءل فريدريش وجوزيف إن كان الرجل الذي كان يشك في سرقة خادمته لأربعة كروترز لشراء رطل من الملح سيتمنى، من خلال رؤية تماثيل المصارعين المنحنين تحت بواباتهم على كل جانب من جوانب البوابة، أن

يثور غضبه ضد الأساتذة الكبار الذين نفدوا بجلودهم أمام الخطر تاركين الفنانين في حالة عوز.

فكر فريدريش الذي كان يواصل إنضاج مشروعه:

– من جانبنا، لن نجعل معيشتنا تعتمد أبداً على رضا الحُماة.

تذكر لاحقاً أنه في يوم 15 حزيران 1809 عندما انتظر في زاوية شوتينجاسي ظهور الظل الممتلئ الجسم والأشعث لمؤلف السيمفونية الخامسة، كان قد أرخ قرار استبدال النظام القديم للرعاية الارستقراطية بنظام مجتمعي حيث يساعد الأصدقاء بعضهم بعضًا لغرض توفير الحماية من العوز. كانت فرايبونغ قد منحت سابقًا حق اللجوء، ألم يكن فألًا حسنًا أن اختيارهم العيش كفنانين أحرار كان مرتبطًا بهذا المكان؟

لم يظهر بتهوفن.. كان يحمل ضغينة لأستاذه السابق لأنه غرس فيه المبادئ البالية للموسيقى، لدرجة أنه كان يتلقى في الخفاء دروساً إضافية من معلم ذي أساليب أحدث قليلاً.

كان وكيل الحروب شاباً في الخامسة والعشرين من عمره مهدداً بزيادة الوزن ويرتدي بدلة خضراء بأزرار عسكرية، ولم تنجح السوالف التي كانت تمتد على وجنتيه في إخفاء عيوب وجهه الجاحد. قرأ فريدريش على الصندوق ذي الحواف المذهبة الذي وضعه المفوض إلى جانبه في الصف الثاني في الكنيسة اسم المالك المكتوب بحروف مذهبة أيضاً: إنريكو بيلي إنريكو... أي اسم غريب بالنسبة لرجل فرنسي!

في الصف الأمامي، كانت تجلس ثلاث أو أربع نساء متشحات بالسواد: مدبرة المنزل، الطاهية، وامرأة أخرى من جناح المتوفى كان الجميع يتهامسون بشأنها، ربما لأنه بقي أرملاً لوقت طويل. لقد أنعم الله عليه بتخليصه من زوجة سيئة الطبع كانت تستخدم نوتاته الموسيقية لتعمل منها أغلفة وتغلف بها قوالب المعجنات.

صدمت هذه التصريحات الشريرة فرانز بينما كان يريد الانغماس في موسيقى القداس لموزارت التي كانت قد بدأت تصدح على المنبر.

حول النعش الموضوع في وسط صحن الكنيسة، وقف ضباط وجنود

رماة فرنسيون من دار البلدية للحراسة، لم يبدُ وكيل الحروب مهتمًا بالموسيقى كان قد سحب من صندوقه دفتر ملاحظات، بينما انتظره فريدريش عند خروجه، ليقدم له نفسه بلا مراسيم ويسأله بأدب، بلغته الفرنسية التي تعلمها في صالة الألعاب الرياضية في لوبيك ولدى التعامل مع زبائن والده من بوردو، إن كان مواطنو رامو يعرفون هايدن وتعجبهم أعماله. بالنسبة للمفوض الذي يرتدي بدلة عسكرية، بدا الشاب أكثر لطفاً. أجاب المفوض (باللغة الإيطالية) بأن باريس كانت قد دعت المايسترو ذات مرة لتقديم أوبرا (الخلق) لكن الشرطة النمساوية رفضت السماح له بالمغادرة.

تساءل فريدريش:

– لماذا هذه الكلمات الإيطالية؟

لقد أعلن بذلك أنه لم يكن نمساوياً.

– مادمت أجنبياً، لن يمكنك إذن أن تدلني على موقع قصر الأمير ليختنشتاين.

كان كونراد أيضاً قد لاحظ الهوس الإيطالي لوكيل الحروب، فهز كتفيه وعاد بالقرب من النعش. قال:

– أية وقاحة لدى هؤلاء الفرنسيين لاستعارة لغة الشعوب التي تستعبدهم.

قال فريدريش فقط وهو يشير إلى الطريق:

– خذ الطريق إلى جانب هوفبورغ.

– يرغب الأمير بشراء طائر الببغاء الذي تركه جوزيف هايدن مع ممتلكاته الأخرى التي تركها للمارشال. إنه مستعد لتقديم أربعمئة فلورين من أجله، إذ تروى العجائب عن هذا الطائر، فعندما كان صغيراً كان يغني ويتحدث عدة لغات.

– ألف وأربعمئة فلورين!

فكر فريدريش وهو يقارن هذا المبلغ مع الثمانمئة فلورين المخصصة سنوياً من قبل الأمير كينسكي لبتهوفن، إذا كان يعرف بأن عمله الذي يعكف عليه منذ عام لا يكاد يكون أغلى من الببغاء.

استأنف وكيل الحروب وهو يضغط كيس نقوده على صدره:

- لدي مهمة أخرى بأن أحمل إلى أمير ستارهيمبرج الساعة التي أهداها الأميرال نيلسون لهايدن واحدة من ريشاته التي كان يستخدمها لكتابة روائعه. لقد اشترى الأمير إسترهازي جميع المخطوطات.

بعد أن غادر الفرنسي، قال فرانز وقد تبللت عيناه بفعل تأثره بموسيقى القداس لموزارت:

- هل يمكن أن يكون قلبه قاسياً هكذا؟

قال فريدريش بنبرة حالمة:

- هل لاحظت كيف يداعب بحنان مقاطع الكلمات الإيطالية؟ أحب هذه الكلمات.. وأنت؟ أعترف بأننا فعلنا جيداً بتسجيلنا في دورة تعلم اللغة الإيطالية.

- أششششش

قال فرانز وهو يشير إلى كونراد وجوزيف ولودفيج وفيلهلم وفيليب الذين، وبعد أن تجمعوا أمام النعش، انضموا إليهم في الساحة الأمامية.

هذه الـ (أششششش) وابتسامة التواطؤ الرقيقة التي رافقتها كانت بلسماً بالنسبة لفريدريش. لم يكن فرانز قد اطلع على مشروعه بعد، لكنه سيكون معه خاصة أن الآخرين لم يوقعوا عهداً بالدم معه كما فعل فرانز في حديقة مينجستراس.

بعد ثلاثة أسابيع، ضربت عاصفة رعدية عنيفة غرينزنج أثناء الليل، واستمرت زمجرة الرعد حتى صباح اليوم التالي دون انقطاع. مسد السيد فوغل شاربه الأبيض بيده ثم أكد وهو يضع يده خلف أذنه أن الصوت الذي يدوي في الفضاء لم يكن صوت الرعد بل صوت مدفع.. لم يلبث فيليب أن غادر إلى فيينا، بينما هرع الجميع نحو قمة كالينبرغ، حيث تجمع بالفعل السكان المحليون وحشد من سكان فيينا.

عندما أشرقت الشمس من جديد، كان يمكن للمرء أن يرى بالعين المجردة الجسور الثمانية الممتدة على الذراع الصغيرة لنهر الدانوب، بين جزيرة لوباو وبلدة إنزرسدورف في اتجاه مجرى النهر حيث كان الأرشيدوق شارل ينتظر خصمه. كان قد احتجز كل قواته المحتشدة بتهور بين أسبيرن

وإيسلنغ، مقابل النقطة التي هبط فيها الفرنسيون لأول مرة. لم يكن هناك سوى صخب مرعب على الجبل عندما تم إدراك أن أفواج نابليون، مستفيدة من هذه الميزة الأولى، كانت تخترق الجناح الأيسر للأرشيدوق.

كان كونراد متحمساً جداً ويقفز من الإثارة وهو يركز نظره على مرتفعات فاكرام، حيث كان من المفترض أن يصل الأرشيدوق جان، شقيق القائد العام معززاً بالجيش المجري.

– «انظروا!» صرخ لودفيج مشيرًا عبر السهل إلى عربة تتحرك من نقطة إلى أخرى في ساحة المعركة تجرها أربعة خيول بيضاء. سقط وابل من القذائف حول العربة لكنها واصلت المسير وسط الغبار والدخان من دون أن تصاب بأذى.

أجاب فيليب وهو يهز كتفيه:

– أحمق، إذا كنت تعتقد أن نابليون يمكن أن يتنقل بهذه العربة وأننا سننال منه بهذه الطريقة! لابد أن يكون هذا مارشالاً قديماً.

قال جوزيف، سعيداً بقدرته على إرضاء فضولهم:

– إنه ماسينا الذي يعاني من النقرس، لقد رأيت هذ العربة وهي تغادر قصر لوبكوفيتش حيث مقره.

سأل فريدريش الذي كان أكثرهم اهتمامًا بمراقبة الصبي:

– أين كونراد؟

كان هو أول من لاحظ اختفاءه. بحث عنه رفاقه عبثاً، فقد كانوا يخشون من ذهابه إلى معسكر الأرشيدوق لتحذيره من تكتيك العدو..

انطلقت القوات نحو نيوسيلد، وأدكلا، وسوسينبرون، وهي ترتدي قبعات الجيش الإيطالي ذات الريش، وقبعات الأفواج الدلماسية الرمادية الطويلة المستخدمة في الجيش التركي، وقلنسوات المشاة الفرنسيين، وقبعات الساكسونيين، وخوذ الدروع البراقة، بينما تسير في المؤخرة قبعات الفراء للحرس. ومن الأعداد الكبيرة من الجنود الذين يرتدون الزي الأبيض، يمكن للمرء أن يقيس الإحراج الذي فرضه الحصار القاري على فرنسا،

حيث كانت المصانع تفتقر إلى الأصباغ لصبغ قماش البدلات العسكرية باللون الأزرق.

أخذ جوزيف وفيلهلم مخططات أولية في دفاتر رسومهم استعداداً للوحات المعركة التي كانوا سيرسمونها من أجل مجد الأمة الألمانية.. اضطر فريدريش إلى انتزاعهم من انكبابهم على أوراقهم ليسألهم ما إذا كان كونراد قد أبلغهم عن نواياه. هل سيكون من الحماقة لدرجة محاولة عبور نهر الدانوب بالقارب؟

بسبب قلقهم، قرروا النزول إلى غرينزنج حيث وجدوا الصبي جالساً أمام جزء من حلوى الكرزية التي صنعتها زوجة صانع النبيذ في فرنها فضحكوا جميعاً من خوفهم عليه. أعطت السيدة فوغل لكل منهم طبقاً، وعندما شبعوا، تخلوا عن فكرة تسلق قمة كالينبيرغ للمرة الثانية بسبب الحرارة الحارقة.

في المساء فقط عاودوا الصعود، كانت القذائف ورصاص البنادق قد أضرمت النار في حقول القمح الناضج، كان المحصول يحترق على الجانب الآخر من الدانوب، حيث التهم الحريق السهل من كاغران وحتى إنزيرسدورف أمامه الجنود. شوهدوا وهم يفرون بأسرع ما يمكنهم. ومن نجا منهم من الموت فقد هلك في الحريق. كانت الخيول تتقافز من الرعب وتصهل بفزع. وعندما نشر الغسق ظلاله، كانت الجثث مكدسة بعشرات الآلاف بين النهر وهضبة فاغرام حيث يختلط فيها الأصدقاء والأعداء معاً، متشابكين في الموت في ضوء المشاعل. بقي فريدريش ورفاقه جزءاً من الليل أمام السهل المضاء. وكان القتال قد استمر في اليوم التالي، وسط الحقول المتفحمة حيث كانت الأشجار السليمة تشتعل فجأة مثل المشاعل. وفي اليوم التالي، علموا أن الأرشيدوق شارلز كان قد انسحب مع قواته نحو مورافيا، تاركاً النصر لنابليون.

طلب فريدريش وفرانز عربة للعودة إلى النُزل.ثم غادرا مع رفاقهما في نهاية ما بعد الظهر، عندما تضاءلت الحرارة الشديدة واشتعل الغروب بأشعة بنفسجية. تركت زوجة صانع النبيذ غسيلها ووقفت على العتبة وهي تضم راحتي يديها بينما كان خاتم زواجها يلتمع في الضوء.

انطلقت العربة دون أن تطرأ أدنى إشارة انفعال على ملامحها، أما فريدريش الذي كان قلبه يفيض بالامتنان والحزن، فقد التفت ليحتفظ في ذاكرته بصورة هذه الأم التي تناقض شخصيتها شخصية والدته السيدة أوفربيك.. لقد كانت والدة عظيمة تنبض فيها قوة الحياة بشكل غير محدود، كانت متصالحة مع نفسها على الدوام، لا تتأثر بذهاب وعودة أبنائها فهي مستعدة لإطعامهم وتدليلهم عندما يكونون في متناول يدها ولا تبالي بمصيرهم بمجرد أن يبتعدوا عن بصرها.. كانت صورتها الظلية الجانبية مهيبة وكأن الشمس كانت تغرب من أجلها فقط.

بكى هانز الصغير وآنا الصغيرة عندما حملت العربة صديقهما الكبير، وبينما قفز كونراد قفزة متهورة ليحتل مكانه إلى جانب السائق، سأل جوزيف بخجل إن كان هنالك مكان له في الداخل، أما فيلهلم فقد رمى حقيبته على كتفه وانطلق سيرًا على الأقدام.

كان السيد فوغل قد أرجأ زيارته المسائية لحقول الكروم ليشهد رحيلهم، ثم مسد شاربه بحركة نشيطة وسارع إلى إغلاق مصراعي البوابة التي أصدرت ألواحها الثقيلة المتعارضة ضجة مدوية.

قال وكيل الحروب لفريدريش:

– لقد أصبت بالحمى، ولم أتمكن من مشاهدة المعركة.

كانا قد التقيا في كنيسة أوغسطين، أمام نصب تذكاري فريد، وهو عبارة عن هرم مدمج في جدار صحن الكنيسة ومثقوب بفتحة مستطيلة. كان يمكن رؤية موكب من النساء الباكيات منحوت في رخام من البياض المبهر، يليه فتى صغير بأجنحة كبيرة يرقد على أسد شبه نائم ينظر بعين مبللة إلى هذا المشهد كأنه يقدم الرثاء المثير للشفقة..

استأنف إنريكو بايل وهو يحاول إخفاء حقده لأنه لم يشهد ذلك النهار التاريخي:

– على أية حال، لا يمكن مشاهدة معركة أبداً. فالشهود الذين يزعمون رؤيتها جميعهم كذابون، وقد يكون المرء روائياً سيئاً إذا أراد أن يصف عشرة كيلومترات من المجزرة. انظر إلى هذا القبر، تشير الكتابة التي قرأتها على

شاهدته إلى اسم «ماريا كريستينا أوستياكا» ما يعني أن أرشيدوقة النمسا مدفونة هنا. لقد كان زوجها هو الذي أمر بإنشاء هذا النصب التذكاري، الأمير ألبيرت، أمير ساكس تيشين، الذي توفي المارشال لانيس في قصره قبل شهر. لقد بدأت في الاعتقاد أن النحت هو فن أرقى من الحرب، وستسمع قريباً عن أنطونيو كانوفا كواحد من أعظم الفنانين الذين شرفوا عصرنا.

على الرغم من انزعاجه من ظهوره في أعقاب الكارثة وهو يتحدث مع العدو، فإن فريدريش كان سعيداً ببلاغة الوكيل. لقد كان العمل الفني الذي شاهداه معًا رائعاً حقاً. وقد تأثر فريدريش كثيراً برؤية الفتى المجنح إذ كان يذكره بلقائه مع شينكل في برلين، عندما لم يجرؤ على الاعتراف لرسام الكاتدرائيات بأن بساطة الخطوط القديمة تحتفظ بقدر كبير من الجاذبية بالنسبة له. كان وطنياً للغاية بحيث أراد أن يكون مدافعاً عن النهضة الوطنية. لقد تأثر بالنقاء اليوناني للفتى الجميل وملامح وجهه الرقيقة الحزينة وألغاز عينيه الحالمتين. فكر قائلاً في نفسه:

– من المؤسف ألا يكون فرانز إلى جانبي!

كان فرانز قد أخبره بأنه بعد المجزرة التي شهدوها من أعلى كالينبيرغ، والتي كانت مجزرة حقيقية، كان لابد لهم من التخلي عن مشروع رسم لوحات عن المعركة. تم حمل الجرحى في عربات المزارعين، وتناثرت الجثث في الساحات العامة التي تحولت إلى مستشفيات، وقد أكد هذا المشهد الدموي وهذه الصرخات رعب فرانز لدرجة أنه بات يشمئز من منظر اللحم ويعجز عن تناول قطعة صغيرة منه. كان يعتقد أنه إذا كان واجب الفنان الألماني يتمثل في تكريس ذكرى حروب التحرير من خلال استحضار المجازر فإنه يفضل التخلي عن الرسم. ربما كان هذا الحزن المطهر وسحر هذه اللحظة المؤثرة سيروقان له على العكس من ذلك..

سأل لكي لا يبدو قليل التهذيب:

– أنطونيو كانوفا، هل هو إيطالي؟

– إيطالي جداً!

أجاب الوكيل بحيوية بحيث تبادلا النظر وانفجرا من الضحك، لكن النبل

والجدية اللذين كانا يميزان ملامح التماثيل الرخامية أعادا إليهما جديتهما. بدا الفتى العاري الذي كانت ساقه المصقولة التي تشع بياضاً معلقة على سلالم الهرم باسترخاء موحش مثالاً للجمال البشري من خلال كمال أطرافه.

كان فريدريش قد تذوق مقدماً سعادة العيش في البلد الذي، وبعد ثلاثة قرون من رافائيل مازال يحافظ على حدة الملامح ونفس الشعائر التي كان يتم ممارستها خلال عصر النهضة. بينما كان محاوره يواصل نظراته الحادة المتنقلة من جانب إلى آخر، كما لو كان يتحرق للتواصل معه وسحبه من حلمه.

- يمكن القول إنه ملاك -قالها بالإيطالية- أليس كذلك؟

أذعن فريدريش بسعادة لتلقي بعض الكلمات الإيطالية فهي فرصة تساعده على التطور في هذه اللغة، لكنها خصوصاً طريقة ليتجنب الحديث بها بلغة العدو ما سيسمح له بالبقاء لوقت طويل جداً مع هذا الفرنسي المسلي جداً. سأل بالإيطالية بعد أن تذكر كيف كان بايل يفتش في صندوقه ذي الحروف المذهبة بدلاً من الاستماع إلى القداس في كنيسة الإسكتلنديين:

- أنت لا تحب موسيقى موزارت؟

قال المفوض بالإيطالية ضاحكاً:

- موزارت هو ملاك آخر.

استأنف الوكيل بالإيطالية وهو يشير إلى الملاك الذي بدا كأنه يتشبث بلبدة الأسد خوفاً من الانزلاق إلى أسفل السلالم:

- هذا بالغ الخطورة!

- أكثر خطورة؟ ماذا يقصد؟ تساءل فريدريش، ثم انطلق ضاحكاً فجأة خشية الظهور بمظهر البليد أمام ابن البلد الذي أنجب فولتير.

تابع بايل:

- نحن معجبون بالتماثيل لكننا ندين الشعور الذي يلهم النحاتين، وهذا تناقض يجب على الفن الحديث أن يفسره يومًا ما. هل ذهبت يومًا إلى روما؟

قال فريدريش وهو يشعر بالراحة لتغير مجرى الحديث الذي منحه وقتاً للتفكير في جملة دقيقة للغاية بالنسبة له:

– ليس بعد.
– ألم تشاهد إذن (أبولون دي بيلفيدير)؟
– لكني أعرفه من خلال الرسوم.
– هذا أفضل، أخبرني إذن ما إذا كان الشخص الذي صنع أبولون يمكنه الوصول إلى مثل هذا الإتقان للجسد الذكوري من دون معرفة المشاعر التي حرّمتها الكنيسة بشدة؟
قال فريدريش بصوت خفيض:
– بالطبع!
كان قد قال هذه الكلمة لإعفائه من تقديم إجابة أكثرتفصيلاً على سؤال لم يكن متأكداً من أنه فهمه بشكل صحيح.
– لابد أن يكون كانوفا إذن إما مقلداً مسطحاً للعصور القديمة، وهو ما أستبعده أمام روعة هذا الرخام، أو منافقاً لئيماً وهو ما يحزنني من جانب فنان مثله. هذه الساق مثالية، وهذا التمثال النصفي النابض بالحياة مثير جداً، بالنسبة لي أعتقد أن مؤلفها يتوافق مع قانون القديس بولص، فكل ما يفعله الإيطاليون بشكل رائع، يفعلونه تحت تأثير العاطفة. لم يتفوق على فنهم الألمان ولا الفرنسيون. لقد نحت الشغف هذه الخصلات على رأس هذا الفتى، وهو الذي صقل الوجنة أيضاً، وصمم هذا الفخذ. لا يخدعنك هذا الأسلوب الذي يمكن أن يبدو لك بارداً وصحيحاً. لقد تبنى أنطونيو كانوفا هذه النغمة لإخفاء أن محرك خياله هو أيضاً النابض الرئيسي لحياته. كان يخشى أن تؤدي الحماسة المفرطة في اليد إلى خروج الشعلة في القلب. هل هذا موقف جدير برجل عظيم؟ سأل الوكيل فريدريش الذي بدا أكثر اضطراباً، ثم همس بسرعة وهو يسحبه من كمه:
– إنه يريد أن يحصل من نابليون على وسام جوقة الشرف، وقد قضى حياته كلها في كذبة من أجل المتعة الوحيدة للوسام! كان البابا بيوس السابع قد منحه مهمازاً من الذهب.
قال فريدريش لنفسه محذراً:
– هل يعتبر هذا شيئاً مستفزّاً!؟

ثم تراجع غريزياً ليبحث عن أية هيئة كانت تناسبه ليتخذها وهو يسمع وكيل الحروب يشير إلى إمبراطوره. لقد ابتهج لمعرفة تفاصيل أخرى حول شخصية كانت ستلعب دوراً مهماً جداً منذ إقامته في روما، لكن كل كلمة من هذه المحادثة بقيت محفورة في ذاكرته بسبب الجهد الذي كان عليه أن يبذله لفهم معناها.

نظر بايل إليه بحزن وقال:

– كنت سأستمتع بمواصلة الحديث مع شاب ألماني. إذا لم يكن هذا الهرم الجنائزي مخصصاً لذكرى الأرشيدوقة ماري كريستسن، فربما يمكن أن نكون أصدقاء. ولكن لاحظ قليلاً تسلسل الأحداث كما قال كابانيس العظيم. كانت الأرشيدوقة شقيقة الأرشيدوق جان، الذي حال وصوله المتأخر إلى ساحة معركة فاغرام دون إيقاف هزيمة النمساويين. إنها الهزيمة التي تجعلك تشعربالراحة مع ضابط من جيش المنتصرين. بدوت سعيداً لتبادل بضع كلمات إيطالية معي، كما لو أننا كان يمكن أن نسمو بأنفسنا فوق القتال، لكننا نعرف أن هذا وهم، وأن كلًا منا يقف في جانب مختلف، أنا فرنسي وأنت ألماني. آه. لا تنكر ذلك! لقد انزعجت للتو لأني قلت «أنا» قبل «أنت» ولأن هذه الصفة تبدو لك مثل قلة تهذيب.. إذا عشت في إيطاليا، ستدرك أنه يمكن التحدث عن النفس هناك قبل التحدث عن الآخرين، لأن الترتيب الطبيعي للعواطف يريد ذلك، ولأن الإيطالي ينسى اللياقة ليبقى مخلصاً لما يشعر به. وداعًا سيدي. كنت سأشعر بالقلق حيال إبقائك محرجًا لفترة أطول.

إن السياسة والمشاعر التقليدية التي تولدها والزيف الذي تفرضه على العلاقات الإنسانية منعت شابين موهوبين، اكتشفا التعاطف المتبادل بينهما، وربما لن يلتقيا مرة أخرى أبداً لمتابعة محادثة كانت قد بدأت للتو. وإذا كانت رطوبة الكنيسة الأوغسطينية ورؤية المقبرة ليست المكان المثالي لتبادل الملاحظات المبهجة إلى حد ما، فسيكون بإمكانهما العودة إلى محل ديميل للمعجنات القريب جداً والوحيد في فينا الذي يجنبهما الإحراج.

الفصل الخامس

بعد الأحداث التي كانت قد جعلت النمسا تحت أقدام نابليون، وأبادت ما بقي في أوروبا من مقاومة للطاغية، عاد الهدوء إلى فيينا. كان على فريدريش أن يعترف أنها استعادت بهجتها بسرعة وهي ميزة تُحسب لها. لا مزيد من الخيول، ولا من العربات التي تجرها الخيول في أزقة براتر، لا مزيد أيضاً من الكريما المخفوقة أو الفقاعات الرغوية فوق فناجين القهوة، لكنه كان يسمع الغناء في الشوارع، وأصوات باعة الخبز الأسود الذين كانوا يصيحون بحماس كبير خلف عرباتهم اليدوية كما كانوا يفعلون عندما كانوا يبيعون أرغفة القمح الأبيض. في ساحة هوهر ماركت، كان مجلس البلدية قد وضع من جديد قفصاً لحبس الخبازين المتهمين بصنع خبز رديء كما كان الحال حتى نهاية العصور الوسطى.

بدا البيان مثيراً للفكاهة بالنسبة لفريدريش، فحتى مع دقيق الشيلم المنخفض الجودة، كان على الشركة الحفاظ على سمعة تذوق الطعام للمدينة التي ابتكرت كرواسون اللوز وفطائر بذور الخشخاش وكعكة الشوكولاتة.

بمواجهة النزل، كان الشيء الوحيد الذي بدا لنظرهم هو عمود مرتفع للنذور أقيم قبل أكثر من قرن بقليل بعد وباء أودى بحياة مئات الآلاف من الضحايا. من نافذته، كان فريدريش يستمع إلى دقات الجرس الضخم المصبوب بالبرونز لبرج كاتدرائية سانت إتيان، والمصنوع من قذائف المدافع التركية التي أطلقت على فيينا أثناء حصار عام 1683.

في لوبيك، الناجية من الكوارث والتي بقيت سليمة على مدى قرون، كان

يمكن الاقتناع بالأخلاق الصارمة لنبذ الملذات، أما هنا، فقد اكتشف الشاب أن هناك تصورًا آخر للحياة عندما نجد أنفسنا سالمين بعد خطر كبير جداً.

ظل خمسة وعشرون ألف جندي للإمبراطور فرانسوا في ساحة معركة فاغرام. وأصبح ألفان آخران سجناء وأسرى، كما فاحت رائحة الحرائق والبارود والدم والتفسخ في الشوارع. وخلال عدة أسابيع، تم علاج الجرحى بقطع الأذرع والسيقان في العراء في الأماكن العامة، وكان العديد من الجرحى يموتون خلال العملية.

تطوع فريدريش مع فرانز كحامل نقالة جرحى، وكان على السيدة ستامب أن تهيئ قوائم طعام نباتية لساكن النزل الذي لم يعد يحتمل رؤية اللحم. تذكر الصديقان بحنين الأطباق الصغيرة من سمك الرنجة التي تقدم مع الخيار والبصل في صالة مخزن الأسلحة التابعة لنقابة البحارة. أما بالنسبة للأسماك، فقد كان من المستحيل الحصول على بعضها في فيينا. كان القحط عاماً، وكان الحريق قد أحرق المحاصيل، أما السكان فكانوا يتغذون على البطاطا والبقول والبيض والدجاج. ولكي يدفع ضريبة الحرب، اضطر الإمبراطور لطرح الملاعق الفضية وجواهر التاج للبيع.

تخلى فريدريش سريعاً عن الفكرة التي راودت ذهنه بجلب إليزا ووالدتها إلى فيينا. كيف سيسكنون في هذه المدينة؟ فبين أكداس اللاجئين وتدفق السكان، لم يبق هناك أية حجرة لاستئجارها.

في نزهاته اليومية، شعر فريدريش أنه تغير كثيراً على الرغم من تردده في الاعتراف بذلك. كان محتاراً في اختيار خطة الطريق التي ستقوده إلى الأكاديمية وكان صراعه الداخلي أكبر بكثير من الحيرة.

على الجانب الآخر من جرابين، وعلى حافة شارع ضيق، تنتصب كنيسة بيترسكيرش، هذه الكنيسة التي يعود تاريخها إلى قرن من الزمان. فهي تؤرخ لتلك الأوقات العصيبة التي طغت فيها الآثار المزخرفة على فيينا. من الشكل البيضاوي للقبة وحتى الجدران المتموجة فليس هنالك إلا منحنيات وانعطافات ناعمة مع تعقيدات لا داعي لها.

كان هنالك حشد من الملائكة والملائكة الصغار والأطفال البدينين

الممتلئي الوجنات وكانت هنالك غيوم من الجص المذهب يمكن أن تؤلم من يتحلى بالشجاعة وهو يجتاز البوابة المتوجة ببحارة متصنعين ويدخل إلى هذه الكعكة المزينة بالكراميل!! أين البساطة النبيلة؟ وتقشف كنيسة ماريانكريش وكنائس لوبيك؟ تردد فريدريش في بدء نهاره باستراحة في هذا المكان المناقض جداً لما يحبه. مع ذلك، لم يحسم الشاب القضية لأن هناك صوتًا يهمس في أذنه بأن هذه الكنيسة، وحتى لو كان يعارض هندستها المعمارية المبالغ فيها وتصاميمها السخيفة فهي تقدم درساً لمن يريد أن يصبح فنانًا. كانت ماريانكريش، بخطوطها النظيفة، تدعو الروح إلى الصعود مباشرة إلى الله. إنها مبنى هدفه ديني قبل كل شيء، والسهام التي تمتد على أبراج لوبيك هي أصابع تشير إلى الدار الأبدية، لكن الذوق والكياسة في الأشكال ينتميان إلى طبيعة الفن والفنانين. إن تقشف أسلوبهم القوطي يشير إلى رفض متعمد للتنوع والزخرفة وكل الأشياء التي يعتبرونها غير مقدسة لأنها تقف عقبة في طريق عبادة الرب.

على العكس من ذلك، فإن كنيسة بيترسكيرش تجتذب الشاب وتثير اهتمامه وتدفعه إلى وفرة من الأشكال التي سينتهي بها الأمر إلى إسعاده ما لم يقده إحساسه النقدي إلى تأشير الذوق السيئ فيها.

كان الزهد المفرط لأحد السهام المنتصبة على الأبراج يتعارض مع الاستدارة المغرية للآخر. وكانت الكنيسة الأولى تستخدم كممر بين الأرض والسماء، أما الأخرى فكانت أشبه بكهف ومخبأ يضمه ويحميه. وفي أوقات الفراغ، كان يجلس على مقعد ليستكشف الأسطوانة والقبة والفانوس والشرفات واللوحات الجدارية.. كانت تلك الكنيسة كونًا بحد ذاته، ملونًا ودافئًا وساحرًا.. عشًا من السعادة وشرنقة من اللذة ومعبدًا من النهم! نعم، كان عليه أن يعترف لنفسه بذلك، فلم يكن تعليمه اللوثري صارمًا بما فيه الكفاية ليمنعه من الاستسلام للغواية. كانت هذه الزخارف من الجص والرخام تسيء إلى ذوقه الشخصي بشكل أقل، لأنها لم تعد تفضح إيمانه أو تُغضب وطنيته أكثر. ولكن، في منطقة غامضة جداً من وعيه، كان يخشى أن يتسبب هذا القبول الأول للمتعة في انهيار الحواجز التي كان يعتقد أنها لن تتزعزع بداخله ما سيؤدي به إلى عواقب في حياته الخاصة التي من

المستحيل أن يواجهها في الوقت الحاضر. أوه! كم يشعر بالاستياء والقلق، لأنه لم يعد يمقت بنفس القناعة نصبًا يملأ الحواس بوقاحة ملحوظة!

بدأت المقاومة التي كانت تحميه في دريسدن من خلال الحفاظ على تراث عائلته تتلاشى عندما تحولت عيناه بإصرار أكثر نحو الجنوب. ويومًا بعد آخر، بدأت تضعف مع نضوج مشروعه. ولم يرغب في أن تمنعه من اتخاذ قراره الكبير بالمغادرة. كما لو أن إقامته على ضفاف نهر الألب كانت تعود إلى عصر آخر.

لا تملك منطقة نفوذ ناخبي ساكسونيا الوسيلة للتنافس مع عاصمة هابسبورغ حتى لو ترك اليوم جانبًا معرض لوحات هوفبورغ حيث سيمكنه أن يتأمل مجددًا لوحات (المرأة في المرآة) لجيوفاني بيليني، و(القديس سيباستيان) لجيورجيوني، أو (الرحمة) لأندريا ديل سارتو، فلم يعد أمام فريدريش سوى النزول إلى الشوارع واجتياز الأماكن ودخول الساحة والتوقف عند حافة النافورة مغيراً مساره بشكل عشوائي.

من عوامل الجذب لهذه المدينة، تلك الفخاخ التي ربما سيترك فيها روحه إذ تقدم للسائح سلسلة متتابعة من الزوايا الخلابة والأروقة المزينة بالتعريشات والأراضي المسورة بالأزهار والمباني المحلية المزخرفة.

في نهاية جرابن، إلى اليمين، سرعان ما وصل إلى ميدان ماركت نوير، حيث تنعكس في مياه النافورة ألوان متعددة. وحيث صدمته أربعة تماثيل مصنوعة من مادة سوداء مصقولة ببذاءة أوضاعها. والآن وقد اعتاد عليها، سيجدها جميلة جداً. وفي شارع كارنيثي الذي يمتد من الكاتدرائية حتى الأوبرا، كانت هنالك فنطازيا مذهلة تميز كل واجهة. وناهيك عن القصور التي تتميز بأروقة مهيبة وشرفات كبيرة تحيطها تماثيل المصارعين، لا يوجد منزل مهما كان بسيطاً، لا تزينه أكاليل من الجص أو أفاريز مزخرفة. لقد تراجعت جملونات لوبيك، باستثناء الجرس، في نظره منذ أن اكتشف ما يمكن استخدام المنحني من أجله. فلو تم نقل الأقواس الحلزونية إلى منزل والده، سيكون لها نفس هيئة فلاحين يرتدون سراويل قطنية وسط رجال حاشية يرتدون ملابس أنيقة.

كان قصر إسترهازي رائعاً بلا غطرسة وباذخاً بلا بوهيمية أميرية.. كان يتكون من أربعة طوابق تزينها الأكاليل والأرابيسك. كانت الزخارف الثلاثية والزخارف المقوسة تغطي بالتناوب النوافذ الإحدى عشرة لكل طابق، وكان هناك إفريز من المعجون المنقوش وأكاليل من الزهور المطلية تلون الواجهة بحيث إن ألوانها الوردية والخضراء فاتحة اللون لأغاني البحارة.

كان يرى تماثيل الملائكة الصغار تنتشر في كل مكان في فيينا وتمنحه السعادة.. في مذابح المعابد، وفي المقاعد الخشبية للكنائس، في شرفات القصور وتحت حافة الإفريز لفندق ستامب. لم تنشأ فقط من بلد جيوتو ورافائيل الذي يحافظ على المفردات الفنية، بل إن الفن المنتمي إلى فيينا هو ذاته إيطالي كلياً أو مشبع بالإيطالية. لم يرد فريدريش تصديق ذلك في البداية، ولكن ما السبيل إلى عدم مواجهة الحقائق. لا أحد سيمكنه اتهامه بتشويه تاريخ فيينا بالمعنى الذي يناسبه. ويبدو أن سحر هذه المدينة يأتي من المزيج الرائع بين التقليد الألماني والتأثيرات الإيطالية.

قبل العثور عليه في الأكاديمية، سيقوم بجولة في الحي القديم الذي تحتشد منازله المحدبة خلف كاتدرائية سان إتيان. هناك، في سقيفة في نهاية طريق مسدود، حيث يتعلم الطلبة صناعة الأرغن، هل سيقوم بزيارة لصديقه؟ ربما سيكون ذلك سخيفاً، فقد افترقا منذ ساعة، وعندما سيكونان في إيطاليا، لن يفترقا بعد ذلك أبداً، وسيبقيان معًا طوال النهار. من جهة أخرى، جاء فريدريش إلى هذا الحي لهدف محدد جداً، واكتفى، قبل أن يمضي في طريقه، بسماع الأنغام التي يعزفها فرانز على لوحة مفاتيح الآلة التي ينبغي عليه أن يضبط أنغامها.

عرضت المرأة التي كانت تدير منزل موزارت عليهم نوافذ الشقة التي كتب فيها منذ ما يقارب عشرين عامًا أوبرا (زواج فيجارو)، وهو مثال آخر للزواج المثمر بين ألمانيا وإيطاليا. هنا الآن قصر اليسوعيين الجميل المغلق من جوانبه الأربعة مثل فناء نضر تحميه جدرانه العالية. دخل فريدريش إلى الكنيسة وصعد الممر المركزي ليستقر على بلاط صغير أصفر مقحم وسط صحن الكنيسة ضمن رصيف من الحجر الرملي الوردي. من هذه النقطة، رفع عينيه نحو سقف القبة وأضلاعها. يمكن أن يقال إنها تتكون من استدارة

مثالية وكانت مرسومة على سقف مسطح. كان هذا العمل المبتكر قد أرسله أمير ليختنشتاين الذي كان سفيراً لدى البابا من روما.

لم تكن القبة الجميلة أكثر ما يذهل فريدريش، بل لأنها لا تكون جميلة إلا بهذا البلاط الأصفر.. أي بذخ! وأية رفاهية! هل يجب أن يؤكد هذا المفهوم الأناني والمتعالي للفن؟

خرج الشاب إلى الفناء الأمامي، كانت هنالك نافورتان تهمسان عند سفح السلالم. كان المغنون الصغار للكنيسة الإمبراطورية الصغيرة يمارسون تدريباتهم وقد أوقظت أصوات أجراسهم الفضية لديه ذكرى الفترة التي كان فيها سوبرانو (صاحب أعلى صوت في الجوقة) في مدرسة المرتلين لماريانكريش.

كان جوزيف هايدن، الذي توفي تواً، عضواً في الكنيسة الإمبراطورية عندما كان صغيراً وكان يتميز بصوته وقد نجا بأعجوبة من الإخصاء، إذ كان لنجاح الأسلحة الفرنسية وخضوع أوروبا لبلد حقوق الإنسان والمواطن الفائدة الوحيدة لإلغاء هذه الممارسة الشائنة والانحراف الوحيد الذي نشأ عن الشغف بالفنون في إيطاليا. ومن الجرأة التي صاغ بها فريدريش هذا الرأي، أدرك أن تردده الأخير قد اختفى، حتى لو كان في أعماقه يخشى الانجرار إلى أبعد مما يريد بمجرد أن يغير البلد والمناخ والعادات.

بادئ ذي بدء، أسسوا نادياً أطلقوا عليه (لوكاسبوند)، نادي لوقا، تكريماً للرسام الأول للمسيح، وفي الواقع، للسيدة العذراء، ولكن، لتجنب الخصام بين أعضاء الطوائف المختلفة، تبنوا هذا الاسم بمبادرة من لودفيج، والهدف الأول من ذلك هو تركهم الأساتذة الحمقى، فهل من المعقول أنه في عام 1809، وبعد اقتحام الباستيل وقطع رأس لويس السادس عشر، وتتويج نابليون وسقوط العروش، سيواصلون نسخ المزهريات اليونانية وتماثيل البارثينون؟ كان الموديلات الذين يقفون أمام الطلبة مجبرين على اتخاذ أوضاع ملتوية ومصطنعة بحيث لا يمكن لأحد الاحتفاظ بها لأكثر من خمس دقائق من دون الحاجة إلى الدعم. في ذلك اليوم، ثار فريدريش ورفاقه لمساعدة فتاة على تقليد راقصة من فيلّا الألغاز. كان يجب تعليق ذراعها بحبل يتدلى من

السقف. ثم سُحبت بواسطة الحبل كأنها دمية. قالوا لأنفسهم: لولا جبال الألب التي كانت تنتصب مثل جدار رملي في الشتاء، لكانوا قد انطلقوا على الفور قبل عيد الميلاد.. لكنهم كانوا مسرورين للغاية على الرغم من تسرعهم، للحصول على وقت مريح يخلصهم من وخز الضمير.

كان لأحدهم والدة عجوز، أرملة وتدير حياتها من معاش الحرب، والآخر كان يتحمل مسؤولية سلسلة من الأطفال الذين عليه أن يساعد أهله في تربيتهم. كان فريدريش قد تخلص من عبء كبير أثقل على صدره عندما اكتشف سر علاقة فرانز بكونراد، لم تكن علاقة خاصة بل تقارب مصالح على الأرجح حديثة جداً وقائمة على سوء الفهم. تضاعفت الطوائف الدينية في فيينا، لكن الناس انضموا إليها لأسباب كانت في بعض الأحيان الأكثر غرابة في نظرهم.

كان فرانز قد اختار «الأخوة المنتمين إلى آسيا» الذين كان كتابهم المفضل «البهاغافاد» باللغة الهندية، من منطلق قناعته الداخلية، حتى لو كان المرء متأكداً أنه لن يسمح لنفسه أبداً بالثقة في أية عبادة غربية أو شرقية، فمن المؤكد أن الروحانية، مهما كانت، هي آخر اهتمامات كونراد. كان الصبي قد انضم إلى الطائفة بعد الاستيلاء على فيينا، إلى جانب عدد كبير من الشباب. كانت الشرطة الفرنسية تراقبهم، وكانت الوسيلة الوحيدة للتجمع من دون إثارة شكوك الجواسيس هي التنزه مع كتاب التقوى الهندوسي والاحتفال بأسرار كريشنا معًا.

بعد أن تحرر فريدريش من الغيرة، بدأ بالتفكير في المصطلحات المناسبة التي ينبغي عليه استخدامها ليخبر إليزا بأن غيابه سيمتد لعدة أشهر إضافية أخرى. مزق عدداً لا يحصى من الرسائل، وقرر أخيراً أنه لن يكتب إلا عندما يتم تحديد تاريخ المغادرة.

لقد شكل (لوكاسبوند) مجتمعاً مصغراً كان لكل عضو فيه مهارات مختلفة ومتكاملة. سيكون فرانز روح المجموعة، والشعلة التي سيحصل منها مجتمعهم المتجول على النور. لم يكن فريدريش بحاجة إلى إقناع رفاقه بذلك، ولتسريع استعداداتهم أبلغهم بقلقه على صحة صديقه. فبعد العطلة الصيفية ومنذ أن أصبح الطقس ممطراً، بدأ فرانز يستيقظ على نوبات

اختناق. كان فريدريش أكثرهم بلاغة في انتزاعه من غرينزينج وحثه على إيجاد ضرورة للبحث عن مناخ أفضل في إيطاليا، أما لودفيج فقد أرسل في طلب طبيب، وهو أمر لم يفكر فيه فريدريش لذا عبر عن تقديره لهذا الدليل الجديد على شخصية لودفيج العملية.

كان الطبيب الذي يتمتع بأخلاق جيدة ولغة منمقة وشارب رفيع قد وقف أمام قامة فرانز الطويلة وسأل عن مراحل نموه واستاء من معرفة أن مرضه كان حديثًا جداً وسريعًا جداً.. أشار إلى الشاب طالبًا منه أن يستلقي وانحنى ليستمع إلى دقات قلبه وسأله إن كان يعاني من اضطرابات أخرى. هز فرانز رأسه، لكن الجميع سيفهمون من هيئته اللامبالية أنه لم يكن مهتمًا بعمق بما كان يمكن أن يحدث في جسمه. طلب الطبيب الممارس فحصاً إضافياً متضرعاً إلى فريدريش أن يغادر الحجرة. لم يعرف فريدريش قط نتيجة الاستشارة، لكن ذكرى هذه الزيارة عادت لاحقاً لتطارده عندما راودته بعض الشكوك حول صديقه.

فتح الطبيب الباب، وعندما ارتدى فرانز ملابسه، قال لفريدريش إن هنالك سببين يدعوان للقلق، ولعلاجه من التهاب الشعب الهوائية ومن العواقب المحتملة بسرعة –وهنا أصبح صوته أكثر مراوغة– فلن يكون هنالك شيء أكثر ملاءمة من إبعاد المريض عن ضباب نهر الدانوب، إلى أماكن أكثر اعتدالاً. كانت تلك هي كلمات الطبيب بالتحديد.

تساءل فريدريش عما إذا كان الأمر عبارة عن تلاعب بالكلام لإخفاء شدة المرض.. قال له جانباً:

– ليته يأكل الكثير من اللحوم الحمراء.

– آه، هل هو نباتي؟

وأضاف –وهو يفرد ذراعيه كأن هذا الخبر سبب له قلقاً غير متوقع– بإيماءة كشفت عن انزعاج كبير، ثم اختفى في عمق الصالة مع سر إيماءته.

لم يسمع فريدريش قط أن الرئتين الضعيفتين يجب أن تعالجا بنظام غذائي للدم. ولحل هذا اللغز، فضل الاعتقاد أن من يطالب بـ «سماء أكثر اعتدالاً» و«شمس منعشة» فهو يجعل الكلمات أفضل من التشخيص.

على أية حال، يجب إعفاء فرانز من جميع الواجبات المادية، وقد بدا لودفيج مناسباً تماماً لإدارة النادي لاعتياده على أن يكون رئيس عائلة كبيرة العدد، وبسبب السلطة التي لاجدال فيها والنابعة من شخصه. كان وجهه الممتلئ وروحه الفكاهية وشعره الأحمر، وطريقته في سكب النبيذ الأبيض، كلها كانت توحي بالثقة. كان يمكن الاعتماد عليه في اختيار المسكن والإدارة المالية والعناية بالمطبخ وعمل دورات روتينية للتقشير والغسيل، كما كان قادراً على فض أي نزاع، وقد وافق على ترشيحهم بشرط أن يساعده أمين صندوق. أعرب فريدريش عن أسفه لعدم تمكن فيليب فيت من وضع خبرته المصرفية في خدمة المجتمع.

كان أحد الأسباب التي دفعت الشاب اليهودي للعودة إلى بروسيا والانخراط في الكفاح المسلح ضد نابليون هو الرغبة في الهروب من المصير المالي لعائلة مندلسون فيلهلم.

بدت الفكرة سخيفة بالنسبة لفريدريش فلم يكن فيليب فيت يكف عن ذم آثام التجارة، ولكن لماذا، بعد كل شيء، لا يستغل هذا الهوس؟ كان سيقلل من مشتريات الطعام إلى الحد الأدنى، وبمجرد أن يستقروا في مكان ثابت، سيبدأ في زراعة البقول، وأشجار الفاكهة، وتربية الدواجن لجمع ريعه في صندوق مشترك. ومع وجود شخص نباتي بين صفوفهم، وآخر صارم تجاه تنظيم النفقات، سوف يتم تقليل تكاليف طعامهم بشكل كبير..

في ما يخص جوزيف، كان عليهم أن يمنعوه من أن يكون متطفلاً عليهم. أما كونراد فقد كان فريدريش أول من طلب قبوله عندما اكتشف أن فرانز كان معجباً به بدرجة أقل، كما أن مذبحة فاغرام لم تثن الشاب عن رغبته في أن يصبح رسّاماً للمعارك.هل ينبغي لنا -كما قال- التخلي عن احتكار الرسم التاريخي الذي تم تزييفه لديفيد وجروس وجيرار وجيروديه بأمر من نابليون؟ لكن الضمير الوطني لـ (لوكاسبوند) كان ضد أولئك الذين كانت وطنيتهم شديدة الحماقة، وتلك كانت حجة فريدريش لدعم ترشيحه. لكن حصول حدث غير متوقع حسم دخوله إلى النادي.

كان هنالك طالب يدعى هينريش ستابس حاول أن يطعن نابليون خلال

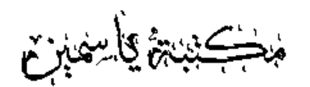
استعراض عسكري في شونبرون، فتم القبض عليه وحوكم بشكل مقتضب ثم أطلق عليه الرصاص. كان كونراد صديقاً لستابس وكان يتحدث بلغة الانتقام لهذا الشاب المغدور، ولمنعه من التآمر والمخاطرة بحياته، أوكل إليه رفاقه مهمة الحفاظ على أرشيفات نادي لوكاسبوند. في حالة حدوث خطر ما، كان يمكن أن يخبئه لودفيج في منزله في غرينزنج. قالوا إنهم لن يتنفسوا الصعداء حقاً حتى يكون بعيداً عن متناول الشرطة الفرنسية، وهي حجة إضافية لتسريع الاستعدادات للرحلة الاستكشافية إلى إيطاليا. كانت هذه الأسباب وجيهة للجميع للمغادرة مع توزيع حكيم للمهام بالتأكيد. ولكن، بالنسبة لهؤلاء الشباب الألمان المولعين بالغموض والإبهام كانت هذه الأسباب تبدو سطحية قليلاً. لقد حلموا بتعزيز تحالفهم بعضهم مع بعض الالتزام الجاد بالإضافة إلى استخدام كل منهم لمهاراته لأجل المهمة السامية التي يطمح إليها كل منهم سراً.

ذات يوم، وعندما كانوا يسيرون على ضفاف نهر الدانوب، شاهدوا قوس قزح يحلق فوق النهر، ورسمت الألوان السبعة رواقاً رائعاً خلف غابة أشجار الحور والبتولا. كان الجسر الذي استخدمته الآلهة للهبوط إلى البشر ولجذب المختارين القريبين منه ممتداً في الطبيعة وغافياً في الشتاء. لقد كان هذا يشبه الوحي، كانت الألوان السبعة ستمثل فلكهم الغامض الذي سيقودهم إلى تحقيق ذواتهم وعبارة (سمسم) التي ستفتح لهم أبواب المجهول. لماذا رقم (7)؟ لم يكن هنالك تفسير إلا في بهاء السماء فوق رؤوسهم وفي الابتهاج الذي أصابهم جميعاً. أدرك الجميع في هذا الرقم وجود تواصل واضح مع اهتماماتهم الأكثر حميمية. الـ (7) ستحكم مصيرهم بنفس الطريقة التي تم بها تقسيم الطيف الشمسي إلى حزمة من الألوان القزحية. بالنسبة لفرانز، كان الرقم يمثل النوتات السبع للسلم الموسيقي والطبقات السبع للعقيق الأحمر وكواكب السماء السبعة، وبالنسبة لفيلهلم كان يرتبط بتقديس الموراقيين للأيام السبعة لعيد العنصرة حيث تحل الروح القدس على الرسل في اليوم السابع، أما كونراد فكان يحلم بأنه سيكون من الضروري انتظار التحالف السابع للتغلب على نابليون، وبالنسبة لجوزيف، كان رقم 7 يذكره بأن بتهوفن كان يعمل على تأليف السمفونية السابعة، فيما كان فريدريش يعتز به

من منطلق الإخلاص الرومانسي لأبراج لوبيك السبعة والإخلاص اللوثري لكلمات المسيح السبع الأخيرة، وحتى بالنسبة للودفيج الأقل إبداعاً بينهم، فقد جعلهم يضحكون عندما ذكرهم بأشقائه السبعة..

احتضن الجميع بعضهم بعضاً وأقسموا على البقاء مرتبطين بصداقة أبدية مثل المنشور الذي تشكل عناصره مفتاح قبة الكون. ولكن، عندما أرادوا، في ذروة حماسهم، أن يمنحوا بعضهم بعضاً لوناً، أدركوا أن فيليب كان على وشك مغادرتهم، وسيبقى منهم ستة فقط، وسيكون (لوكاسبوند) قيثارة غير متناغمة، فقد ذهب الأرجواني إلى فيلهلم تكريماً لمزاجه الكهنوتي الكئيب، والأزرق لفرانز تماشياً مع صفاء عينيه، والأحمر، رمز الحرب والنار لكونراد، أما البرتقالي فسيذهب إلى لودفيج لأنه يشبه لون شعره، بينما يناسب الأخضر فريدريش لأنه يمثل سمة الحكمة والذكاء، وعندما ذهب الأصفر الذي يمثل سمات الحسد والزيف لجوزيف فليس لأنه يناسب طبيعته الصريحة، بل لأنه لا أحد يريده. بقي النيلي الغني، المضطرب الذي يصعب ارتداؤه ولن يذهب إلا إلى أولئك الذين وصفوا هذا اللون بأنه إعلان منتصر لمواهبهم.

تلاشى قوس قزح في الغابة واختفى في ضباب المساء، فعادوا إلى فيينا وهم يتحدثون بحماس، ولكن لم يكن يبدو أن المركز السابع يناسب أياً منهم..



الفصل السادس

أعاد السلام فتح المسارح، وتم عزف أوبرا (الناي المسحور) في قاعة الضاحية القديمة، حيث أجرى مؤلفها العرض الأول قبل ثمانية عشر عامًا. كان فرانز قد سمع هذه الاوبرا بالفعل ثلاث مرات، وكان يعزفها عن ظهر قلب، لذا اصطحب صديقه فريدريش ليحضر العرض فانبهر بجمال الغناء، لأنه كان قادمًا كمشاهد عادي مدفوعًا بالفضول لحضور العمل الأخير لموزارت، لكنه اكتشف عملًا يحدثه عن إليزا. كان قد تعرف في المصاعب التي تعرض لها البطلان الشابان على قصتهما الخاصة والعقبات التي يجب التغلب عليها حتى موعد الزفاف، والغموض الذي ينتظرهما بعد ذلك.

كانت الأوبرا تدور حول قصة الكاهن الأكبر ساراسترو، وهو من الآباء الرحيمين والصارمين (كانت الأحداث تجري في مصر لغرض الحبكة، ولكن كان يمكن إعداد الديكور ذاته في لوبيك) وقد فرض على تامينو أولاً التزام الصمت لفترة طويلة، حتى بمواجهة حبيبته بامينا، وحتى لو كان ذلك يعني إصابة حبيبته باليأس عندما تفسر هذا الصمت كدليل على عدم المحبة. بعد ذلك، يطلب منهما أن يتماسكا بالأيدي ويمرا معًا عبر ستارة من النار، ثم يأمرهما بعبور شلال من الماء.. وحتى هذه اللحظة، لا شيء يدعو للدهشة، ذلك أن رمزية هذه المحن الثلاث بدت واضحة بما فيه الكفاية بالنسبة لفريدريش، ولم ير أي زوجين يحبان بعضهما بعضًا حبًا عميقًا وجادًا يرفضان الخضوع لها.

كان التزام الصمت يشير إلى ابتعاده المؤقت عن إليزا، وكانت النار ترمز إلى إحراق كل الشوائب التي بقيت في داخلهما، وكان الشلال يرمز إلى ماء

المعمودية الذي سيدخلان من خلاله إلى حياة جديدة. لذا اعتقد فريدريش أنه فهم الآن لماذا منعته غريزة غامضة من الكتابة لإليزا منذ رحيله فقد كتبت يده بضع كلمات على الورقة ثم سقطت جامدة بالقرب من الورقة.

كان عليهما كليهما أن يوافقا، في أقصى درجات صرامتهما، على طقوس الانفصال والامتناع عن الكلام، على غرار تامينو وبامينا اللذين احتفلا رسميًا بالزواج بكرامة عندما سقط الستار عن المشهد الأخير.. ماذا سيفعل هذان الزوجان بعد حفل الزفاف؟ لابد أنهما سيسلكان نفس الطريق المفتوح لكل المتزوجين حديثًا منذ أن بدأ العالم، وفي الوقت الذي اهتم موزارت بإخراج الصفات الأميرية ونبل الشخصيات لدى تامينو وبامينا فقد كان قد قدم زوجين آخرين من الخدم هما باباجينو وباباجينا، اللذان كانا قد واجها نفس المحن ولكن بطريقة فكاهية. فبينما كان تامينو المحكوم عليه بالصمت يحزن لأن بامينا تعتقد أنه لم يعد يحبها، كان باباجينو يأسف لوجود قفل في فمه المغلق لأنه لم يعد قادرًا على تناول طعام جيد أو شرب نبيذ جيد.

كان باباجينو وباباجينا عينتين من البشر العاديين، وكان موزارت يصفهما بكثير من الحنان ولكن كزوجين من المستوى الأدنى، فماذا سيكون الغرض من زواجهما إذن؟ كما هو الحال مع جميع الأزواج العاديين.. سيكون الغرض هو (التناسل). وهكذا، وخلال مشهد مبهج، سيتم إحصاء كل الصغار باباجينو والصغيرات باباجينا الذين سيأتون لإضفاء البهجة على منزلهم.

كان الجمهور قد انفجر بالضحك عند هذا المشهد، ومازال فرانز يضحك عند مغادرته المسرح.

– با، با، با، با.... همهم فرانز بالنغمات الأربع التي ابتدأ بها الثنائي الغناء المزدوج.

استأنف فريدريش مقلدًا صوت النساء:

– با، با، با، با

– باباجينا!

– باباجينو!

غنى الثنائي حتى النهاية، وكان فرانز يلقي الجملة الأولى ويتبعه فريدريش بأفضل ما يمكنه.

- الصغير الآخر باباجينو

- الصغيرة الأخرى باباجينا

كان موزارت يسلي نفسه من خلال رسم الحيوية التي لا تنضب لغريزة الإنتاج، واقتبست النوتات الموسيقية بمزيد من السعادة الصخب الناشئ عن سلسلة من الأطفال الصغار.

- با، با

- با، با، با،با

- باباجينو!

- باباجينا!

توقف فرانز أولاً لالتقاط أنفاسه، وسأل فريدريش:

- أليس من الغريب أنه لم يكن لدى تامينو وبامينا أي سؤال حول إنجاب الأطفال؟

- آه، هل لاحظت ذلك أيضاً؟

- كل شيء رمزي في هذه الأوبرا، لم يترك موزارت أي تفصيل للصدفة، برأيك، ماذا كان يقصد عندما جعل الزوجين تامينو وبامينا ثنائيًا عقيمًا؟

صاح فرانز:

- ثنائي عقيم؟ لماذا تتحدث عن العقم؟ أعتقد أنك تتحدث بسرعة!

غرس قدميه وسط الرصيف واضطر فريدريش إلى سحبه من كمه أثناء مرور رتل من العربات التي كانت تحمل آخر المتفرجين على طول شارع دي كارنيثي. وصاح به من داخل إحدى العربات صوت ساخر لرجل كان يحدق به من الباب بأنف محمر من البرد وقبعة من الفراء تصل حتى عينيه.

قال فرانز بعد أن تحولت الخيول نحو سوق نوير:

- نعم، من خلال تقديمها بهذه الطريقة فإنه يطرح القضية وقد تم حلها.

سأل فريدريش متفاجئًا بدوره:

- بماذا تسمي الزوجين اللذين ليس لديهما أطفال؟

- توجد عدة طرق لإنجاب الأطفال، أو عدم النجاح في الحصول عليهم أو غير ذلك... أعتقد بأن موزارت......

استأنف فريدريش لمساعدة صديقه:

- وإلا، علينا أن نفترض أنه بين تامينو وبامينا......

توقف أيضاً. كانت هذه هي المرة الأولى التي تطرقا فيها إلى هذا الموضوع، ولم يعرف أي منهما كيف يتحدث عنه من دون إحراج.

أصبح الشارع الآن مهجورًا، وقد امتد أمامهما فارغًا ومظلمًا بين منحدرين من الثلج المتجمد بفعل الصقيع. رفع فرانز رأسه نحو السماء. كانت هنالك طبقة من القطن اللبني تغلف السقوف وتخفي قمة كاتدرائية سان إتيان.

لأول مرة، أُتيحت لهما فرصة لتعميق صداقتهما من خلال خوض نقاش حقيقي، ولم يرغب فريدريش في تركه يتبدد.. قال:

- هل تعتقد أن تامينو وبامينا لا ....؟

سارع فرانز للرد:

- هذا كل شيء، الأكل والشرب و... ممارسة الحب.. هذا جيد لباباجينو وباباجينا. فالأفعال القذرة والواجبات الوضيعة لا تناسب تامينو وبامينا... أوه! أنا لا أقول هذا لأجرحك! أعلم أنك ستتزوج، فريدريش. لقد كان موزارت متزوجًا أيضاً ولديه العديد من الأطفال، لذلك، يمكننا أن نصدقه عندما يعبر عن نفسه من وجهة نظر ميتافيزيقية من دون مراعاة الظروف المادية التي قد تنشأ في حياة هذا أو ذاك.. إنه يتيح لنا معرفة رأيه في العلاقة الجسدية.

- و... مارأيك في هذا الرأي؟

- إنه فاسد، لا لزوم له، مزعج.

- لماذا تقول ذلك؟

- لقد أثرت انتباهي له أولاً، فريدريش! بالنسبة لتامينو وبامينا، ليس هناك من شك في إنجاب الأطفال... موزارت لم يترك أي تفصيل للصدفة، إنها كلماتك ذاتها..

- يتوقف كل شيء على كيفية تفسيرك لهذه التفاصيل! إنه لا يمنعهم من ممارسة الجنس بل يمنعهم من الإنجاب.

- كان موزارت كاثوليكيًا متدينًا، والكاثوليكية مثلها مثل كل المذاهب تربط الجنس بالإنجاب. (الناي المسحور) تتعارض مع الزوجين الشهوانيين باباجينو وباباجينا والزوجين الروحيين تامينو وبامينا.

- لكن فرانز! أولاً، ليس من المؤكد أن موزارت كان كاثوليكيًا متحمساً كما تقول. أوبرا (الناي المسحور) مستوحاة من فكر وطقوس الماسونية التي كانت في نهاية القرن الماضي عربة الأفكار الثورية. كان موزارت ينتمي إلى محفل ماسوني، وعندما سمعنا هذا القداس في كنيسة القديس أوغسطين.. سألتني لماذا ترك هذه التحفة الفنية غير مكتملة؟

- أنت لم تجبني قط.

- لأني أدركت اليوم فقط سبب هذا الفشل. ربما لم يكن باستطاعة مؤلف (الناي المسحور) أن يقتنع بالعقيدة الكاثوليكية أو بالمسيحية بشكل عام أو بأي دين...

- لماذا، من فضلك؟

- لأن الأديان ترفض الاعتراف باستقلالية العلاقة الجسدية، وما لم يكن هنالك ما يبررها من خلال الإنجاب، فيجب الامتناع عنها تماماً.

- هذا ما يقوله البهاغافاد جيتا أيضاً.

- وآمل يافرانز، ألا تقبل بهذا الدفاع إلا كنصيحة عامة يحق للجميع تجاهلها.

أجاب فرانز بهدوء:

- هنالك أشياء تفلت منا وسيكون من الخطأ إصدار أحكام عليها وعلى عجل. أنت تعلم أنني لا أطبق تعاليم البهاغافاد جيتا حرفيًا.

- أوه، اغفر لي، تمتم فريدريش الذي كان يريد أن يكون أكثر حيوية.

إذا كان هنالك لوم واحد لم يستطع فرانز تحمله، فهو طاعة صوت غير صوت ضميره. كان يشرب الماء فقط، وقد تخلى عن اللحوم، لا ليتوافق مع تعاليم «أصدقاء الطبيعة» وهي واحدة من طوائف عديدة تتناسل في ألمانيا

ولكن عن قناعة داخلية، والآن، إذا كان يحمل هذا الرأي الغريب عن العلاقة الجسدية فيجب أن يكون لديه أسبابه.

- يبين لنا التاريخ ذاته، فريدريش، ومن خلال آلاف الأمثلة، أن الجنس يجلب الضرر.

بدأ فريدريش بالضحك:

- لقد سعى والدي إلى تربيتي على هذه القناعة! كان يستشهد لي دائماً بقصص تريستان وإيزولت، ديدو وإينيس، وروميو وجوليت، لكني أتساءل حقًا ما الذي كان سيقوله عن زواج تامينو وبامينا، اللذين لا علاقة لهما بهؤلاء الأزواج الملعونين. ساراستو، أنت تعرفه، لا يشير مطلقًا إلى أنهما سيعيشان علاقة جسدية كاملة لاثنين متزوجين. لقد فرقت بينهما المحن مؤقتًا، وعندما اجتمعا من جديد، فلأجل الانصهار في اتحاد كامل.

- أنت تعتقد إذن أن موزارت......

- نعم، يا فرانز، إنها فكرة هائلة، انقلاب فاضح، حداثة ذات مغزى، فلأول مرة، يخبرنا أحد بأنه يمكن فصل الحياة الجسدية عن الإنجاب.

- الحب بين كائنين.................

- محرر من كل واجب، ومن كل غرض اجتماعي.

- متروك لمتعة كل منهما.

- حسب إرادتهما وحدهما.

- إنهما يحبان بعضهما بعضًا، هكذا، بلا أي التزام آخر عدا أن يحبا بعضهما بعضًا.

- لن يكون هناك أي شيء أكيد بينهما.

- باستثناء حبهما ذاته...

- لأنهما إذا لم يعودا يحبان بعضهما بعضًا، فلن يمنعهما أي رابط من تخلي بعضهما عن بعض.

- هل من زوجين مشابهين على الأرض؟

- (الناي المسحور) كتبها رجل....

- لكنك تصرخ بكل قواك لموزارت: لا! أليس كذلك، فريدريش؟

كان فرانز قد أمسك بذراعه وضغط عليها وهو يرتجف. وتابع:

– لأن ذلك سيكون فظيعًا، فظيعًا، حب حر تماماً، بلا حدود، وبلا روابط مع المجتمع، ولاحسابات يدينان بها لأي أحد.

– نعم، أومأ فريدريش برأسه وهو يضغط بدوره على ذراع فرانز.

– سيصبح كل شيء ممكناً إذا لم تعد الكتب السماوية، أو العفة، أو الإنجاب، هي الأساس في حياة العشق.

– كل شيء، كل شيء على الإطلاق، فرانز

سارا صامتين من دون أن يخففا من عناقهما، كانت جرابن مفتوحة على يسارهما، لكنهما انعطفا نحو الكاتدرائية التي اختفت واجهتها المرتفعة وسط الضباب.

كرر فرانز:

– سيكون ذلك فظيعًا، سنكون ملعونين إذا سُمح لنا بالقول إن الأطفال ليسوا غرضاً مبررًا للحب.

سارا أسرع وأسرع في الوحل الجليدي الذي تناثر على كاحليهما.

تابع فرانز:

– هل يمكنك أن تتخيل، ماذا سيحدث إذا لم يعد الرجل والمرأة مطالبين بأداء المهمة التي يقوم عليها الزواج؟ وإذا توقف الاهتمام بالنسب ومصير النوع باعتبارهما أساساً لروابط المجتمعات. أحبك وأنت تحبني، والباقي لا يهم!

لم يجرؤ فريدريش على النظر إلى صديقه. لقد خمن أن حدثاً لم يُسمع به من قبل قد طرأ للتو على علاقتهما، ولكن، لم يكن أي منهما مستعداً للنظر في عيني الآخر، وكان كلاهما يحاولان إبعاده عن ذهنيهما.

تسارعت خطواتهما، وكانا تقريباً يركضان وهما يتشبثان بعضهما ببعض بينما كان الثلج الذائب يتسرب إلى أحذيتهما. بدأ فريدريش في التساؤل عما إذا كانا سيمضيان الليل وهما يدوران حول كاتدرائية سان ستيفن، مثل الملعونين حقاً، مدفوعين إلى الأمام بالخوف من التوقف والاضطرار إلى تفسير هذا النوع من الأشياء والرعب الذي استولى عليهما. وكلما كان دفء

الجسد الذي يضغط على الجسد الآخر أكثر عذوبة، شعرا بالتهديد على الرغم من أنهما لم يكن لديهما عنه إلا فكرة غامضة. كان يحاول الإبطاء بينما كان فرانز يسحبه بسرعة.. كان كل منهما يقول لنفسه:

– «يمكننا إذن أن نفعل ما نريد!» بينما رفعتهما موسيقى موزارت على أجنحتها.

قال فريدريش فجأة:

– بالنسبة لنابليون، على أية حال، لا زواج بلا أطفال!

كان قد أطلق علامة التعجب هذه من دون تفكير، ولكن، مع انفجارهما بالضحك، أدرك التأثير المفيد لنكتة كبيرة.

– إنه يفضل المصير التافه لباباجينو على المصير السامي لمعلمه!

بدأ فرانز بالغناء:

– نا، نا،نا،نا...

واستمر فريدريش في تقليد صوت النساء:

– بو، بو،بو

– نابليون الصغير!

أوقفه فريدريش قائلاً:

– أربعة مقاطع أيضاً! نا–بو–لي–ون! مثل با–با–جي–نو!

تنساب الموسيقى بروعة، كما لو أن موزارت كان قد تكهن بطلاق جوزفين. لقد سحرتهما هذه المصادفة الإضافية. كان البطل قد خان طبيعته التابعة وكشف عن نفسه على أنه من جنس العبيد بتطليقه تلك التي لم يمكنها منحه وريثاً. لم يكن هناك حديث عن أي شيء آخر في فيينا وكانت الشائعات تدور حول مشروع زواج جديد للطاغية.عاود فريدريش وفرانز ترديد المقاطع الغنائية لباباجينو وباباجينا، بعد أن استبدلا اسم (باباجينو) بـ(نابليون) ثم توقفا فقط للضحك. كان موضوع مرحهما مفاجئًا جداً لدى معرفة نفاد صبر غريزته الإنجابية التي أنقذت للتو شابين من مخاطر مناقشة حول الحب الحر.

قال فريدريش بعد أن بدأ فرانز بالسعال مجدداً:

- لنذهب إلى المنزل، ستصاب بنزلة برد، لقد تجمدت أقدامنا.

سارا بضع خطوات صامتين نحو الفندق.

استأنف فريدريش الذي كان يتلهف للحديث:

- آمل أن تكون هذه الشائعات كاذبة، سيكون إلقاء نظرة على أميرة من الدم الملكي أمراً جسيماً، ألا تعتقد ذلك؟

- أهذا ما يقال؟

- ولكن فرانز، أين رأسك؟ لا أريدك أن تشغل نفسك كثيراً بمثل هذه الأشياء، ولكن في هذه الحالة، الأمر يتعلق بمستقبل النمسا، بمستقبلنا كلنا.

- جيد؟

صاح فريدريش الذي كان يندهش دائماً من هذه اللامبالاة الهائلة من صديقه تجاه الأحداث السياسية، حتى لو لم يكن هو ذاته يتابعها إلا عن بعد:

- كيف، أنت لا تعرف أن اختياره ربما سيقع على أميرة من العائلة التي يحتل أراضيها وينهبها؟ ثم أضاف: كونراد لا يريد أن يصدق أن الإمبراطور فرانسوا يمكن أن يسمح بمثل هذا العار.

واصل بصوت منخفض بينما كانا يصعدان السلالم:

- لا أطيق الانتظار حتى يتم توقيع معاهدة السلام وحتى يغادر آخر فرنسي فيينا قبل أن يسمح صاحبنا لنفسه أن ينقاد إلى بعض الحماقة.

كان باب فرانز هو الأول أسفل القاعة، توقفا واستدارا بعضهما نحو بعض، ونظرا بعضهما في عيني بعض مع بصيص من القلق.

- عمت مساء فريدريش

- عمت مساء فرانز

كانا على وشك أن يتعانقا، كما في كل الأمسيات، عندما أصيب فرانز بنوبة سعال أخرى.

قال له فريدريش وهو يدفعه إلى حجرته:

- اذهب بسرعة لتجفف نفسك.

دخل فريدريش إلى حجرته، وأقفل الباب بالمفتاح، على غير عادته، وبقي متكئاً على الباب. كان قلبه يطرق بعنف. استلقى، لكنه لم يستطع

النوم. من الكلمات التي قالها فرانز «كل شيء سيصبح ممكناً»، أدرك صدى الأفكار التي كانت تعذبه منذ مغادرته لوبيك.

- لماذا هرب، إن كان «كل شيء قد أصبح ممكناً»؟

كان هنالك شيء واحد، يمكن قوله حقاً، وهو الهدف الخفي والدائم لهربه: إنه الحب، الحب المنزه من كل الشبهات التي تشكك في صدقه. مع مسؤولية الأطفال، ستختفي العقبات الأخرى التي تمنع شخصين من التأكد من أنهما يحبان بعضهما بعضًا: ليس من سبب اجتماعي، ولا إرث، ولا يوجد واجب آخر سوى محاولة إرضاء أحدهما للآخر. الرغبة في شبابه الأبدي وقد يفتح العالم آفاقه اللانهائية لعصر الشعور النقي.

كان فرانزقد قال أيضاً: «لكن هذا ربما سيكون فظيعًا»، وكان قد كرر: «فظيعًا، فظيعًا» مكورًا جسده وهو يرتعش.

لأول مرة، اعتقد فريدريش أن أولئك الذين يبحثون عن الحب يمكن أن يجدوا أنفسهم منغمسين في مسار لا يريدونه. كيف يمكننا أن نوقن أننا نحب بشكل حقيقي، ما يعني أن نطيع قلوبنا فقط، من دون أي دافع خفي لمكانتنا في العالم، لأماننا العاطفي، لراحتنا الأسرية أو استقرارنا المادي، إلا من خلال مشاركة الحياة التي غالبًا ما تكون سرية وغير مستقرة لأولئك الذين يرفض المجتمع التساهل معهم. لقد أدانتهم نار السماء في الكتاب المقدس ولاحقهم عقاب البشر على الأرض.

على الجانب الآخر من الحاجز، اعتقد الشاب أنه سمع الآن صوت السعال المألوف، فقام وغادر الحجرة، متسللاً بهدوء إلى الصالة، ثم دخل حجرة رفيقه وتسلل بين الأثاث وهو يحمل شمعته المضاءة بيده. توقف أمام السرير، وإذا ما سأله أحد:

- وماذا الآن؟ كان بإمكانه الإجابة بكل إخلاص:

- لا أعرف.

هو لم يأت بالتأكيد لقلقه على صحة فرانز فقط، وللاطمئنان على أنه لم يختنق أثناء نومه. هذه الليلة، لم يعد بإمكانهما الكذب على نفسيهما. شعر بتأثر لم يسبق له أن شعر بمثله في حياته: كان مثاراً بفرح شديد، وفي نفس

الوقت كان يشعر بالذل واليأس. «فظيعًا، سيكون ذلك فظيعًا».. همس لنفسه بعد ذلك، وتحجر في مكانه بانتظار اللحظة التالية.

ببساطة شديدة، كان فريدريش خائفًا، شعر بخوف شديد وغير مفهوم من أن يقول لنفسه، وهو يفكر في فرانز:

- إنه هو، أنا أحبه..

لم يكن خائفًا فقط من إثارة غضبه بل من فقدان صديق لا يمكنه أن يتكهن بردة فعله. لقد خاف على نفسه في البدء، فما بين حلمه بالحب النقي وبين محاولته إزاحة الغطاء عن جسد فرانز، كان هنالك اختلاف هائل بين الوهم الذي كان يداعب روحه لفترة طويلة والسلوك الذي سيحدد حياته إلى الأبد.

هناك، على الضفاف الضبابية لخليج البلطيق، يسهر الملاك الحارس الذي كان يحلق حوله منذ الطفولة والذي تذكره في هذا المساء الحزين:

- «إليزا.........»

لم يكن هناك أي نفاق في استحضار هذا الاسم. كان فريدريش ابن رئيس بلدية حقيقي لدرجة أنه لم يفكر في التخطيط لحياته خارج إطار الزواج، حتى لو وجد، من خلال خطة السفر إلى إيطاليا، وسيلة للتأجيل إلى مستقبل بعيد في اليوم الذي وافق له السيناتور بولك رسمياً على طلب يد ابنته. لقد تخيل نفسه جيداً، في غضون بضع سنوات، وهو مستقر مع زوجته في لوبيك وقد قرر البقاء مخلصاً لها. وإذا لم يستطع أن يُشبع بالسعادة الزوجية كل ما كان يثيره أحياناً من شوق ملتهب، وإذا بقي لديه نصيب من قلق ورغبة غير مستخدمة، فسيتعين عليه فتح كراسة رسومه واستئناف دراسة الرخام القديم من براكسيتليس وحتى مايكل أنجلو. عفيف في حياته وملتهب في أحلامه، أليس هذا مصير معظم الفنانين؟

تحرك فرانز خلال نومه وانزلق رأسه من الوسادة، فأعاده فريدريش برفق إلى مكانه. كان قد أحسن عملاً بالمجيء، ولكن بشرط العودة إلى غرفته الآن. انتصب واقفاً، وتنفس الصعداء، وغادر من دون أن يلتفت وراءه.

التقط ورقة وبدأ بترتيب رسوماته السابقة أمامه، وفي صمت الليل، بدأ بممارسة هوايته المفضلة، هذه الهواية التي تمنحه دائماً هدوءًا رائعًا.وما إن

بدأت ملامح التمثال بالتشكل على الورقة، حتى أصبحت يده أكثر مرونة واتجهت نحو الهدف سريعاً. لم يكن هنالك شيء أكاديمي في الحماسة التي دفعته ليجعل الصدر أوسع والبطن مسطحة وبدقة تشريحية لكل الأعضاء التي توحي بالجنس، نعومة الساقين المتباعدتين، تهدل إحدى الكتفين بطريقة توحي بالضعف. هذا المزيج من القوة والضعف الذي سيميز هذا الفنان المجهول، لأنه يحمل سره الداخلي. إنه يجسد ذاته خلال الرسم فتتصاعد لديه الإثارة ويبتعد أميالاً عن الملل والقلق. كان كل شيء ينبض في الأجساد التي يرسمها كأن التمثال لم يصنع من البرونز بل من اللحم.

في النهاية، بدأ فريدريش برسم الوجه، جفون منتفخة، وخصلات شعر على الجبين نازلة على طول الوجنتين. جعل شحمتي الأذنين مستديرتين، ووسع فتحتي الأنف، جعل الذقن مدبباً لكنه تردد في إكمال رسمه. الفم، الشفتان الممتلئتان اللتان تشبهان زهرة نصف مفتوحة. ولإعادة الروح إلى المعدن، كان الأمر يتطلب إتقانًا يفوق إمكانياته. كان هذا التفصيل في الفم هو الذي يوقفه في كل مرة، فقد كانت يده بارعة في رسم بقية أجزاء الوجه، لكنها تواجه عقبة لا يمكن التغلب عليها في رسم الفم وتبدأ بالارتعاش ورفض الامتثال لطاعته. وهذا المساء أيضاً، أغلق الصندوق على عمله غير المكتمل....

الفصل السابع

كان فريدريش يتناول فطوره بصحبة فرانز في صالة الطعام في الفندق عندما انفتح الباب الزجاجي ذو المصراعين مدفوعاً من قبل شاب عرفا فيه حالاً ذلك الذي كانوا يخشون عودته منذ وقت طويل. وحتى لو لم يكن يرتدي اللباس الحريري والرداء الكهنوتي لغلمان البلاط، فقد كان يوليوس يحمل على جبينه الواسع والطلق، في الضوء الذهبي لعينيه النجلاوين كعيني هندي، وثبات مشيته وبطء حركاته يقين وثقة أولئك الذين لا يخشون شيئاً منذ ولادتهم.

سارعت السيدة ستامب في إحضار كرسي إضافي إلى طاولة الصديقين، لكن سكان الفندق الآخرين صعقوا لدى سماعهم يوليوس وهو يعلن للمرأة العانس بصوته الذي يحمل لكنة شرقية بأنه لم يرها قط من قبل:

– سوف أضطر إلى تغيير هذه السجادة، يا آنسة، ألا يمكنك رؤية كم هي مستعملة؟

بدلاً من أن تصدمها مثل هذه الوقاحة من شخص غريب ولم يكن أصلاً من زبائنها، ردت الآنسة ستامب قائلة مع انحناءة خاضعة:

– ألف عفو يا سيدي.. إذا كانت الحرب قد منعتني حتى الآن من شراء اللوازم الضرورية........ أنا

توقفت فجأة لشعورها بالخجل وهي ترى أن يوليوس لم يكن يستمع قط إلى تبريراتها. قام بتقبيل فرانز على وجنتيه، وتم تقديم فريدريش لذلك الذي، لم يذكروا له اسمه، باعتباره شخصية شهيرة واثقة من أن الجميع يعرفونها في كل مكان.

أدرك فريدريش أنه في حالة فشله في الترحيب بيوليوس والظهور بمظهر لائق أمامه، فإنه سيصغر في عيون فرانز، لأن الشاب كان من تلك الكائنات التي لا يمكن لأحد أن ينتقد بساطتها ومرحها وسحرها، من دون أن يبدو أنه يشعر بالغيرة من نجاحها.

– ماهذا ياآنسة؟ قال يوليوس وهو يفتت باشمئزاز الكرواسون الذي كانت قد وضعته في طبقه.

– إنه ليس من دقيق ما قبل الحرب بالتأكيد!

– ومن يتحدث عن الدقيق ياعزيزتي؟ هذا الكرواسون ليس محشواً. هل عدت بعد ستة أشهر من النفي في بودا ولا أحصل على كرواسون باللوز؟

– إنه اللوز فقط، كما ترى....

– فهمت. إذهبي إلى محل ليمان من أجلي واطلبي منه أن يعطيك نصف دزينة من الكرواسون باللوز.

– لن يعطيني أي شيء لأنه لم يعد يصنعه.

– لم يعد يصنع منه بعد؟ خذي هذا وانزلي، قال يوليوس وهو يخربش كلمة على ورقة كان قد انتزعها من كراس فريدريش.

تمايلت الآنسة ستامب وتظاهرت بمقاومة هذا الإغراء الجديد، ولكن تلونت وجنتاها وكان يمكن ملاحظة أنها ذهبت إلى نهاية العالم لإرضاء مثل هذا الصبي الجميل. نزلت الطوابق الأربعة وصعدت من جديد وهي تلهث واعترفت بفشل مهمتها.

– ألست غبياً جداً أيضاً! صرخ يوليوس دون أن يولي أدنى اهتمام للهيئة المضطربة للآنسة ستامب التي كان من الممكن أن يكون لومها أقل مرارة من هذه اللامبالاة. هل لديكم فكرة عن الخدمة لدى ليمان؟ تعالوا يا أصدقائي، سآخذكم إلى ديميل. سأطلب لكم من أفضل متعهد طعام في المدينة.

كان ديميل يمون أصحاب الجلالة الإمبراطوريين، كما يشير إلى ذلك لوح رخامي أسود محفور بأحرف ذهبية في واجهة المتجر، وقد نجح ديميل في شراء السكر والدقيق حتى خلال أشهر التقنين الشديدة. ومع حصوله

على تذاكر لجميع المستلزمات، امتلأ محل المعجنات بالناس منذ الصباح، ولم يعد هناك أي مقعد للجلوس. كان هنالك طابور من الزبائن، يقف أمام طاولة الكعك، بانتظار الحصول على مقعد فارغ. من دون أن يتنازل ويستمع إلى النادلة التي كانت تحاول إعاقته، أزعج يوليوس نصف المتجر بالذهاب مباشرة والهمس ببضع كلمات في أذن السيدة ديميل، وكانت النتيجة حصولهم على طاولة تحت تصرفهم، عند زاوية بين جدارين من المرايا. كان اتهام يوليوس بالغرور يعني إظهار عقل ضيق وكئيب، لكن الشاب كان قد فكر أولاً في رفاقه متباهياً مثل زهرة جميلة تنبعث منها السعادة والصحة. كان بحاجة إلى ظروف مؤاتية لنشر روح الدعابة والأناقة والحيوية التي تنبعث من شخصيته وتنشر نورها على الآخرين.

بين وفرة الأطعمة الشهية التي جلبتها النادلات الثلاث واستولى عليها يوليوس، لاحظ يوليوس على الفور غياب «ماري تيريز» المتخصصة الشهيرة بإكليل التوت الأزرق الذي كان ينعش برائحته الريفية أطباق المعجنات والكريما والمشروبات السائلة. قال:

– نحن نرى جيداً أننا خسرنا الحرب، أتعلمون أن النساء اللواتي تم تحشيدهن لرعاية الجرحى لم يستطعن المغادرة في هذا العام للقطاف في الجبال؟ لقد تسببت الحرب بمصائب رهيبة للوطن، دمار، خراب، عذابات، موت، وتشويه لعشرات الآلاف، وقد أورثتنا فقط خيبة أمل صغيرة سببها الشراهة!

تمنى فريدريش أن يعيد هذا التفكير فرانز إلى صوابه. هذا الذي كان يستمع فقط لكنه كان تائهاً في أحلامه، غير مبال بمحيطه، وغافلاً عن عرض معجنات كل واحدة منها أكثر روعة من الأخرى، وشكلت ألوانها صورة جذابة على طاولة شهية. كان يحمل شوكته بشرود، واختار عشوائياً لقمة وضعها بين شفتيه ثم دفعها مباشرة إلى فمه من دون أن يقضي وقتاً في تذوقها، كان يبدو أنه يجد متعة أكبر في شرب كأس ماء بين لقمة وأخرى أكثر من تذوق لفائف بذور الخشخاش أو الزنبق الإمبراطوري. كم كان يختلف عن يوليوس الذي كان يتناول لقيماته بطريقة مغرية ليجعل المتجر بأكمله يعبر عن إعجابه بهذه التحفة الفنية الصغيرة التي صنعها للتو وهو يتناول

طعامه مغمض العينين ليترك نشوته تدوم ثم يفتح عينيه ويطلق تنهيدة كأنه عاد من إغماءة طويلة. مد يديه الجميلتين للغاية تجاه قدح قهوته حيث كان المشروب الداكن ساخناً تحت رغوة كثيفة. كان رفاق يوليوس ينظرون إليه بذهول، ولم يعرفوا ما إذا كانوا سيسخرون من تصرفاته الغريبة أم سيعجبون به بسبب موهبته.

بدا كأنه يقول، وهو يحدق بجفنيه اللذين ألقت رموشهما الطويلة بظلالها على وجنتيه:

– هل كنت جيداً وأنا أؤدي دوري؟ هل أنتم سعداء معي؟ كان ممتازاً، وحاول أكثر من شخص في الغرفة تقليده قسراً، إذ لم يعد الأكل بفضله مجرد عمل تافه يتمثل في دفع قطعة من الطعام في فم المرء، بل كان طقساً وعبادة. ولم ينجح أي من أولئك الذين عملوا على إبطاء حركات أيديهم والاستغراق في هيئة متأملة في تقليد هذا الطقس الساحر.

لم يبق إلا فرانز الذي قاوم كعك ديميل بلا مبالاته الحالمة، وقد طمأنت هذه اللامبالاة فريدريش وأظهرت له أن يوليوس لن ينجح في إغوائه بالشراهة. فقد كان فرانز ينام ليله بهدوء شديد كمن لديه نقص في الشهوة والخدر الجسدي يقابله قلق وأرق شديدان كانا يزعجان فريدريش بسبب الشهوانية التي رافقته منذ ولادته وجعلته يشعر بخيبة أمل غامضة وحاضر قاتم ربما يقود إلى مستقبل قاتم أيضاً..

أعلن يوليوس بعد أن أمر النادلات بتنظيف طاولتهم:

– لقد استمتعت كثيراً. ما الجديد في فيينا؟

شعر فريدريش بإحراج كامل من محاولة إثارة اهتمام هكذا شخصية بقصة عن فاغرام، وعن الاحتلال الفرنسي، وعن صعوبات التموين. في الوقت ذاته، كان غاضباً من نفسه لكونه جباناً فقد ورث من والدته سلسلة راسخة من القيم وقد قلل من شأنه الآن ليرضي الشاب العائد من المنفى، بالبحث عن قصص لاذعة عن الحياة في الأكاديمية وورش العمل.

استأنف يوليوس:

– أوه! لم أعد أشعر بالملل، آمل أن يخلصنا نابليون من أفكارنا

القديمة! لا؟ مازلت تحضر محاضراتهم؟ سوف ترسم إذن دائماً بشكل سيئ فرانز؟

ثم أضاف فجأة بصوت حاد:

– هل تريدني أن أخبرك لماذا لا يساعدونك على إحراز أي تقدم؟ إنهم لا يعلقون أهمية إلا على الرسم. الرسم يمنح شكلاً للكائنات، لكن اللون هو ما يمنحها الحياة. إن ضعف مدرستنا يكمن في ضعف التلوين. ليس هنالك قوة في الأسلوب ولا في الظلال ولا في العلاقات المثيرة للاهتمام بين الضوء والظلام. الطبيعة وتنوعها لا يدخلان في لوحاتنا. يمكنك رسم لوحة بنجاح كبير وفقاً لقواعد النسب الدقيقة. أما بالنسبة للتلوين، فأنتم متروكون لأنفسكم تماماً مثل الملحن مع الأصوات. لا يمكن تعليم التلوين كما لا يمكن تدريس الموسيقى. هل لقوة رائحة القرنفل الأحمر قوة سحرية عليك؟ واختتم كلامه قائلاً فجأة وهو يدفع الطاولة جانباً ليمدد ساقيه الطويلتين:

– أصدقائي، إذا لم تسمعوا صوتاً في القلب الأرجواني للزهرة فتخلوا عن الفن!

خلال مناقشاتهم الجادة، حاول كل أعضاء نادي لوكاسبوند أن يعبروا عن انتقاداتهم لتعليم أساتذتهم الجامد. كان يوليوس قد جمع كل الحقيقة في جملة واحدة على الرغم من هيئته المتهورة ووقاحته: «الرسم يمنح الكائنات شكلاً، لكن اللون هو الذي يمنحها الحياة». اللون، هو لون المدرسة الإيطالية! كان فريدريش قد استقبل أفكار يوليوس بمزيد من الحماس، لولا انزعاجه من الإشارة إلى أن الصبي الذي وعد نفسه بتشويه سمعة فرانز بسبب ذوقه المفرط في الملابس وأسلوبه الدنيوي في الحياة، كان لديه معرفة بارعة بالرسم مثلهم على الأقل! اكتفى بهز رأسه دلالة على الموافقة.

تابع يوليوس:

– مستمع جيد، إذا كنت تصر على التعفن هنا، فأنا أنوي المغادرة قريباً. مكاني ليس مع دمى البلاط ولا مع حمقى الأكاديمية.

رمق فرانز فريدريش بنظرة ذات مغزى، مصحوبة بابتسامة، لكن الأخير، الذي انزعج من نبرة يوليوس الحرة، قام بتحويل المحادثة إلى أصدقائه، حاول الدفاع، ولكن بهدوء شديد، كان لودفيج يحمل سمة الطيب كما يراه يوليوس، أما فرانز الذي كان ممتناً لعدم ذكره لوكاسبوند أمام رفيقه، فأجاب عن الأسئلة حول كونراد وجوزيف.

هتف يوليوس بعد سماعه وصفاً موجزاً من فيلهلم:

- لا وجوه جديدة أخرى؟ طيب! أنت لست بارعاً. لحسن الحظ أن تكونوا معي!

وبنفس ثقته المعتادة بنفسه، بدأ يحدثهم بإسهاب عن زوجة نابليون المستقبلية:

- أميرة روسية؟ أميرة نمساوية؟ من ستكون البقرة الجميلة التي سيجري التضحية بها لـ «الوحش»؟

أشار له فريدريش بخوف أن يخفض صوته، لكن يوليوس واصل خطبته بمرح، وكان رفاقهم يستمعون إليه وينظرون بعضهم إلى بعض بذهول:

- هل يجب أن أحمل لكم من بودا أخباراً عما يحدث في باريس؟ لقد برر الأمير أوجين، ابن جوزفين من زوجها الأول، طلاق والدته بهذه العبارة التي لم يسمع بها أحد: «الدموع التي ذرفتها والدتي بسبب الانفصال عن الإمبراطور تكفي لمنحها المجد».. لن يحزن عليها ابنها ولا أي شخص آخر طويلاً، فلابد لها أن تفسح المجال لزوجة جديدة! لقد قال أدميرال فرنسا وصهر نابليون يواكيم مورات في اجتماع المجلس أشياء جميلة عن الزواج النمساوي حيث تم تحديد الأماكن التي سيتم اختيارها لإعداد وريث للإمبراطورية..

ثم أعلن:

- ماذا؟ ستسعى فرنسا للحصول على سيادة على ضفاف الدانوب؟ هذا من شأنه أن يكون اعترافاً بأن الثورة ارتكبت جرائم وبأن الناس يحاولون طلب الغفران من خلال تعيين ابنة أخت ماري أنطوانيت الكبرى على العرش. سيقدر الناس القصد من توقيت الطلاق، وسينهض كل من مات

دفاعاً عن مبادئ عام 1789 من قبورهم ليلطخوا بدمائهم فستان العروس الأبيض. إنها فصاحة جميلة. أليس كذلك؟ في الواقع، كان مورات يفكر في مصلحته الخاصة فقط. فإذا تزوج نابليون من ماري لويز فسينتهي طموحه بإضافة تاج صقلية إلى مملكة نابولي. إن ماري كارولين، جدة الأرشيدوقة تحكم في الجزيرة، وسيضطر الإمبراطور إلى حماية الجدة إذا ما تزوج من الحفيدة.

«لقد تم إسكات الأناني». ارتفعت عشرة أصوات ضد الزواج الروسي. هل سنرى البابا مستقراً في قصر التويلري في باريس؟ هل ستحضر الإمبراطورة دينها الأرثوذكسي في حقائبها؟ هل ستتبع تواريخ تقويمها اليولياني (نسبة إلى يوليوس قيصر) المتأخر بثلاثة عشر يومًا عن التقويم الغريغوري؟ أي سوء تصرف سيكون لو أنها أقامت الصوم الكبير خلال أيام الكرنفال، وأسلمت نفسها للمتع في كرنفال بينما يكون قد انقضى في فرنسا كلها! هل سترفض مشاركة الإمبراطور في احتفالات اليوم الأول من السنة؟

كان المجلس قد انعقد للاختيار بين ماري لويز المتفتحة كالزهرة، والشابة آن البالغة من العمر ثلاثة عشر عاماً فقط، ولكن لم يجرؤ أحد في المجلس على طرح السؤال الذي كان يدور على شفاه الجميع. أخيراً، وصل السيد شامباني، وزير العلاقات الخارجية لاهث الأنفاس وهو يحمل الرسالة التي بعث بها إليه (إم.دي كولينكورت) سفير فرنسا في روسيا.

من المؤكد أن شنور فون كاروسفيلد سمين للغاية، هذا ما اعتقده فريدريش، خلال اللحظات القليلة التي ظل فيها يوليوس صامتاً، ليستمتع بتأثير اسكتشافاته على المجتمع الراقي الجالس في ديميل. هنا العديد من الشخصيات المعروفة. كان الشاب يتعجل البقاء بمفرده مع فرانز ليخبره كيف حكم على مثل هذه العجرفة.

قرأ السيد دي شامباني الرسالة من بطرسبرج: لم يتم الاستقرار على الأميرة آن بعد حسبما قال السفير. يجب أن يكون الإمبراطور قد عرف، علاوة على ذلك، أنه بين العلامات الأولى للبلوغ والنضج الجسدي، قد يمر عامان بالنسبة لفتيات الشمال. استغرق نابليون في التأمل، وحسب أنه

سينتظر ثلاث سنوات بلا أمل في الحصول على وريث، مقدراً عدد الذين سيحاولون اغتياله، وعدم قدرة أشقائه على خلافته على العرش، لذا رفع رأسه وأعلن:

- أيها السادة، ربما سأعقد تحالفاً مع الزواج النمساوي، لكني سأتزوج بطناً أولاً»..

اختتم يوليوس كلامه قبل نهوضه فجأة واستعداده للمغادرة مثل الممثل الذي يغادر الجمهور بعد آخر كلمة من دوره، تاركاً خشبة المسرح للكومبارس:

- لم يكن الخبر رسمياً، لكنه أمر مفروغ منه.

أحضرت النادلة الفاتورة كما لو أنه بعد مغادرة الشاب ذي الرداء الأحمر، لم يستطع الشابان الآخران النهوض إلا بالتناوب ومغادرة الطاولة لتنظيفها. دفع فريدريش الحساب، وهو يعض على شفتيه، لأنه كان من غير اللائق أن يشير إلى فرانز الذي كان لا يزال شارداً في أحلامه، كما أن الشخص المألوف في البلاط، ذلك الشاب المتعجرف اللامع كان قد ترك الفاتورة.

قال فرانز:

- ألا تحبه أيضاً؟ طالما نحن نفتقد الشخص السابع، سينضم إلينا لحسن الحظ.. لقد سمعته، إنه لا يرغب بالبقاء في فيينا.

كانا قد وصلا بالكاد إلى رصيف كولماركت..

بناء على هذا الاقتراح الذي كان يخطط له في الوقت الحالي منذ اللحظة التي دفع فيها يوليوس باب صالة الطعام، تجنب فريدريش الرد مباشرة.

- أعتقد أنه يتباهى بمعارفه في المستشاريات كثيراً.

- ما الضرر، إذا كانت لديه اتصالات مهمة، ويمكننا الاستفادة من الأخبار قبل نشرها على الملأ.

- في لوبيك، فرانز، أنت لم تكن تفكر بهذا الأسلوب.

- في لوبيك؟

- نعم، عندما أردت أن أريكم المكان الذي أقام فيه المارشال دافو مقره، ففضلت مشاهدة البجع الذي كان ينام أمام أقبية الملح.

– ولكن هنا، ليس الشيء ذاته! هذه أمور يتوقف عليها مصير العالم.

– إنه على حق، قال فريدريش لنفسه، لن أشعر بالإهانة لأن لوبيك تبدو له كمدينة إقليمية صغيرة. واصل الحديث من دون أن ينجح في التخلص من شعوره بالمرارة:

– في هذه الحالة، إذا كان مصير العالم على المحك، كان من غير الحكمة مطلقاً التحدث بشكل عشوائي عن الأرشيدوقة في مكان عام.. لقد وضع ميتيرنيش[31] جواسيسه في كل مكان.

سأل فرانز بمكر:

– حتى بين زبائن ديميل؟

حاول فريدريش عبثاً السيطرة على نفسه، لكنه صرخ بصوت حاد:

– على أية حال، لا أحب التحدث بصوت عال جداً ولوقت طويل.

أجاب فرانز بهدوء، وبصوت رقيق جداً:

– فريدريش، أنا أحب لكنته الشرقية، ومن ثم أعتقد أن يوليوس مسل، اعترف بذلك، أنت، عندما نكون معاً، لا تقول لي شيئاً.. أنت تنظر إليّ وتغمض عينيك وتتنهد، ثم تنظر إليّ من جديد، ولا تقول شيئاً..أوه!

سارع فرانز إلى الإضافة عندما لاحظ شحوب وجه صديقه:

– أنا لا ألومك على ذلك، كما تعلم، أحبك كما أنت.

دمدم فريدريش:

– مسلّ، مسلّ.. لم أكن أعلم أنك متشوق جداً للتسلية.

– أنت تصدق الآخرين بكل طاقتك، كما لوكنت أنت نفسك. تعلَّم الاسترخاء، أنا أعول على إيطاليا لمساعدتك.

– ألم نكن سعداء يافرانز، عند والدي لودفيج، في جرينزنغ؟

– لكن نعم، اهدأ.

31- ميتيرنيش: هو الأمير كليمنس فينزل ميتيرنيش ولد عام 1773 وتوفي عام 1859، وهو سياسي ورجل دولة نمساوي ومن أهم شخصيات القرن التاسع عشر. وينسب إليه وضع قواعد العمل السياسي التي سارت عليها القوى الكبرى في أوروبا طوال الأربعين عاماً التي أعقبت هزيمة نابليون بونابرت.

- هل افتقدنا شخصًا ما؟

- ألم نتفق على المغادرة في السابعة؟ أتذكر إحدى أولى محادثاتنا في لوبيك؟ أخبرتني أن ولادتك في تموز، الشهر السابع في العام 1789، كنت تعتبر الرقم 7 مثل تعويذتك.

لم ينجح تذكير فرانز الحنون لسلوكيات صديقه في إسعاد فريدريش.

لقد وصلوا إلى ميدان سوق نوير، وجعله فرانز يجلس على حافة النافورة. وهو مكان غالباً ما كانوا يتوقفون فيه، لإلقاء نظرة على التماثيل الرصاصية الأربعة والاستعداد لتعلم الطراز الروماني. ولكن اليوم، ظل رفيقه كئيباً ومتوتراً. وحفر صراعه مع نفسه أخدودين بين عينيه.

- أين عرفت يوليوس هذا؟ في أي ظروف؟

- في الأكاديمية.

- منذ بداية تشرين الأول.

- نعم

- بعد وقت قصير من تركك لي.

- عندما بدأ العام الدراسي.

- لديه موهبة؟

- كثيرًا، فريدريش

- أنا أشك.

- بالإضافة إلى ذلك، فهو يقدم آراء جيدة.

- ألا يكفي بالنسبة لك؟

- لقد نصحني بعدم الاستمرار في الرسم. أنت أيضاً تعتقد أن طريقي الحقيقي هو الموسيقى.

- هل تذهب إلى منزله كثيراً؟

- لكنه استجواب، فريدريش!

- إذا كنت لا تريد أن تجيبني، فقل ذلك!

قفز فريدريش ووقف أمام فرانز:

- لماذا كذبت عليّ؟

وسع فرانز عينيه وقال:

- أنا، كنت سأكذب عليك؟ متى؟ لماذا؟

- أنت تعرفه جيداً.

- فريدريش!

- أنت أخفيت عني أنكما ذاهبان إلى مطعم ويمبلينج؟

- كاذب، يمكنك أن ترى!

- آه، ويمبلينج! لم أعد أفكر في ذلك. عطر بورغارتين.

- صانع العطور من كوكوتيس، نعم.

- من فضلك، فريدريش.

- أنت تدافع عن يوليوس الآن؟ حسنًا، من فضلك.

كان فريدريش يختنق، ولتجنب دفع فرانز إلى النافورة، ضم يديه الاثنتين بعضهما إلى بعض، وتمتم:

- إذا كنت تحب يوليوس كثيراً، حسنًا، سلام!

مع هذه الكلمات، أدار كعبيه وهرع إلى أول شارع صغير، كانت وجنتاه تحترقان. قال لنفسه: «لقد تصرفت كأحمق». وطوال النهار، سار على غير هدى. لقد كانت المرة الأولى التي يتشاجر فيها مع فرانز. لم يجرؤ على التواجد هناك خلال فترة ما بعد الظهر خشية الالتقاء به.

كان متكئاً على عمود في جرابن، كان يحدق في نوافذ النزل.. لم يبق أي شيء مضاء، استنتج بعد تفكير طويل: «لو كان قد ترك شمعة مضاءة، فهذا لأنه ينتظرني، ولكن لا يوجد أي ضوء ولا علامة على الاستيقاظ.

صعد الدرج مكسوراً، واهناً.. حاول أن يفعل أفضل ما يستطيع. بدت له حجرته باردة وغير مضيافة. عاد إلى الردهة وهو يحمل مصباحه في يده، بينما ساد صمت رهيب في النزل. فتح باب حجرة فرانز بهدوء، ثم توقف على العتبة. إذا كان لا يزال يعتقد أنه بينما كان يسير نحو السرير، سوف

يسمع صديقه ينطق اسمه ويراه يهرع إليه، فقد كانت خيبة أمله أكثر مرارة. كان فرانز ينام بعمق، ويرتاح رأسه وسط الوسادة. وكانت ذراعاه عاريتين ومتصالبتين فوق الغطاء وهو يتنفس بإيقاع هادئ.

تعرف فريدريش في معصمه على مكان الجرح الذي كانا قد قطعا به عهد الدم عندما تبادلا دماءهما. جثا بالقرب من السرير، ووضع الفانوس على المنضدة. حدث كل شيء بعد ذلك كما لو كان حلماً. ولاحقاً، كان من المستحيل أن يقرر فيما إذا كان فرانز قد رفع رأسه أم أنه مد ذراعيه فقط. إنه يتذكر أنه، وفي اللحظة التي كان ينحني فيها ليتأمله خلال غفوته، كان قد شعر بأنه أمسك به من رقبته وسحبه نحو الوسادة. ومن دون أن ينطق بأية كلمة، وربما من دون أن يستيقظ، كان فرانز قد قرب وجهه من وجه فريدريش وتلامس وجهاهما تقريباً الآن، ولكن فرانز، وبدلاً من أن يحرره من أحضانه، مال على عنق فريدريش حتى تمكن من تبادل قبلة معه.

سقط ذراعا فرانز على الغطاء، هل كان يحلم؟ عاد النائم من جديد إلى وضع الاسترخاء وغط في نوم هادئ. لم يكن هنالك ما يشير إلى أنه وقبل دقيقة واحدة قام بتكبيل فريدريش برباط جديد، مضافاً إلى عهد الدم المختوم بقبلة.

وقف فريدريش والتقط الفانوس ونفخ اللهب.. كان رأسه فارغاً، منشغلاً فقط بإطفاء اللهب بشكل صحيح. ابتعد في الظلام من دون أن يصطدم بالأثاث، مسترشداً بإحساس داخلي قاده بنفس الثقة إلى حجرته. ألقى الشاب نفسه على سريره، وبعد فترة وجيزة، غط في نوم عميق.

الفصل الثامن

جعل يوليوس نفسه لا غنى عنه لأصدقاء لوكسبوند، في لحظة حرجة عندما كان خلاصهم يعتمد إلى حد كبير على تدخله، حيث مُنح حق دخول النادي وسيشارك في الرحلة بعد أن وافقوا بالإجماع. لم يكن فريدريش الوحيد الذي طعن في ترشيحه. وبعد أن أغرتهم أفكاره حول الرسم والجدية التي تحدث بها معهم عن مهنتهم، كان جوزيف وكونراد مستعدين لتجاوز أخطاء الرجل الذي أغدقت عليه الطبيعة الهبات بوفرة، ولكن المذهب المتشدد لفيلهلم والحس الريفي الجيد للودفيج لم يقدرا في البدء بساطة الهنغاري ووقاحته.

وقبل كل شيء، لماذا كان يطلب الذهاب معهم؟ أليس غريباً أن شاباً معتاداً على حياة البلاط الذهبية يرغب بالمشاركة في محنة فرقة متنقلة؟ إذا كان يبحث عن التغيير من خلال المغامرة والاندفاع والإثارة في السفر، فقد خفت مشاعره بسبب الثرثرة الجماعية. شكراً جزيلاً، لم يكونوا بحاجة إلى مثل هذا الرفيق. كانت عشر حجج أخرى من هذا القبيل قد أبلغت فريدريش مدى صعوبة أن يعذرك الناس لكونك بارعاً جداً. لماذا لا يمكن الاعتراف بأن يوليوس، الذي سئم من عيش حياة تافهة، أراد اغتنام فرصة العمل وأن يقدم أفضل ما لديه في شركة تتناسب مع طموحاته؟ يمكن أن نرى أن ذكرى الذراعين المعلقتين حول رقبته والقبلة في حجرة النوم قد دفعت فريدريش إلى التسامح المفاجئ مع الشخص الذي كان يخشاه إلى حد ما، وكان على رفاقه أن يستسلموا بدورهم بعد أن أعطاهم يوليوس دليلاً على كرمه وكفاءته.

كانت الوقاحة التي استخدمها نابليون لإبلاغ الإمبراطور فرانسوا برغباته

الزوجية قد أثارت هيجاناً بين السكان في سان لوك. كان الخبر الذي يفيد بأنه سيتزوج ماري لويز قد أرسل من باريس إلى ستراسبورغ بالتلغراف، وجلب رجال البريد الرسالة الرسمية من ستراسبورغ إلى فيينا، وسلموها إلى السفير الفرنسي الذي أبلغ ميتيرنيش بذلك بشكل غير رسمي. لم يعلم الإمبراطور إلا في نهاية الأمر، ومن دون أن تتم استشارته، بالصفقة التي سلمت ابنته الكبرى إلى الفاتح لإنقاذ شرف آل هابسبورغ، لذا توسل إلى ميتيرنيش لدعوة نابليون لاتخاذ خطوة أكثر احتراماً. كان يجب أن يأتي سفير استثنائي من باريس ليطلب يد الأرشيدوقة من والدها. وبينما كانت فيينا تبتهج بإعلان الزواج الذي رأوا فيه وعداً بالسلام الأوروبي، تساءل كونراد ولودفيج بتقزز كيف يحض الإمبراطور على رفض اتفاقية التسليم. أما فيلهلم فكان يعتبر تحالفاً مثل هذا معصية كبرى ودلالة على إرضاء أصحاب سوق العمل. كانت الحكومة النمساوية قد اشترت في غضون يومين مليون عملة نقدية وخفضت ارتفاعها إلى 370. لم يفهم فريدريش سوى القليل من هذه الأرقام، لكنه تسلى برؤية فيلهلم المعادي لأي تلاعب بالمال وهو يثقل كاهلهم بهيئته الغاضبة. وبعد أسبوع، بدأت الشرطة النمساوية بتفتيش منازل الوطنيين، الذين أصبحوا مشتبهاً بهم منذ أن قرر عرشا فرنسا والنمسا التوحد.

عاد فيليب فيت، الذي خرج نهائياً من هذه الأحداث، إلى برلين حيث لا تزال التوترات تتصاعد ضد نابليون. لكن فريدريش، الذي ظل يحلم طويلاً بهذا الاكتشاف، اعتقد أنه خمن بأن الصبي الصغير كان سعيداً بمغادرة المدينة حيث يتمتع أتباعه في الدين الآن بحقوق مدنية كاملة ومساواة تامة مع المواطنين الآخرين للعودة إلى العاصمة حيث قام فريدريك –غويوم بفرض ضريبة إضافية على اليهود وإبقائهم في حالة إذلال مهين. كان نزق كونراد وطيشه يقلقان رفاقه، كما أن الشرطة لم تنس أنه كان صديقاً لهينريش ستامب.

ربما كان يفكر في إنقاذ نفسه من نزوة ما فقد رأوه وهو يقضم أظافره ويقفز في الأقبية بدافع المقاومة السرية أكثر من حاجته إلى الاختباء، كانوا يعقدون اجتماعاتهم ليقرروا الإسراع في المغادرة إلى إيطاليا. اعترض يوليوس بأنه كان مطلوباً في البلاط لاحتفالات الزواج. كانت هناك مناقشات جديدة

تدور بحماس حول الفتى، لو لم يأت جوزيف راكضاً بوجه متشنج، ويعلن أن كونراد قد تم اعتقاله للتو واستجوبه محققو الغرفة الجنائية وألقي به في السجن. وعندما أعطى الجميع رأيه، من خلال الصراخ واليمين واللامبالاة، أخبرهم يوليوس بصراحة بأنهم سيسرعون في تدمير صديقهم من خلال التصرف بقليل من الحكمة، ووعدهم بإعادة كونراد سالماً إذا ما وثقوا به. ولكن أولاً، عليهم وضع حد لهذه التصرفات الطفولية، والكف عن السير في الأنفاق، واتخاذ هيئة من ينسج مؤامرة، وحضور جميع الاحتفالات العامة وحتى مراسيم الزفاف التي سينجح في الحصول على تذاكر دعوة لحضورها.

قال قبل مغادرته:

- ستكون هذه فرصة لكم لتفكروا في زينتكم.

أثارت هذه الوقاحة غضب لودفيج، الذي شعر بأن الفضائل الراسخة المزروعة في عائلته، وحشمة اللباس، وكراهية الدنيوية، كانت ستصبح عاجزة عن إنقاذ كونراد.لكنهم جميعاً، سواء أحبوا ذلك أم لا، أدركوا أنه ليس لديهم طريقة أخرى سوى الاعتماد على شخص قريب من البلاط.

فريدريش ذاته، الذي كان أقل غيرة بعد المشهد الليلي في النزل، انبرى للدفاع عن يوليوس ودعا أعضاء لوكاسبوند ليقدموا له صداقة مخلصة، طالما استفادوا من علاقاته.

أرسل نابليون المارشال بيرتييه لصياغة طلب الزواج الرسمي، وكان بيرتييه قد حمى لويس السادس عشر في التويلري وسهل هروب السيدات، عمات الملك، عندما كان رائداً في الحرس الوطني. كان يوليوس المغرم بالتفاصيل حول الكوميديا السياسية قد قال إن هذا المارشال الطيب، صديق الرؤوس المتوجة، كان يقدم نفسه تحت لقب أمير نوشاتيل أو أمير فاغرام للحصول على تقدير أصحاب السمو. لكن ميتيرنيش نصحه بالتخلي عن اللقب الأخير للتهرب من قائمة الامتيازات التي سيتم تقييمها من قبل الإمبراطور. لقد قام المارشال، يرافقه الرماة وحملة الرماح، بجولة مبهجة في فيينا، وأقام في قصر شوارزنبرج على الجانب الآخر من الأسوار.

أما يوليوس، الذي كان قد اشترى دعوة لفريدريش لحضور حفل الزفاف

المهيب في القصر الإمبراطوري، فقد أمر جوزيف وفيلهلم وفرانز ولودفيج بالوقوف على جانبي موكب الإمبراطور، على مرأى ومسمع من أتباعه، والتصفيق بشدة ولكن ليس بإفراط.

لقد رأوا العربة المزخرفة تغادر قصر شوارزنبرج وتدخل المدينة من خلال إحدى الثغرات التي أحدثتها المدفعية الفرنسية مؤخراً في التحصينات بأمر من ذلك الذي عاد الآن كمبعوث استثنائي من نابليون.

كان السفير يجلس في العربة بمفرده مع المارشال الكبير للبلاط. تقدم خمسة مساعدين للمعسكر جنباً إلى جنب على جيادهم السوداء، بقلنسواتهم الحمراء العالية المزودة بالريش، والقبعات البيض مع جديلة ذهبية وعباءة سوداء مبطنة بالفرو وسراويل حمراء مع تطريزات كبيرة كانت ستبدو جميلة جداً بالنسبة للأصدقاء الأربعة.

كان فريدريش، الذي كان يقف في زاوية من صالة العرس، حاضراً بين الجمهور. لقد وعد نفسه بأن يصف لوالديه الصف المكون من خمسة أرشيدوقات هم أشقاء الإمبراطور، تم ترتيبهم حسب العمر بجانب العرش على منصة بارتفاع قدمين، وأربعة يرتدون زي حرس الميدان، بينما يرتدي الخامس زي كاردينال.

تمكن يوليوس الذي كان يرتدي صدرية أرجوانية وذهبية، من أن يكون الأول عند قدمي الحاكم. نزل الإمبراطور الدرجات الثلاث، وحيا السفير من جديد داعياً إياه إلى إلقاء خطبته. قام المارشال بفتح ورقة، وألقى الإمبراطور خطبته. كان يوليوس يتثاءب من دون أن يضع يده على فمه. تم تقديم ماري لويز، ودرب فريدريش نفسه على تدوين كل تفصيلة عن صاحبة السمو الشابة ليحتفظ بصورتها في الذاكرة ثم يرسمها ويبيعها بسعر جيد.

كانت قامتها طويلة إلى حد ما، ذات كتفين متدليتين جيداً وصدر ممتلئ، وقدمين ويدين صغيرة جداً، ووجنتين قرمزيتين وعينين زرقاوين. كانت ترتدي قلنسوة بارزة فوق الرأس مائلة على الطراز الصيني على وجه بدا صافياً من مسافة بعيدة، لكنه استطاع رؤيته في الواقع عندما مرت الأرشيدوقة بالقرب منه في طريقها للخروج.. كان وجهها منقوشاً بالجدري

ومرقطاً باللون الأحمر، وكان أنفها أفطس. كان وجهها بحاجة إلى محو عيوبه للحصول على القليل من المال من رسمه.

قال فريدريش لنفسه:

- رباه، هل تراني أصبحت وقحاً مثل يوليوس؟

كانت الشفة السفلى هي الأكثر بـروزاً، كانت متهدلة على الطريقة النمساوية وتكشف عن أسنان بيضاء متباعدة ومتقدمة إلى الأمام. كانت تشبه شفاه فيليب الجميل وشارلز كينت الضخمة المتهدلة. أعطى السفير ماري لويز قلادة فيها صورة مصغرة لنابليون محاطة بست ماسات، وعندما تعثرت الكونتيسة لازانسكي التي كان عليها أن تربطها حول عنقها بطيات فستانها، ارتمى يوليوس، تحت أعين البلاط، وعلق القلادة على عنق الأرشيدوقة.

في المساء، وفي دار الأوبرا حيث أمرهم يوليوس بالظهور، تفاجأ فريدريش بالديكور حيث تنتصب أعمدة دائرية في الجزء الخلفي من المسرح، واستمتع بعمق بالموسيقى التي نقلته بعيداً إلى العصور التقليدية القديمة للأكاديمية.

تبع حفل الاستقبال عدة احتفالات وحفلات راقصة ولكن لم يترك أي احتفال انطباعاً على فيينا مثل جهاز العروس الذي تم إحضاره في ثلاث عربات بعد وصول المارشال بيرتييه. كان هنالك سبع فئات من الفساتين ما أثار تعطش فريدريش للإحاطة بجميع التفاصيل التي من شأنها أن تساعده في مضاعفة اللوحات التجارية.. كان أحدها من التول المليء بأشجار النخيل الذهبية والماس، مع أهداب ذهبية وفضية، وفستان باللون الأبيض من الساتان وآخر باللون الأشقر والأبيض والفضي، وواحد من الساتان الوردي المطرز مع تول وردي لامع وتول أبيض مطرز بالذهب، ثم فساتين السهرة من المخمل الوردي والساتان الأزرق وعباءات الشانيل الذهبي الأشقر. أخيراً، هنالك ملابس الصيد، بدلة منها باللون الأبيض مع جوارب ذهبية وأخرى باللون الأزرق والأرجواني مزين بفرو القاقم. كانت جميعها من صنع الخياط الباريسي الشهير م.بيروي الذي بلغت فاتورته 124137 فرنكاً، إضافة إلى مستلزمات أخرى مثل حوامل الورق والمصابيح الليلية

والمزهريات والعطور مقابل 54589 فرنكاً.. وكل هذه الأرقام إلى جانب أسماء وعناوين تجار الملابس كانت معلقة على لافتات صغيرة، كما تم إحصاء قطع الملابس الداخلية بصوت عال: اثنتا عشرة دزينة من القمصان الحريرية وثمانون دزينة من المناديل منها ستة بها تطريز مخرم من الساتان مع أربعة وعشرين رداء حمام، إلى جانب الأحذية المطرزة بالساتان والفضة والصنادل المغربية وجزمة من المخمل الشامي، مفتوحة من الأمام ومزينة بالحرير الفخم.

صرخ فيلهلم وهو يخرج عن صمته للمرة الأولى أمام معرض الجواهر:

– الى أية درجة حط آل هابسبورغ من أنفسهم!

كانت الهدايا التي قدمها والدها وأعمامها لماري لويز متواضعة جداً، إذ أدت المشاركة في الحرب إلى تدهور الوضع المالي. كان فيها إذلال كبير لفيينا، حيث نص العقد على أن يقدم والدا العروس 400 ألف فرنك من المجوهرات، وهذه الهدايا لم تصل إلى المبلغ المطلوب. لقد فقدت النمسا الكثير فقد تنازلت سالزبورغ إلى بافاريا، وغاليسيا إلى دوقية وارسو الكبرى، وتريستين وكارنيولا وكرواتيا التي ضمتها الإمبراطورية الفرنسية، كما تم تقليص الجيش إلى مائة وخمسين ألف رجل والآن، تم بيع الأرشيدوقة كبضاعة لنابليون.

قرر أعضاء لوكاسبوند المغادرة فوراً إلى إيطاليا حيث سيحملون شرف الأمة الألمانية برؤوس فرش الرسم. لقد قام فيلهلم الخارج عن طوره بتمزيق شريط قبعته عندما علم أن الحكومة النمساوية قد حصلت من نابليون على منفعة سياسية واحدة وهي الإذن باقتراض ثلاثين مليون فرنك من باريس، وتوقيع معاهدة تجارية مع المقاطعات الإليرية. ما الذي يأمل أن يتحقق من وجود ماري لويز في باريس، بينما لم تبد الأرشيدوقة أية رغبة أخرى سوى العثور على معلم قيثارة في التويلري، ولم تعرب عن أي ندم سوى التخلي عن كلبها وببغاواتها في انتظار حفل الزفاف.. لن يتحرر كونراد إذن قبل مغادرة ماري لويز إلى فرنسا. كانوا يتنزهون في فيينا باستثناء يوليوس المحتجز في البلاط. وفي أحد الأيام، وعندما دخلوا كاتدرائية سان إتيان،

كان يمكن للجميع مقارنة شحة الزيت وضيق مكان الجوقة وبرودة الأعمدة وقبح القبة مع روعة وجلال الكاتدرائيات الألمانية: آخن، فرانكفورت، كولونيا، فورمز، ميسن بالقرب من دريسدن حيث درس فيلهلم. وإذا كانت إقامتهم في العاصمة النمساوية قد انتهت بخيبات أمل ولم تكن مُرضية، فذلك أيضاً لأن الروح القوطية لم تكن قد أقامت هنا أياً من هذه المعالم المليئة بالعظمة والغموض التي كانوا سيجدون في ظلها ترياقاً ضد تعاليم الأكاديمية.

بدأوا يحلمون بمراحل رحلتهم التالية: بادو، رافينا، أومبريا، روما، والعودة إلى أكثر المصادر قداسة في العصور الوسطى حيث يغطي الأساتذة القدامى جدران الكنائس بلوحات جدارية.

عندما نجح يوليوس في الإفلات من البلاط، أمتعهم ببعض الحكايات، فتظاهر فيلهلم الغاضب بعدم سماعه، لكن الآخرين الذين تعافوا من معارضتهم للفتى، كانوا فقط بحاجة إلى المزيد من الصراحة ليعترفوا لأنفسهم بأن وجود رفيق مرح مثله من شأنه أن يوازن كآبتهم بشكل مفيد.

لقد انعكست شخصية ومخاوف كل منهم على الحدث الأكثر روعة الذي حدث في تاريخهم الفني وكان لابد أن يتعلموا كيفية محاباة الإمبراطورية الجديدة..

كان لويس ديفيد، المحبوس في مرسمه الباريسي، قد سارع إلى تنقيح اللوحة الاحتفالية المرسومة منذ خمس سنوات والتي برزت فيها جوزفين وسط مجموعة من الحراس وكبار الشخصيات. والآن، قام بمحو صورة الزوجة الأولى وتخفيف ألوان اللوحة بأفضل ما يمكن، ومحا ندم نابليون، ليس بدون خوف من ظهور فراغ واضح بشكل مفرط في وسط اللوحة. وبينما كان فيلهلم يصرخ ضد مبادرة الرسام، هنأ فرانز نفسه على التخلي عن رسم اللوحات التاريخية، وقارن جوزيف ما فعله ديفيد من تملق برفض بتهوفن الامتثال وتمزيقه السمفونية الرعوية. أصر فريدريش على عدم الرسم حسب الطلب مطلقاً وعدم قبول أية حماية في إيطاليا. بينما أعرب لودفيج الأكثر طيبة وإيثاراً عن خوفه من أن يترك ميتيرنيش، بسبب خنوعه لسيد

أوروبا، كونراد والوطنيين الآخرين في السجن، وكان الجميع حزينين على رفيقهم ويأسفون لمسار التقلبات السياسية.

كان الزواج بتوكيل رسمي متوقعاً بكل تفاصيله، على العكس من ذلك، وتم الاحتفال به في نفس المكان ووفق نفس القواعد مثل زواج ماري أنطوانيت قبل أربعين عاماً. نفس البروتوكول، ونفس المراسيم، للاعتقاد بأن ابنة الأخت الكبرى لم يتم إرسالها إلى حفل زفاف، بل إلى منصة الإعدام.

اجتاز الموكب الدير الأوغسطيني للوصول إلى الكنيسة التي تحمل الاسم نفسه، حيث اختلط فريدريش وفرانز مع حشد من الضيوف الذين توزعوا حسب الرتب التي يحتلونها في البلاط، في البداية، كانت الحاشية الرائعة من طليعة القوم، ثم الغلمان (ومن بينهم يوليوس الذي استفاد من ترتيب الدخول خلافاً للأسبقية) الذين جذبوا على الفور كل الأنظار، فضلاً عن القادة والمستشارين الحميمين والوزراء وكبار الشخصيات. بعد ذلك، ظهر الأرشيدوقات، فسار أمير نوشاتيل والأرشيدوق تشارلز ممثلاً لنابليون، جنباً إلى جنب أمام الإمبراطور فرانسوا.

أوقفت الإمبراطورة ماريا لودوفيكا الموكب، وهي تقود الخطيبة من ذراعها. ونظراً لأنهم لم يتذكروا قياس أصبع نابليون، بارك رئيس الأساقفة اثني عشر خاتم زفاف بأحجام مختلفة كانت ماري لويز ستأخذها إلى باريس.

وبينما غطى غناء الجوقة بصوت عال على ثرثرة الجمهور، نظر فريدريش إلى تمثال الفتى المجنح المتكئ على الأسد النائم. كان هذا هو النصب الجنائزي الذي تبادل أمامه قبل ستة أو ثمانية أشهر بضع كلمات مع وكيل الحروب الفرنسي. يا له من طريق طويل منذ ذلك اليوم، وكيف تغيرت حياته خلاله! كان الفتى الذي نحته أنطونيو كانوفا وعلى الرغم من بياض الرخام الباهت واللامع، نصف مستلق على رأس الأسد الضخم وقد ترك إحدى ساقيه الطويلتين معلقة على سلالم الهرم، كان عارياً تماماً وكانت أجنحته الكبيرة التي ظلت مفتوحة تشير إلى أنه هبط للتو على جناح الكنيسة.. هل سرق هذا الفتى من روما كل الشهوانية الإيطالية التي كانت تنبض في غنج وضعيته..

همس فريدريش وهو واثق من أنه سيبدأ حياة جديدة ما وراء جبال الألب:

- سواء كنت رسولاً من السماء أو من الجحيم، انهض وعد من حيث أتيت واحملنا معك إلى وطنك!

لاحقاً، عندما كان يفكر في الاستمرار في رحلتهم، كان يود لو كان الملاك الذي خاطبه في الكنيسة الأوغسطينية قد استمع إلى صلاته.

الجزء الثالث

من البندقية إلى روما

الفصل الأول

البندقية

أنا لا أحب البندقية. أنا أسعى لتجديد الرسم وإعادته إلى أصوله. أنا أسعى إلى النقاء، الأصالة والعري. ومثل بطل نوفاليس، سوف أنزل إلى قاع المنجم، إذا كان هذا هو المكان الذي تنبت فيه الزهرة الزرقاء غير المدنسة. جيوتو، رافائيل، هؤلاء هم الذين ادعوهم «الأوائل» الحقيقيين. فلم يكن البنادقة سادة التلوين والتظليل وتدرج الضوء، رسامين منذ البداية، لقد جاءوا لاحقاً.

كان العمل الافتتاحي للرسم، مهما كان ما يقوله يوليوس، هو حركة يد تقتفي أثر شخصية ما على الأرض. كان جيوتو، ابن الفلاح التوسكاني الفقير، يتسلى في سن العاشرة بتكثير الأغنام على الرمال. وفي أحد الأيام، وعندما كان في طريقه إلى العمل من فلورنسا إلى فيسبنيانو، وبينما كان يرعى قطيعه، قام الصبي برسم شاة من الطبيعة على حجر مسطح مصقول باستخدام حجر مدبب قليلاً بدون وجود سيد آخر غير الطبيعة، فتوقف كيمابو مندهشًا وسأله عما إذا كان يريد أن يأتي معه. أجاب الطفل أنه سيذهب بكل سرور إذا وافق والده.

كان يستخدم العناصر التي تناسب ذوقي. البساطة الشديدة للوسائل التقنية (لا حامل لوحات ولا فرش رسم)، بل حجر مسطح وصوان، إنها طاعة الطبيعة وهي قاعدة نسيها أساتذتنا في فيينا إذ كانوا يضعون أمامنا موديلات تتخذ أوضاعاً قسرية، وكانوا يطالبون بالاحترام الأبوي من الابن لأبيه، وأولوية الرسم على اللون.

في البدء كان الرسم، وكان هذا المبدأ الأساسي الذي اعتقد الفينيسيون بإمكانية الاستغناء عنه، ففي لوحة تيتيان من فيرونيس، من تنتوريت، كان من المستحيل رسم مخطط تفصيلي لملامح الوجه، وظلل اللون الملامح، ولم يبق سوى جو عام ولون ضبابي كان جميلاً وشاعرياً بلا شك، لكنه يفتقد الهدف الأسمى للعمل الفني الذي يسعى إلى إرضاء العقل من خلال التأمل في أشكال متقنة الصنع. لقد عالجتني طفولتي في لوبيك من الأحلام الغامضة وبلا هدف. عانيت كثيراً من هذه المناظر الطبيعية المنبسطة بقدر ما تراه العين، من هذه الأبراج وهذه الأشجار المشعة في الضباب، ولم نكن نعرف أن عظمة الفنان تكمن في وضوح ودقة الملامح المرسومة باليد. هؤلاء الفينيسيين، كانوا محظوظين للغاية أيضاً! لقد أفسدتهم الطبيعة!

عند هبوطنا من جبال الألب، أعجبتنا هذه المناظر الطبيعية للضوء التي تبدو كأنها مرسومة بإرادة ذكية بدلاً من أن تكون وليدة الصدفة الجيولوجية. هنالك دائماً تفاصيل تريح العين، خط من أشجار الحور التي تقطع الأفق، وشجرة السرو في أعلى التل. وفي كل مرة يرتفع فيها تل وسط امتداد الأرض، كان الإنسان يجهز على السهل من خلال فيلّا ذات شرفات بيضاء، أو كنيسة معزولة يتخللها سطوع السماء الزرقاء.

كان فرانز قد أظهر حماسة أقل مني بالطبع، تدفعه مثاليته الجمالية أكثر نحو ما هو غامض وضبابي، وبينما سبقنا رفاقنا على الطريق، استأنفنا مناقشاتنا القديمة في فيينا ولوبيك حول المزايا الخاصة بالرسم والموسيقى، وعندما وصلنا إلى البندقية، راقت له تدرجات الضوء الرائعة لتيتيان، بالإضافة إلى تدرج اللون لتينتوريه. لم يرتكب هؤلاء الرسامون أقل خطأ في رأيي، بالتضحية بالرسم لمصلحة التلوين، من خلال تبديل الصوان المدبب بفرشاة رطبة. إن قاعدتي السرية التي لا يجب نسيانها أبداً: «احتفظ، تحت نعومة الفرشاة، بصلابة الصوان».

في البداية كان الرجل.. هكذا علمنا الكتاب المقدس، كان الشكل الذكوري قد سبق الشكل الأنثوي الذي أتى لاحقاً. وقد التزم النحاتون اليونانيون بهذا المبدأ، حيث أظهروا الرجال فقط عراة والنساء مستورات. وقد بدأ الفن بالتمثيل الخطي للرجال العراة. كانت هذه قاعدة القواعد التي

حرص الفنانون الفلورنسيون على طاعتها، ولكن ليس الفينيسيين، ديفيد في فلورنسا، وفينوس في البندقية. جيورجوني وتيتيان وفيرونيز رسموا نساء عاريات، تبدو أجسامهن الواهنة كأنها مصنوعة من دخان ذهبي يشبه شعاع الشمس الذي يحيط بهن. كانت داناي لتيتيان متمددة على سريرها في وضع نشوة كأنها على استعداد للحب، وكانت إنتيوب لكوريج تبدو مبتهجة في نور الغسق المتلألئ.. أما سوزان لتنتوريه فكانت أعضاؤها المتفتحة الملتفة بغلائلها الرقيقة تعبر عن خصوبة الطبيعة التي تحيط بها.. كل هذا اللحم الأنثوي، وكل هذه الشهوة.. من يضمن لي أنه لم يمتدحها إلا لتكون صورة المرأة عقبة بيننا لا يمكن التغلب عليها!

لن يخدمني القدر بشكل أسوأ من جعل البندقية مرحلة أولى بالنسبة لنا.. وأنا أغادر فينا، قلت لنفسي: لكي تتطور علاقتي بفرانز، ألن تكون المحطة الأفضل هي إيطاليا؟

لقد أبقى التقليد القديم الذي لم يمس الدين الكاثوليكي أخلاق اليونانيين على حالها، وكان كل ألماني اجتاز الجبال ووطأ بلد مايكل آنجلو وليوناردو دافنشي يدرك أنه يتقدم في طريق سبق لوينكلمان سلوكه. كانت البندقية ومثلما تستورد من مستعمراتها الشرقية الحرير والتوابل فهي تجلب الجواري أيضاً. كان هنالك جمال باذخ، وعري معروض على الأسرة، ومؤخرات ضخمة وأثداء سخية، ودعوات إلى الرفاهية الجسدية التي من شأنها أن تغوي شاباً متردداً وحائراً مثل فرانز.

ما هو طريقه الصحيح؟ هل سيعرفه بنفسه؟ هل يعرف ما ينتظره وماذا يريد؟ هل يحق لي قولبة عجينة كيانه المرنة في شكل لا سابق له؟ هل كانت قبلته طوعية؟ أوه، ياله من كرب، في كل مساء وفي الحجرة التي كنا نتقاسمها في دير سان زكريا المهجور، كنت أسأل نفسي ما إذا كان هناك قبلة ثانية، أو قبلات أخرى تعقب هذه القبلة البعيدة بالفعل عن نُزل ستامب! ولكن لا، لم تصدر أية إشارة من فرانز منذ ذلك المساء، وبقي على حاله معي، بعيداً على الرغم من حنانه، ليوحي لي بأنه لن يحدث شيء جديد بيننا.

كيف بقي واقفاً في قصر جيوفانيلي أمام لوحة جورجونيه، أمام تلك

المرأة التي تحتضن طفلها تحت سماء عاصفة يشوبها البرق. لم يكن قادراً على الابتعاد عنها. هل كان يفعل ذلك للاستهزاء بي عبر مشهد الأمومة المنتصرة؟ هل أراد، في ذكرى نقاشنا حول الناي المسحور، أن يثبت لي أن الحب «السامي» يمكن أن يتجسد في صورة الزوجة الخصبة والأم؟ أم إنه هو ذاته كان فريسة للشك والقلق، وكان يسعى إلى إقناع نفسه بأن يجد سعادته فقط في حب النساء؟

بالمقابل، اتحدت قلوبنا بشكل كامل فقط أمام لوحة العذراء من بيليني، فهذا هو الرسام الوحيد في البندقية الذي يجب أن نختاره ليصبح معلماً. كانت ألوانه بسيطة ونظيفة ومستوية السطوح، ويا له من كمال في الرسم؟ لكي نشاهد لوحاته التي كنا نفضلها، كان علينا فقط مغادرة ديرنا في سان زكريا ودخول الكنيسة التي تحمل نفس الاسم والموجودة في الزاوية. لم يكن في البندقية مكان أجمل من هذا المربع الصغير غير المنتظم المليء بالبيوت الوردية. كانت الشجرة المعمرة التي تنبت في الزاوية والتي تمتد أوراقها مثل بتلات زهرة عملاقة تلهمني في رسومي.

كان للكنيسة واجهة رخامية مدورة من الأعلى بجملون نصف دائري. وكانت القاعدة الرخامية مرصعة بالأحجار الكريمة وكانت قواقع سانت جاك الكبيرة تزين إفريز الطابق الأول. كانت هذه الزخرفة تثير اهتمامي، فهل هو شعار الحجاج؟ ولدت الزهرة من زبد البحر، وتم حملها إلى الشاطئ على صدفة مماثلة. هل يعني ذلك آن آلهة الحب موجودة في كل مكان في البندقية، حتى في مبنى مسيحي؟

في الداخل، وفي صحن نصف مضاء، كان يسود الفرح السماوي فقط، وكانت لوحة العذراء والطفل لجوفاني بيليني تجذبنا على الفور بتألقها وجمالها، لكنها تبقينا في الوقت ذاته على بُعد مسافة منها. كانت تجلس على عرش رخامي لكنها تبقينا على مسافة بحيث لا يمكن الوصول إليها، كان الديكور المعماري يقوم على شبه قبة مفتوحة ترتكز على عمودين متماثلين، والإكسسوارات متناثرة في جميع أنحاء اللوحة، وتتدلى قلادة من القبة ليس لها استخدام ظاهر، وكرات موضوعة على ذراعي العرش لتحقيق الكمال المجرد للمشهد، مع قناع لرجل عجوز بعيون ثابتة، وسعفة في يد

سانت كاترين على يمين العذراء، وقدح ماء بين أصبعين من أصابع القديسة سانت لوسي على يسارها. كانت كل هذه العناصر، وكل هذه الإيماءات، تعزز الشخصية الغريبة وغير الواقعية في ظهورها. كان هنالك ملاك، يجلس في المقدمة ويميل برأسه على كمانه، لكنه كان يمسك قوسه معلقة في حالة ترقب كأنه كان خائفاً من إدخال شيء من المتعة إلى هذا المشهد الأثيري.

كنا أنا وفرانز ساكنين بلا حراك عند سفح المذبح، وكنا نتأمل بصمت وذهول فينوس الشهوانية، وهو أمر مستحيل. وكذلك نساء تيتيان العاريات اللاتي يجبرننا على التساؤل حول طبيعة عواطفنا. كانت تلك اللوحات تتطلب منا إبداء حكم جمالي وليس استجابة شخصية. ولكن، ماذا سنفعل، إذا ما نزلن من اللوحات وجئن لمقابلتنا؟

لم يكن الأمر على هذا النحو مع لوحة العذراء لجيوفاني بيليني، التي لا تطلب منا أن نكون رجالاً ونختبر رجولتنا وقوتنا. إنها تسمح لنفسها بالعبادة في الغبش الخفيف للكنيسة. وبعد خطوة من سان زكريا، أو في سانتا ماريا غلوريوسا دي فيراري، وهي معبد قوطي ضخم أقامه الفرنسيسكان، أعجبتنا عذراء جليلة وجميلة وملائكية أيضاً مثل عذراء سان زكريا، وكان إلى جانبي العرش ملاكان موسيقيان يستعدان للعزف بآلتيهما.

لقد أثر هذا الحضور الموسيقي في لوحات بيليني فينا كلينا. ألا يرمز تحالف الفنّين إلى اتفاق روحينا؟ هو موسيقي، وأنا رسام.. سأضع اللحن في لوحاتي، وسيضع اللون في آلة الأورغ الخاصة به. ولدى مغادرة فيراري، اندهشنا من اكتشاف نصب جنائزي على شكل هرم، ربما صنعته نفس اليد التي صنعت قبر ماري كريستين. كان هنالك فتى بعري رائع يشبه عري فتى فينا. بالكاد توقف فرانز، وعلى عكس رد فعله، شعرت بمدى حجم العذاب في قلبي. لا يبدو أنه يتذكر اليوم الذي تم فيه الضغط علينا في الكنيسة الأوغسطينية ولامست جسده بسبب الزحام. لم تتجدد هذه الملامسة مطلقاً، ولم نعد نختلط بالجمهور.

ليس عبثاً أن يطير هذا الملاك من فينا إلى هنا ويرافقنا في رحلتنا وينتظرنا ويتمنى أن ترحب بنا إيطاليا، ثم يطلب منا أن نتبعه إلى روما وأن نثق بشبابه

وتألقه، لكن فرانز تجاوز الأمر بمظهره المبتسم والشارد كالمعتاد. أوه، لقد بدأت في الاعتقاد أن الحب جنون، مادام يسلب سلامنا ويُسلمنا إلى هوسنا عندما لا نفكر فيه.

اختفت العديد من آلات الأرغن من الكنائس، ربما سرقها جنود ديركتوار أو أولئك التابعون لنابليون وأخذوها إلى فرنسا. غضب كونراد، فتناقض النمش الطفولي في وجهه مع التجاعيد الشرسة على جبينه. بدا فيلهلم، على العكس من ذلك، هادئاً ومطمئناً. كانت الخيول البرونزية التي تزين واجهة سان مارك قد غادرت إلى باريس إذ يقال إنها ستعلو قوس النصر، وكان جوتفريد شادو، والد فيلهلم، أقل إثماً لأنه ترأس اللجنة التي صادقت على نقل العربة التي تجرها أربعة جياد من بوابة براندبورغ إلى العاصمة الفرنسية. كان لنابليون وجود في كل مكان، إذ تم تنفيذ الأعمال الرئيسية بناء على أوامره، فقلب أوضاع المدينة التي لم يعد فيها غير الكلاب. تم إفراغ الأديرة من رهبانها، وتحويلها إلى ثكنات ومدارس ومصانع. قام بهدم بعض القصور القديمة الساحرة، وعندما قرر الذهاب إلى البندقية، كان عليه أن يجد مكاناً للإقامة، فتم تهيئة بناية كبيرة لاستقباله، لكن سُلّمها القديم لم يكن يناسب الإمبراطور، فاقترح صهره أوجين دي بوهارنيه، الذي يحمل لقب أمير البندقية، بناء سُلّم احتفالي جديد في الجناح الخلفي لساحة سان ماركو. وتم التضحية بسان جيمينيانو، والأعمدة الصغيرة ونافذة الورود والأناقة التوسكانية والذوق الرفيع. قام نابليون بزيارته عندما كان العمل قد بدأ بالكاد، واستقر في قصر دوجز.

منذ ذلك الوقت، أخبرني وصي الدير أنه لا أحد يعرف ما الذي سيعاد بناؤه بدلاً من الكنيسة المهدمة. علينا أن نتفق إذن أنه، مهما كان من الصعب على المهزومين في جينا وفاغرام أن يدركوا أن نابليون، وبعد أن أمر بإنهاء واجهة كاتدرائية ميلانو، سيظل يجد طريقة ما لتزيين مكان مرتفع في إيطاليا. كان هذا الوصي الذي أصبح مسناً بحيث لم يُطرد، قد بقي وحيداً في ديره الفارغ. أعربت له عن دهشتي لرؤية أبواب الغرف كلها مزودة بقفل ومفتاح فقال لي إن الأمر من هذا القبيل في جميع أنحاء إيطاليا، ويعود هذا إلى نهب روما من قبل جنود تشارلز الخامس.

بينما جلس يوليوس في مقهى فلوريان حيث لم يتأخر في تكوين صداقات مع الأجانب الأثرياء وأبناء الأرستقراطيين. فاجأني لودفيج وجوزيف بإحضار حلوى لي من متجر ديالتو للحلويات تشبه حلوى لوبيك التي يطلق عليها هنا (مرزبانية) القديس مرقس. لم يكن والدي قادرأعلى إخباري لماذا، في مدينة لوثرية معروفة بالتقشف مثل لوبيك، كان يوجد مثل هذا البسكويت الكريمي. هنا يمكن تفسير اللغز، إذ يصل هذا المزيج من اللوز وماء الورد والسكر وبياض البيض إلى ألمانيا من الشرق الأقصى وتستوردها البندقية من مراكزها التجارية في سميرنا أو من القسطنطينية، ويشتريها الملاحون من قبيلة الهانسا لتنضم إلى حمولتهم من القرفة والفلفل.

في المساء، في حجرتنا، أعطيت قطعة الحلوى إلى فرانز، وقلت له: لنتشارك خبز القديس مرقس، وهنا تذكر لوبيك حيث ذاق طعم المرزبانية لأول مرة. قد تذكره لوبيك بالحديقة في مينجستراس، وعهدنا والجرح في معصمينا، لنعقد الأمل إذن على ماء الورد وبياض البيض لأن لوحة كانوفا لم تصنع المعجزة!

هل أنا أسعد الرجال ام أكثرهم تعاسة؟ كل شيء جرى بسرعة وبشكل غير متوقع. لم نضع المفتاح في القفل، وكان هذا سبب إضافي لابتهاجي، لأن توهج حبنا ربما سيكون غير مناسب قدر الإمكان مع إغلاق الباب بالقفل والسرية المرتبطة بالإثم. ربما ينبغي علي أن أغني، أقفز، أرقص، والآن أشك على العكس من ذلك بأنه يستحوذ عليّ أكثر من أي وقت مضى، ألم أحصل على ما كنت أرغب فيه؟ نعم، وفي نفس الوقت، لا، لا، لا! ألا يعنيك أن نكون معاً، فرانز؟ ألم تتوحد أجسادنا وتذوب أرواحنا؟ هل ترغب بذلك؟ لم يعد بإمكانك أن تأخذ مني مالديك... ومع ذلك... ماذا أعطيتني يافرانز؟ أنت، أو ظلك؟

– إذن، هل أنت سعيد الآن؟ هل حققت أهدافك؟

– أية أهداف، فرانز؟ لماذا تحدثني بهذه النبرة؟

– لقد أفسدت حبنا، هذا ما فعلته.

– أفسدت حبنا؟ أنا لم أجبرك على أي شيء. أنت أتيت إلى سريري بنفسك - لأنك عانيت كثيراً.

- وهل تعتقد أني لن استمر في المعاناة إذا تحدثت معي بهذه الطريقة؟

- لا يمكنك أن تكون سعيداً. لا يمكننا أن نكون سعداء معاً. إذا ربطتنا معاً بسلسلة، سيُحكم عليك بالمعاناة، طالما لم تكتشف الحب النقي. الحب الآخر.

- هل تقول هذا لأنك تخجل مما فعلناه؟

- الأمر لا يتعلق بالخجل، أنت تعرف ذلك جيداً، سيلومنا لودفيج بالتأكيد، وجوزيف وفيلهلم، لكن ما فعلناه الليلة لا يخضع أبداً للحكم البشري.

- في هذه الحالة، فرانز....

- كلانا فوق الأخلاق، لكننا لسنا فوق الواقع.

- أي واقع؟ سأل بعد لحظة.

- ذلك الذي تبحث عنه أنت أيضاً. لقد تركت إليزا لأنك كنت تخشى أن ترتبط معها بعلاقة أخرى غير علاقة الحب.

- لكن بيننا، فرانز...

- بيننا، أخبرتك، ليس ما فعلناه هو ما ألومك عليه، كان يجب أن تفعل ذلك.

- كنت مرتبكاً أكثر فأكثر، فرانز، كما أرى بوضوح، فأنت لا تتحدث تحت تأثير الندم، ولم يستحوذ عليك الحكم المسبق المعتاد لأولئك الذين يرهبهم رأي العالم. أنت حر في تجربة هذا الخوف. إذا اتهمتني واتهمت نفسك، فقد كان ذلك الخطأ أعمق. لقد فشلت، ليس بسبب قانون موسى، ولكن بسبب قانون أكثر أهمية، قانون داخلي كان يجب أن أعترف به من خلال قراءة ما في أعماق قلبي.

- بيننا فقط، أجاب، يجب ألا يكون هناك رابطة أخرى عدا العاطفة. أنت تنتقد الزواج لأنه مؤسسة عائلية واجتماعية قبل أن يكون فعل حب. لكننا أيضاً، من الآن فصاعداً، لن نعرف أبداً ما إذا كنا نحب بعضنا بعضًا حقاً.

- كيف يمكنك أن تقول ذلك؟

كرر بعناد أخافني:

- من خلال وضع البحث عن سعادتك في المقدمة، لن تعرف ما إذا كنت تحبني مرة أخرى.

ظننت أنني وجدت حلاً لهذه الحجة الغريبة:

- كل هذا يتوقف على ما تعنيه بالمتعة، فرانز. إذا كانت المتعة هي شعور أناني صغير يحتجزنا داخل أنفسنا. إذن، نعم، أنت على حق، علينا أن ننفصل، لكني أعتقد أن المتعة يمكن أن تكون شيئاً كبيراً جداً. ليس تقييداً وخيانة للحب. بل هي هاجس من عالم مجهول.

واصل فرانز وهو يحمر خجلاً:

- ألم تختبر، في النسيان الكامل الذي يصاحب ذروة المتعة، شعورًا بتذوق اللانهاية؟

سارعت إلى الإضافة، لنقل المناقشة إلى مستوى غير شخصي حيث نكون أكثر ارتياحاً:

- من جانب آخر، لقد وصف جميع الصوفيين المتعة على أنها فعل جسدي لانتزاع البهجة الشديدة. وحتى في البهاغافاد جيتا الخاصة بك، يبدو لي أن أعلى درجات المتعة الروحية تكون على غرار النشوة الجنسية. ليس أنا، إنها سعادتي الخاصة التي أسعى إليها من خلال المتعة. الفعل الجنسي هو الوسيلة الوحيدة التي أعطانا الله إياها للهروب من حدودنا الفردية واندماجنا في الكل.

لكن فرانز، غير متأثر بمشاعري، هز رأسه بهيئة تعبسة جداً، وعلى الرغم من الساعة المبكرة في الصباح، نهض وارتدى ملابسه، وهمس:

- اللذة دائماً أنانية... لقد دمرت حبنا.. أنا سوف أتساءل دائماً، ما الذي يبحث عنه في أعماقي؟ ماذا يتوقع مني؟ ماذا يريد أن يجد فيّ؟

- ليس الإحساس الصغير، فرانز.. النشوة وهاجس اللانهاية.

- ألم تكن سعيداً من قبل؟

- كنت سعيداً، ولكن ليس تماماً.

- لقد أحببنا بعضنا بعضاً حباً نقياً، كم كان جميلاً! أنت دمرت كل شيء.

- الحب، فرانز، هو أيضاً حب الأجساد، لغة الأجساد التي تتحد وتتواصل سراً عندما تصمت الكلمات.

بدت لي هذه الكلمات مبتذلة أكثر بكثير من تصويري السابق المطلق للتجربة الجسدية.

كان قد وضع قدماً واحدة على قاعدة السرير وربط مشبك الصندل. كنت سأتفوه ببضع عبارات مبتذلة لمنعه من الخروج، ربما لأنه هو أيضاً قد نفدت منه الحجج، قرأ لي عبارة من كتابه الأزرق الصغير..

- الروح المتحدة بالذكاء تصل حد السطوة، حيث الحكمة والسلام.

- أياً كان الإله الذي تبجله، اساله عن سبب منحك الجنس، إذا كان يمنعك من استخدامه.

توقف وشحب لونه. ربما لم يكن سؤالي بارعاً جداً، لكن الإجابة صعقتني

- هنالك شيء واحد فقط يبرر الجنس، وأنت تعرف ذلك جيداً. ما هو؟ منذ مساء (الناي المسحور)، لم يحدث شيء بيننا؟

هل يجب أن أبدأ في إقناعه مرة أخرى منذ البداية؟ منذ لحظة «كل شيء سيصبح ممكناً»، ألم يحدث ذلك؟ أدار ظهره لي وهو يضع يده على مقبض الباب. لم أنجح إلا في التمتمة بالكلمات الوحيدة التي كان يجب عليّ الامتناع عنها.

- لا تخرج، فرانز، ابق معي. أنت لست بحاجة إلى الخروج، أين تذهب؟

- أنا أختنق في هذه الغرفة. حب الجسد لا يؤدي إلا إلى الشك والألم. الامتلاك هو خوف من الفقدان. هل تريد احتجازي معك؟ الحب النقي فقط هو الذي ينفتح على العالم.

لقد غادر من دون أن ينظر إلى الوراء، كان يائساً والدموع في عينيه.. ناديته بصوت عال: فرانز! فرانز!

وأنا أضغط خدي على الوسادة، تذكرت أنني وخلال مناقشاتنا دعوته باسمه عدة مرات لكنه لم يقل لي ولو لمرة واحدة: فريدريش، حتى خلال ليلة الحب التي كانت بالنسبة له أيضاً كذلك..

هل علينا الخوض في هذه التفاصيل؟ أنا أحب فرانز، أحبه بشغف للأسف. كان يخبرني بسذاجة بأنه سقط في دائرة راجا القدرية، لكن هذا لم يمنعني من الرغبة بفهمه، ومحاولة مساعدته.

في تلك الليلة، وأنا أحاول اكتشاف جسده، اكتشفت جانباً كاملاً من طبيعته التي كنت أرتاب فيها بالكاد. لقد شككت فيه بالتأكيد، وأنا أراقبه في محل ديميل للكعك بأن الشراهة لم تكن شغفه: شراهة الكعك، الشهية للحياة، الشهوانية عموماً. ولكن، وحتى مع الأخذ بالاعتبار مشاعر المرة الأولى والقلق الذي ربما يكون قد أعاقه، أتساءل عما إذا كان التعلق بالصوفية الشرقية كافيًا لشرح هذه اللامبالاة التي لم أتغلب عليها قط إلا بصعوبة كبيرة. كان هناك سبب آخر لعذابي، فبعد هذه المرة الأولى، هل يمكن أن تكون هناك مرة ثانية، ثالثة، وعدد لانهائي من المرات؟ إذا لم يتكرر ذلك فسيصبح تسولاً.. أعلم أنني سأفكر دائماً في الليلة المقبلة وأنا أتجول في الكنائس والمتاحف وفي كل مكان نذهب إليه.

أخذنا جندولاً لزيارة كنيسة بالاديو الجميلة في جزيرة سان جورجيو ماجوري. رست بارجة محملة بالعمال في نفس الوقت، كانوا مسلحين بالحبال والمطارق والكماشات، وكانوا يستعدون لتفكيك جدارية ضخمة. استقبل رئيس العمال بتواضع شديد رجلاً يدعى السيد البارون ذا هيئة متعجرفة ومزدرية.. كان البارون فيفان تدينون هو من كلفه نابليون باستعراض الأعمال الفنية في أوروبا لمتحف اللوفر الجديد. ما الذي تبقى لنا لنراه في إيطاليا؟ نهب التحف الفنية من قصر بيتي في فلورنسا، مثل لوحات استشهاد القديس بطرس على يد تيتيان، العذراء على الكرسي بواسطة رافائيل، المخلّص لجويرسينو، كما تم انتزاع عدة لوحات من روما مثل تجلي السيد المسيح لرافائيل، القديس جيروم وتناول القربان لدومينيكان، صلب القديس بطرس لجيدو ريني، البيروجينو المسروقة من بيروجيا، والكاراتشي المنتقلة من بولونيا.

صاح البارون وهو يفرك يديه:

- إليكم عمل خالد آخر مأخوذ من الكهنة المجهولين الذين كانوا يتلون صلواتهم أمام كنز لم يعرفوا حتى كيف يستمتعون به!

ثم أعقب خطبته المؤكدة بتعليمات واقعية:

- اسرع واصنع لي لوحتين من هذا الشيء غير القابل للنقل، الذي سيغادر غداً مع مرافقة جيدة.

غادر القارب مع العمال، وتوجه البارون إلى الأديرة، ربما كان يفكر في تفكيك الحجر وحمله إلى باريس، ثم بقينا أنا وفرانز وحدنا أمام الجدارية. لقد أدهشتنا بشكل خاص، في وسط التكوين الواسع، صور أهم أربعة رسامين في ذلك الوقت في البندقية: تيتيان، تينتوريتو، باسانو، فيرونيزي تم تمثيلهم لكنهم لم يكونوا يحملون أدوات الرسم بل كانوا مشغولين بعزف الموسيقى، تيتيان على التشيللو، وتينتوريه على الكمان، وفيرونيز على الفيولا وباسانو على الفلوت.

قلت لفرانز:

- كما ترى، كان الرسامون في ذلك الوقت يفتخرون بأنهم موسيقيون أولاً...

كنت سعيداً بهذا الاكتشاف الذي أعادنا إلى محادثاتنا الرقيقة في لوبيك، ليمحو الكلمات اللاذعة التي تبادلناها هذا الصباح.

أجاب:

- نعم، ثلاثة منهم يعزفون على آلة وترية، والرابع ينفخ بالفلوت، أوتار أو فلوت، إنها نفس الموسيقى.

- نفس الموسيقى؟ ماذا تريد أن تقول؟

- باستخدام الكمان أو التشيللو، تحصل على لحن متسق، ومن الفلوت تحصل على لحن خطي تماماً.

- أليس من الطبيعي أن يفضل الرسامون العزف على الآلات التي يمكنهم أن يرسموا بها -إذا جاز التعبير-؟

- الموسيقى الحقيقية لا ترسم.

- المدرسة الإيطالية، فرانز، هي قبل كل شيء مدرسة للآلات الوترية. كان مونتيفيردي موهوباً في فن العزف على الكمان، وفيفالدي كان عازف كمان موهوب، وتارتيني وكوريلي ولوكاتيلي، واليوم باغانيني وجميع عازفي الكمان المشاهير.

– لأن الموسيقى في إيطاليا هي قبل كل شيء مطواعة، فهي ترسم الملامح. أنا أفضل الموسيقى الألمانية. الموسيقى الإيطالية هي موسيقى نهارية، شمسية، مضيئة، بينما الموسيقى الألمانية ليلية، إنها لا تشكل الأصوات، إنها تخففها، تجعلك تحلم، تأخذك إلى مسافات لانهائية، بينما الموسيقى الإيطالية تحصر مشاعرك في حدود دقيقة للغاية. واحدة تبحر بعيداً من دون أن تبتعد عن السواحل، والأخرى تأخذك إلى عرض البحر. خذ على سبيل المثال، كونشيرتو الكمان لفيفالدي، بهيئتها الصريحة والنقية؟ خط الذروة الذي يرسمونه، يبدو أن عينيك يمكنهما أن تلاحقاه. استمع الآن إلى النسخة التي صنعها يوهان سيباستيان باخ من أجل الأرغن. هناك، تضل طريقك وتُفتح أمامك هاوية، تكون مأخوذاً وتتدحرج بين الأمواج، تترك الأرض وتتجرد عن ذاتك. لقد تعرفت على فرانز جيداً في لوبيك، ولم يكن لدي أي شيء سوى أن أبتهج بسماعه وهو يشرح لي أفكاره حول الموسيقى بكل ثقة، ما لم يقترح عليّ شيطان أن أطبق خلافنا اليوم في الصباح على التعارض الذي أشار إليه للتو بين الأرغن الألماني والأوتار الإيطالية.

– لا أجد، كما أقول، أن الموسيقى التي تسعى للرسم والتركيز والإصلاح هي أدنى من الموسيقى المنفتحة أكثر على الغموض.

أجاب على الفور:

– لأنك بحاجة إلى الإمساك واللمس.. أنت لا تثق بالحلم.

أثبتت لي سرعة إجابته أنه لم يتوقف قط عن التفكير فينا، وفي مغامرتنا الليلية وهو يقف أمام لوحة فيرونيز.

قال:

– ليس على الحلم أن يخاف عندما يجد الفرصة لتحقيقه. ثم أضاف قائلاً بعد لحظة:

– أنت كائن أرضي، وهذا أفضل بكثير بالنسبة لك، أيها الرسام.

كنت سأجيبه: «وأنت كائن سماوي، وهذا أفضل بالنسبة لك، أيها الموسيقي»

كان هذا من شأنه أن يؤدي فقط إلى إثارة غضبنا بعضنا ضد بعض،

ويحفر فجوة أعمق بيننا، كنت أرغب على العكس من ذلك، ومازلت أريد، وستظل إرادتي دائماً تحوم حول هذا الهدف لجعل فرانز يفهم أنه لا يوجد تناقض بين الأرض والسماء، ليس أكثر من عدم وجود أي تعارض بين فيفالدي وباخ، وليس أكثر من وجود تناقض في الرغبة في التواصل جسدياً مع الشخص الذي تعتز به في قلبك. إذا أراد الله أن يجعلنا مخلوقات مثالية بشكل فريد، فلماذا منحنا الشهوات المادية؟ لدي أذنان لأسمع بهما، ولكن أيضاً لدي عينان لأشتهي، ويدان للمس والمداعبة والعناق.

عاد البارون دينون إلى الكنيسة بسعادة غامرة بعد جولة في الأديرة، لأنه وجد طريقة لإرسال اللوحة إلى باريس، بقطعها إلى قسمين. يا لها من وقاحة من جانب الفرنسيين!

خرجت لأطلق العنان لسخطي وأنسى درجة البؤس التي أوصلني إليها موقف فرانز الغريب الذي لا يمكنني تفسيره. فمن البؤس والانحطاط، عملت على تبرير مكانة الجسد في الحب في لوحة فيرونيز.

في المساء، عاد فرانز وتسلل إلى فراشي.. شعرت بأنه يسعى إلى إسعادي أكثر مما يشعر هو بالسعادة مما نفعله. وفي النهاية، قال لي بابتسامة ملائكية:

- هل أنت مسرور؟

محت ابتسامته كل عذاباتي، تساءلت: هل يحطّ هذا الحب من قدرنا؟ وبينما كان ينام على كتفي، فكرت طويلاً في جملته الأخيرة، لقد قالها بلا استياء، وبطريقة عاطفية أذهلتني.

اليوم، توقف طويلاً أمام تحفة تيتيان الفنية. إنها ملك للأمير بورغيزي الذي عادة ما يعرض اللوحات في قصره الروماني لكنه أرسلها إلى البندقية لعرضها على نابليون، الذي يقال إنه باع أو سيبيع جزءاً كبيراً من مجموعاته الفنية. وتمثل هذه اللوحة، التي يبلغ عرضها ضعف ارتفاعها، امرأتين جالستين على طرفي تابوت قديم تحوّل إلى نافورة.

بينهما، يقوم كيوبيد، في هيئة صبي صغير، بإثارة الماء في الحوض. كانت المرأة التي على اليمين عارية تماماً، والمرأة التي على اليسار، ترتدي حلياً فخمة. لقد احترنا في التخمينات حول معنى هذه اللوحة، المعروفة

باسم مزيف (الحب المقدس والحب المدنس). لم يكن تيتيان هو الذي أطلق عليها هذا العنوان، ولكن التقليد الشعبي...

كان يوليوس معنا، لم يكن رفاقنا الآخرون يشكّون في أي شيء، ولكن كيف يمكننا أن نصدّق أن يوليوس لا يشك فينا؟

بدأ بمخاطبة فرانز:

– برأيك، أي من المرأتين تمثل الحب المقدس وأيهما تمثل الحب المدنس؟

– الحب المقدس هو المرأة التي ترتدي ملابسها والحب المدنس هو المرأة العارية.

أعترف بأني كنت سأقع في الفخ أيضاً وندمت على اصطحاب يوليوس معنا.سيتم تدمير كل جهودي لجعل فرانز يقبل بشرعية وجمال الحب الجسدي، إذا ماعلمنا أنه، وحتى في ذلك الوقت من الوثنية والشهوانية التي كانت في عصر النهضة الإيطالية، كان الحب المحتشم هو الحب الأسمى، وكان العري بذاءة.

سألني يوليوس:

– وماقولك أنت؟

من دون أن أنبس ببنت شفة، بسطت ذراعيّ وعبست لأظهر له أنني أتفق مع رأي فرانز.

هتف يوليوس:

– أنت لا تعرف كيف تقرأ لوحة! هنالك ثلاثة أسباب على الأقل للتأكد من أن الحب الأسمى يتجسد في المرأة العارية. أولاً، سبب عام ومناسب لكل اللوحات. فبأي معنى تتم قراءة اللوحة؟

تلعثمت:

– بأي معنى؟

– أنت لم تتعلم أي شيء في فيينا؟ ولا حتى أن تقرأ لوحة ما من اليسار إلى اليمين، وأن النصف الأكثر أهمية هو ذلك النصف الذي تتوقف فيه النظرة والذي يتم تسجيله مؤخراً في الذاكرة وهو النصف الأيمن؟ وإذا وضع

تيتيان المرأة العارية على اليمين، فذلك لأنها تجسد أعلى شكل من أشكال الحب. علاوة على ذلك، تلاحظ أنها تحتل مكانة مرموقة بالنسبة لرفيقتها، ويبدو أنها تريد إقناعها، لتوجيه اللوم إليها ولنقل بعض المعلومات الثمينة لها.

توقف أربعةَ أو خمسة مسافرين ألمان، بمن فيهم عضو مجلس الدولة وزوجته، وبعض الأغنياء البدينين المترفين، للاستماع إلى يوليوس. ربما كان قد سئم منا نحن الاثنين، لكن سعادته بإثارة إعجاب دائرة صغيرة من الخبراء شجعته على الاستمرار. لقد تشجعت على الاقتراب من فرانز وسحبه من ذراعه، بعد أن تعلم الآن أن العري ليس بالضرورة دلالة على الشر والإثم. استأنف يوليوس:

- دعنا نذهب إلى التفاصيل، المرأة العارية تحمل في يدها مصباحاً من المرمر تشتعل فيه شمعة ترمز إلى الحب النقي السامي. وخلف هذه المرأة التي ترتدي ملابسها، كنيسة ريفية، وهي رمز للتعلق بالعالم، وزوجان من الأرانب كشعار للخصوبة. أخيراً، فإن السبب الأخير الذي يمنعنا من أن ننسب مرتبة أدنى إلى الحب العاري، هو أن تيتيان رجل عصر النهضة، ونصير للإنسانيين، وابن اليونان. والعري بالنسبة له هو مبدأ روحي، إذ يجب تمثيل الحقيقة عارية وبلا أقنعة، فعري المرأة الشقراء يدل على ازدرائها للأشياء القابلة للتلف في هذه الأرض، أي المرأة التي ترتدي ثياباً فخمة وزينة وتجلس على عرشها وسط رموز السعادة الزائلة والعبثية...

قال فرانز ضاحكاً:

- حسناً، مادام العري يسير جنباً إلى جنب مع العفة والحب السامي فهي لا تحتاج إلى أن تغطي نفسها لتظلّ عفيفة.

لقد آلمتني هذه الملاحظة التي قضت على سعادة ليلة عشقي. جاء فرانز إلى سريري، لكنه وجد طريقة ليحافظ بها على طهارته. هذا الرسام الذي لم أحبه أصلاً، لقد كرهته الآن!

كانت الدائرة الصغيرة من المسافرين الألمان ومعهم فرانز قد انحنوا نحو اللوحة ليقرأوها وفقاً لاقتراح يوليوس.. إنها محادثة سلمية بين كوكب الزهرة السماوي وكوكب الزهرة الأرضي، فالزهرة السماوية لا تحتقر

رفيقتها الأرضية التي تنازلت عن مقعدها بدلاً من ذلك. إنها تسعى بنظرة ناعمة ومقنعة إلى نقل أسرار عالم أسمى إليه. «تعال، اتبعني إلى منطقة السماء، حيث يحترق هذا اللهب العالي، وتخلّ عن زخارفك، وجرد نفسك من هذه الزينة التي لافائدة منها».

لقد تصرف فرانز بنفس الطريقة معي، لم يحكم عليّ ولم يدني، ووافق على مشاركتي السرير، ولكن مع هذا التحفظ الداخلي الذي بدا كأنه يصدني في نفس الوقت الذي سمح فيه لنفسه بالانجذاب إليّ. ومثل لوحة تيتيان، فقد لوح بيننا بمصباح من اللهب الصوفي. ففي ذروة عناقنا، كان يعتبر مداعباتي خطوة قسرية ومزعجة وقيداً عابراً لابد أن ينكشف لي بعده الحب الحقيقي، أما بالنسبة لي، أنا الذي تخليت عن نفسي تماماً بحماسة حواسي وروحي، ما الذي يمكن أن يكون أكثر إذلالاً لي من الشعور بأني متسامح؟

ما أظهره لهم يوليوس بعد ذلك أذهل مواطنينا الذين غاصت أعينهم وسط الشحوم بفضول. ففي النقوش البارزة على التابوت الحجري الذي يستخدم كمقعد لفينوس، تعرفوا على حصان بلا لجام يُقاد بواسطة شعره. ورجل عار يُجلد وامرأة مسحوبة من شعرها. إنها رموز العاطفة الحسية والعقاب الضروري للحب. علق يوليوس بصوت عميق اعتقدت أنني أميز فيه نغمة لئيمة، فهل أراد أن يسخر من عضو مجلس الدولة البدين في فرانكفورت وزوجته اللذين قاما بدعمه مع اقتباسات من غوته. لكن رغبتي في الضحك تلاشت عندما أدركت أن فرانز يزعم أن هذه اللوحة بالنسبة لي هي مثال على العقوبة المخصصة لنا عندما نسمح لأرواحنا بالاستسلام لرغبة الجسد. كما أن يوليوس لم يكف عن مفاجأتنا، وسألنا فجأة:

- هل تعتقدون أن الامتناع عن ممارسة الجنس هو أساس الأخلاق لفناني عصر النهضة؟ لم يلاحظ أي منكم أنني تحدثت حتى الآن مثل كتاب، وكتاب سيئ أيضاً.افتحوا أعينكم، انظروا إلى أنفسكم، لماذا يكون الحب الأسمى عفيفاً؟ سيدتي، مستشارة الدولة؟

هذه السيدة التي تعرضت للتوبيخ فجأة، تجاهلت ما قاله بارتعاش لذيذ. لقد مضى وقت طويل منذ أن تحدث إليها أي شخص من دون إبداء

الخضوع والمجاملات الحقيرة، وعدم احترام هذا الشاب الوسيم أعادها إلى فترة شبابها التي هربت منها:

– افحصوا الألوان في اللوحة، فالألوان لها لغة. المعطف الذي يطفو خلف المرأة العارية يشتعل باللون الأحمر، بينما تظل ألوان المرأة التي ترتدي الملابس ذات ألوان محايدة ويقتصر اللون الأحمر فقط على الملابس الداخلية التي لا يظهر منها سوى جزء صغير جداً. هذا الفستان أبيض أبيض اللون وفخم، بلون الزنبق والبراءة. وتمتلك المرأة العارية طبيعة مترددة، بينما يتردد رفيقها وينتظر ويماطل، وهو أكثر ميلاً إلى الجرأة منها إلى الورع، فجمال فستانها لا يتألف من الجواهر أو التطريز، ولكن، أكثر من ذلك بكثير. إنها ترتدي تاجاً من الآس، وتحتضن باقة من الزهور في حجرها. الزهور، لا الجواهر، مما يدل على الحساسية التي هي أكثر رقة، والحزام المغلق بإبزيم هو رمز الصدق والإبداع والتحكم.

لقد اندهشنا جميعاً، فبعد خمس دقائق، تحولت اللوحة التي بدت كأنها اعتذار عن الحب السماوي، إلى نداء من أجل العاطفة. في المصباح، لم نعد نحرق الزيت أكثر، لكننا صرنا نضرم الشعلة المتهورة. اعترض فرانز على علبة الجواهر المغلقة التي كانت المرأة ذات الملابس تضع عليها يدها. ربما تحتوي على مجوهراتها. أظهر له يوليوس أن تيتيان لن يتردد في رسمها:

– لم يضع وردة وسط الحوض المفتوح القريب من الشخص الآخر؟ هذه العلبة المغلقة هي دلالة على الخمول والخدر العذري والتواضع غير المجدي والرغبة في الحفاظ على الذات، والخوف من الاستسلام. (الحب المقدس والحب المدنس)، ياله من عنوان غبي. يا سيدتي مستشارة الدولة! إذ تمثل المرأة التي ترتدي الملابس الجمال في أول ازدهار له. لم تستيقظ حواسها بعد. أما المرأة العارية فترمز إلى الاحتدام «فكي هذا الحزام الذي يمنعك من الاستمتاع والعيش»، كما تقول للأخرى وهي تظهر لها شعلة الرغبة. وبين المرأتين، يهيج إله الحب ماء النافورة. لابد أن تقرأوا اللوحة من اليسار إلى اليمين لتوضيح التطور من الجمال إلى الجاذبية بفضل الحب، الذي يعمل كوسيط، لذلك فإن موضوع هذا العمل هو تلقين الجمال

في حياة الحواس. إنها دعوة موجهة للجمال ليستيقظ من سباته ويكشف عن كمال السعادة مع التحذير من شغف العاطفة.

لم أتمكن من منع نفسي من الاحمرار خجلاً، طالما بدت لي هذه الكلمات مثل إشارة ساخرة إلى فشل محاولاتي من الانسحاب من الطفولة التي حافظت على الشهوانية خاملة لدى فرانز. ربما كان تعليق يوليوس مجرد قصة حب ملفقة، وقد اخترعها الوقح ليسلي نفسه باضطرابي وحيرتي.

عندما رآني منزعجاً جداً، اكتفى يوليوس بهذا القدر لأنه يعمل عادة على السخرية من المجتمع الراقي الذي يعيش فيه ولكن مع بعض اللباقة في الأخلاق. ثم رافق عضو مجلس الدولة وزوجته حتى الباب، وسمعتهم يرتبون لمقابلته في فلوريان، على الطاولة التي كتب عليها غوته صفحة من كتابه (رحلة إلى إيطاليا).

لم يكن من الصعب تخمين أن ذكرى الكاتب العظيم، على الرغم من هذه الإشارة الإلزامية، تحفزهم على دخول المقهى الشهير في ساحة سان ماركو بقدر ما تحفزهم على لقاء معارفهم الجدد. فبعد عبوره الطويل لجبال الألب حيث التقينا، هاهو يوليوس يتعامل من جديد مع أناس من محيطه، وهؤلاء، ضجرون من حياتهم العادية، لا يطلبون شيئاً أفضل من الاستماع إلى السفاهات.

قال وهو يتركهم:

– هذا صحيح، إن فلوريان لا يصنع ما يكفي من الكريمة المخفوقة على الشوكولاتة. مع ذلك، هل سيكون لدى المرء فكرة الذهاب للجلوس في مقهى كادري، حيث يكون ما يُقدم فيه أفضل، لكن الحضور هناك أقل أناقة؟

الفصل الثاني

بادوفا

يا إلهي، اسمع صلاتي. في لحظة مغادرتي البندقية وقبل دخولي إلى مدينة بادوفا المقدسة، لم أتمكن من الاستغناء عن اختبار ضميري. سيأخذنا القارب النهري قريباً على متنه. يجب أن آتي إليك محنياً من الندم لأطلب مغفرتك. أنا خطيب إليزا وقد حنثت بالعهد الذي قطعته لها. أنا أنتمي إلى الدين الذي يصف فعلتي، كما يقول القديس بولص، بأنها عمل قذر وشائن، وقد ارتكبته مرتين وعلى وشك أن أفعله أيضاً متى ما كان الوقت مناسباً. ومع ذلك، وعلى الرغم من هذه الخطيئة المزدوجة، فإن عذابي الوحيد هو التساؤل ما إذا كان الشخص الذي أحبه بهذه الجسارة المدنسة لا ينجذب إليّ ويشعر بأنه يخوض مغامرة لا تناسبه لسبب أو لآخر.

يا إلهي، أرفض آن آتي إليك تائباً. قبل أن تغضب، استمع إلى دفاعي. من خلال خطبتي إلى إليزا، هل سأكون واثقًا من أنني لم أطع سوى ميولي الشخصية؟ ألم أعمل على اتباع عادات بلدي؟ هل يمكن لابن رئيس بلدية لوبيك، وهو في العشرين من عمره، ألا يختار زوجة ولا يختارها إلا من بين بنات الوجهاء؟ إنها عادة حكيمة ومقدسة، ولا أمانع إذا كانت تضمن نقل الإرث وتماسك الجسد الاجتماعي، لكننا دخلنا قرناً جديداً، حيث لا تحمل هذه الاعتبارات وزناً كبيراً.

اليوم، الفرد أهم من المجتمع، ويجب أن يستشير قلبه أولاً، وأن الفعل الذي يخالف ضميره هو العمل الوحيد الذي ينبغي لومه عليه. وبالمثل، في

الموسيقى، لا يكتب المؤلف الموسيقي تبعاً للمبادئ بل تبعاً لإلهامه. ها هو بتهوفن يخلف موزارت، وفي الشعر، لم يعد البيت الشعري للشاعر غوته يرضينا منذ أن قرأنا ترانيم نوفاليس وهولدرلين. أما في الرسم فقد كانت أكاديمية تعليم الرسم في فيينا هي التي دفعتني، أنا وزملائي إلى السفر إلى إيطاليا للانغماس مرة أخرى في منابع الحقيقة والجمال. وفي المجال الأكثر حساسية في كل الحياة البشرية، الحب، فإن أخطر العواقب هي التي تجلب المباهج إذا نجحنا فيه وأفظع الأحزان والمآسي تطالنا في حالة الفشل، هل يجب إذن أن نستمر في العمل وفق التقاليد والقواعد؟

لا، من المستحيل أن نتمنى مثل هذا الخداع، وإذا قلت لك إنني أحب فرانز بقلب نقي وصادق، فأنت لن توافق. انزل إلى قلبي يا إلهي، وانظر ما إذا كان الحب يملأه بالكامل، الحب الذي لا يسعى إلى أي هدف اجتماعي أو مصلحة مادية، الحب الذي لا يمتلك حتى الأمل بأن يقبله العالم. إنه يعتمد فقط على قوته الداخلية ونقاء اندفاعه.

لقد وصفت لك ما يمكن أن يسميه المرء، وفقاً للكلمة التي اخترعها قرننا، المشاعر الرومانسية للحياة. اسمح لنفسك أن تسترشد بقلبك وضميرك فقط، ولكن، إذا كانت الكلمة جديدة، فهل ستعني الإرادة؟ ومن علمنا أن ندخل في العلاقة الحميمة بأنفسنا لنختبر هناك ما إذا كنا قد اتبعنا الطريق الصحيح، إن لم يكن أول عبيدك، مارتن لوثر؟ لقد أخبرتنا من فمه أنه لا ينبغي أن يكون هناك وسيط بين الإنسان وخالقه. لا مريم العذراء ولا القديسون ولا رجال الدين في أي كنيسة، كل واحد منا يرتدي ثوباً كهنوتياً لا يحمل أبهة خارجية بل قوة معنوية غير مرئية، وكل واحد منا سيكون كاهناً وملكاً.

أقول الآن ما يجب أن يكون خطيئتي الثانية: تجاوز الحظر الذي فرضه موسى وجدده القديس بولص، وهذا الحظر غالباً ما يكون عاماً ومجرداً وجافاً. فإذا تم ارتكاب الفعل الشائن بدافع الكسل أو الفساد، فسيعاقب عليه الجاني، ولكن إذا ألهمه الحب النقي، فلا عيب منه ولا عقاب عليه. لا تستهدف لعنة الكتاب المقدس إلا الفاترين والفاجرين. في هذه النقطة، سيكون لفرانز نفس رأيي، إنه يرضخ لي فقط على مضض، ولكن بالنسبة

لقناعات معينة له، فهو لا يستمد من أي كتاب. أنا لا أعرف القوة المظلمة التي تمنعه من التخلي عن نفسه لي بحرية أكبر. لا يزال سلوكه لغزاً بالنسبة لي.على أية حال، أنا واثق من أن البدعة الجنسية هي ما يلومني عليه وما يسيء إليه على أقل تقدير. لن يخضع قلبه النبيل إلى مثل هذا الحكم المسبق.

إن منعي من حب فرانز باسم موسى والقديس بولص يعني التضحية بنقاء حبي من أجل قانون مجرد. لن تحكموا على حبي لمطابقته أو عدم مطابقته لقانون عام ومجرد، بل وفقاً لقوته وجماله الداخلي. ما لم تكن إله روما والفاتيكان، فلن تكون إله لوثر. خطأ الكاثوليك هو أنهم استبدلوا قانون الشعور كأساس للدين. لو صدق لوثر ذاته على حكم موسى فأنا أخاطر بفرضية بسيطة، لكنت سأرفض رأي لوثر لكي أبقى مؤمناً به أكثر. ألم يأمرنا بإطاعة ميولنا الشخصية بدلاً من طاعة الذات؟ حبي لفرانز هو عملي، إنه لا يشبه أي شخص آخر. عقلي وقلبي هما المحكمة الوحيدة التي عليهما المثول أمامها.

ولكي أكون أبدياً، فأنا أعاني من أنني لا أركع عند سفح عرشك كمذنب، ولكن كرجل حر، حددت له قانوناً وحيداً وهو الاستماع إلى صوت ضميره. ولكن البندقية، ودور البندقية؟ ألم يأخذني الجو الحسي الذي يغمر المدينة إلى أبعد مما كنت أتمناه؟ إليكم جوابي، صادق جداً مثل بقية صلاتي. أنا لم أر البندقية بل انطلقنا إلى بادوفا ولن يمكننا قول أي شيء عن قصر دوجي ولا ريالتو، ولا كنيسة القديس مرقس ولا الفسيفساء. لم أر البندقية ولم أتذوق روائعها، ربما لأنني إذا أغوتني زخرفة القصور الرخامية، وسحر القصور الصغيرة، وشعر الأزقة، وكل ما هو رائع وفريد في هذه المدينة، لم أكن أضمن أن سحر الديكور لن يؤثر على حبي أو يسرع في تعجيله. الآن، أنا متأكد من نفسي ومن مشاعري.. أنا أحب فرانز بالفعل وليس جمال الأماكن التي تنزهنا فيها معاً. يأتي العديد من الأزواج إلى هنا في رحلة بحثاً عن سر السعادة السرية، يمسكون بعضهم بأيدي بعض وينحنون فوق القنوات ويتركون أنفسهم ينجرفون في جندول ويستحمون تحت جسر التنهدات. لم أرغب في رؤية البندقية لأتأكد من أن حبي كان نقياً. لقد طهّرت حبي من كل جمال البندقية.

ولماذا؟ من بين كل رفاقي في فيينا، لم يكن هناك أجمل مما يمس حواسي؟ كم هو غريب لو فكرت في الأمر! يوليوس أكثر وسامة من فرانز. كان فرانز طويل القامة ونحيفاً جداً، وكيف سيكون خلاف ذلك مع النظام الغذائي الذي يفرضه على نفسه؟ إن الرعب الذي يوحي به له اللحم بات يمتد إلى الدواجن ولحم الخنزير. على الأقل قبل وصولنا إلى إيطاليا، كان يأكل السمك. لكنه حظره أيضاً من قوائم طعامه عن طيب خاطر، منذ أن وصلنا إلى البندقية حيث يكثر هذا الطعام فيها. قال لي:

- إنه من اللحم.

إذا كان بإمكاني تصديق أنه بسببي وبسبب التغيير في علاقتنا بدأ يبذل جهداً إضافياً لتطهيرنفسه. أي ندم سأشعر به؟ رباه، أقنعه أن يعتني بجسده، ولا تعتقد أنني وبعد أن فتحت لك روحي، يمكن أن أسخر من صلاحك من خلال التوسل بك أن يعتني بطعامه. فرانز، الذي كان يعاني من هشاشة صحته، لا يمكنه بالفعل أن يتحسن إن تناول الفواكه والبقول ومنتجات الألبان فقط. والصلصة التي كان الإيطاليون يتبلون بها فطائرهم كانت تحوي البيض المخفوق ولهذا كان يتناول عدة أطباق منها.

منذ الحصار القاري، احتكر اليهود تجارة الموز ما جعل هذه السلعة نادرة بقدر ما كانت باهظة الثمن. ثم افتتح نابليون الحي اليهودي وسمح لسكانه بالاستقرار في المدينة. لكن البنادقة الذين كانوا يكرهونهم لم يغفروا لهم هذه الحرية. وبالقرب من دير سان زكريا، بحث أحد هؤلاء التجار عن ملجأ لوثوقه من أن والد القديس يوحنا المعمدان سيحميه، كان كل الحي معادياً له. كنا نلتقي في الليل، لأبادل كيلو غرامين من الموز بواحدة من لوحاتي، حيث سيبيعها بثلاثة أضعاف سعر البضاعة. لقد قال لوثر إنه من الخطيئة أن يتاجر المسيحي بالفضة، ولكن هل من الممكن أن يستعيد فرانز صحته بموز يهودي؟

فجأة، هبط علينا حر ثقيل وقاس، لم نكن قد بلغنا منتصف حزيران بعد! سينتفع منه فرانز جيداً على الرغم من رطوبة هذا السهل. أخذنا القارب النهري إلى بادوفا وصعدنا لابرينتا، حيث تصطف المدن الجميلة لبالاديو

على الأطراف. كانت الرحلة قصيرة جداً. جلس فرانز معي في مقدمة القارب. بالكاد هبطنا، عندما اقترب منه كونراد وبدأ معه حديثاً ساخناً من دون أن يدعوني إليه. في غضون ذلك، شارك لودفيج وجوزيف معي ملاحظتيهما الزراعية، شاهدا حقول الرز التي كان محصولها أكثر وفرة بالمقارنة مع حقول القمح، بمعدل ثلاثة إلى واحد. كان علي أن أجاهد لأبدو مستمعاً لهما.

في دير سان بينيديتو، وبعد أن طرقنا الباب، تم اقتيادنا إلى مهجع، حيث كانت الأسِرّة عبارة عن صف واحد. سحب فرانز وكونراد سريريهما ليصبحا متجاورين، واحتلّ السريرين المجاورين لسريرهما جوزيف ولودفيج، ولم يتبق لي سوى ركن بالقرب من النافذة، في الطرف الآخر. لم يفكر فرانز في الأمر، أنا متأكد من ذلك، لقد احتل المكان الأول الذي بدا أمامه. لم يفكر في مدى العذاب الذي سأعيشه عندما سآوي إلى سريري ولا يكون سريره بالقرب مني. في الحقيقة، لقد نمت لوقت طويل، ووقفت لأكثر من مرة على سريري لأراقب، في ضوء الشعاع الذي دخل عبر النافذة، صف الأسِرّة المتراصفة في الظلام.

سحرنا مشهد باهر في كنيسة سكروفيني، قلنا لأنفسنا إن كل الرسم الحديث قد ولد هنا.. كان لدى جيوتو كل شيء، يواكيم، آن ماري، السيد المسيح، الرسل. كانت وجوههم معبرة على الرغم من جمود أوضاعهم. لقد تركزت حياة هذه الشخصيات في نظراتهم، إذ يقرأ المرء في عيونهم امتلاء قلوبهم، وتعمل الخطوط المتقاطعة لنظراتهم كأداة موجهة لرسم اللوحة الجدارية. وهكذا فإن الرسم هو فن العين الذي يبدأ بإثارة العين. كان جيوتو قد أدخل، خلف آن ويواكيم اللذين التقيا عند البوابة الذهبية، امرأة تضع خماراً أسود لا يكشف إلا عن عينيها، وقد وضعت كل طاقتها وكل كيانها في نظرة.

وكأنني أقف خارج نفسي، لم أعد سوى مجرد عين كبيرة مفتوحة لالتهام الأشياء. لهذا الرسم قوة لا تُصدق. إنه يجبرني على التفكير فيه بعيون ثابتة. لم أكن أرغب بخفض جفني وأنا أفكر في ما أراه ثم أعود إلى دواخلي. يا لها من حالة من النشوة، بالوقوف خارج نفسي كأنني مطرود منها. كيف يمتلك

جيوتو كل هذه القوة؟ لأن لوحته لها امتلاء من الوجود الفريد بشكل مطلق. كانت القديسة آن تجثو على ركبتيها في حجرتها الصغيرة بمواجهة الملاك الذي يأتي لزيارتها، وهناك، أمامي كانت مأخوذة بفستانها الوردي. في لمحة، أرى كل شيء يمكن رؤيته في هذا المشهد: الجدار الأخضر، الستارة البيضاء، والصدر والمقعد، والشخصيتين المرسومتين بوضوح وقوة.

كان يواكيم أيضاً، مقرفصاً في ثوبه الوردي وسط منظر طبيعي لجبل، كان هناك منحوتاً بهيئة مرنة قابلة للتشكيل. لم يكن الجبل إلا صخرة. ولم يتبق شيء في الظلام ولا في الظل. كانت هناك العذراء التي تتقدم على حمارها، والمسيح المنغمس في مياه المعمودية، والنساء اللواتي يبكين على المخلّص، وأليعازر بضماداته، والجنود يتألمون عند سفح القبر: كلهم كانوا هناك مرسومين بالكامل أمامي، وقبل أن يكونوا جميلين أو مرسومين بشكل جيد فهم يعبرون عن نقاء أصلي.

أليس سر اللوحة الرائعة أن نضع أمام أعيننا، دفعة واحدة، كل ما يدخل مجال الرؤية؟ كنت أطرح هذا السؤال على نفسي عندما بدأ فرانز يعزف على الأرغن، وعلى الفور صدمتني حقيقة لم تكن قد خطرت في بالي حتى ذلك الحين. لم تكن مقدمة باخ التي عزف فرانز نوتاتها تحمل أية حقيقة أخرى غير تلك الأصوات التي هربت من تحت أصابعه. هكذا هو الحال مع الموسيقى: ليس لها وجود ثابت أو مطلق، طالما لا توجد إلا أثناء إنتاج الأصوات التي تتكون منها.

ترددت مقدمة باخ لبضع لحظات في الكنيسة ثم عادت إلى العدم، بينما بقيت القديسة آن، يواكيم، العذراء، الجنود، ظلوا كما هم منذ أن تم رسمهم ولم يفقدوا أية قطعة صغيرة من وجودهم. العمل الموسيقي لا يوجد أبداً، ولست متاكداً أبداً من وجوده حقاً، لأن الأصوات التي يتكون منها لا تصل أبداً إلى أذني معاً، ويجب أن يتلاشى الصوت الأخير قبل ظهور صوت جديد. ما الذي كنت قد سمعته حقاً، وماذا عن هذه المقدمة، وعن التتابع والاختفاء الذي أعقبه؟ لن تشغل الموسيقى مكاناً محدداً إذن مثل الرسم. أين الموسيقى؟ أين أجدها، ومن أين أمسك بها؟ هي ليست في أي مكان. إنها باقية في ذاكرتي فقط أو أظل على أمل بسماعها مرة أخرى. لهذا السبب

لن يمكنني أن أكون موسيقياً. أنا أريد أن أدرك أن الكائن الذي أعمل عليه موجود بملء كيانه. عندما أنتهي من رسم لوحة، آخذها بعيداً عن عيني قليلاً، وهناك، أمامي، يمكن رؤيتها وتقييمها وامتلاكها في لمحة واحدة.

جيوتو هو أعظم الرسامين لأن شخصياته وثيابها وزخارفه المعمارية معروضة دائماً أمام الجمهور، الصخور في المناظر الطبيعية، الرماح فوق الجمهور، أشجار الزيتون في باب القدس، لقد منحنا كل ما رسمه دفعة واحدة، في جمود حاضر دائم. كانت كل لوحة من لوحاته عبارة عن وحدة مستقلة، كاملة ومكتفية ذاتياً، وكل ما كان يطمئنني بشأن وجودي المليء بالحيوية. اللوحة الجدارية هي الأكثر مثالية لأنها مصنوعة من نفس المادة التي يصنع منها الجدار، إنها تساهم في حقيقتها الجوهرية. الموسيقى على العكس من ذلك، لا تحقق الحضور الكامل أبداً. إنها خسارة، تدفق، هروب، سقوطية.. إنها لا تتكون من أي شيء يمكنني التحكم فيه.

لم أكن بحاجة إلى إلقاء نظرة على الأرغن لأتخيل مدى سهولة تحرك فرانز خلال منتصف النغمات، التي لا يمكن عزل أي منها أو إصلاحها، وكلها لا تحقق أبداً عملاً موجوداً. كان هو من السماء، وأنا من الأرض!

هو سعيد بخلق جمال لا يترك أي أثر زواله يجعل كل جهودنا تذهب عبثاً للاحتفاظ بأكثر من بضع ذكريات تقريبية. أنا حريص على الأدلة وأمسك بالمنتجات الخاصة بها في صندوق رسوماتي. هل يمكننا أن نكون أكثر اختلافاً؟ إن تفضيلاتنا لكل من الفنيّن توضح طريقتنا في التواجد في العالم. يصنع فرانز نبع تيار مائع يتسرب من تحت أصابعه بينما يجتذبني العمل المرسوم للسبب المعاكس، فعندما أفكر فيه، فأنا أدور حول كائن ثابت ومستمر وغير متنوع.

الفصل الثالث

بولونيا

بصرف النظر عن يوليوس، الذي تعلم اللغة الإيطالية في غضون أسابيع قليلة وبالسهولة التي تخدمه في كل ما يقوم به، نحن الوحيدان، أنا وفرانز، اللذان نتحدث الإيطالية بشكل صحيح إلى حد ما، حتى إن رفاقنا غالباً ما كانوا يستفيدون من خدماتنا.

أثار الوضع الاقتصادي للمقاطعات التي اجتزناها اهتمام فيلهلم ولودفيج. وفي الطريق إلى بولونيا، دخلنا فناء مزرعة لإنعاش أنفسنا. سألت رب الأسرة الذي استقبلنا بلطف شديد.. إنه يزرع 128 فداناً تعود للدير الثري سان دومينيكو، ويدفع سكوينة واحدة (وهي عملة ذهبية قديمة) لكل فدان نقداً، بالإضافة إلى ضرائب للإقطاعي عن الخبز والنبيذ والدواجن. تركني فرانز بسرعة لأتدبر أمري وحيداً مع الفلاح، ابتعد عنا في اللحظة التي أكد لنا فيها الفلاح أنه لم يكن على ما يرام، وكان يأكل اللحم مرتين في الأسبوع، بسعر سبعة سولدي للكيلو. تحرى جوزيف عما إذا كانت النباتات ذات الأوراق العريضة التي يمكن رؤيتها من الجانب الآخر من السياج هي نبات القنب حقاً. كان علي أن أسأل وأستمع إلى تفسيرات الفلاح حول زراعة القنب، بينما قام يوليوس، وفرانز وكونراد بخلع ملابسهم في ركن من الفناء، ثم ركضوا وألقوا بأنفسهم بتهور في النافورة الأثرية القديمة.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي قسّمنا فيها أنفسنا إلى مجموعتين مختلفتين وفقاً لصلاتنا الخاصة، لم يكن الاتحاد أكثر صراحة وأكثر قسوة

بالنسبة لي بين من يطلق عليهم العامة والارستقراطيين في مجتمعنا. كنت قد بقيت مع العامة، مع أولئك الذين تتجه عقولهم نحو الأشياء المهمة ولا يفوتون أية فرصة للحصول على معلومة مفيدة. إنهم يحتفظون بميزانيتنا، ويهتمون بتموييننا ويحتفظون بجوازات سفرنا في مكان آمن، ويطرقون على باب الأديرة ويدفعون فاتوراتنا، وينظمون كل المسائل المزعجة الأخرى. ماذا سنفعل بدونهم؟ أليس ظلماً كبيراً أنهم يشكلون العمود الفقري لمشروعنا، لكن هذا التطبيق العملي، والتفاني من أجل المصلحة العامة، والشعور بالمسؤولية، والإيثار الصادق والضمير، هل هي فضائل لا قيمة لها؟

كان الثلاثة الآخرون يقضون وقتاً رائعاً، كان الماء يتدفق من كل مكان: كانوا يتقاذفون الماء وهم يطلقون ضحكات عالية ويتصايحون. لماذا لا نضم إليهم؟ لسبب وحيد هو أن لديهم كل الحقوق، ولدينا كل الواجبات. تحت أي امتياز؟ لأنهم أمراء ونحن عبيد في خدمتهم.. لم يكتب هذا في أي مكان، ولم يُذكر بيننا مطلقاً. ولكن، لا يوجد واحد منا نحن السبعة، على ما أعتقد، لم يعترف بلاوعي بهذا التقسيم، باستثناء التردد بشأني والتساؤل في أي جانب يجب علي أن أكون، بين المثابرين المجتهدين أو بين محبي التسلية والمرح. لا يحب يوليوس التحدث عن ذلك، أما كونراد فعلى الرغم من أنه يبدو عادياً في الحقيقة فإنه يحمل هالة إقامته في السجن، ونحن نعرف فيه الروح السياسية والمحاربة التي تؤجج عادات الفرسان النبيلة في فريق لوكاسبوند الألماني الحقيقي. في ما يخص فرانز، فلا أظن أن الحب أعماني لأمتدحه، لأنه يحتل فيما بيننا مكاناً لا جدال فيه بقدر ما هو غامض. نحن نعلم أن مصيراً كبيراً ينتظره من دون الحاجة إلى تزويدنا بأدلة على ذلك. إنه يفضل أن يتضور جوعاً بدلاً من أن يلمس السجق في نزهاتنا، ولن يفكر في تناول الطعام بلا لحم، لكن العناية الإلهية كانت ترسل له دوماً من يهتم به سواء عائلة أو خدماً، أو أن يزوده لودفيج أو جوزيف بالبيض المسلوق أو فطيرة أو كعكة أرز لإنقاذه.

أما جوزيف، فلم يحصل من إقامته لمدة عام مع بتهوفن على مجد شخصي، وعندما يسمعه رفاقه يكرر بارتياح أن أغصان القنب يبلغ ارتفاعها من اثني عشر إلى ثلاثة عشر قدماً، وأن تبييض الأواني يمكن عمله في

الحقول يتساءلون كيف تمكن مؤلف السمفونية الرعوية من تحمل مثل هذا الصبي البليد؟!

يمكنني أن أذكر أيضاً أن لودفيج كان قد كتب لحناً جميلاً جداً حول القمر، لكنه لا يبتسم من الجدية التي يستفسر بها عن تدفق نبع معدني شهير في المنطقة. كان لفيلهلم جاذبية أكبر، ويمكن أن يمنحه مروره عبر طائفتي مورافي وكويكر سلطة معنوية كبيرة، ما لم يكن مرتبطاً بمبادئه بدقة وتحذلق.

مثل اللوردات الحقيقيين، الذين عندما يرتاحون من تعب الحياة، يتركون أنفسهم للاستجمام والمرح الطفولي، لاحق فرانز ويوليوس وكونراد بعضهم بعضاً وتدافعوا في حوض السباحة عراة مثل آدم قبل الخطيئة، كانوا يتقاذفون الماء فيما بينهم، ولم يكن هناك شيء يبدو أكثر طبيعياً من الانغماس في المرح البريء لألعابهم المائية، بينما أكملنا نحن بشق الأنفس بحثنا عن غلة الأرض وأسعار المواد الغذائية.

استولى علينا شعور لا يوصف عند دخول بولونيا، حيث سنرى رافائيل الأول الإيطالي بمصادفة قريبة من المعجزة.. كنت أحتفل بعيد ميلادي الحادي والعشرين في الثالث من تموز عام 1810، وكذلك الذكرى السنوية الثالثة لاتفاق مينجستراس.. ركضنا فوراً إلى كنيسة سان جيوفاني في مونتي، حيث رسم رافائيل نشوة القديسة سيسيليا.

في الحقيقة، كانت هذه اللوحة رائعة، وكعادتنا، تأملناها لوقت طويل، قبل أن يأتي دور لودفيج في التعليق عليها، كانت القديسة سيسيليا تنتصب وسط اللوحة، ورأسها منحن قليلاً إلى الأمام، وعيناها تتجهان نحو السماء، وهي تحمل في يديها أرغناً صغيراً مقلوباً، بالكاد تمسك بصندوقه، كما لو كان سيسقط، ووفقاً لتفسير لودفيج، فإن روحها كانت تحلق بعيداً جداً عن المكان الذي تقف فيه. وكانت تستمع إلى الأنغام التي تغنيها نصف دزينة من الملائكة، مرسومة في سحابة في الجزء العلوي من المقطوعة الموسيقية، وهم يغنون بأعلى أصواتهم بمساعدة كتب كبيرة. وعند قدمي المرأة التي كانت الكنيسة تكرمها بصفتها راعية الموسيقى، آلات أخرى في حالة سيئة، كمان مع قوسه، دف، صنج، قطعتان من فلوت مكسور..

كان القديس بولص والقديس يوحنا إلى يسار القديسة سيسيليا، وكان القديس أوغسطين والقديسة مريم المجدلية على يمينها، ولم يتم اختيار هذه الشخصيات الأربع عشوائياً بأي حال من الأحوال، فهي تستحضر قوة الحب وتلخص الغموض العاطفي للمسيحية، ولا شيء بالتأكيد أوضح من معنى هذه اللوحة، كما قال لنا لودفيج منهياً تفسيره:

- مع سماع هذه الموسيقى السماوية التي جعلتها جوقة الملائكة تمطر من مسافات مضيئة من السماء، ندمت القديسة سيسيليا على تكريس نفسها للفن الدنيوي وللأصوات البشرية، لذا تترك الأرغن يسقط من يديها، وتدوس الآلات الموسيقية الأرضية الأخرى تحت قدميها.

منذ البداية، صدمتني التفاصيل، ما جعلني أحكم على هذا التفسير بأنه خاطئ تماماً. لقد تضرر الأرغن الذي تحمله راعية الموسيقى بشدة مثل الآلات التي ألقيت على الأرض.. برز اثنان من الأنابيب من صندوق الأرغن لذلك تم استبعاد أن القديسة استخدمت هذا الأرغن قبل أن تغريها موسيقى الملائكة بنشوة. لم تستطع أن تلوم نفسها لأنها نسيت الله بسبب هوايتها الدنيوية. ما هي الأصوات اللذيذة التي كانت ستصدرها من آلة تالفة؟

قبل أن أعطي يوليوس وقتاً للتدخل، صرخت أن لودفيج لم يلاحظ بالتأكيد الأنابيب التالفة. كنت أتوق إلى رد اعتباري في نظر فرانز، لأثبت له أنه إذا كان قد صنّفني في اليوم السابق، في المزرعة، بأني من عامة الناس فقد كنت أنتمي مثل يوليوس وكونراد إلى طبقة الأشراف في مجتمعنا. لم أجد فرصة أفضل، ليس فقط الموضوع الأعز على قلوبنا، أي تحالف الرسم والموسيقى، وإنما تذكير فرانز مرة أخرى بقسم لوبيك، ولكن كان هناك في لوحة رافائيل فكرة معينة سيكون ممتناً لها بالتأكيد. استخدمتُ البلاغة وقوة الإقناع، وشرحت التفسير الذي لم يكن متوافقاً مع غاياتي الخاصة فقط بل صحيحاً أيضاً في حد ذاته. قلت:

- في زمن القديسة سيسيليا، كانت الموسيقى مهملة، وبقيت آلات الأرغن صامتة، ولم تُسمع حفلة موسيقية لا في الكنائس ولا في القصور. لذا بدأت الملائكة في الغناء في السماء. واستمعت سيسيليا إلى أصواتهم

وانكشفت لها رسالتها: كان عليها أن تعيد للموسيقى مكانتها المرموقة التي يجب أن تحتلها على الأرض، ولابد أن تسعى جاهدة لاستعادة هذه الآلات التي أصبحت غير صالحة للاستعمال بمرور الوقت، بسبب الكسل وسوء الاستعمال. ولكن، من أين تبدأ؟ وما هو الأكثر أهمية بالنسبة لها؟ واصلت حديثي من أجل فرانز، الذي غالباً ما كان يسألني إذا كان بإمكانه العثور على آلة أرغن قديمة في روما لتصليحها، عند قدميها كانت تستقر مختلف أنواع الآلات، الوترية، الهوائية، الإيقاعية، لكنها لم تتردد في التقاط الأرغن أولاً. لقد مثلها رافائيل في اللحظة التي، تحت تأثير ما سمعته في السماء، قررت أن تعيد للبشر أول وأجمل الآلات الموسيقية. وسوف تستعيد الأنابيب بسرعة في صندوق الأرغن، وستدوي الكنائس من جديد بصوت الله.

لقد حققت نجاحاً غير متوقع كما يبدو، إذ إن فرانز تعلق برقبتي وأعلن أن هذه اللوحة ستشكل دلالة مثالية لورشة صناعة آلات الأرغن، وأراد البدء في نسخها على الفور. ذهبنا للحصول على قماش وفرشاة، وغادرنا إلى الكنيسة، بينما ذهب رفاقنا لزيارة المدينة.

قطب لودفيج حاجبيه بحركة مستاءة.. أعرف جيداً أنه، وبعد أن نشأ في أسرة كبيرة العدد واحتفظت بروح العمل الجماعي، كان مقتنعاً بأن السعادة الوحيدة هي أن نكون معاً، وكان يريد منا أن نفعل مع ذلك الشيء ذاته. ومع ذلك، لم أقدر قط نظرة الغضب التي ألقاها علينا أنا وفرانز، هل لديه أي شكوك؟ لكننا نسينا بسرعة هذا التحذير القصير جداً. ابتعد الرفاق نحو الساحة الرئيسية وهرعنا عائدين إلى سان جيوفاني. أخذنا مقعدين من صحن الكنيسة لعمل حامل لوحات وبدأ فرانز في العمل.

– أخبرتهم بأنه كان من أجل لافتة مشغلي. لكنه من أجلك فريدريش، إنه هدية عيد ميلادك.

لقد تأثرت بالسر الذي كان يحيط مشروعه أكثر من تأثري بالنّية نفسها، لم أجرؤ على سؤاله عما إذا كان يعتقد أنه من خلال الاحتفال بميلادي، فإنه سيحتفل بيوم ميثاقنا في الحديقة.

في النهار، وفي واحد من أطول أيام السنة، سُمح له بالعمل حتى الساعة

التاسعة صباحاً. امتدت الظلال في صحن الكنيسة، كان لا يزال يرسم وهو صامت وشديد التركيز ومرهق. نسخ فرانز اللوحة، من دون أن يهتم بي. وقفت خلفه وأنا على استعداد لتسليمه الألوان والفرش والقماش. لم نكن قد تبادلنا كلمة واحدة. بدا لي من غير المناسب أن أداعب خده أو حتى ألمس شعره، على الرغم من أننا كنا وحدنا في الكنيسة ولا يمكن لأحد أن يفاجئنا. ومع ذلك، لم تكن سعادتي منقوصة. هنا، لم يكن لديّ الوقت لأسأل نفسي وكان كل اهتمامنا ينصَبُّ على اللوحة وعلى طريقة إعادة رسمها بأمانة قدر الإمكان.

كان حبنا، متحرراً من الرغبة الجسدية وهوسها المهين، قد ذاب في أشعة الشفق، مع شبه الظل المزرق للنوافذ ذات الزجاج الملون مع العظمة القوطية للأقبية الصامتة ومع نشوة القديسة سيسيليا وحفل الأصوات السماوية.

أردت زيارة مكان معين في بولونيا، خاصة أن لوحة رافائيل تلعب دوراً مهماً في وفاة فرانشيسكو فرانسيا، هذا الرسام، مؤلف سلسلة من اللوحات الجدارية المخصصة للقديسة سيسيليا، في مصلى مجاور لكنيسة سان جياكومو ماجوري العظيمة، المنسية اليوم، ولكن لسبب غريب للغاية، لا علاقة له بجودة عمله، ولا للحكم الذي سنطلقه عليه. ولد فرانشيسكو فرانسيا في عائلة متواضعة من الحرفيين، وأصبح أحد أشهر الفنانين في عصره. لم يتمكن أولئك الذين شاهدوا لوحاته من منع أنفسهم من امتداحه. أشاد المسافرون إلى روما بمزاياه لرافائيل فكتب رسائل طويلة للرسام، الذي كان قد تقدم في السن بالفعل، أعرب فيها بلطفه وحنانه المعتادين، عن تقديره له وإعجابه به.. أعجب فرانسيا بشغف رافائيل، من دون أن تتاح له الفرصة قط لرؤية أية أعمال أصلية من أعماله.

افتخر كثيراً بهذه الصداقة، وبدأ يعتقد أنه الرسام الوحيد الذي يستحق المقارنة بالسيد أوروبينو. أبلغته رسالة جديدة من روما بأن صديقه انتهى لتوه من رسم صورة للقديسة سيسيليا مخصصة لكنيسة سان جيوفاني في بولونيا. كما طلب منه علاوة على ذلك أن يستقبلها بنفسه وأن يهتم بتعليقها والتحقق من عدم تعرضها للتلف أثناء الرحلة وتصليح أية عيوب أو أخطاء قد يكون وجدها هناك. جعلته رسالة رافائيل المليء بالتواضع متحمساً حد الهذيان، وكان يعد الأيام التي تفصله عن وصول اللوحة.

كان يسير في شوارع المدينة المتعرجة عندما رأى طلابه يركضون. قالوا له إن الصورة قد تم تسليمها لهم للتو، وقاموا بتفكيكها ووضعها في ورشته. اندفع فرانسيا إلى أفضل مكان للضوء، لكنه، وبدلاً من إظهار الحماس الذي كان يجب أن تلهمه به هكذا تحفة فنية، أصابه الشحوب، وترنح وكاد يسقط لولا أن تلامذته قاموا بإسناده. تمالك نفسه، وفتح عينيه لكنه ظلّ حزيناً وواهناً للغاية. لحظة واحدة كانت كافية لإلقائه من قاعدة التمثال حيث كان قد رفعه غروره الجنوني. ما الوسيلة التي سيجدها للتكفير عن جريمة جرأته على اعتبار نفسه رسّاماً عظيماً ومقارنة نفسه برافائيل الفذ؟ بدت له كل أعماله بمنزلة خرابيش إسكافي بائس. ومثل القديسة سيسيليا، رفع عينيه، وأظهر قلبه الممزق والتائب للسماء وطلب المغفرة بتواضع.

منذ ذلك اليوم فصاعداً، غيرت الحيرة ملامح وجهه، وبدت قوته العقلية تتناقص.. انفصلت جميع الشخصيات التي رسمها لسنوات بالحب على جدران الكنائس أو فوق المذابح، عن جدرانها وإطاراتها وأتت لترقص حوله مثل نساء مستهترات مع التواءات وتكشيرات ملأته بالرهبة. لقد دمر معظم لوحاته وطلب من القديسة سيسيليا صارخاً في وسط كوابيسه أن تأتي لتدوسها بقدميها، طالما اعتقد أنها كانت تدوس على الآلات الموسيقية في لوحة رافائيل. ومع شعوره بأن معنوياته كانت تتضاءل، كان لا يزال لديه بعض القوة ليطلب كتابة أن يكون المصلى الذي رسم فيه حياة القديسة سيسيليا على لوحة جدارية مغلقاً بشكل مزدوج وأن يكون مفتاح الباب مدفوناً معها في نعشها.

وفي اليوم التالي لهذا القرار الجنائزي، عُثر عليه ميتاً في سريره، على الرغم من أن جسده كان لا يزال قوياً وخالياً من كل ضعف. بعد ذلك، اختفى اسم هذا الرسام لفترة طويلة، ولم تُبذل أية محاولة لإعادة فتح المصلى، ولم يرغب أي من تلاميذه في الحفاظ على ذكرى الرجل الذي قتله إدراكه بأنه لن يكون عبقرياً أبداً.

سنطرق باب الدير الأوغسطيني المواجه لكنيسة سان جياكوماجوري. كان قد أصبح مهجوراً وخالياً من الرهبان مثل كل المؤسسات الدينية في الأراضي التي وقعت في أيدي نابليون، وكان من الغريب أن يتحول إلى

ثانوية موسيقية، بأمر من الإمبراطور الذي يطالب بـ (بيزيليو)[32] جديد. قال لهم البواب بلا تردد: «يوجد لوحة لفرانشيسكو فرانسيا في الكنيسة، بعد أن تشاهدوها، أعيدوها إليّ».

تمثل اللوحة السيدة العذراء بين الملائكة، وتدل نعومة الوجوه والانسجام الجريء بين اللونين الأخضر والأحمر على أن اللوحة لرافائيل بالفعل، ولكن، ومن خلال التكوين الهرمي، وبواسطة الملاكين الموسيقيين الصغيرين الجالسين عند قدمي عرش العذراء، فإن هذه اللوحة تدل على أنها تعود لجيوفاني بيليني. دفعني اختيار القديسين إلى التفكير، القديس يوحنا، القديس نيقولا، القديس إتيان، حسناً: ولكن لماذا القديس سيباستيان؟ إن القديسين الأربعة الذين اختارهم رافائيل للوحة القديسة سيسيليا يمجدون قوة الحب الخارقة وهم في مكانهم تماماً.

أود حقاً أن أسأل فرانز كيف يفسر هنا، في هذا العمل الذي يتميز بعذوبة صوفية كاملة، وجود هذا العاري الواهن، لكنها ليست المرة الأولى التي يفاجئني فيها مثل هذا التناقض في اللوحات الإيطالية. قلت لنفسي إنه سيكون لدي العديد من الفرص الأخرى لإظهار القديس سيباستيان لفرانز ولخوض بعض الجدل حول ملائكيته اللاجنسية.

قدم لنا البواب صينية فضية وُضع فيها مفتاح كبير وقال: «خذه، تجول في الكنيسة وستجد، عند مدخل الدير، مصلى القديسة سيسيليا». جعلتنا تلك اللفتة الغامضة، والنغمة الغريبة المصاحبة لها، نرتعد على الرغم منا. من سيجرؤ على الإمساك بيده بالمفتاح الذي كان في نعش الرسام المجنون والذي كان لابد من انتزاعه من بين أصابع الهيكل العظمي؟ حتى لو كانت مجرد أسطورة، فإنها تخترق قلوبنا الألمانية بفزع شاعري.

كان فيلهلم، الذي اكتسب عادة الحفاظ على الهدوء بين رفاقه قد اتخذ قراره، وصرنا نتبعه في رتل واحد كالهنود الحمر. لا أحد منا يجرؤ على

32- بيزيللو: كان جيوفاني بيزيللو (المولود في عام 1740 - والمتوفى في عام 1816) ملحنًا إيطاليًا من العصر الكلاسيكي، وكان أشهر ملحن أوبرا في أواخر القرن الثامن عشر. أثر أسلوبه في الأوبرا على موزارت وروسين.

الكلام. كان المفتاح يدور مع صرير في القفل الصدئ الكبير. كان صدى خطواتنا يتردد تحت قبو كنيسة فارغة تخلو من الزخارف والأثاث. وعلى كل جدار، كانت خمس لوحات جدارية تروي حياة القديسة سيسيليا. وبدا لي أن اللوحتين الأخيرتين في الخلف على جانبي المذبح هما الأجمل بكثير. كان موقعهما، ونوعية اللوحتين يشيران إلى أنني إذا أردت أن أسبر أغوار روح الرسام فهذا هو المكان الذي عبر فيه عن نفسه. من جهة، رأيت زواج القديسة سيسيليا والقديس فاليريانوس: كان مشهداً مليئاً بالسحر والنضارة بمناظره الطبيعية حيث التلال والأروقة التي تعكس السعادة الريفية لحفل زفاف ريفي. ومن دون جمود التكوين، من الواضح أن الرسام قد فصل مجموعة الفتيات الصغيرات اللاتي يرافقن سيسيليا عن مجموعة الشبان الذين يرافقون فاليريانوس، بحيث يبدو أن اللوحة الجدارية تتكون من نصفين لا يمكن التواصل بينهما. تمد سيسيليا يدها إلى فاليريانوس، ويمد الأخير يده ليمسك الخاتم بين أصبعين لتمريره إلى أصبع زوجته، ولكن تبقى بين أيديهما مسافة عدة بوصات ولم ينجحا في الالتقاء والتلامس، كما لو أن جداراً غير مرئي أقام عائقاً بينهما. إذا لم ندع أنفسنا ننخدع بالرسم الرقيق للوجوه والأناقة المثالية للديكورات، فيمكن أن نفهم أن الرسام لم يكن يمثل الزواج بل استحالة الزواج، فلم يكن الحماس الذي يدفع الزوجين بعضهما تجاه بعض، بل الرفض الذي كان يمنعهما من الاتحاد.

لنعترف، مؤقتاً، أن هذا الموضوع لم يكن شخصياً لفرانسيا: كان سيسيل وفاليريانوس، اللذان تحولا مؤخراً إلى المسيحية، قد قررا التمسك بزواج وهمي، وتم اعتقالهما، وفصلهما بواسطة جلاديهما وإعدامهما. ولم يبق إلا هذه القصة التي ألهمت الرسام واحدة من أفضل لوحاته الجدارية. وأنه جسد بكل رقة وبموهبته الفذة الخجل والخوف المتبادلين اللذين أديا إلى فشل الزوجين.

وإذا انتقلت الآن إلى الجدار المقابل، أرى قبر القديسة سيسيليا، حيث يقوم رجلان بإنزال جسد الفتاة على ملاءة موضوعة في قبرها، وسط منظر طبيعي للجبال، وهي ملفوفة ببطانية حمراء، وترقد في هدوء الموت ويداها

متشابكتان على بطنها، وقد مال رأسها جانباً بلطف على كتفها معبراً عن حلاوة الخلاص الأثيري.

نحن لا نعرف شيئاً تقريباً عن حياة فرانسيا، باستثناء أنه ظل عازباً وكان يعمل محاطاً بتلاميذه الصغار. ولكن ومهما يكن، تخبرنا هاتان اللوحتان الجداريتان ببلاغة ما عن صورة المرأة. فلم ينجح في رسمها إلا كغائبة أو بعيدة المنال، على الجانب الآخر من الحاجز. ثم رسمها ميتة تماماً، وتجاوزت عبقريته نفسها.

لا أدري إذا كنت قد تركت نفسي أتأثر بالأسطورة المحزنة، لكني أعتقد أنني أستطيع أن أخمن لماذا أمر فرانسيا بإدانة هذه الكنيسة. الزوجان الممنوعان، والزوجة المحرمة، إنه موضوع مبتذل بلا شك، أساطير أورفيوس ويوريديس، تريستيان وإيزولت، باولو وفرانشيسكا، هيرو ولياندر، بيراموس وثيسبي، وروميو وجوليت، وديانا وأوكتايون، والعديد من الأساطير الأخرى التي لا تزال تعامل من قبل الكتّاب والفنانين في كل العصور على إشارتها إلى حب الرجل والمرأة على أنه لعنة. ولكن هل أبدى أي شخص تفوق الموت على الزواج بهذا القدر من اللطف والبساطة؟ لا يوجد دراما ولا شفقة أو عنف في هذه اللوحات الجدارية، كما أن الفراق ليس مصيبة بل بداية النشوة. فرانسيا يهمس لنا هنا بأن المرأة ليست مخلوقة للرجل وبأنها يجب أن تموت لتظهر له بكل جمالها. وإذا كانت تجربته الخاصة قد قادته إلى مثل هذه القناعة، فقد كان من الغدر أن يغرسها في تلاميذه الصغار الذين كانوا لا يزالون مليئين بالتفاؤل الساذج، لذلك قرر مشاركة سره معه، فمن منا لم يحلم باكتشاف أوفيليا بيضاء وشفافة بين أشجار الصفصاف على الشاطئ ليعشقها مثل السيدة العذراء؟

أنا أرتجف وأنا أكتب هذه السطور متسائلاً لماذا تأثرت بهذا؟ لا يسعني إلا التفكير في إليزا، والآن، في صمت زنزانتي، يجب أن أمنع من ذهني خيال شكل غير مادي ورائع يبتسم لي من السماء. راودتني رغبة مفاجئة في رؤية إليزا مرة أخرى، أن احتضنها بين ذراعي. لماذا أشعر بأن فرانسيا رسم قبر القديسة سيسيليا كطقس لطرد الأرواح الشريرة، كما لو أنه كان كلما يدفنون أحداً، يودع كل النساء. يبدو لي هذا الانطباع كأنه يجمدني من الرعب من

قوة الإيحاء الخاصة بالفنانين الكبار، فهذه الفتاة الصغيرة التي ترقد في كفنها الأحمر تأمر من يشاهدها أن يترك الجنس الآخر رسمياً.

أثارت هذه الكنيسة الباردة العارية التي تفوح منها رائحة الملح الصخري في ذهني تعويذة: إليزا! إليزا! لا تحلقي في أحلامي مزينة بالزينة الجنائزية! شحوب الرخام لن يجعلك جميلة في عيني، لا، أنا لم أدفنك بعد! يبدو الأمر كأني تركتك في لوبيك، نشطة، حازمة، حيوية، وأني أريد أن أتخيلك وأريد أن أحبك، في قوة شبابك وحياتك. لن يجذبني الرسام العجوز المجنون بالمفاتن الضريحية بسحرها.

الفصل الرابع

رافينا

لماذا نتخيل بيزنطة كمملكة متحجرة في بهائها وفي جموديتها؟ يا لها من أفكار خاطئة كنت قد كونتها عن رافينا؟ لا توجد سوى الملكة ثيودورا التي تتوافق صورتها مع ما كنت أتخيله. إنها تتسربل بالمجوهرات، وتتألق ببريق بربري متوهج. أمام هذا الجلال الرهيب، يرغب المرء بأن يركع على ركبتيه ويسجد بتواضع.

تتنفس الفسيفساء الأخرى مناخاً مختلفاً تماماً. نظرت عبثاً في مؤخرة محراب الكنيسة إلى المسيح بانتوكراتور، القاضي العظيم الذي تجعل نظراته المرء يرتعش. إله رافينا لا يشبه الأب المستبد الذي يحاسب الفرد الفاني على خطاياه.. ما الذي يمكن أن يكون أحلى، وأكثر ألفة ورعوية من النعاج والعذارى، المروج الخضراء والنخيل مع تمرها، الأشجار مع طيورها؟ كل هذا الوميض يدعو إلى الراحة والفرح. هذه الحمائم ترفرف بأجنحتها في البساتين وتشرب من الحوض، هذه القوارب في الميناء، هذه الزهور في الحقول، هذه الأغنام في صف واحد، هذه النجوم في السماء تشكل بيئة شاعرية. كل هذه التفاصيل يتم تقديمها بدقة وحب يثبتان أية ثقة وضعها فنانو هذه الفترة في رحمة وكرم الله. من القرن الخامس إلى القرن الثامن، أظهر الكهنة الكثير من التفهم والتسامح أكثر بكثير من العصور الوسطى حيث كان متعصبون مثل القديس دومينيك يجوبون أوروبا ملوحين باللعنة، عندها فقط ظهرت محاكم التفتيش، لمطاردة المخالفين لقانون

الرب من الملحدين والمخالفين للعقيدة أو الجنس وإلقائهم في المحرقة والقضاء عليهم بواسطة مبدأ العار والنار.

في الرسم أيضاً، كان هنالك فرق كبير بين العصرين! في كنائس القرنين الثاني عشر والثالث عشر، كم مرة لم أرتعش أمام هذه الأشكال الطويلة والصلبة المنتصبة على الجدران، إنها تنظر إلينا بأعينها الكبيرة المفتوحة وترتدي ألواناً داكنة وتغوص في الظلام الدائم للممرات الجانبية المغلقة عمداً في ضوء النهار وحرارة الشمس، والتي أصبحت أكثر سخونة بسبب الطقس، على ما يبدو أنهم يريدون إقناعنا بغباء العالم والحاجة إلى التوبة. تذكرنا تماثيل السيد المسيح على الصليب بأطراف مسمرة ودامية بأننا لم ننته من التكفير عن مأساة الآلام. أما في رافينا فليس الأمر كذلك، حيث لا يوجد خطيئة ولا حُكم مسبق. وهنالك العديد من الصلبان لكنها عارية وليس عليها شخص مصلوب ولا صورة من الألم.

تغمر الشمس كنيسة البازيليك في موجات وتنعكس على المكعبات غير المنتظمة للفسيفساء كأنها تطلق ألعاباً نارية ملونة، إنها متعة للعيون، لكنها أيضاً تناسب العقل. نقول لأنفسنا إن كل شيء خلقه الله جميل، وإن كل شيء على الأرض جيد ومقدس، ولا ينبغي احتقار أي شيء، وإنه، مثل تلك الأغنام الحساسة بما يكفي لعدم سحق قشة واحدة من العشب أثناء صعودها إلى السماء، يجب علينا أن نستفيد بامتنان من النعم التي وضعتها السماء تحت تصرفنا. قلت وأنا أدخل معه مبنى دائرياً صغيراً هو معمودية الأريوسيين:

– أليس كذلك، فرانز؟

أقسم أنه ليس لدي أية دوافع خفية في ذهني، وإذا كانت لدي أي دوافع فلم يكن في نيتي إظهار ذلك. لقد زرنا للتو ضريح غالا بلاسيديا ومازلنا مندهشين من هذا البريق اللامع للمكعبات الزرقاء الصغيرة التي لا تحصى. كنت مندهشاً من هذا الخفقان اللازوردي وأردت فقط مشاركة فرانز إعجابي وحماسي المهني. بالنسبة لفني، يا له من درس يمكن استخلاصه من هذه الفسيفساء البيزنطية! تبسيط الأشكال، حدة الخطوط، بساطة الموضوعات

بما يكفي لتكون بمنزلة مثال في بحثي الخاص. إذا كنت أنوي إعادة الرسم إلى مصادره «البدائية»، أين أجد المزيد من النماذج المحفزة؟ ولكن عندما اعتادت عيني على نصف الضوء، وكنت قد حددت ما يلمع في قاع القبة، حل الرجل في داخلي الذي لم يتوقف عن المعاناة وتعذيب نفسه على الفور محل الرسام.

سألت فرانز وأنا أمسك بذراعه:

– ماذا ترى؟

متفاجئاً، حاول أن يحرر ذراعه لكنني أمسكتها بحزم، قال:

– أنا أرى... أرى المسيح مغموراً إلى خصره بالمياه الزرقاء المليئة بالأمواج، وفوق رأسه حمامة. على اليمين، القديس يوحنا المعمدان مرتدياً جلد حيوان، يمد يده عليه ليعمده. وعلى اليسار، يجلس رجل عجوز يمسك بسعفة في يده، ويرفع الأخرى: أجد صعوبة في فهم حضوره.

صرخت بنفاد صبر:

– ما أهمية هذا الرجل العجوز. إنها قصة رمزية للنهر. انظر جيداً إلى المسيح وقل لي ما الذي تراه.

– السيد المسيح؟ إنه يقف في الماء، وذراعاه متدليتان على طول جسده...

سألت وأنا أضغط بقوة على ذراعه:

– وبعد؟

– جسده عار تماماً.

– لطالما تعرض الرسامون لعري المسيح واستعرضوه في طفولته، لكننا الآن أمام رجل بالغ يمتلك كامل قدراته الجسدية. إذن، ما يريد الدين المسيحي أن يمنعنا منه، فهو يسمح به. للانتفاع منه. إن ما هو رائع في رافينا هو أن أرى كيف تم تبجيل الخليقة برمتها، وإحياؤها ومدحها وتمجيدها من قبل مصمم الفسيفساء: الأشجار، والزهور والعشب والطيور والحيوانات، ولكن أيضاً العري البشري والجنس. لا يوجد شيء على وجه الأرض يرون أنه لا يستحق أن يتم تصويره بالحب وتمجيده بالبهجة. لأنه، إذا كان الله هو

صاحب كل هذه الأشياء، فبأي حق يجرؤ عقل الإنسان على إدانة أي منها؟

هز فرانز كتفيه وابتسم لي بلطف. هذا اللطف البعيد، وهذا التسامح الممتع، كنت سأكون ساذجاً لأعتبره بداية الموافقة.

بعد فترة وجيزة من رافينا، تركنا أخيراً هذه السهول الخانقة التي تغطي شمال إيطاليا، وبدأنا في الارتفاع على التلال الأولى لجبال الأبينيني. طرأ تحسن ملحوظ على صحة فرانز، على الرغم من أننا بحثنا عبثاً عن عربة تقلنا وسرنا طوال الطريق، فإنه لم يكن جيداً كالطريق إلى أوروبينو. في هذه المدينة الصغيرة التي كأنها بلدة أكثر مما تكون مدينة، ربما لن ننجح بلا شك في الحصول على بعض المال عن طريق بيع رسوماتنا. ولكن، هل يمكننا الاستغناء عن زيارة بلد رافائيل؟

إنها المرة الأولى التي اكتشفنا فيها المنظر الطبيعي الإيطالي النموذجي مثلما يمثله الرسامون غالباً في خلفية لوحاتهم، تتابعت سلاسل التلال والجبال على هذه المسارات المتعرجة والخلابة، الواحدة بعد الأخرى، بوضوح. من السهل فهم الخطط، إذ يبدو أن الطبيعة قد تم نحتها من قبل فنان تشكيلي ماهر، ففي هذا الديكور الذي تم رسمه جيداً بالفعل، أضاف الإنسان بيديه أشكالاً أنشأها بنفس الاهتمام بالدقة، حيث تبرز الكنيسة مع جرسها، والرواق مع أعمدته بشكل رائع مع صف من أشجار السرو. والذي يشكل اختلافاً مع المنظر الطبيعي الألماني! فكل شيء لدينا مختلط، وكل شيء مرتبك، الأرض والسماء مختلطتان، مثل تلك اللوحة التي كان قد وضعها كاسبار ديفيد فريدريش رأساً على عقب على ركبتي، إنه شيء لا يُعقل هنا!

بينما كنا نتسلق نحو الجزء الداخلي من السلالم المتعرجة، لاحظنا خلفنا شكل الساحل والكتلة الأرجوانية المجاورة للبحر، التي كان من المستحيل الخلط بينها وبين الرمال البيضاء للشاطئ. ليس من المستغرب أن الفنانين الإيطاليين، الذين تعودت أعينهم منذ الطفولة على السطوح والأحجام المعزولة، قد اكتسبوا ذوق الأشكال النقية والخطوط النظيفة. وبشكل محلوظ، لا يوجد أي اختلاف في إيطاليا بين العمارة المقدسة

والعمارة العلمانية. ربما فقط كاتدرائية ميلانو، التي لم نرها، يمكن أن تتعارض مع ما سأقوله. وأمام كنيسة ألمانية، أذهلتني الحركة التي ترفعها إلى السماء. إنها تلقي ظلالها على الغيوم. كما لو كان قد هرب من أيدي المهندس المعماري وبذل كل طاقته في مد سهمه اللامتناهي قدر الإمكان عن الأرض. كانت الكنائس الإيطالية قصيرة ومربعة ومتواضعة، وكان برج الأجراس في الكنيسة في الغالب مجرد برج، دائري أو مربع، ينتهي بسقف مسطح، كما أنه ينتصب بعيداً عن المبنى للدلالة على أنه يتركه في سلام على شكله المثالي ولا يحاول جره إلى مغامرة خيالية. وبينما ترفع الكنيسة الألمانية الروح إلى عاطفة إلهية، تخاطب الكنيسة الإيطالية العقل أولاً. أعتقد أنني أستطيع أن أخمن لماذا تحولت العديد من الأماكن المقدسة القديمة إلى كنائس مسيحية. إن رعاية مثل هذه العبادة المتحمسة للشكل هو أن تظل وثنياً. سأعرف جيداً كيف أوفق، أنا نفسي بين الوضوح الإيطالي والعبقرية القوطية، بين الأرض والسماء، وبين شمس أبولو وليل نوفاليس. ألم أقسم على نفسي عندما أسرّ لي شينكل في برلين بفشل أحلامه في تحقيق الاندماج المستحيل؟

أنا أخشى فقط على فرانز من وثنية الإيطاليين، عندما سيكتشفها، لا يمكن إلا أن يخيب ظنه بشكل رهيب، هو، الذي لا يعرف أبداً ما هو الوقت، والذي يخرج في جميع الظروف الجوية مرتدياً نفس الملابس، والذي يخطئ في أيام الأسبوع ولديه فقط النقاط الأساسية التي ترتبط بتناغم الكون، سيدرك أن إيطاليا هي بلد المعايير والصرامة التشكيلية وعلم الأرقام وليست بأي حال بلد الغموض. لقد اشتكى بالفعل من الشمس وينتظر الخريف بفارغ الصبر ليرى ما إذا كانت طيور السنونو ستطير بعيداً باتجاه الشرق من أجل أن تتنشط من منابع الشرق.

قبل دخول أوروبينو بوقت قصير، جلسنا تحت شجرة زيتون. سحب من حقيبته نسخة من لوحة القديسة سيسيليا لمقارنتها مع لوحة «العائلة المقدسة» لدوريه. قال لي بفرح أمام وجه القديسة المنتشي:

– أليست رائعة؟

لم أجرؤ على إخباره بأنني وجدته أيضاً مثيراً للإعجاب، لكنه أخطأ في اعتبار هذه اللوحة كدعوة للحلم والسفر في اللانهائي. لقد علمني يوليوس أن أحلل اللوحة بشكل أكثر صرامة. ما هي أكثر السمات النموذجية للقديسة سيسيليا؟ أولاً، تناسق التكوين، ثم عزل كل شكل. الشخصيات الخمس مستقلة بعضها عن بعض ويمكن أن يقدم كل منها موضوع لوحة مختلفاً. أخيراً، كدت أن أقول لفرانز، في هذه اللوحة لا يمكنك تغيير خط واحد: لا شيء متروك للصدفة، إذ يتم قراءتها كنظرية على عكس ما نراه في رسم دوريه: هناك، خليط من الخطوط، ولا يوجد شكل مستقل عن الآخر، ونبض غير مرئي يوحد الأجزاء المختلفة من الرسم. لا يزال دوريه غير مؤكد ومحفوف بالمخاطر وعشوائي بينما بلغ رافائيل الكمال الرياضي وجمال المطلق.

لكني كنت حريصاً على عدم إزعاج تأمل فرانز، باستثناء دعوته للعودة إلى الطريق والانضمام إلى رفاقنا في الصعود الأخير قبل أوروبينو. كان لودفيج قد توقف لانتظارنا. كان جبينه مجعداً بخط مائل وبدا أنه مستعد لتحذيرنا، دائماً حول هذه النسخة من رافائيل بلا شك!

في رافينا، كنا بحاجة إلى المال، وكان لودفيج قد طلب من فرانز بيعها لبعض الهواة، لن ينقصنا ذلك في المدن الإيطالية التي تهتم بها ولن نظل نشعر بالقلق لفترة طويلة. لكن فرانز صرخ وهو يحتضن لوحته واحتج على أن يستفاد منها في روما بهذه الطريقة. لكن حجج لودفيج «كيف سنأكل الليلة؟ وكونراد بحاجة إلى زوج من الأحذية... الخ» تحطمت أمام عناد «الأرستقراطي» فرانز، وأمتعنا المشهد جميعاً، وانتهى كما كان متوقعاً.

بعد تذمر لودفيج، انسحب إلى ركن من النُزل، وقام بنسخ عدة نسخ من لوحة رسمها لقبر دانتي، وهو موضوع لا يقاوم بالنسبة لشعراء الأكاديمية المحلية وأولئك الذين يحنون إلى العظمة الإيطالية. لقد شاركت في قضية مشتركة مع فرانز، وتأثرت بشكل مضاعف بأنه دافع عن هدية عيد ميلادي بحزم شديد، من دون الكشف عن سرنا الصغير للآخرين.

إلى جانب ذلك، اعتقدت أن الحادث قد تم نسيانه. لقد ذكرتني النظرة

التي رمقني بها لودفيج وكان فيها تهديد عندما سارعنا للانضمام إليه، بالشخص الذي كان يقلقني في بولونيا. على أية حال، بدا لي أنه من غير المناسب تأخير دخول أعضاء نادي لوكاسبوند إلى مدينة أوروبينو السحرية لمدة نصف ساعة.

الفصل الخامس

أوروبينو

شوارع صغيرة منحدرة، متاهة من السلالم، من الشرفات، من الممرات المقببة، نتوءات من القرميد تستخدم بالعرض لطرق شديدة الانحدار، لمساعدة القدم على الصعود أو الهبوط. كان مسقط رأس رافائيل يحتل موقعاً جميلاً وسط الشارع الرئيسي للمدينة. اندهشنا عندما وجدناها كبيرة وفخمة وباذخة جداً. كان الرسام ينتمي إلى عائلة من الطبقة البرجوازية، ولمن يريد الانخراط في مهنة في مجال الفن، فليس عيباً أن يولد ميسوراً، خلافاً لهذا الرأي الخاطئ الذي انتشرعلى نطاق واسع منذ الثورة الفرنسية حيث اعتمدت الرومانسية الألمانية أسطورة المتشرد بلا عائلة أو تقاليد.

كان منزل رافائيل سانزيو واسعاً أيضاً تقريباً مثل منزل أوفربيك، وكانت هناك سمة أخرى مشتركة: استخدام القرميد. كان جيوفاني سانزيو والد رافائيل هو ذاته رسّاماً. وتحت الرواق الخارجي المواجه للبئر في الفناء الداخلي، تُرِكَ الحجر الذي يستخدم لطحن الألوان. تجولنا في الغرف ونحن نحبس أنفاسنا. كانت النوافذ تحتوي على مربعات صغيرة جداً ومصاريع خشبية مفصلية كما هو الحال في لوبيك، على الرغم من أن هذا التركيب يستخدم لدينا لالتقاط الضوء القليل الذي تمنحه لنا السماء البخيلة بينما هنا سنقوم بتصميمه لهدف معاكس، لحماية أنفسنا من الشمس الحارقة جداً..

وها نحن، صامتون من الذهول والخوف، في الغرفة التي ولد فيها رسام لوحة «السيدة العذراء»، لم نكن نعلم أنه ترك لوحة على الحائط عندما كان

في الرابعة عشرة من عمره. إنها «العذراء والطفل» التي تتميز بهذه الخاصية النادرة، والتي تتمثل برسمها في صورة جانبية، بينما يجلس يسوع على ركبتي العذراء وهو ينام بسلام. كانت تجلس على مقعد حجري بمواجهة منبر يحمل كتاباً مفتوحاً. كان طرف الذقن وامتلاء الشفتين وبروز الأنف وانحناء الجبهة واستدارة الشعر المربوط بشكل كعكة واضحة بشكل مذهل. حتى الحاجب الذي تم تقليصه إلى خط بسيط، كان يدل على الرغبة في تصغير الوجه إلى خطوط. كان سن الرابعة عشرة بالنسبة لجميع الآخرين هو عمر الغموض والحيرة والتردد، لكن رافائيل أكد أنه أستاذ في رسم تقاطيع الجسد والنقاء الأصلي.

انخدع فرانز من جديد بالموضوع وأراد نسخ اللوحة الجدارية. ربما أراد أن يثبت لي مرة أخرى ميله إلى لوحات المرأة والأم؟ ذهب الآخرون لزيارة قصر الدوق، واتفقنا على الاجتماع في نهاية الساحة المطلة على الوادي. بقيت معه وقضينا وقتاً رائعاً، لكنه مزق رسومه عدة مرات، بينما حاولت الانضمام إلى رفاقنا حتى لا أجعلهم ينتظرون..

من بعيد، رأيت لودفيج، جوزيف وفيلهلم منخرطين في محادثة حيوية لكنهم قطعوها عندما رأوني. اقتربت منهم، فانفصل لودفيج عن المجموعة وجاء لملاقاتي، ثم غير رأيه وعاد إلى الآخرين.. كنت على بعد خطوات قليلة منه الآن. واجهوني وهم صامتون ويحدقون في الأرض وأيديهم في جيوبهم.. كانوا صامتين ومحرجين.. أخيراً، استجمع لودفيج شجاعته وسعل لتطهير فمه وبدأ بالقول:

– عزيزي فريدريش، لابد أن نتحدث معك.

قلت محاولاً جعل الأمر يبدو غير رسمي رغم شعوري ببعض الطمأنينة:

– يالها من مقدمة مهيبة! أنتم تصنعون واحداً من تلك الألغام بقولكم «لابد أن نتحدث معك» أي «نحن»؟ أنتم ثلاثة هنا؟ أين يوليوس وكونراد؟

– ستعرف عندما تسمعنا.

قلت لنفسي: «إنها محكمة العامة.. لقد استدعتني محكمة العامة.. كنت أنتظر هذه اللحظة»

وتابع لودفيج:

- لسنا راضين تماماً عن مسار الأحداث. ألم نكن مصممين تماماً عندما غادرنا فيينا على العيش في مجموعة؟

- طيب؟ سألت، رغم أنه لم يكن من الصعب تخمين من أين يريدون الانطلاق.

- حسناً،...، يبدو لنا أنك غالباً ما تعتزلنا مع..........

- مع فرانز، أضاف فيلهلم لينقذ رفيقه.

- أعرف فرانز منذ ثلاث سنوات، إنه مثل صديق الطفولة بالنسبة لي.

قاطعه فيلهلم:

- أكثر من سبب.

لم يجرؤ أي من الثلاثة على الاستمرار ولا على أن يقول لي في وجهي ما الذي كان لبعض الوقت موضوعاً لمناقشتهم. كان فيلهلم يحدق في حصاة على الأرض، وقبعته مضغوطة على رأسه، هذه القبعة التي تمنعه مبادئه من خلعها حتى لا يبدو أنه يطيع العادات الباطلة للمجتمع والتهذيب، والذي وجد له تبريراً جديداً، فما دمنا في إيطاليا، يبدو لي من الضروري معارضة التراخي في اللباس الذي نخضع له بشكل أو بآخر.على شاطئ رافينا، كان الوحيد الذي لم يرغب في الاستحمام، جلس تحت شجرة صنوبر، بكامل ملابسه محتجاً على أن الشمس تذيب الألياف العصبية وتضعف الإرادة وتقود إلى مذهب المتعة الذي يستحق اللوم.

سألني لودفيج وكان أول من رفع رأسه:

- ماذا تحسب نفسك فاعلاً؟

صرخت:

- من كان أول من خطرت له فكرة تأسيس الـ(لوكاسبوند)؟ من الذي قدم اقتراح المغادرة إلى إيطاليا؟ فرانز وأنا. لقد انضممتم إلينا بالتدريج،.....

قاطعه فيلهلم باقتضاب:

- لا يتعلق الأمر بذلك.

قال لودفيج بجدية:

- لم نكن نعرف إذن.

كان جوزيف هو الأكثر إزعاجاً من بين الثلاثة. كان يعض شفتيه ويؤرجح ساقيه ولا يستقر في مكانه.

تابع لودفيج:

- إننا نتحدث إليك بقلب مفتوح، لأننا نعتقد أنك تصرفت بدافع الجرأة أكثر من التصرف بسوء نية.

لقد بدأ الحديث بمغالاة، لكنه ارتبك مرة أخرى وتمتم بأنهم توقعوا مني قدراً من الولاء والصراحة بقدر ما كانوا بحاجة إلى التساؤل:

- سيكون من القبيح حقاً أن تكذب علينا كما تعلم.

- لماذا أكذب عليك يا لودفيج؟ ما الذي يمكن أن أخفيه عنك؟

- حسناً، أخبره، أنت يا جوزيف ما الذي يخفيه عنا.

احمَرَّ وجه جوزيف خجلاً حتى جذور شعره، وفتح فمه ليتحدث لكنه لم يتمكن من نطق كلمة واحدة، فقال لودفيج بدلاً عنه:

- لقد دخل جوزيف إلى حجرتك في الليلة الماضية.

نجح جوزيف في التأتأة:

- مصادفة! أنا... أخطأت الباب.

خلص لودفيج وهو يحدق بي بينما رفع فيلهلم رأسه ونظر إليّ بدوره بازدراء شديد:

- وقد رآكما، معاً كليكما.

«إنهم يعرفون كل شيء إذن»، قلت في نفسي وأنا أفكر في الإجراء الذي يجب عليّ اتخاذه. لم يكن في نيتي الاعتراف فقط، ولكن الصراخ في وجوههم:

- »نعم، أنا أحبه، والله وحده، هذا الإله الذي تتضرعون إليه ضدنا، ربما يحكم على سلوكنا»، لكني قلت لنفسي حالاً إنه لا شيء كان من الممكن أن يكون مهلكاً أكثر من الخضوع لهذه النزوة. فرانز، الذي قبل بالفعل على مضض، سيشعر بالرعب عندما يعلم أن علاقتنا أصبحت علنية.

سينتهز هذه الذريعة لوضع حد لها. لذا اتخذت قراري في أن أبدو مندهشًا، ثم أنفجر من الضحك. أمسكت جوزيف من كتفه وقلت له:

– لكن، يا جوزيف المسكين، لماذا لم تدخل؟ لماذا لم تجلس معنا على السرير؟

اتسعت عينا جوزيف بغباء، بينما تبادل لودفيج وفيلهلم نظرات متسائلة، وواصلت حديثي:

– كنت ستعطينا رأيك. لقد استحضرنا إمكانية إحياء فن الفسيفساء في عصرنا. وكان النقاش حيوياً لدرجة أننا كنا خائفين من إيقاظكم في الغرف المجاورة وجاء فرانز لينضم إليّ في سريري.

أضاءت ابتسامة عريضة وجوههم. لا أعرف إذا ما كانوا قد صدقوني. ربما شموا رائحة الحيلة، لكني ساعدتهم على الخروج من موقف محرج للغاية، ولم يكونوا يطلبون شيئاً أكثر من ذلك. لقد شعروا بالسعادة والارتياح، ولم يجدونا أبرياء بقدر ما كانوا قادرين على إغلاق أعينهم بهدوء. كانت السرعة التي قبلوا بها تفسيراتي تدفعني إلى الضحك، لولا الخطر الذي يهدد حبنا. قفز لودفيج حول رقبتي ومنحني قبلتين كبيرتين على وجنتي، ثم دفع جوزيف ليقبلني بدوره. وافق فيلهلم على رفع حافة قبعته وقال:

– فريدريش، المعذرة.

قال لودفيج لجوزيف:

– مرة أخرى، عندما تذهب للتبول في الليل، استيقظ بشكل أفضل!

أثارت هذه المزحة المتواضعة مرحاً مذهلاً فأسرفوا في الضحك حتى اختنقوا به. أصبح لودفيج شديد الاحمرار، وخلع فيلهلم قبعته وبدأ يضربها بقبضتيه، وبذلاقة لسان تتناقض مع إحراجهم السابق بدأوا بإحصاء المسؤوليات الجسيمة الملقاة على الفنانين خلال السفر.

قال لودفيج:

– أنتم تعلمون، نحن سبعة شبان ألمان، وأنت تعرف أنه في الخارج يُحكم على الدول بناء على سلوك مواطنيها. أية فضيحة ستندلع، أي عار

سينعكس على بلدنا، إذا لم يكن فريق لوكاسبوند مثالاً للأخلاق التي لا غبار عليها. كما يبدو لي، يجب أن نكون حريصين على عدم معانقة بعضنا بعضاً أو السماح لأنفسنا بالتعبير علنا عن عاطفتنا، على الرغم من أنها تنبع بكل نقاء من قلوبنا، إلا أنه يمكن إساءة تفسيرها..

علاوة على ذلك، أضاف جوزيف وهو يهز خصلات شعره الأنثوية التي كانت تبدو ذهبية في الشمس: لأننا لا نمثل ألمانيا فقط، ولكن الدين الإصلاحي. أنتم تفهمون، علينا أن نُظهر التفوق الأخلاقي للوثريين على الكاثوليك الذين يسمح دينهم -عذراً لودفيج- بالعديد من الانتهاكات، لدرجة أن ليوناردو دافنشي ومايكل آنجلو أيضاً تشوه مجدهما بسبب فجور حياتهما الشخصية! الإيطاليون فاسدون للغاية لدرجة أن أحد رساميهم، في عصر النهضة، لم يكن لديه أي قلق من اعتباره شاذاً.

قلت لنفسي وأنا ابتسم لجوزيف: «أنت، من الأفضل أن تسأل نفسك لماذا طردك بتهوفن مثل الكلب، ربما كان سيتصرف بشكل أكثر إنسانية لو كان أقل خوفاً من كونك صبياً جميلاً، ولكن كان عليّ اللجوء بالفعل إلى لودفيج الذي لم يستنفد حججه. لقد تربى وجهه الفاضل لقروي ساذج على اللبن الطبيعي والفراولة التي يقطفها من حديقته، كانت بشرته الوردية وشعره الأصهب وهيئته المتفتحة ستؤثر عليّ مرة أخرى، كدلالة على أفضل شخصية قابلتها على الإطلاق من خلال الأجواء الودية لمنزل جرينزنغ، والبهجة والضحك للأطفال السبعة، وطيبة القلب والسذاجة، وبساطة والده المزارع وبشاشة والدته الدفاعية وحسن نية الجميع وحماسهم لجعل أنفسهم في خدمتهم، والتضحية بميولهم الشخصية لمصلحة الآخرين، لم أستطع أن أصدق أنه مع مثل هذا القلب الكبير يمكن أن يكون لدى المرء مثل هذه الأفكار المحدودة، ولا أن ميزة النشأة في أسرة دافئة يجب أن تجعلك تدفع ثمناً باهظاً. قال:

- أنت تفهم، لم يكن والدي ليسمح لي بالسفر معكم لو كان يشك في أن ابنه لن يسافر مع رفاق لا يُقهرون. أنتم تعرفونه، إنه الرجل الأكثر طيبة قلب في العالم، إنه لا يقتل ذبابة، لكنه وفي ما يخص مسائل الشرف، فتوخّوا الحذر! ليس من أجل لا شيء أنه ذهب إلى معارك جيمابيز وفالمي، وحصل

على إصابة في الرأس وأخرى في الكتف، ويمكن أن يُقدم على قطع يده إذا علم بأنها صافحت يد............ لكن فمه، الفاضل جداً بالتأكيد رفض أن يلفظ الاسم.

قال فيلهلم:

- مرة أخرى، كُن أكثر يقظة. أغلق بابك، أنت تفهم! وبدلاً من جوزيف، كان يمكن أن يفاجئك كونراد، وكونراد لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره بعد. ولتجنب حضور هذه المقابلة، أرسلناه لشراء المؤونة مع يوليوس.

أقسم لي جوزيف:

- بحق السماء، أنه لا يعرف أي شيء عما قيل هنا.

- لكن.. هل تحدثت إلى يوليوس؟ ماذا قال؟

قال لودفيج وهو يهز كتفيه:

- أوه! يوليوس..

وأضاف فيلهلم بازدراء:

- إنه روماني.

هل يستهدف هذا الازدراء العاصمة الفاسدة التي كان الرب قد عهد فيها إلى آثم شهير لزخرفة كنيسة السيدة العذراء؟ أم أن استياءهم منه كان بسبب ارتباطهم بالأخلاق الألمانية القديمة؟

أعلنت لوضع حد للمناقشة:

- سيكون لدينا منذ هذا المساء خليتان منفصلتان.

أجاب لودفيج:

- لا، كان كونراد يطرح أسئلة وهو يراك تغير عاداتك فجأة؟ نحن نثق بك.. أليس كذلك؟

أصروا على أن نواصل، على الأقل حتى وصولنا إلى روما، تقاسم نفس الحجرة، مؤكدين على أن الرفض القاطع من جانبي سيثير شكوكهم.

صاح لودفيج وهو يجذبني إليه ليقبلني:

- لا شك في ذلك.. ثم احتضنني الآخرون بدورهم وفقاً لعادة عاطفية للطلبة الألمان، الذين، وبعد تسوية الخلاف، ختموا مصالحتهم بعناق

فرسان. ثم جلس كل منهم على الحاجز واستداروا نحو الفراغ. كان صرير الجنادب يملأ الوادي، وبدأت الشمس، التي كانت لا تزال عالية في السماء، في مدّ ظلالها على المنحدر الشرقي للجبال.

وجدنا فرانز منغمساً في تأمل المناظر الطبيعية الرائعة.. وعندما انضم يوليوس وكونراد إلينا مع المؤن، قررنا الذهاب في نزهة إلى خارج المدينة، بالقرب من مزرعة كانت أروقتها وشرفاتها المقوسة وأفاريزها القرميدية البنية تبرز بوضوح على قمة تل، في نهاية ممر من أشجار السرو. كان يوليوس في حالة مزاجية سيئة، لأنه اضطر إلى عبور مدينة أوروبينو الجميلة محملاً بالنقانق والجبن، لكني رأيت بوضوح من خلال تعابير وجهه، أنه كان يرغب في الضحك، وكنت أخشى أن يمارس هذه البهجة على حسابي.

في المساء، وهو يصافحني، كرر لودفيج نصيحته السخيفة لنا بأن نقفل أبوابنا بالمفتاح. لقد فكرت كثيراً منذ مناقشتنا على الشرفة، واستنتجت أن الوقت قد حان لأبرر سلوكي مع فرانز.. بدا لي أنه من المستحيل ألا يعود صدى ما حدث بطريقة أو بأخرى إلى أذنيه. ربما سيذهب لودفيج ليزجره بدوره، أما يوليوس، الذي لم يكن التحفظ هو الصفة السائدة لديه، فسوف يتسلى برمي الزيت على النار من أجل المتعة الخالصة والاستمتاع بإثارة الارتباك بين الجميع، بينما فرانز، الذي كان لديه الكثير من الرزانة للتغلب عليه، فسيكون غاضباً عليّ لأني تركت حبنا يصبح مشاعاً، ولم أتدارك القيل والقال الذي كانوا يهمسون به خلف ظهره.

كان لديّ سبب آخر لأخبر فرانز دون تأخير. كان نهج رفاقنا وطبيعة وساوسهم تسمح بحد ذاتها بمناقشة صريحة بيننا. صحيح أنني كنت أعاني من بروده وأشعر بأنه يمنحني حبه على مضض، ولكن مع ذلك، لم تكن هناك فكرة أخرى تملي عليه هذا السلوك سوى ما يدعوه بـ (الحب النقي).. إنه «نقي» في الاتجاه الخاطئ في رأيي، وذات يوم سيفهم أننا (لا نحط من قدر) الحب، بل نمجده، وإذا كان تصوره خاطئاً، فإنه يستحق أقصى درجات الاحترام. إنه لا يتذرع مثل لودفيج وجوزيف وفيلهلم بحجج أخلاقية أو اجتماعية. إنه لا يتذرع بحجة الوطن والعائلة والدين والمصائر الخالدة

للبشر.. في رأيي، أنه يواجه صيغة أخرى للحب: نحن نبحث كلانا عن الحب، ولكن كل على طريقته، وإذا كنا مصممين أيضاً على عدم إحراج أنفسنا بحكم الآخرين، فلا أحد منا نحن الاثنين، بالتأكيد، سيسمح لنفسه بأن يغض النظر ويغير مساره بسبب الخوف من اللوم.

كنت أمسك بالمفتاح في يدي، وأنوي ألا أرميه على سرير فرانز كما أفعل دائماً.. كان يمشط شعره أمام المرآة الصغيرة المعلقة فوق الحوض. انتظرت حتى ينهي تمشيطه وقلت له:

- فرانز، لقد دخل جوزيف إلى حجرتنا في الليلة الماضية وفاجأنا، ثم ذهب إلى لودفيج وفيلهلم لتحذيرهما.. لقد احتملت محاضرتهم لأكثر من ساعة. بطبيعة الحال، لقد تمكنت من إنكار كل شيء، وسواء صدقوا التبريرات أو لا، فإن هذه القضية أثارت اشمئزازي. أنت على حق بلا شك، الجنس يسمم الحب. إذا كنت قد سمعت حججهم فستتساءل ما الذي يجعلهم يجرؤون على التدخل؟ لقد تأثر لودفيج بوالده واعتبر ما نفعله عملاً شائناً.. أوه! فرانز! الجنس إذن هو لعنة إذا كان يحض على الحماقات. اسمع، لديّ عرض لك. أنت ترى هذا المفتاح، إذا كنت ترغب به، خذه، ضعه في القفل وأغلق الباب بنفسك. وإذا لم تكن تشعر بالرغبة في ذلك، اتركه على سريرك. سوف أفهم أن سريرك قد أُغلق في وجهي.. لن ألومك، فرانز، وسنظل سعداء مع ذلك كل على طريقته.

تحدثت دفعة واحدة، خوفاً من أن يقفز منذ الكلمات الأولى نحو الممر ويهرب من دون الاستماع إلى البقية. لم يرد فرانز في البداية بأي شيء وبدأ يتمشى في الغرفة بينما استلقيت على سريري وعيناي مغلقتان.. لم أتحرك بانتظار ردة فعله.. سمعته وهو يرتب الغطاء ويربت على الوسادة. فتحت عيني، كان يقف بجانبي والمفتاح في يده.

قال لي:

- وإذن، هل تتخلى عن فعل ذلك؟ هل توافق على الابتعاد عنه؟

- نعم، فرانز، أليس هذا ما تتمناه؟

لدهشتي الكبرى، هز رأسه وقال:

– بالتأكيد لا، فريدريش. أنت تسمح لنفسك بالتغلب على الهراء الذي تمكن لودفيج الشجاع من إخبارك به. فما هو الثمن الذي كان سيترتب على زهدك، إذا انتزعوا منك مشاعرك في ظل ظروف مخجلة ومهينة؟ هل تعتقد أنني أطلب منك الخضوع للرأي العام؟ هل تعتقد ذلك، هل هذه هي الفكرة التي لديك عني؟

كان يحترق وهو يتحدث معي، وعيناه تتوهجان بألق غريب، لم أره قط بهذه الوسامة من قبل. كانت الشمعة تعكس ظله الكبير الرائع على الجدار. وفي يده مفتاح غرفتنا الذي طاله الصدأ عبر القرون. كان يتوهج مع انعكاسات شقراء.. أداره وأعاد دورانه بين أصابعه قبل أن يلقيه على سريره ويخصص لي ليلة من الأرق والحزن.

أجبت بصوت ضعيف:

– عليك أن تدرك أننا لا نؤذي في محبتنا بعضنا لبعض أحداً عدا مواجهة استنكار العالم.

قاطعني بغضب:

– هل أدينك؟ أنا؟ لا تخلط بيني وبين الآخرين. هل ستكون فتاة، هل أخاطبك بلغة مختلفة، كصبي وفتاة، ستكون المشكلة هي ذاتها تماماً. أنت تعرف ما أنتظره منك جيداً. أنتظر أن تكتشف بنفسك تفوق الحب النقي، الحب الحقيقي. بنفسك وليس تحت ضغط ما يُهمس حولنا. أنا لا أطلب منك أن تهين نفسك أمام ما يعتقده الآخرون، بل على العكس أريدك أن تكبر من خلال اكتشاف جمال وحقيقة الحب المتحرر من الروابط الأرضية. وإذا تحدث لودفيج معك بهذه الطريقة فذلك لأنه في أدنى درجات السلم الذي يؤدي إلى الحب. ولا يزال أمامه طريق طويل ليقطعه أكثر منك.

كرر وهو يسير بخطوات واسعة في الغرفة:

– أنا لن أتوصل إلى فهم كيف يمكنك تصديق أنني سأكون سعيداً بعرضك؟ لن يكون زهدك إلا انتصاراً للنفاق، ولن يكون انتصاراً للحب.

– لقد فكرت أيضاً بأننا يجب أن نتخذ احتياطات معينة طالما أن الشكوك لن تكون مكتملة تماماً.

– اصمت، نحن نعيش في الحب، نحن لن يكون علينا أن نطيع سوى الحب وليس نصائح الحذر.

– هل تتذكر عندما تبادلنا دمنا في حديقة والدك؟

– أتذكر، فرانز!

– أنت لم تحصل إلا على جرح طفيف. كان علي أن أغرس النصل بشكل أعمق، ليتدفق الدم بكثرة.

– كنت خائفاً. كان يمكن لوالدتي أن تفاجئنا. كيف كنت سأفسر لها هذا الجرح؟

– خلال هذا الوقت، شاهدت الدم يسيل. إذا كنت قد نظرت معي، بدلاً من القلق من أجل لا شيء، فربما تكون قد رأيت أنت أيضاً.

– ماذا رأيت يا فرانز؟ ماذا كنت سأرى معك؟

– لقد وضعت معصمي على العشب. تدفق الدم من الجرح وسال على الأرض التي امتصته تاركاً بقعة بنية. وكان صمت الصيف يرتجف حولنا في حرارة الظهيرة..

فجأة قال لي:

– حسناً، ألن تأتي؟

كنت سأبكي من السعادة على الرغم من أنه لم يتخل عن برودته المعتادة وغرق في النوم في أقل من دقيقة.

كانت كلمات فرانز التي استمتعت بها اليوم قليلة وغريبة بقدر ما هي رائعة. كان فرانز قد وضع حبنا بشكل نهائي بعيداً عن متناول حُكم البشر، في مجال حيث نكون مسؤولين فيه فقط أمام ضميرنا أو أمام الله..

الفصل السادس

في الطريق إلى أومبريا

أخيراً، جاء اليوم الذي صعدنا فيه مرتفعات الأبينيني بصعوبة عبر طريق مغبر، وغاصت نظراتنا في الجانب الآخر، نحو وادي التيبر.

نهر التيبر! الذي علينا اتباع مساره للوصول إلى روما، حيث نهاية رحلتنا والهدف النهائي لأي فنان جدير بهذا الاسم. توقفنا عند قمة الممر وألقى كل منا حقيبته على الأرض ليعانق جاره، وغلبتنا العاطفة جميعاً، وذرف بعضنا دموعاً.

بين الصنوبر وأشجار الزان، بدأنا في هبوط عدة مزارع، معزولة وصامتة بل بدت لنا مهجورة. رأينا على يسارنا بقايا قلعة عند مدخل قرية حيث ساد هدوء غير عادي على الرغم من ساعات الصباح الأولى وبرودة الجو. لم تكن هنالك عربة تتجول في الشوارع وكانت البغال تتململ في الإسطبلات، وكان كبار السن جالسين على عتبات منازلهم وهم يدخنون الغلايين ويحدقون في الأرض من خلال قضبان كراسيهم المقلوبة. كما شعرنا بعيون النساء وهي تتركز علينا من داخل البيوت، ولدى اقترابنا، اختبأن خلف ستائر النوافذ، ومن خلال فتحات الدانتيل، كن يلقين نظرات ملتهبة ومريبة علينا.

سأل لودفيج من دون أن يجرؤ على رفع صوته:

– ما الذي يحدث هنا؟ ألا يوجد هنا أحد غير الشيوخ والنساء؟

عندما خرجنا إلى الساحة الرئيسية، كان كونراد أول من شاهد في شرفة القصر البلدي علماً فرنسياً إذ كان يرفرف في الريح وينبسط بجرأة ألوانه الثلاثة.

صرخ كونراد:

- لقد كنت محقاً، لم يكن ينبغي علينا اختيار إيطاليا!

سأل فيلهلم:

- إلى أي بلد يجب أن نذهب؟ نابليون هو سيد كل أوروبا، وأكثر من أي وقت مضى منذ أن باع إمبراطورك ابنته له.

- إمبراطوري! وهل كان أداء حاكمك أفضل؟

- اخرس، كونراد، لا تهين ذكرى الملكة لويز.

كنا قد علمنا، قبل أيام قليلة، بوفاة الملكة لويز من بروسيا، وهو الخبر الذي أثر علينا جميعاً بشكل مؤلم. هذه المرأة الطيبة جداً واللطيفة جداً كانت تمثل في بلدها روح المقاومة ضد المحتل. كانت صديقة للفنون الجميلة وهي التي اشترت لقلعة شارلوتنبورغ اللوحات الثلاث لكاسبار ديفيد فريدريش التي كنت قد رأيتها في دريسدن في مشغل الرسام. كان فيلهلم يضمر لها إجلالاً خاصاً بسبب ظرف ذكره لنا، وبينما أشار كونراد إلى العلم الثلاثي الألوان، لحسن الحظ، لم يكن يقف هناك أي حارس تحت الشرفة. قال فيلهلم:

- في تيليسيت، جلست الملكة لويز في مأدبة السلام بين نابليون وألكساندر، وأخذت زهرة من صدرها وقدمتها إلى الإمبراطور الفرنسي ليتخلى عن جلب عربة الكدريجة من بوابة براندبورغ إلى باريس. وقالت بتوسل إلى الإمبراطور الجالس بجوارها:

- زهرة من أجل الكدريجة.

كان نابليون سعيداً بهذه الهدية التي قدمتها له امرأة شابة وجميلة للغاية لكنه أخذ الكدريجة.

قال كونراد:

- أنت ترى جيداً! لكن إيطاليا سقطت تحت نير الشر. وقد ضمت فرنسا ببساطة ولايات البابا لتصبح مقاطعتين فرنسيتين، ونحن دخلنا ضمن مقاطعة ترازيمين مع علم فرنسي... نحن إذن في فرنسا.

تدخل لودفيج في محاولة لتهدئة رفيقنا الشاب الذي لم يكن على ما يرام بينما كنا نشعر بالانتعاش قرب النافورة، وكان يتحدث عن تسلق الشرفة لتمزيق شعار الطاغية:

- وما هي المقاومة التي يمكن أن يقدمها البابا؟ ألم يحتج بيوس السابع بقوة ضد احتلال روما ومنع رعاياه من التعاون مع الفرنسيين؟ لكن نابليون قام باختطافه وترحيله إلى سافونا. لقد حطم رجال الدرك التابعون للجنرال راديه بوابات كويرينال المهجورة بالفؤوس للقبض على رجل مسن نصف عاجز، ولم يدافع عنه إلا فؤوس أربعين سويسري فقط.

أضاف كونراد:

- لكن الشعب لم ينهض! والنبلاء، هل كان لهم رد؟ النبلاء الذين عاشوا القرون في بلاط البابوات وحققوا الثراء من إيراداتهم؟

قال يوليوس الذي ظل صامتاً حتى ذلك الحين بصوت متهاون إن الدوق أونيستي براشتي، أمير نيمي، كبير أسبانيا، وحاجب ملك سردينيا السابق وابن شقيق البابا السابق بيوس السادس، الذي تم ترحيله أيضاً من قبل الفرنسيين، وافق على أن يتم ترشيحه من قبل الجنرال ميوليس كعمدة لروما، ثم أخبرنا بأن الأميرة تشيغي، زوجة رئيس واحدة من أعظم العائلات الرومانية، قد غادرت لتوها إلى باريس حيث ستكون وصيفة للإمبراطورة ماري لويز. كان يوليوس قد قدم لنا هذه المعلومات، كعادته، بنبرة ساخرة قليلاً، بحيث كان من الصعب معرفة ما إذا كان يستحسن أو يلقي باللوم على التحاق جزء من طبقة النبلاء الراقية الإيطالية بنابليون.

على الأرجح، كان يحكم بسخرية على تقلبات التاريخ، ويتسلى بالاعتقاد أن أعظم أسماء جوتا كانوا يتدافعون عند سفح عرش الشخص الذي جلبه الملوك هناك. ابن شقيق هذا البابا الذي أُعتقل في فرنسا وتوفي في المنفى كان يشغل الآن مقعد الكابيتول[33] بمباركة السلطات الفرنسية.

أضاف يوليوس مبتهجاً:

33- الكابيتول: هضبة كابيتولين، وتقع بين المنتدى وحرم مارتيوس، وهي واحدة من التلال السبع في روما وواحدة من أشهر وأعلى هضبات روما.

- حقيقة أن نجد أن ممثلي الطبقة الأرستقراطية العليا، الذين كان يجب أن يكونوا أشرافاً أكثر من أي طبقة أخرى، قد ارتكبوا هذه الأفعال الشائنة. وواصل يوليوس السباب والتشهير بوقاحة وجُبن المحتلين. كان يشدُّ فكيه، وكان يمكنك أن ترى جيداً أن الرغبة في الضحك من انتهازية دوق براشي لن تلطِّف أبداً وجهه الصغير المستدير والعنيد الذي تنتشر عليه بقع من النمش. قال:

- أتعرفون ماذا فعل الفرنسيون عند وصولهم إلى روما؟ لقد وضعوا القبعة الإفرنجية على رأس رئيس الملائكة ميخائيل الذي يعلو قلعة سانت أنجيلو. صحيح كما أقول لكم! كان رئيس الملائكة ميخائيل يرتدي قبعة حمراء. لم يكن هناك شغب قط، ووافق الرومان على رؤية رئيس الملائكة مشوهاً بشكل لا يستحقه. ومن كل مكان في المدينة، كانوا يشاهدون الشعار الدموي لأعدائهم مغروساً على رأسه، واحتملوا هذا السخط من دون أن يتمردوا.

قال لودفيج ضاحكاً:

- أنت تتطاول! القبعة الإفرنجية تعود إلى الاحتلال الفرنسي الأول، من زمن حكومة المديرين الفرنسية (الديريكتوار)[34] والثورة. ولن يسمح الجنرال ميوليس الذي يحكم روما اليوم، بمثل هذه المخالفات. لقد شرع في ترميم ميدان روما، ألا تتذكر محاضرة البروفسور مولشتاين؟ لقد قام الفرنسيون بالفعل برفع معبد الكونكورد وتخلصوا من أعمدة معبد فيسباسيان.

قاطعه كونراد:

- لماذا تقول ميدان روما؟ كل العالم يعرف أن الرومان منحوا المكان الذي كان مركز العالم الاسم المعيب كامبو فاسينو أي (حقل الأبقار)!

34- الديريكتوار: هي حكومة المديرين أو حكومة الإدارة وهو نظام سياسي فرنسي إداري اعتمد من قبل الجمهورية الفرنسية الأولى، من 1795 إلى 1799 وهي مجموعة تتشكل من خمسة مديرين، رؤساء حكومات تتوزع بينهم السلطة التنفيذية والوزارات، لتجنب الاستبداد والتحكم في السلطة، ومقرهم في قصر لوكسمبورغ.

لأنهم يرعون ماشيتهم بين الحجارة وحطام الأعمدة التي بقيت من معابد أجدادهم.

تابع لودفيج:

- بالضبط، قررالفرنسيون إعادة اسم وألق الميدان القديم، من خلال استئناف أعمال التنقيب وإظهار المعالم الأثرية لفيرجيل وشيشرون.

منزعجاً بالفعل من معرفة أن غضبه من قبعة رئيس الملائكة ميخائيل الحمراء أصبح موضع نقاش الآن، بدا كونراد ساخطاً عندما علم أن مغادرة الأبقار وإعادة ترميم المدينة سيكون من عمل غزاة فاغرام.

قال فيلهلم حينها وقد أصبحت نظرته أكثر قتامة وهيئته أكثر شراً من أي وقت مضى:

- أنا لن أثق بأن يقوم جنرال باستعادة أي شيء.

صاح فرانز:

- كيف؟

اندهشنا كثيراً وأدرنا رؤوسنا تجاهه لأنه نادراً ما كان يتدخل في مناقشاتنا السياسية. قال:

- أعاد الجنرال ميوليس، عندما كان حاكماً لمانتوفا، إحياء ديانة فيرجيل، من خلال صنع تمثال نصفي للشاعر. وفي فيراري، حيث يرقد رماد أرسطو في كنيسة، نظم نقله إلى مكتبة البلدية. وقد عاد رفات الشاعر المحجوز حتى الآن من قبل الكهنة بسبب تفاني المواطنين.

قلت:

- ونابليون، ألم يظهر دائماً تبجيلاً حقيقياً لروما في العصور القديمة. أنتم لا تستطيعون إنكار أن نابليون يعتقد أنه روماني في الروح. كان نابليون يستعد لغزو العالم من أعلى مبنى الكابيتول، وليس من قصر التويلري. كانت عاصمته الحقيقية هي روما، وليس من شك في أنه يعامل روما بحب خاص. سوف يسهر بنفسه على ترميمها. ألم يحاول تقليد مدينة القياصرة في باريس؟ كان قد أقام عمود تراجان وقصر فاندوم ومعبد النصر وساحة مادلين وأقواس النصر الرومانية.

لقد أعدم الثوار شينيه بالمقصلة في باريس وتوجوا فيرجيل في مانتو. نحن نحب مدينة روما العظيمة والجميلة حباً صادقاً، لكننا لا يمكننا إخفاء انزعاجنا من تصرف الفرنسيين مثل المخربين هناك، وأنا، ومن أجل العدالة، بدأت في الدفاع عن طاغية متمرس، مجازفاً بإهانة أحد أصدقائنا..

لقد أعطى لودفيج إشارة المغادرة فقد قال بحكمة إننا لن نستعيد هدوءنا ورباطة جأشنا مادام العلم الثلاثي الألوان يرفرف أمام أعيننا. كان الريف الأميري واحدة من أكثر المناطق المريحة والرائعة التي يمكن تخيلها. كان وادي التيبر يشكل سهلاً عريضاً إلى حد ما حيث ترتفع التلال المنحدرة برفق من كل جانب، وهي معرضة جيداً للشمس وتنتشر فيها المحاصيل، ويختلط العنب فيها مع الدردار، والطريق مليء بأشجار عالية، وقد تابعنا رحلتنا ترافقنا زقزقة مبهجة لآلاف الطيور. أزهرت أشجار الليمون وفاحت رائحتها، وبدا لي أننا نمشي بخفة أكثر مما كنا عليه في الأيام السابقة. كانت أبخرة التيبر تطمس الألوان وتخمد تألق الشمس، إنها تنعش قاع الوادي. لم نشعر بالتعب ولا الملل.. تقدم فرانز مبتسماً، وكان النسيم يداعب خصلات شعره دون أن يهتم بإعادتها إلى وضعها الطبيعي، لكني أخطأت في الاعتقاد بأنه لم يكن ينظر لما حوله باهتمام، ففي أول محطة، أخرج دفتر ملاحظاته من جيبه وبدأ بتدوين الأنواع المختلفة من الأشجار التي صادفتنا في طريقنا.

– هل سنجد الشيء ذاته في روما؟

– لا أعرف، فرانز.

– هل يجب أن أنتظر لتدوينها؟

– ابدأ دائماً، وسترى جيداً.

– ينبغي أن تكون لديّ فرصة للحصول على الموارد التي سأحصل عليها.

– ولكن، هل أنت واثق من أن لديك الفرصة لاستخدامها؟

– أوه فريدريش! لا تثبط عزيمتي!

– أنت تعرف أنني سأبذل قصارى جهدي للعثور على أرغن.

قال وهو يضغط على يدي بحنان:

- إيطاليا مليئة بأشجار الكستناء والبلوط. لم أكن أعرف أن هنالك أنواعاً كثيرة مختلفة من البلوط! سيكون الزيزفون ضرورياً لمفاتيح اللمس في الآلة.. يا له من عطر مسكر! إنه لأمر مؤسف أن خشب الصنوبر سيكون ملتوياً للغاية بحيث لا يمكن استخدامه.

- وشجرة الزيتون؟ سألته:

- شجرة الزيتون؟ هممم! إنه خشب صلد جداً. هل تعتقد أنه يوجد أشجار زيتون حول روما؟

- لا، فرانز، يا لها من فكرة!

- هل ستأتي معي لاختيار الأشجار في الجبل؟

كانت دعوته لي لمرافقته إلى الجبل تواسيني على كل المساءات التي لم نلتق فيها بمفردنا. اقترب منا يوليوس. كنت قد نسيت أنه كان علينا توخي الحذر وعدم عزل أنفسنا عن رفاقنا لوقت طويل. فمنذ المناقشة الأخيرة في أوروبينو، التي لم يشارك فيها ولم أسمعه يذكرها من قبل، كان يوليوس يتسلى بمناكدتنا بطريقة فضولية جداً. إنه ينادي فرانز بصوت رنان ليسمعه الجميع باللقب الذي اخترعه له: «الكرنب الصغير المجعد». إنه لقب سخيف لكن تأثيره واضح، إذ يمتلك فرانز شعراً منسدلاً مفصولاً بفرق وخصلات تتساقط على جانبي صدغيه، إنه ليس صغيراً ولا مجعداً، لكن «الكرنب الصغير المجعد» يدعو حتماً إلى الابتسام. فمن أي شيء يبتسم رفاقي عندما يسمعون يوليوس يدعو فرانز بهذا اللقب؟ من عبثية يوليوس؟ أم من أنوثة فرانز؟ هل سيتساءل لودفيج وفيلهلم وجوزيف دوماً عما إذا كانوا على حق في الشك في فرانز، فهذا الصبي الذي يقلقهم سيبقى لغزاً بالنسبة له، وهذا اللقب الذي اختاره لفرانز ربما ينتمي إلى قائمة المبالغات التي تجعل من الغلام السابق في بلاط النمسا، رفيقاً جذاباً ومزعجاً جداً في نفس الوقت.

على أية حال، وسواء رغب يوليوس بذلك أم لم يرغب، فإن «كرنب صغير ومجعد» خدمت حبنا بشكل كبير. كان رفاقي يشعرون براحة ضمائرهم عندما يتخيلون فرانز مثل الكرنب. إنهم لا يحلمون بالمضي في

اختباراتهم أكثر من ذلك، ولا بمعرفة ما يحدث في حجرتنا عندما نغلقها على أنفسنا طوال الليل؟

صاح يوليوس في الممرات: «مساء الخير، أيها الكرنب الصغير».. يبدو أن هذه المزحة تحمينا مثل تعويذة ضد شكوك الجزء الفاضل من نادي لوكاسبوند. واقترب رفيقنا بينما تابع فرانز الكتابة وهو يستخدم ظهري كمكتب. قال يوليوس بنبرة غريبة جداً: «أهنئكم» وهو ينحني أمامنا باحترام عميق بحيث يبقينا جميعاً في حالة تشويق بانتظار ما سيضيفه. أحنى قامته الطويلة واضعاً يده على قلبه، بينما أومأ بالأخرى بخلع غطاء رأس وهمي بحيث مسح الأرض لأكثر من مرة، وقد فعل كل ذلك بجدية غريبة كما لو كانت هذه القبعة مزينة بالريش الإسباني كأنه متملق ينحني أمام تشارلز الخامس. بعد انشغاله بهذه اللعبة، أية نكتة جديدة سيمتعنا بها؟ كنت أرتجف خوفاً مما سيقوله، لكن تعليم يوليوس النبيل، واستخدامه للمجتمع الراقي وأناقته الطبيعية منعته من التمادي في المزاح إلى ما هو أبعد من ذلك، ولم يقم بتزيين أعماله الإيمائية بأي تعليق مفضلاً الغموض على السخرية. ثم ألقى من جديد تحية احتفالية قبل أن يعود إلى مكانه الذي لم يتحرك منه حتى لحظة المغادرة. لم يتم تبادل المزيد من الكلمات وظل كل منا يبحث عن توضيح قدر استطاعته لهذا الإطراء الغامض.

كانت مدن أوميريا الصغيرة ساحرة وشبه مهجورة على الرغم من حلول وقت الحصاد. مدينة سيتا دي كاستيللو التي عمل فيها رافائيل في شبابه ورسم لها راية رائعة بحيث كان كونراد سيرغب باقتلاعها من مستشفى الرحمة لغرسها على واجهة البلدية بدلاً من العلم الفرنسي، وجوبيو التي نقلتنا شوارعها الضيقة وسلالمها الشديدة الانحدار، وقصورها الخالية من النوافذ، وأروقتها المضلعة إلى أجواء وتصاميم القرون الوسطى، وهو التصور الذي عززه موكب من النساء اللواتي كن يقمن بجولة في قصر سيجنوريا الذي تغطي نوافذه ستائر حمراء وذهبية. كنّ يحملن شموعاً بارتفاع ستة أقدام. كان اكتشاف صندوق رائع للأرغن مصنوع من الخشب المنحوت في كنيسة سان بيترو، قد شجع فرانز على الاعتقاد أن هذه الآلة لا تحتل في إيطاليا دوراً ثانوياً دائماً.

كنا على بعد بضعة أميال رومانية فقط من بيروجيا التي تبرز أسوارها وأبراجها وكنائسها على يمين النهر، على تل شديد الانحدار، عندما طلب فرانز التوقف وهو يلهث من التسلق الطويل. ونظراً لأن الطريق في هذه المرحلة لم يعد مظللاً، فقد اتخذنا مساراً قادنا بسرعة إلى غابة صغيرة من أشجار الزان والتنوب.

ما إن ألقينا حقائبنا على الطحالب، حتى سحب فرانز دفتر ملاحظاته مرة أخرى لتدوين مجموعة متنوعة من نبات الزان الإيطالي، وفجأة ظهرت أمامنا نصف دزينة من الأشخاص الملتحين والشريرين من خلف الأدغال وصوب اثنان منهما سلاحهما نحونا. كانوا يستخدمون بندقيات قديمة لا تبعث هيئتها على الاطمئنان. كان الشخص الذي بدا كأنه زعيمهم يتوشح ببندقية عريضة الفوهة. بدا الجميع شباباً أصحاء بشكل ملحوظ، على الرغم من الذقون التي كانت تلتهم وجوههم. كانوا يرتدون سراويل عريضة خشنة وقمصاناً حائلة البياض المصنوعة من الكتان.

سأل الزعيم مهدداً:

– أنتم فرنسيون؟

سارعت بالرد:

– أنا ألماني.

– أنتم أصدقاء؟

– نعم، نحن أصدقاء.

شرحت له بإيجاز من نحن ولماذا دخلنا إلى هذه الغابة، فأشار إلى اثنين من مساعديه أن يخفضا بندقيتيهما، لكن ذلك لم يمنعه من متابعة استجوابه لنا وهو مغروس بصلابة على ساقيه المتباعدتين على مسافة ستة أقدام تقريباً، وقد دفن إبهاميه في حزامه المليء بعدة صفوف من الخراطيش. ثم سأل بشكل مريب:

– ماذا كتب صديقك في دفتره؟

– أسماء أشجار متنوعة.

- أنت تمزح معي.

كان رده مصحوباً بإيماءة جديدة، أما الرجلان اللذان كان يصوبان بندقيتيهما نحونا فقد وضعاهما على كتفيهما، ومالا برأسيهما على أنبوبي البندقيتين متناوبين على التسديد نحونا.

- لكن لا، صرخت، فرانز، أرهم دفتر ملاحظاتك. سيدي، صديقي يجمع وثائق عن الغابات الإيطالية، نحن رسامون ألمان، كما أخبرتك، لكن صديقي يُصلح آلات الأرغن أيضاً.

هتف قاطع الطريق بسعادة:

- أرغن، أرغن!

بينما قام الآخرون بإلقاء بنادقهم على الأرض، والتفّت كل العصابة حولنا لتقبلنا وتعانقنا وتهنئنا.. قال:

- كنت عازف أرغن في القرية قبل أن تجبرني تلك الخنازير الفرنسية على الفرار. غداً سيكون حفل زفاف أختي، سيدي، لعنني الله إذا لم أرتكب مصيبة! سأكون جالساً أمام الأرغن عندما ستدخل إلى الكنيسة، ثق بأنطونيو!

قلت متشجعاً بحماسة إظهارهم مشاعر الفرح غير المتوقعة:

- أنت لست إذن، أنتم لستم إذن قطاع طرق؟

انفجروا من الضحك كما لو كنت قد تفوهت للتو بأكثر هراء في العالم! وقالوا: «لقد أخطأتم في الاعتقاد بأننا قطاع طرق»!

كان مرحهم يتضاعف في كل مرة يكررون فيها هذه الجملة، لكنهم استأنفوا جديتهم تدريجياً، وأعقب ضجيجهم صمت شديد، وبصوت حزين تماماً، ألقى زعيمهم هذه الكلمة الوحيدة:

- لاليفا، سيدي.

توقفت معرفتي باللغة الإيطالية عند عتبة هذا المصطلح. سألت فرانز ثم يوليوس فهزا كتفيهما فقد كان المقطع اللفظي غير مألوف لهما أيضاً.

أضاف الزعيم وهو ينفخ وجنتيه لتقليد النبرة المفخمة للمبلّغ الإداري:

- لاليفا، سيدي، ألا تعلم أننا استلمنا في 29 نيسان تبليغاً من محافظ

(تراسيمين) الفرنسي موجهاً إلى جميع الشباب المولودين في عام 1789؟ لقد أمر بمثولنا أمام رؤساء البلديات أو مفوض الشرطة فنحن مدعوون لتلبية شرف الخدمة في جيوش نابليون العظيم. وقد وصل التعميم إلى منازل المجندين، وكانت والدة فرانشيسكو، وهو واحد من أولئك الذين صوبوا بنادقهم ضدنا، وكانت عيناه قد تبللت في ذكرى هذا المشهد المؤلم، قد شعرت بالسوء عندما أدركت أن الدرك سيأخذون ابنها منها، أما بالنسبة له فلم يسامحهم على منعه من حضور زفاف أخته والعزف على آلة الأرغن في اللحظة التي تدخل فيها إلى الكنيسة، حتى إنه فكر بأنه إذا قرر كما وعد شقيقته العودة سراً إلى القرية لحضور الحفل على الرغم من كل شيء، فلن يكون ذلك بسبب اندفاع الحب الأخوي الذي لا يُقاوم ولا لتحدي السلطات الفرنسية، بل للانتقام من القرار الظالم.

راقبت رفاقي من زاوية عيني لأرى إن كانوا يحاولون مثلي خنق رغبة قوية في الضحك، لكني وجدت أن كونراد وفيلهلم، على العكس، كانا يتفحصان الزعيم بكثير من الجدية والاهتمام، صاح كونراد:

- هذا هو الأمر إذن، سيصبحون جزءاً من المقاطعات الفرنسية! ولديهم الآن التجنيد الإجباري، الأمر الذي سيدفعهم إلى الثورة.

أضاف فيلهلم:

- وقبل مضي وقت طويل، ستكون إيطاليا جاهزة لمرحلة انتفاضة وطنية.

أجاب كونراد:

- ربما، حتى قبل ألمانيا، صحيح كما أقول لكم!

عند هذه الفكرة بدأ يتحمس من تلقاء نفسه ويقفز في مكانه.

- اسأله، فريدريش، كيف يخططون لتنظيم أنفسهم؟ هل يأخذون أوامرهم من روما؟ هل ينتظرون إشارة للعصيان المسلح؟ حاول معرفة من أين يحصلون على أسلحتهم. الإنكليز، هل هبطوا على السواحل؟ هل خطة معركتهم جاهزة؟ هيا، قل لهم إننا أصدقاء، وإن نابليون طردنا من ألمانيا، وإننا نريد أن ننتقم نحن أيضاً.

لقد ركب رأسه من جديد، إلى أي جنون كان يريد أن يقودنا؟ أوصلتُ

أسئلة كونراد إليهم، لكني قدمتها بعبارات أكثر غموضاً وأقل عدوانية خشية أن يدعونا الرجال الملتحين المفتونين بحماسنا المناهض لفرنسا والبنادق في أيديهم إلى الانضمام إلى عصابتهم.

بالكاد سمعوا كلماتي الأولى، وتبادلوا نظرات مشدوهة فيما بينهم، ثم توسلوا إليّ أن أحدثهم بوضوح أكثر، وما إن تحدثت حتى اتسعت أعينهم وبدأت أفواههم ترتعش، وأخيراً، لم يحتملوا أكثر فانفجروا بالضحك.

- تمرد! معركة!

أصابتهم هاتان الكلمتان باختلاجات، كما لو كانت أطرف شيء سمعوه في حياتهم، بينما سألني كونراد مذعوراً لمعرفة ما يعنيه هذا الضحك غير اللائق. وعندما بدأ أنطونيو يتمالك نفسه، جعلني أكرر أسئلتي وهو يشهق.

- هل تعتقد أننا سننتفض ضد نابليون؟ هل تعتقد أننا سنشن حرباً ضد الفرنسيين؟

اختنق بالضحك مجدداً:

- انتم حقاً أيها الألمان....

تردَّدت في الفهم، وسحبت ساعتي لأعلن أن الوقت قد حان للعودة، ما لم يعِد كونراد الكرّة. قال لي:

- اسألهم، لماذا يعملون في الخفاء إذا لم يكن لديهم نيّة لتنظيم تمرد ضد الطاغية الفرنسي.

هذه المرة ترجمت بأمانة.

قال الزعيم لذلك الذي كانت والدته قد شعرت بالمرض عندما رأت الدرك يدخل مع تبليغ المحافظ:

- فرانشيسكو، أخبرهم أنت لماذا التجأت إلى الأدغال؟

تقدم فرانشيسكو خطوة وكانت عيناه السوداوان تتوهجان تحت حاجبيه الكثيفين. كان قد أعاد بندقيته إلى كتفه وهو يضغط بتشنج على عقبها بيده الخشنة:

- لقد التجأت إلى الأدغال، أعلن رسمياً، كي لا تموت أمي من المرض.

أضاف أنطونيو وهو يمد يده إلى خدي ويقرصه بلا تكليف:

- هل فهمت الآن؟ لكل منا هنا أم قد تموت من الألم إذا انفصلت عن ابنها. أليس لديكم أمهات، أنتم أيضاً؟ والأخوات اللواتي ينفصلن ربما بسبب الزواج؟ كيف تمكنتم من التخلي عنهن وتركهن وراءكم على بُعد آلاف وآلاف من الفراسخ في الجانب الآخر من الأنهار الواسعة والجبال العالية؟

عند هذه الكلمات، حدق فينا الملتحون بشدة، على الرغم من أنني أخفضت عينيّ.

تابع أنطونيو بالإيطالية وهو يشير إلى كونراد:

- أخبر صديقك، بأنه إذا كنتم ألماناً حقاً، فنحن إيطاليون حقاً.

بعد ذلك، وخوفاً من أن هذه اللغة المبسطة عن قصد لم تنقل أفكاره بالكامل، اختتم حديثه وهو يصوغ الكلمات بالإيطالية:

- لا نريد خوض الحرب.

مد الخمسة الآخرون أيديهم على الفور أمامهم كما لو كانوا يقسمون وكرروا في انسجام تام:

- لا نريد خوض الحرب.

لم أكن بحاجة إلى الترجمة، فقد ذكرتنا هذه الإيماءة جميعاً بقسم هوراس الشهير. وعلى الرغم من أننا نكره ديفيد، فقد درسنا لوحاته بعناية، ويمكن لكل منا، مع ردود أفعال متباينة، قياس الفرق بين هوراس الذي أقسم على القتال والموت من أجل بلده، وأولئك الإيطاليين في القرن التاسع عشر، الذين أقسموا على البقاء فقط في كمين في مخبئهم، بالقرب من أمهاتهم وأخواتهم. بالكاد أخفى فيلهلم ابتسامة ازدراء، بينما حاول كونراد، بسذاجته، أن يتذكر تلك النسخ الباهتة للرومان في ذكرى مجد أسلافهم فقال:

- أخبرهم عن رئيس الملائكة ميخائيل.

سأل أنطونيو:

- حسناً، ماذا، رئيس الملائكة ميخائيل؟

لقد ترجمت لهم بأن رئيس الملائكة ميخائيل سحب سيفه من غمده على قمة قلعة سانت أنجيلوف، وأن جميع الإيطاليين، الذين يطيعون هذه الإشارة، يجب أن يثوروا ضد نابليون ويحرروا بلادهم.

أجاب أنطونيو بسرعة بكلمات استغنيت عن ترجمتها لكونراد:

- ولكن، ماذا يقول هذا الأحمق؟ رئيس الملائكة ميخائيل لا يسحب سيفه، بل بالعكس، لقد أعاده إلى غمده بحركة قوية لأنه سئم القتال وتعريض نفسه للضربات. وعندما علم كونراد بأن القديس الراعي لروما يوصي بالحرب ولكنه يتوسل من أجل السلام، أحنى رأسه في اشمئزاز، وسمعته يهمس:

- إذن، أنا أستحق القبعة الحمراء!

بلا شك، ومن أجل مواساتنا على أخطائنا الفادحة بحق بطلهم القومي، فقد بدأوا في تقبيلنا مرة أخرى والتربيت علينا بمودة. بعد ذلك، طلبنا الإذن لمواصلة رحلتنا، إذ كان ينبغي علينا السير لفراسخ عديدة قبل حلول المساء. لكنهم لم يسمحوا لنا بالذهاب حتى أعطاني أنطونيو منديلاً أصفر وأبيض مرسوماً عليه تاج ومكتوبةً عليه شعارات البابا، فهذا المنديل سينفعنا كملاذ في حالة اصطدامنا بعصابات أخرى من المتمردين. أخيراً، اصطحبونا إلى الطريق ولوحوا لنا بقبعاتهم المصنوعة من القش والشرائط الحمر.

وفي جميع القرى التي مررنا بها بعد ذلك، ظهر المشهد ذاته أمام أعيننا، شوارع مهجورة، رجال مسنون على عتبات الأبواب، نساء في الداخل يجلسن أمام نوافذهن لرؤية ما إذا كنا عملاء فرنسيين أرسلهم الطاغية.

الفصل السابع

آسيزي

لو لم يدعُنا واجبنا إلى الذهاب إلى روما، لكنت أود أن أعيش وأرسم من هنا، فالقديس فرانسوا هو القديس الوحيد في الفردوس الكاثوليكي الذي يسعدني، والوحيد الذي يستطيع إرضاء اللوثريين، ألم يعترض في القرن الثالث عشر على انحطاط الكنيسة الرومانية، ولكن ليس لديّ سبب لأكون ممتناً له بشكل خاص إذا كان قد تصرف باسم الأخلاق، كان قد أزعج العقيدة والعادات الكاثوليكية من أجل بهجة الحياة، بهجة الحياة التي لا تزال تتألق في شوارع قريته الشديدة الانحدار، فكل المنازل وردية، كما لو أن الحجارة ذاتها تريد الاحتفال والزهور التي تنمو في فجوات الجدران تزخرف الواجهات الكالحة بزينتها المتعددة الألوان.

وجدنا سكناً في دير سان داميانو فتحه لنا الراهب الوحيد الذي بقي بعد طرد الرهبان. كان معلقاً وسط المنحدر بين السماء والقرية، وسط بساتين الزيتون، ويُعد أقدم ملجأ للقديس فرانسيس.. كانت الكنيسة مسودّة من الدخان وقاتمة، ولا تظهر إلا من خلال الباب، وكانت المباني المكونة من طابق واحد تنتظم حول دير يرتكز رواقه المربع على أقواس مضيئة.

لم نتمكن من كبح جماح صرخة دهشة أمام البساطة الساحرة لهذه المشاهد. كانت كل الحجرات تطل على الدير، وكان باستطاعة فرانز، وهو ينحني على النافذة، ملامسة قرميد الإفريز الذي لا يزال رطباً. إنه يحمل نفس اللون الورديِ للحجر. لقد تأكدت أن المفتاح الذي رأيته معلقاً على مسمار

بجوار المدفأة يناسب قفل الباب. دعاني فرانز إلى النافذة وتبادلنا النظرات، شاهدنا الآبار الحجرية القديمة وبكراتها الخشبية، الزهور التي بدت بحالة جيدة، والعشب المقطوع مؤخراً، والأروقة التي استولى عليها الظل، وخط السرو الذي ينتصب فيما فوق السقف.

أشار لنا رفاقنا من النوافذ الأخرى بأنهم جاهزون، ونزلنا لننضم إليهم على عتبة الدير حيث كان نسيم المساء يحرك الأوراق الفضية لأشجار الزيتون. تسلقنا منحدراً شديد الانحدار بين سياجين من شجر السرو الأسود. وكان العلم الفرنسي يرفرف فوق جدار السور. آسيزي: يا لها من غالية ولطيفة! ويا لها من عذوبة صوفية غامضة.

تولى لودفيج سرد الوصف التاريخي لإيطاليا الذي كتبه وورنر. لقد أحصى لنا الكنائس: سانتا كيارا، سان روفينو، لامنيرفا التي احتفظت واجهتها بأعمدة المعبد الروماني الذي حلّ محله المبنى المسيحي.

حلّ الليل عندما وصلنا إلى الجزء العلوي من القرية تحت القلعة المهدمة، وعلى حافة الطريق، وبين كتل العشب، كانت مئات من اليراعات البراقة تلهو كأنها تمارس رقص الباليه بشكل رائع لتثير انبهارنا لفترة طويلة، فقد تقافزت حولنا متوهجة ثم اختفت في الظلام لتتوهج مرة أخرى بعيداً. حاولنا عبثاً أن نمسك بعضاً منها.. من أين يحصلن على ضيائهن؟ إنها تبغي الحفاظ على سرها ولا ترغب أن تصبح أسيرة. إنها تتراقص يميناً ويساراً وتتوهج في الظلام لكنها تنطفئ مثل المصباح بمجرد أن نبسط أيدينا، لاحقناها لوقت طويل تحت أسوار لاروكا، وكان فرانز هو الوحيد الذي ابتهج لتأملها، فربما يكون التأمل النزيه هو بالفعل أفضل طريقة لالتقاط إشاراتها الغامضة.

كان علينا زيارة كنيسة سان فرانشيسكو لمشاهدة لوحات جيوتو الجدارية، لكننا نقف الآن أمام لوحات أسلافه في الكنيسة الداخلية، وقد أدركت أن تصوير حياة القديس فرانسيس ومعجزاته لم يزود الرسامين فقط بموضوع جديد وأسطورة جميلة، بل أجبرهم على الرسم بشكل مختلف. كان القديس فرانسيس هو الوحيد الذي قال، بعد قرون من التكفير عن

الذنب والتقشف في العصور الوسطى، إن العالم كان جميلاً، وإن الحياة كانت جيدة. وإذا كان العالم جميلاً فلابد من تقديمه في اللوحات الجدارية، أي استبدال السماء الزرقاء والمناظر الطبيعية بالخلفيات الذهبية للرسم البيزنطي. وإذا كانت الحياة جيدة، فعليك أن تتركها تغزو جدران الكنائس، وإذا لم يعد الرجال مجرد خطاة ومذنبين مرفوضين بل مخلوقات أخوية تستحق المحبة، فلابد من رسمها بالحب.

أعدت اكتشاف المشاعر التي عشتها في رافينا. كانت قشات العشب الأكثر ضعفاً تثير اهتمام القديس فرانسوا. كان يتحدث إلى الطيور، ويقوم بترويض الذئب إذ كان على الرسامين تصوير الطيور والذئاب. كانت هذه الطيور تحط على الأشجار وكان على الرسامين أن ينظروا إلى الأشجار ليتعلموا كيفية إعادة إنتاج الجذع والأغصان والأوراق، كما أقام القديس فرانسوا طقس مهد ميلاد المسيح. وقد شكل ذلك التزاماً جديداً بالنسبة للرسامين، إذ بات عليهم تصوير الحمير والثيران والمولود الجديد والإسطبل والقش. لقد جعل نبع الماء يتدفق من صخرة، وها هي الصخور والماء الجاري من الينبوع، ومشهد جبل ريفي ترقى جميعاً إلى التميز الفني. لقد تم تقليص الكون إلى مجموعة من الرموز حيث لا توجد الأشياء إلا في التسلسل الهرمي والأرقام كنوع من الرسم البياني للتناغم السماوي. لقد كان القديس فرانسوا هو الأول الذي منح امتياز الحياة الشخصية لأدق تفاصيل الخليقة إذ أدرك القيمة الخاصة التي لا يمكن الاستغناء عنها لكل كائن بشري، ولكل حيوان، ولكل شيء، فكل ما جاء من يد الله كان له هوية ساحرة في عينيه. لقد حقق الرسامون تقدماً مذهلاً في هذه المدرسة من الحنان الأخوي، وأعقبت الواقعية الملموسة الخلابة والمتنوعة التجريد الجامد للأيقونات. لقد كشف لهم فرانسوا جمال الحياة وثراء الكون وتنوع العالم الذي لا ينضب وقد نقلوا هذا الاكتشاف بفرش الرسم من خلال اختراع الفضاء والمنظر الطبيعي واللون والضوء والبهجة.

وربما كان فرانسوا قد فرض نفس الثورة على الشعر والموسيقى، فقد كان يغني هو ذاته على الطرقات وألّف (نشيد المخلوقات)، وبدأ الشعراء والموسيقيون الذين على غراره بتمجيد الحياة، كل الحياة.. هل من المؤكد

أن فرانسوا كان قد مجد كل الحياة؟ هل كان يعتز بعمل الله؟ لا يمكن أن يكون ذلك الذي مجد جمال الكون قد سمح لنفسه بمثل هذا الاستثناء الفظيع، استثناء الحب، لا أريد أن أصدق أنه، من بين كل الأفراح التي منحنا الله إياها، يتم استبعاد أكثر الأشياء عفوية والأكثر طبيعية.

في الكنيسة السفلية، فوق المذبح، تظهر فضائل القديس فرانسوا، إذ تبرز العفة في ملامح امرأة شابة سجينة في برج. إنها صورة سخيفة قليلاً. فهل ستكون العفة سجناً إذن؟ ولكي تظل عفيفاً، يجب أن تعزل نفسك عن العالم؟ تبدو لي هذه «الفضيلة» غير فرنسيسكانية تماماً، وإلى جانب ذلك، كان يتم معاقبة الرسام لإساءة فهم رسالة فرانسوا للحب والحنان، فلا شيء أكثر انحرافاً وأكثر قسوة من هذا البرج وهذه السجينة.

اتخذنا قراراً بالإجماع أن يقرأ كل منا بدوره حياة القديس فرانسوا. كان فرانز قد حصل على نص إيطالي وحصل لودفيج على منشور ألماني، بينما بدأ جوزيف القراءة في دير سان داميانو أمام الآبار. ويبدو أن فرانسوا قد قضى شبابه في الفسق والفجور، إذ كان ابن تاجر أقمشة ثري وقد زرنا منزله الواسع والفاخر.. كان ينفق ببذخ ويرتدي ملابس جميلة ويمتطي خيولاً باهظة الثمن. كان يلعب في السباقات ويسكر في الأعياد مع رفاقه في المتعة.

سأل لودفيج:

– وماذا عن النساء؟ هل لديه علاقات؟

أجاب جوزيف:

– النص لم يذكر النساء.

ألمح يوليوس قائلاً:

– إنه احتشام القديسين.

قلت:

– في رأيي، فإن تبدل رأي القديس فرانسوا قد يكون أقل إثارة للاهتمام إذا لم يكن لديه عشيقات أولاً...

سأل فرانز الذي كان يتابع النص الإيطالي:

– لماذا؟ أليس من الأجمل أن تفكر أنه حتى في منتصف اعترافاته كان قد خطط ليظل نقياً.

«أية لغة! لم أستطع أن أمنع نفسي من القول، صحيح أن كلمة (نقي) في التصوف الشرقي ليس لها نفس المعنى الضيق إلا لدى الكهنة».. لاحظ يوليوس حركة نفاد الصبر التي أفلتت مني عند سماع هذه الكلمة، ولاحظت ابتسامة واضحة عند زاويتي شفتيه، أما فيلهلم فطرق الأرض بقدميه ليطالب بالصمت وقال:

– لقد تحدث المسيح المصلوب في كنيسة سان داميانو ذات يوم إلى الشاب، فركع على ركبتيه مصعوقاً من رحمة الإله، وقرر أن يتخلى عن كل شيء كان يملكه، وكان لتغيره تأثير كبير، بعيداً عن بيروجيا وسبوليتو.

نبهه يوليوس قائلاً:

– لأنه كان من عائلة ثرية، ولو كان قد ولد فقيراً، لما اضطر إلى التخلص من أي ممتلكات، وكان تبدله سيمر من دون أن يلاحظه أحد.

كانت هذه الملاحظة حكيمة ومع ذلك لم تجد قبولاً من رفاقنا. طلب فيلهلم من جوزيف السماح له بالاستمرار حتى نهاية الفصل وعدم مقاطعته في أي وقت، فوافق على الاقتراح، واستأنف جوزيف القراءة:

– قام والد فرانسوا، الغاضب من قرار ابنه بجره أمام محكمة يرأسها الأسقف. جرت الجلسة في الساحة العامة أمام كنيسة سان روفينو. ولدهشة القرويين، لم يؤكد الشاب عزمه على العيش من الآن فصاعداً مثل الفقراء، بل بدأ بالتجرد من ثيابه. خلعها كلها واحداً تلو الآخر وألقى بها عند قدمَي والده المصاب بالذهول. في البداية، ظل عارياً أمام الحشد بعد أن احتفظ بلباس داخلي فقط فاقترب منه الأسقف وغطاه بردائه.

صرخت غير قادر على التراجع أكثر من ذلك:

– هذا خطأ!

سأل جوزيف وهو يرفع رأسه:

– ما هو الخطأ؟

قال لي فيلهلم معترضاً على مقاطعته:

- أنت وعدتني بعدم المقاطعة.

كررت بقوة:

- هذا خطأ! لقد تم تحريف عبارة «لم يحتفظ إلا بلباس داخلي».

مرَّرَ جوزيف كتابه لنا الذي انتقل من يد إلى يد.. يمكن للجميع إذن أن يرى أن الجملة المقصودة لم تكن من اختراعه.

كان على وشك استئناف الفصل، عندما قاطعته مرة أخرى:

- دعونا نرى ما يقوله النص الإيطالي. فرانز، ترجم لنا ما تقرأه.

عثر فرانز على المقطع، ولكن وبدلاً من قراءته بنفسه، احمَرّ خجلاً وسلمني الكتاب.

قرأت بصوت عال: «في النهاية، بعد أن خلع ملابسه كلها وظل عارياً تماماً أمام الحشد»، هزّ فيلهلم كتفيه متذمراً من أن الاختلاف كان تافهاً.

قلت:

- مستحيل! اطلب من يوليوس أن يُظهر لك الكلمات في النص الإيطالي فالتعري الشامل لفرانسوا لم يكن له أي معنى إلا إذا ظل الشاب في النهاية عارياً تماماً. لماذا خلع ملابسه؟ ليظهر أنه لا يريد أن يدين لوالده بأي شيء بعد الآن. فمن الآن فصاعداً، لم يعد إلا ابن الله فقط. لقد ولد من جديد، ولإحياء ذكرى الولادة الجديدة ظهر عارياً أمام الحشد، هل سيهتم الله إذا علم بأن أولاده يرتدون ملابس داخلية؟ الحشمة، واللياقة، هي قيم إنسانية واجتماعية حصرية. وبمحافظة فرانسوا على الاحتفاظ بلباس داخلي، فنحن نريده أن يطيع القيم الإنسانية والاجتماعية بينما أعلن للتو أنه سوف يطيع الله فقط.

اعترض فرانز:

- ولكن، لقد خاطر بصدمة الجمهور بجدية من خلال عدم احترام الحد الأدنى من الحشمة.

أجبت، تحت نظرة يوليوس الساخرة:

- وأنت تعتقد أن كل شيء لم يكن صادماً وفاضحاً في حياة القديس فرانسوا؟ لماذا كان سيتخلى عن كل مظاهر المال والرفاهية والطعام الجيد والكسل ويحترم فقط نفاق الجنس؟

قال لودفيج:

- احذر من التسرع بعض الشيء في الحديث عن النفاق لأنه أراد الاحتفاظ بلباسه.

- لم يكن يريد ذلك! لم يحتفظ بأي شيء، يجب ألا نثق بهذه السيرة الذاتية التي خفف من لهجتها أحد هؤلاء الذين كانوا سيشعرون بالفضيحة لرؤية فرانسوا عارياً أمامه.

قمنا مرة أخرى بمقارنة النسختين لكننا لم نعثر على أي دليل لمصلحة النسخة الأصلية.

- ما هو مؤكد وفق الفطرة السليمة لابن مزارع الكروم لودفيج، هو أن المحاكمة جرت في الساحة العامة، وقد حدث أحد أمرين، فإما أن يكون فرانسوا قد حافظ على سرواله الداخلي، أو خلع كل ملابسه.

قال يوليوس ضاحكاً وأضاف بمرح أنه كان يعرف ربما طريقة لبتّ المسألة:

- نحن هنا على الطريق الصحيح!

- وكيف؟ أخبرنا، سارعوا إلى سؤاله، بينما كنت أرتجف خوفاً من مزحة جديدة.

قال يوليوس:

- هنالك واحد بيننا يجب أن يشعر بأنه أقرب إلى فرانسوا وأنه سيخبرنا ربما بما كان سيفعله لو كان في مكانه.

- ومن بيننا سيكون أقرب إلى فرانسوا؟

- الذي يحمل اسمه، فرانز، بالطبع.

تركزت أعيننا جميعاً على فرانز الذي كان يجلس القرفصاء على عتبة الآبار متظاهراً بفك شفرة صفحة من كتابه المكتوب باللغة اللاتينية. وفي الصمت الذي أعقب ذلك، كفّ يوليوس عن الاهتمام وقال بصوت لا مبال:

– هل كنت ستحتفظ بلباسك الداخلي، فرانز؟ أم ستكون عارياً تماماً.

احمرّ فرانز من الخجل بعنف، وانزلق الكتاب من حجره وسقط على العشب.

رد يوليوس بابتسامة قاسية:

– عليك أن تعرف فرانز ماذا كنت ستفعل في مثل هذا الظرف؟ هل ستظهر عورتك؟ أم إنك ستخفيها عن البشر؟ وأضاف متوجهاً إليّ:

– لأننا علينا أن نؤمن بأن هؤلاء الذين يخفونه عن الناس يحتفظون به لله. هل أنا مخطئ يافريدريش؟

إلى أي مدى قد تصل وقاحته؟ بعد أن شعرت بالاحمرار من الخجل بدوري، لم أعد أعرف كيف يمكنني أن أخفي اضطرابي. بدا لي أن رفاقنا سيكتشفون أن لهذه الكلمات معنى مزدوجاً. لكنّ يوليوس، الذي يعشق إثارة الارتباك مع حفاظه على ذوق دبلوماسي للغموض والوهم بسبب إقامته في البلاط، منحني نعمة عدم الإصرار.

فجأة، ضرب رأسه وأعلن أن هنالك طريقاً أكثر بساطة:

– دعونا نذهب لنرى كيف مثّل الرسامون هذا المشهد.

عدنا إلى كنيسة سان فرانشيسكو وفي الكنيسة السفلية حيث اختار الرسام الأول لحياة القديس فرانسوا اللحظة التي قام فيها أسقف آسيزي بتغطية الشاب بعباءته. كانت كتفاه وجذعه تبرز من الثوب، ولكن لا يمكننا تخمين ما إذا احتفظ أو لم يحتفظ بلباسه الداخلي، وقد راودنا نفس الشك أمام لوحة جيوتو الجدارية في الكنيسة العلوية. كان فرانسوا عارياً حتى خصره. ومع ذلك، ومن الطريقة التي كان يمسك بها العباءة بإحكام ساحباً طرفيها نحوه خوفاً من تركها تسقط، فمن الواضح في رأيي، أن حديث التنصّر[35] لم يحتفظ بأي شيء تحته.

وافق نصف رفاقي على رأيي، وتردد الآخرون، ولتجنب الاعتراف بأن القديس فرانسوا لم يكلف نفسه التزام قواعد الحشمة، وبأن الحكم البشري

35– حديث التنصر: هو الداخل الجديد إلى الديانة المسيحية.

هو وحده الذي يجعل من العري جريمة، ابتعد فرانز أثناء المناقشة ثم عاد ليطلب رأينا في التفاصيل التي بدت له مثيرة للفضول للغاية.

في اللوحات الجدارية التي تسترجع حياة القديس قبل تحوُّلِه، يبدو لون ردائه الكهنوتي حائلاً تقريباً، وعلى العكس من ذلك، فإن رداء الراهب المنزلي قد ظل على حاله عبر القرون. نظرنا بدورنا: لم يتبق في الواقع من أثواب القديس فرانسوا إلا بضع بقع زرقاء على خلفية بنية.

- هل عمل جيوتو باهتمام أقل على مشاهد حياة المجتمع؟ كم هو جميل أن يفكر بأنه اكتشف عملية قادرة على التعبير عن قداسة الراهب من خلال عدم فساد ثوبه.

قال يوليوس:

- أنت تأخذ رغباتك على أنها حقائق وغالباً ما تكون بارعاً في وضع تلميح ماجن. لقد تم الحفاظ على الثوب المنزلي جيداً لأنه تم تنفيذه على لوحة جدارية مع ألوان مخففة بالماء على طبقة من الكلس والرمل الطازج. وبالنسبة لزرقة السترة، فقد استخدم جيوتو مسحوق اللازورد وبسطها حتى تجف لحفظ هذه المواد النفيسة، وتم تنفيذ اللوحة الجدارية وجفّ الدهان ثم فقدت بريقها بعد أن كانت أكثر ثراء في البداية.

بعد أن قرأ لودفيج في الدليل أن لوحات جدارية أخرى عن حياة القديس فرانسوا كانت تزين كنيسة بالقرب من آسيزي، غادرنا إلى مونتيفالكو، وهي قرية تقع على الجانب الآخر من الوادي. أسعدنا السير لمدة ساعتين. كان بينوزو غوزولي قد غطى صدر المحراب بلوحات جديدة ورائعة وبأسلوب أكثر حداثة. لقد عرضوا علينا مجموعة من الملاحظات المثيرة للاهتمام. بعد جيوتو بقرن ونصف، شهدت أسطورة فرانسوا تغييرات كبيرة، أما بالنسبة لقراره فيما إذا كان عارياً تحت عباءة الأسقف فإن الصعوبة ستظل كما كانت في آسيزي. لنفترض أنه لم يخجل من جسده، فلم يظهر أي من الذين امتدحوا فضائله بنفس الحرية.

اجتزنا في طريق العودة ضيعة سبيلو الساحرة، فأوقفنا عند مخرج القرية حشد كبير من الفلاحين أحاط بعربة لمنعها من المضي قدماً. شق رجال الدرك

الذين تقدموا من كل جانب طريقهم بصعوبة بين صفين من المجارف والمذاري التي كان يلَوّح بها المزارعون بينما كانت النساء الراكعات على ركبهن يرفعن أذرعهن إلى السماء. ومن جميع الطرق الجانبية، تأتي فلاحات أخريات يضعن وشاحاً على أكتافهن.. كنّ يركعن، يعصرن أيديهن، وينهضن ثم يعاودن الركوع على العشب ثم يصرخن ويبكين ويطلقن اللعنات أو يكتفين بالأنين.

واقفاً على العربة ومتشبثاً بحافة المركبة بيد واحدة، كان كاهن سمين يقفز ويرتَجُّ كرشه الضخم مع كل قفزة وهو يرتدي ثوباً كهنوتياً ضيقاً يلتمع عليه صليب ذهبي ويومئ بيده الحرة إيماءات كبيرة لمباركة الحشد.

صاح الضابط الفرنسي الذي يسبق الموكب وهو يلَوِّح بسيفه العاري:

- أوسعوا دعونا نمُرّ.

رفع الدرك أسلحتهم وهم يضعون أصابعهم على الزناد.

ردد سجين العربة بصوت عذب، وهو يلَوِّح بيده على قطيعه. لقد سار معلمنا على طريق الصليب قبلنا. ربنا يهبنا نعمة اختبار أنفسنا.

- والدنا، لا تتخلّ عنا.

بدأت النساء ينتحبن تحت أوشحتهن السوداء وهن يزحفن على ركبهن على طول طريق العربات لرؤية العربة لوقت أطول.

واجهنا صعوبة كبيرة في الحصول على بعض المعلومات. كان الجميع منزعجين جداً بسبب إلقاء القبض على أسقفهم و(العربة) غير اللائقة التي تم نقله فيها إلى السجن لدرجة أنه لا يمكنهم سوى التمتمة بنفس الكلمات:

- «أسقفنا...يالها من وصمة عار»

مرة أخرى، سمعنا مزيجاً من التنهدات واللعنات والأنين والدموع.

أخبرنا شاب فرنسي يرتدي ملابس أنيقة بأن تسعة من أساقفة أومبريا الاثني عشر كانوا قد رفضوا أداء القسم لنابليون. لقد تم اقتياد أسقف آسيزي إلى سبوليتو عاصمة المقاطعة وسيرافقه م. روديرير محافظ تراسيميني حتى روما. أما الآخرون المحتجزون بالفعل في قلعة سانت آنج فينتظرون ترحيلهم إلى فرنسا.

أخبرت كونراد أن رئيس الملائكة سانت ميخائيل قد غيّر رأيه وقرر سحب سيفه من غمده. لأننا لا نشعر بالرغبة في المزاح بمواجهة أسى هؤلاء الناس الفقراء الذين يرون أنه تم القبض على خليفة الشخص الذي أوى القديس فرانسوا تحت عباءته كمجرم. وفي آسيزي، وجدنا كل السكان يبكون بينما أكمل الدرك الفرنسي إخلاء دير سان فرانشيسكو الكبير.. إنهم يدفعون أمامهم حبالاً ضخمة تتعثر على الحصى. لقد قاموا بالفعل في الأسابيع الماضية بمطاردة رهبان المؤسسات الأقل أهمية مثل سان داميانو، ولم يتجرأوا على مهاجمة سان فرانشيسكو لأنه، على العكس من إيطاليا في الشمال، حيث تم إغلاق الأديرة لفترة طويلة ولكن من دون الإضرار بالاقتصاد المحلي، كان الرهبان في ولايات البابا يعيشون معوزين.

أطلعنا الشاب الفرنسي الذي أرسله رئيسه الحاكم السابق روديرير من سبوليتو ليسهر على (تنظيف) آسيزي، على مخاوفه. كان أول من استنكر سياسة نابليون الدينية. وفي الولايات البابوية، لم تكتف الراهبات بتوزيع الحساء والخبز اليومي على آلاف العاطلين عن العمل، بل قمن بتنظيم المعونة وإدارة المستشفيات وضمان تعليم الأطفال، وتوفير الزبائن الرئيسيين للحرفيين الذين طلبوا منهن ترميم معدات العبادة أو لإثراء كنائسهم. ستكون عواقب المصادرة وخيمة. لقد فقد الرهبان منذ وقت طويل الاتصال بعوائلهم، ولن يكون لديهم منزل لاستقبالهم، وبعد أن قللوا من التسول، سوف يتضخم عدد الجياع والساخطين، إذ يشك أنهم سينضمون في الجبال إلى أولئك الذين لم يخضعوا للتجنيد العسكري والكهنة الذين رفضوا القسم. ليت بيوس السابع، المحتجز في سافونا يبتهج!

إن هذه الإجراءات التي تم اتخاذها على عجل، وتم تطبيقها بشكل عشوائي، لا تؤدي بالتالي إلا إلى تعزيز هيبته، لكن الرعايا القرويين لم يعد لهم كاهن. وفي قرية بالقرب من سبوليتو، رفض شابان مدنيان العيش بشكل زوجين بسبب عدم حصولهما على البركة الدينية التي لا يستطيع القس الذي تم إخلاؤه إلى بياتشينزا في لومباردي منحها لهما. وفي أقل من نصف ساعة، أصبح أسقف آسيزي السمين شهيداً.

اعترف فيلهلم بأن مصادرة الأديرة ستسمح بإعادة تنظيم الاقتصاد في

ولايات البابا. كانت ستة أعشار الثروة في أيدي رجال الدين والتجمعات الدينية. قال لنا الشاب الفرنسي الذي يصعب معرفة ما إذا كان يدين طرد الرهبان وترحيل الكهنة لأنهم يجَوّعون رعايا البابا أم لأنهم يضعفون سلطة نابليون:

– لقد تأملنا من حيث الجوهر أن تصبح هذه المصادرات إثراء للمجتمع، ولكن وفقاً للنتائج الأولى التي حصلنا عليها فالأمر على العكس تماماً، إذ تتكون الممتلكات المصادرة في معظمها من الممتلكات الريفية ولا أحد يظهر لشراء الأراضي. كان بيوس السابع قد هدد المشترين بالحرمان فلم يزرعوا وعادوا بلا زرع. وفي الفناء أمام ديرسان فرانشيسكو، احتشد الرهبان المطرودون أمام سياج الدرك. واندفع حشد من المزارعين والأطفال الذين يرتدون الأسمال البالية ليقبّلُوا أقدامهم العارية ويلمسوا أطراف ثيابهم. كان أغلبهم بدينين ومرفهين ويوزعون الصدقات على هؤلاء الناس الفقراء، وهي صدقات لم تكن تكلفهم كثيراً. سيكون من الجنون بالتأكيد أن يعتمدوا عليهم لرفع مستوى التمرد. ولن تشتعل ثورة ملكيين جديدة في إيطاليا.

تابعنا على الطريق الذي يهبط نحو الوادي مجموعة الرهبان الفرانسيسكان المنفيين. أحصينا منهم ما يقرب من ثلاثمئة. إنهم يجرجرون أقدامهم الحافية من المشي لمسافات طويلة في الأخاديد بسبب حياتهم المنعزلة والناعمة. كانوا يئنون بلا توقف، والآن، وبعد أن فقدوا رفاهية الدير، هل يعتقدون أن الله يعاقبهم على جريمة إيذاء أمهاتهم لأنهم كسروا قلوبهن بتركهن وحبس أنفسهم في الدير؟

الفصل الثامن

ليلة سان داميانو

سانتا كيارا: هي كنيسة وردية تتكئ على أقواس كبيرة تمتد فوق الساحة، وكلير هي فتاة شابة من «عائلة جيدة» قام القديس فرانسوا بهديها، فقررت أن تحذو حذوه. تركت عائلتها وارتدت لباس رداء الرهبان، فقد بالغ القديس فرانسوا في رعبه من الجسد ونفوره من النساء، لدرجة أنه لم يستثن الراهبات.. منع أتباعه من الاقتراب من الفتيات أو التحدث إليهن. وفي نهاية حياته، كان مريضاً ومنهكاً بسبب الحرمان ووافق على تناول الكعك الذي تركته له القديسة كلير بعد أن صنعته له بيديها في برج ديرها.

كان هذا المشهد واحداً من أكثر المشاهد التي متتني، ربما لأن حلوى اللوزية من ريالتو التي أعطيتها لفرانز في حجرتنا في سان زكريا في البندقية كان لها دور حاسم في قصة حبنا. كان القديس فرانسوا، الزاهد الذي يتغذى على الأعشاب والفواكه البرية التي يتم جمعها من الحقول، قد تم التغلب عليه بواسطة الدفق السكري، وهو قريب الشبه من الدفق الصوتي.

اليوم توجهنا إلى قمة سوباسيو، الجبل الذي يطل على آسيزي، وقبل الوصول إلى القمة، قمنا بزيارة صومعة كارسيري في واد ضيق وبري، حيث اعتاد القديس فرانسوا على الاعتكاف في بنايات مدفونة في ممر ضيق، في غابة كثيفة من خشب البلوط والزان.

يمتد الجذع الكثير العقد والمفلوق يبلوط أخضر قديم عبر السيل، ويبدو أن تاريخه يعود إلى عصر القديس، وفي كل عام، تخضرّ البراعم بين شقوق

اللحاء وتجعل الحمائم ذات البياض الطاهر من هذه الشجرة مجثمها. وتحتوي الصومعة على أجزاء من البناء، كما تم حفر بعض الخلايا مباشرة في صخرة الجبل.

سرنا في متاهة من الكهوف الصغيرة، وهي تثير الدهشة أولاً لانخفاض سقوفها، وصدم فرانز رأسه وهو ينتقل من حجرة إلى أخرى، كما اضطر كونراد أيضاً إلى الانحناء للدخول عبر الأبواب. كان سرير القديس فرانسوا عبارة عن صخرة مسطحة كبيرة موضوعة على طول جدار رطب ما يؤكد أنه كان قصير القامة للغاية.

كانت الصورة التي تركها كيمابو في الجناح الأيمن لكنيسة آسيزي السفلية، تصور رجلاً ممتلئ الجسم، ويقال إن الشخصيات المعاكسة للقديس فرانسوا تعلن عن طبيعة عنيفة وحسية وعاطفية، إذن لابد أن هنالك طاقة غير عادية وشهوة للاستمتاع وذوقاً للتملك في جسد فرانز النحيف، لكن فرانز يعلن عن مزاج هادئ وشهوة متقطعة. كانت أسطورة فرانسوا تثبت أنه كان نهماً ومتحمساً للحياة، فلماذا إذن، كان يحب أن يغني ويتنزه، ويتحدث إلى الطيور ويرقص على الطرقات ويقطف الأزهار ويعرض وجهه للشمس وينعش نفسه في مياه الينابيع، وكان يأخذ نصيبه من كل المتع التي تُقَدم للناس إلا واحدة؟ لماذا أراد أن يكبح شهواته في جزء واحد فقط من جسده؟

بعد صومعة كارسيري، ينتهي الطريق عبر غابة كثيفة من أشجار التنوب. وفجأة انحسر الغطاء النباتي، وظهر الجبل عارياً ومحدباً، فوق كتلة من الأشجار المظلمة، فلا شيء ينمو هناك سوى العشب القصير، لا مساكن على مرمى البصر، حيث يسيطر جبل سوباسيو على المرتفعات المحيطة. فما وراء القمم التي تتابعت على الجانب الآخر من الوادي، رأينا المياه المتلألئة لبحيرة تراسيمينو. انتهز كونراد الفرصة لتذكر الانتصار الشهير لهانيبال حيث كان الزعيم القرطاجي الشهير قد سحق الجيش الروماني على حافة هذه البحيرة. مع ذلك، وعندما كان الطريق خالياً، لم يجرؤ على الاستيلاء على روما.

كان من الممكن أن يأتي نابليون منذ زمن بعيد ليتوج إمبراطوراً للغرب تحت قبة سان بيير. ففي كل عام، كان يخطط لهذا، وفي كل عام كان يعيد رحلته، لكن قدمه لم تطأ أرض روما قط، فهو سيد أوروبا المفتون بمدينة سكيبيو وكورنيليا وأوغسطس. ألم يكن ذلك مذهلاً؟ استمرت روما من قرن إلى قرن في إلهام الغزاة بنفس الرعب المقدس.

اعترض فيلهلم بنبرة متعجرفة:

- ذلك لم يمنع الفرنسيين من سلب الكنائس والمتاحف الرومانية.

قال كونراد:

- لكن نابليون ذاته لم يقرر المجيء.

- كان قد هزم كل الملوك ولكنه كان متخوفاً من تسلق سلالم الكابيتول ووضع أكاليل غار القياصرة على رأسه. كانت هناك قوة غامضة قد أوقفته على عتبة النصر.. آه، كيف يجب أن يشجع جُبن الفاتح الإيطاليين! من دون جُبن هؤلاء الرهبان، ومن دون جُبن هؤلاء المتمردين.

- هذه القوة الغامضة لها اسم آخر، قلت، على أمل أن يفهم فرانز لي نصف كلمة. إنه الخوف من الرغبة في أي شيء آخر، ولا الفوز بأي شيء آخر. السعادة الكاملة، والنجاح الكامل، يجعلان التراجع أكثر جرأة.

كل أمنياتي، كلها على الإطلاق، تحققت إذ يتطلب الأمر شجاعة خارقة لقبول أن تكون سعيداً تماماً.

قاطع صوت الأجراس الفضي المناقشة، كان قطيع من الأبقار يتقدم لمواجهتنا. أبقار بيضاء ونظيفة مع قرون ملتفة بعضها على بعض ومغروسة في مكان مختلف عن ألمانيا. كانت عدة جياد تسير خلفها بالإضافة إلى ثلاثة أو أربعة أفراس حوامل. أخيراً، نطنط حيوان غريب كان جسده أضخم من حصان تقريباً، لكن ساقيه القصيرتين جداً كانتا بحجم أرجل المهر.

لا أعرف إذا كانت الخيول فقط تمتلك روحاً وإذا كانت فصيلة البقريات محرومة منها، لكننا لاحظنا مهراً مثيراً للفضول. كان يسير في الخلف وكانت الخيول تنظر إليه بقسوة وتركله في صدره بحوافرها. ابتعد المهر ثم استأنف نطنطته على ساقيه القصيرتين بمواجهة التحرشات الجديدة.

أظهرت الأفراس الحُبلى شراسة خاصة، وعندما تعرض للعضّ عدة مرات، قرر البائس استجداء ضيافة الأبقار التي استقبلته بلطف ومن دون أن تتوقف عن رعي العشب على جانبيّ الطريق.

أشار لودفيج إلى أن القطيع كان يتقدم من تلقاء نفسه، من دون كلب ولا راع، وهو ما لم يكن من الممكن تصوره في جريتزنغ، وبعد ذلك، وعندما جاء دوره للقراءة، اختار كومة من العشب ودعانا لأخذ أماكننا حوله، واستلقى فرانز على بطنه.

ما هي السعادة الكاملة؟ سأل القديس فرانسوا ذات يوم التلميذ الذي كان يسير إلى جانبه. كيف سيمكنك تعريفها؟

لقد أخذوا في اعتبارهم عدداً كبيراً من الظروف التي كان يمكن أن تجلب لهم السعادة الكاملة: إقناع رجل غني بتوزيع ممتلكاته على الفقراء. علاج مريض الجذام بحيث إنه يستطيع أن يضع هدية من الخشب لطفل ربما سيستخدمها من الآن فصاعداً كلعبة، تبهج موسيقاها شوارع القرية بدلاً من إلقاء الرعب فيها. تغطية الأرض بحقول القمح لأجل أن يكون لكل إنسان ما يكفيه من الأكل لسد جوعه. معرفة كل اللغات لأجل أن يهدي الكفار إلى الإيمان بالمسيح، ولكن أياً من الأعمال الصالحة والجميلة التي اقترحها التلميذ لم تنجح في إقناع فرانسوا في الحصول على السعادة الكاملة.

– اسمع، أيها الأخ ليون، تخَيّل أننا مازلنا نسير خمسة فراسخ في اليوم وبأننا وصلنا منهكين أمام مزرعة منعزلة. تخيل أن السماء التي زرقتها الصافية تنبسط فوق رؤوسنا تكون محجوبة في هذه الاثناء، وأن عاصفة كبيرة فجرت المطر واخترقتنا حتى العظم. تخيل أننا لم نجد كسرة خبز واحدة في الطريق، وأن الجوع يضاعف من تعبنا وازعاج ملابسنا المبللة.الليل بارد والأرض قاحلة، الريح جليدية وبطوننا فارغة وأفواهنا جافة. ومن داخل المزرعة تنطلق ضحكات وهتافات مبهجة لعائلة مجتمعة لتناول وجبة العشاء، ويتسرب دخان نار في عمود متموج من السقف، ورائحة الطعام تخترق الأبواب والنوافذ وتدغدغ أنوفنا. نقترب من الباب ونقرعه. أليست السعادة الكاملة، أخي ليون، التي سنجدها على الجانب الآخر من عتبة الباب؟

– أوه، نعم! يصيح الأخ ليون، الذي لم يشعر بخطر الفخ.. كان ذا طبيعة ساذجة، وإذا كان قد رأى غالباً القديس فرانسوا يستمتع بأبسط الأشياء، مثل الاستحمام في مياه كليتومين أو تناول وجبة خفيفة من الكرز وجبن الغنم، لدرجة أنه لا يفكر بعدم تناسب وضع وجبة جيدة وواحدة من المعجزات الرائعة التي حرموا أنفسهم منها في كفتيّ ميزان.ألا يعرف أن فرانسوا وبينما كان يمنع تلاميذه من التردد على الأخوات الراهبات، كان يسمح لهم بتذوق الفطائر التي كنّ يصنعنها للأطفال الفقراء في يوم عيد الميلاد؟ وأيضاً، وعندما طُلب منه أن يقول بمزيد من الدقة ما يمكن أن تقوم عليه السعادة الكاملة التي تنتظرهم على الجانب الآخر من الباب، لم يتردد في الإجابة:

– سيتم الترحيب بنا بأذرع مفتوحة ودعوتنا للجلوس إلى مائدتهم أمام طبق من الحساء وكأس من النبيذ.

استدرك فرانسوا بمودة:

– الأخ ليون! الأخ ليون! كيف يمكنك أن تسمي السعادة التي قد تصبح مثيرة للاهتمام أيضاً سعادة كاملة؟ سأخبرك ما سيكون الاختيار المثالي؟ كان على المزارع أن يعاملنا كمتشردين ويتهمنا بسرقة الصدقات من الفقراء. «آه! قطاع طرق! محتالين!»، ربما سيُمسك بعصاه، ويُلقي بنا في الثلج ويدوسنا، قبل أن يعود إلى المنزل ويصفق الباب خلفه، ثم بعد ذلك، في حالة من البرد والجوع والإنهاك، لن يكون لدينا سوى سرير من الطين لننام عليه وهواء الليل الجليدي لينعشنا. سيكون هذا هو السعادة الكاملة، أخي ليون، لأنه، بدون عار أو مصيبة، كيف سيمكننا تمجيد صليب سيدنا المسيح حسب كلام الحواري؟

لم يبد على فرانز، كالمعتاد، أنه يستمع بأذن واحدة، كان شارد الذهن، وكان يولي المزيد من الاهتمام لجهود خنفساء كبيرة مشغولة جداً بتسلّق عود من الخشب. قال لي:

– هذا أفضل.

بينما كنا ننزل من سوباسيو فوجئت بسماعه يسألني:

– الحب المثالي يجب أن يكون مثل السعادة الكاملة، ألا تعتقد ذلك؟

– لا أرى، فرانز، ما نكسبه من رغبتنا في حرمان أنفسنا. لقد بدا المُزارع أكثر كرماً، وكل العالم كان سيحصل على نصيبه من السعادة، بين البساطة الدافئة لعائلة مضيافة، والمتعة الأنانية من الإثارة في المعاناة.

لابد أن صوتي كان غاضباً لأن فرانز نظر إليّ بخوف:

– اسمع، أليس هدفنا معاً هو الحب النقي؟

وتابع دون أن ينتظر إجابتي:

– سنبحث كلانا عن الحب النقي. لا تغضب إذا كنت جزءاً من الفكرة التي خطرت في بالي. هل يمكن للمرء أن يحب شخصاً جميلاً حباً كاملاً؟

– في رأيي، الحب الكامل لا يمكن توجيهه إلا إلى شخص لا يعجبنا.

كرّرَ هذه الكلمات وهو يهز برأسه:

– أنا أعجبك كثيراً، فريدريش، وأنا معجب بك كثيراً أيضاً. هل يمكننا التأكد في ظل هذه الظروف، من أننا نحب بعضنا بعضاً حقاً؟ لدينا الكثير من الاهتمام بحب بعضنا لبعض، ونجيد التعامل بعضنا مع بعض، ولدينا الكثير من الصلات والأذواق المشتركة للتأكد من أنه يتعلق بحب حقيقي.

كانت هذه الكلمات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأفكار التي دفعتني للانفصال عن إليزا، لدرجة أنني كنت عاجزاً عن الكلام للحظة. باسم الحب، ألم أقم بإخفاء الرغبة اللاواعية لتلائم جمال وشباب فرانز، كما كنت سأمنح نفسي على الرغم مني عبر الزواج، واجهة جصية من منزل بولكه كمهر لإليزا. تمتعت بالاعتبار الاجتماعي لعائلتها وبشهرة والدها وتقدير مواطني بلدي؟ أثارتني عبثية هذه الفرضية على الفور، مع خطر إثارة شكوك رفاقي إذا استداروا. أمسكت ذراع فرانز ووضعت يدي على قلبي وصحت غير قادر على كبح غضبي:

– أنت مجنون، أليس كذلك؟هل تعتقد أني لا أحبك بشكل كامل لأن عينيّ تفرحان لرؤيتك؟ هل سيكون الجمال عقبة أمام الحب؟ ربما يجب أن يكون لديك ساق واحدة لتعترف بأنك محبوب لنفسك؟ آه، لا، لن تفلت من العقاب، كما تعلم، أضفت دون أن أدرك جيداً ما كنت أقوله. أنت لست المسيح لتدَّعي بأنك محبوب في تجرد كامل من كل ما يمس المشاعر.

بدأ يضحك، لحسن الحظ، لأني لا أعرف إلى أين أخذنا هذا النقاش ليثبت لي أنه يمتلك حقاً ساقين وأن له الحق في إرضائي بالمزايا التي منحتها له الطبيعة، اندفع أمامي على المنحدر وركض مباشرة إلى مجموعة من رفاقنا، وهو يدور حول نفسه راقصاً على حصى الشارع، ومواصلاً الضحك بصوت عال. كم كنت أفضله هكذا عندما يكون مبتهجاً ويقبل أن يستسلم لبهجة الحياة! بدا لي أكثر ظرافة وكان أكثر جدارة بالحب، مع كل الاحترام الواجب للقديس فرانسوا وأفكاره الملتوية، أكثر مما كان عليه عندما كان ينطنط أثناء هبوط سوباسيو. انضممنا إلى القطيع وألقى بنفسه حول رقبة المهر لمداعبته على منخريه ومواساته على غدر الأفراس.

سانت ماري ديز آنج هي كنيسة كبيرة وثقيلة وفخمة بُنيت في القرن السابع عشر على الطراز اليسوعي الذي أكرهه. إنها تقع في أسفل الوادي على بُعد نصف فرسخ من آسيزي. كان الخراب الأكبر يسود الفناء، أمام حوش الكنيسة وفي المنازل في كل مكان. كان مئات من الرجال والنساء الذين يعيشون هناك من تجارة المسبحات والهدايا التذكارية والمشروبات المنعشة والمواد الغذائية والقبعات المصنوعة من القش والمطبوعات الشعبية من فيوريتي قد تحولوا إلى البؤس منذ أن أصدرت السلطات الفرنسية الشعبية مرسوماً بإلغاء الحج.

امتدت عشرات الأيادي نحونا، وكانت الأسعار مناسبة جداً، ومن أجل حفنة من المال كان سيكون بإمكاننا أخذ البضائع كلها. كانت حالة هؤلاء الناس سيئة للغاية، لكننا لسنا أفضل حالاً بكثير، وكان علينا أن نجعلهم يفهمون أننا لا نستطيع مساعدتهم بأي شكل من الأشكال.

داخل الكنيسة، تم الحفاظ على الكوخ الحجري القديم حيث عاد القديس فرانسوا بعد هدايته ليموت فيه. وقد تحول اليوم إلى كنيسة صغيرة تركت أثرها في نفسي ببساطتها وأبعادها الصغيرة. وخلف الكنيسة، سرنا في الممر الذي قادنا إلى حديقة ورود صغيرة في الهواء الطلق محصورة بين جدران مباني الدير، وبقيت هذه الحديقة على حالها، وقام القديس فرانسوا بإنجاز واحدة من معجزاته فيها. وذات يوم، وعندما أغواه «الجسد»، يا لها من كلمة مروعة! اندفع وسط العليق والأعشاب التي نمت فيها. وعلى الفور،

تحولت هذه الأعشاب والعليق إلى زهور.. كان علينا أن نلاحظ ذلك، وحتى أيامنا هذه، ظلت هذه الورود تنمو بدون أشواك. إنها تَتَفتّح من تلقاء نفسها وقت حدوث المعجزة الأولى، وتحافظ على ألقها من دون أية عناية.

كنت في أسوأ حالة مزاجية وأنا أغادر الحديقة. ووبخت جوزيف على حماقته بقسوة عندما اصطدم بي عن غير قصد في الممر الضيق، لدرجة أن الدموع ترقرقت في عينيه.. كان فرانز شاهداً على الموقف، ونظر إلي ولم يقل شيئاً. وفي الليل، وعند العودة إلى حجرتنا، من دون أن يهدأ استيائي. جلس فرانز على حافة النافذة بدلاً من التزين أمام المرآة. قطع القمر الأشعة الفارعة لأشجار السرو فوق خط السقف، وبرزت الشرفات المقوسة للدير في الظلام. أغلق عينيه وانتفخ منخرا أنفه فوق الزهور التي يتضوع عطرها. كنت أعرفه بما يكفي لأدرك أنه كان بإمكانه البقاء هناك لساعات، حتى إنه قضى الليل عند النافذة، متجاهلاً إخباري بنواياه.

بدأت بصب الماء في الوعاء بصخب وتركت الإبريق يسقط على بلاط الأرضية ثم اغتسلت بالكثير من الماء. تدفقت البقع في جميع أنحاء الحجرة، لكن فرانز استمر في استنشاق عطور الليل. دفعت الإبريق بقدمي، وقلبت كرسياً وحركت الأسِرّة، لكن فرانز، غير متأثر بهذه الضجة بحيث لم يسألني حتى عن سببها، كان يبتسم بسعادة. كان جالساً على جانبه ومتكئاً على دعامة النافذة، برز في صورة جانبية مقابل السماء الحليبية، وكان يمكنني أن أميز ظلال نشوته من خلال منخريه المرتعشين واختلاج شفتيه واضطراب رموشه الطويلة.

قلت، مصمماً على تغيير التكتيك والحصول برفق على ما قد لن أحصل عليه بالاتهامات:

– فرانز...

قال وهو يفتح عينيه وينظر إليّ بحنان:

– تعال واجلس بجانبي، أليست هذه الليلة هي الأفضل لنكون معاً؟

قلت بسرعة كبيرة:

– هذا يعتمد عليك. وأضفت:

– أتساءل ما إذا كان القديس فرانسوا لم يجلب سوء الحظ لكثير من الناس من حوله بحجة إنقاذهم.

– القديس فرانسوا؟

– نعم، إن تحوُّل هذا العليق والأشواك إلى ورود يثير اشمئزازي، إذا أردت رأيي. لا تخبرنا الأسطورة أبداً عن الشخص الذي قام بـ «إغوائه»، من كان؟ هل كان تلميذاً وقع في حبه بشدة؟ أم امرأة كانت ستود أن تكرس له نفسها جسداً وروحاً؟ لم يصب بأذى لأن العليق الذي ارتمى فيه كان قد تحول إلى زهور بلا أشواك. ماذا حدث لتلك الأشواك؟ ألم تنبت في قلب ذلك أو تلك التي قدمت حبها لفرانسوا الذي رفضه بشدة؟ فرانز، واصلت: كيف يمكنك الاشتراك في وحشية كهذه؟ حرمان الآخرين من ملذات الحواس. إن النهي عن النفس هو التخلي عن الصحة والهدوء اللذين يتحرران من قلق الرغبة، والجسد السليم القوي الذي تنساه لا يحتاج شيئاً أكثر من إشباع رغباته لأنها أفضل وسيلة للتقدم الروحي، فلتحقيق التوازن الجسدي والعقلي، يكون التعفف ضاراً مثل الإفراط. لماذا كان على فرانسوا أن يرفع اللعنة التي كانت تثقل كاهل بقية المخلوقات ويبقي على الحظر المفروض على الجنس؟

عاماً بعد عام، كنت أعاود ترديد ذرائعي المفضلة، وبدلاً من ازدراء المناظر الطبيعية والنباتات والحيوانات التي كان يحبها القديس فرانسوا ويثني عليها ويتغنى بها، حاولت أن استنكر مسألة تكريس الجسد للعار؟ أليس من غير المفهوم أن يتم تمجيد الإنسان، وأن يتم نكران واحدة من أهم حاجاته الطبيعية والأساسية بمثل هذه الوحشية؟

نظر فرانز في عينيّ وأجاب بلطف:

– ماذا ترى من خلال النافذة؟

لا أعرف لماذا تلعثمت، فأضاف:

– وماذا تشمّ؟

– رائحة الزهور، مثلك.

– لا، ليس مثلي، فريدريش، لا تدع نفسك تنجرف بروائح الليل. أنت

مرتبط بشدة بالأرض لأنه بدلاً من الاستمتاع بالجمال الفريد لهذه الليلة، فأنت تفكر في أمور أخرى. واستأنف قائلاً:

- يجب عليك أن تكون سعيداً بالجلوس إلى جواري أمام الريف النائم، لكنك لست سعيداً، يدي في يدك وأنت لست سعيداً. وجودي يجعلك أكثر تعاسة، فهل هنالك لحظة واحدة في أيامك لم تفكر فيها في العلاقة الجسدية؟ هل هناك دقيقة واحدة لم يسممها هذا التفكير؟

- لأنك تتركني في شك دائم ولديّ شعور بأنك تؤجل دائماً مع وقف التنفيذ!

- وهل تحتاج إلى الامتلاك لتكون متأكداً؟

- سوف أحتاج، فرانز، إلى أن أشعر بأن حبنا لم يوضع كل يوم قيد التساؤل.

- هذه النقاشات مرهقة. أنا متعب! يا له من قلق لا طائل منه في قلبك! فكرة أنك لست كل شيء بالنسبة لي تعني أنني تقريباً لست شيئاً بالنسبة لك بعد الآن. أنت تمسك بيدي بين يديك لكنك أكثر تعاسة مما لو كان المحيط يغرقنا. فريدريش! كم سيكون كل شيء أبسط في حياتك بدون التفكير في الجنس، كم سيكون كل شيء أبسط في حياتك لو لم تحكم بأن العهد المُبرم بيننا في لوبيك غير كاف!

طأطأت رأسي وأنا أقول إنه كان على حق وإنني كنت بائساً جداً لتعليق مصيري بالعلاقة الجسدية. أين أجد القوة للاعتراض؟ كل ما قاله كان صحيحاً وكان آخر ما فكرت فيه هو أن لحظة إشباع الرغبة التي تمثل بالنسبة لجميع الرجال لحظة السعادة والسلام، لا تمثل بالنسبة لي إلا بداية التساؤلات والشكوك والقلق. خلال النهار، عندما كان كونراد أو يوليوس يأخذان فرانز جانباً لدقائق، كانت الغيرة تعذبني مرة أخرى. نعم، كل شيء سيكون أبسط بدون علاقة جسدية، كررت لنفسي، ستحل العفة محل كل شيء. فكرت بشكل مؤلم، أنه يحبني حباً أخوياً وأفلاطونياً في حين أن لمسة يده على خدي تكفي لإصابتي بالإغماء!

بدافع من حاجة لا يمكنني كبتها، اقتربت منه على حافة النافذة مستفيداً

من حقيقة أن القمر كان يضيء الجانب الآخر من الدير ويتركنا في الظل. وضعت ذراعي حول كتفه وهمست في أذنه:

- لكني أحبك يافرانز! لم نكن في لوبيك إلا طفلين.

سحب وجهه بعيداً عني:

- هل أنت متأكد من أن الرغبة فقط هي التي تجعلك نافد الصبر؟

- ماذا تقصد فرانز؟

- الا تحاول أن تتحقق مما إذا كنت أنا أيضاً، من جانبي، أريد ذلك؟ وإذا كنت لا أريد ذلك فهل يعني هذا أنني لا أحبك؟ أوه، فريدريش، أنت تقلل من قيمة الحب؟ ليست الرغبة هي ما يدفعك، بل هو الخوف من أن يتم رفضك والمعاناة مما تعتقد أنه إذلال. أنت تسعى دائماً للحصول على دليل على وجودك في الحب. أنت بحاجة إلى دليل في كل وقت، والدليل يقتل الحب الحقيقي. هذا ليس خطأك، فريدريش، أنت لم تفهم بعد أن السر يكمن في داخلك، ولو دعوتك الآن للإعجاب بالقمر، وكيف يستقر في السماء برقة، ستقول لي: «إلى الجحيم، القمر، أنا أعاني كثيراً!» مع ذلك فالقمر خالد، وأنت تتعذب عبثاً».

كيف يمكنني أن أنكر، مرة أخرى، دقة ما سمعته للتو؟ على الرغم من الإحباط الذي أصابني، وجعلني أسحب ذراعي وألفّها على نفسي، سمعت فرانز ينهض ويبتعد عن النافذة.

لا يوجد إذن حب نقي، كما قلت لنفسي. أنا منحط، وقد تركت لوبيك وإليزا وعائلتي من أجل لا شيء، ماذا لو كانت شدة الرغبة في حد ذاتها وهمية. كنت أراقب كل حركات فرانز بأذن صاغية، عازماً مهما قرر على البقاء عفيفاً معه.

الفصل التاسع

في الريف الروماني

في صباح اليوم التالي، 25 آب، وهو اليوم المحدد للمغادرة، كنا ننتظر في كنيسة سان جيرولامو الصغيرة التي هي بمنزلة رواق للكنيسة، حتى يصبح الآخرون جاهزين، عندما، لفت يوليوس انتباهي، أمام لودفيج وفرانز، إلى لوحة جدارية رسمها تيبيريو داسيس على يسار الباب تجسد القديس سيباستيان وهو شبه عار، وفي وضع منحط للغاية وقد وضعت لتزيين مزار القديس فرانسوا.

تحدث يوليوس بالتفصيل وبإصرار شديد عن المزايا الملحمية للضابط الشاب، متخذاً لودفيج كشاهد على التناقض الموجود في مثل هذه اللوحة وفي هذا المكان. كنت متأثراً كثيراً بمشهد الليل، لدرجة أنه لم يخطر ببالي قط أنه تمكن من رؤيتنا من النافذة المقابلة وسماع جزء من محادثتنا، وألمح قائلاً:

– عزيزي لودفيج، هل تعتقد أن راهب سان داميانو كان لديه الوقاحة ليقف أمام هذا القديس سيباستيان؟

عندما انطلقنا في الطريق، كشف وادي نهر التيبر أمام أعيننا التموج الهادئ لتلاله وحقوله وبساتينه، فشعرت بمزيد من الفظاظة ببؤس حالتي.

ماذا رأيت من آسيزي؟ من هذا التناغم الفريد للمنازل الوردية، الكنائس التي تملؤها الشمس، والحدائق المظللة والشوارع السرية والسلالم غير المتوقعة، والممرات المقببة، وأروقة القرون الوسطى، ومن هذا الانسجام

بين الحجارة والسماء، وبراعة هذه الهندسة المعمارية، وبساطة السلوك، ما الصورة التي احتفظت بها؟ أين هو الأمان والسكينة والإيمان بالمستقبل الذي يجب أن تمتلئ به روحي بعد إقامة كهذه؟ والآن، أسير وسط أروع طبيعة خلقها الله، حيث تقدم لنا الفلاحات على الطريق البطيخ الذي يروي عصيره الأحمر العطش أكثر من ماء النوافير النقي. ويقدم لي تنوع وجمال المشهد في كل خطوة عوامل جذب جديدة للمتعة، بينما يترك رفاقي أنفسهم لمتعة المشي في النعيم.

عندما قدموا ليوليوس وعاء من الكريمة، غمر وجهه فيه، فنجح مرة أخرى في مفاجأتنا وجعلنا نضحك. قطف كونراد وفيلهلم البندق، أما لودفيج فقد حفر ثقوباً في قصبة ليصنع مزماراً. أنا وحدي أستثني نفسي من الابتهاج الهادئ المنتشر بغزارة على الأرض بفضل مناخ معتدل. سمعت أجراس القطعان ترن بفرح، وكان القصب الذي أشعله الفلاحون يتمايل على سفح التل مثل ثعابين النار بينما يغطي العنب الناضج السفوح المشمسة مثل عباءة واسعة. لماذا يتحتم عليّ البقاء بمعزل عن البهجة العامة طالما أننا لسنا بعيدين عن الفرح العام؟ وطالما أننا لسنا في روما ولا أعرف كيف سيتم ترتيب حجراتنا وما إذا كنت سأظل قادراً على مشاركة فرانز الحجرة نفسها، وكيف سنقوم، على أية حال، بتنظيم عاداتنا لنعيش بسلام، وبدلاً من متعة المشي، كنت أتعجل الوصول.

بمجرد مغادرتنا أومبري، ودخولنا لاتيوم، جذبني التغيير في المشهد من هذه الأفكار. كنا قد تركنا خلفنا ريفاً مروياً بشكل واسع لكننا تقدمنا في أرض خالية من الزرع بل صحراء، فلم يعد هناك قرى أو مساكن بل بضعة أكواخ متناثرة هنا وهناك معظمها مهجور، والكثير من المستنقعات الواسعة والرطبة التي لا تنجح الشمس في تجفيفها، كان هنالك خراب وعزلة بقدر ما تستطيع العين أن تراه، ولإضافة ملاحظة حزينة أحياناً وجنائزية في أحيان أخرى إلى المشهد، كنا نرى، من وقت إلى آخر، الممرات المنهارة لقناة مائية أو الشكل المهيب لمقبرة.

من دون فيلهلم، ربما كنا سنكتفي بالحلم وبتقلبات التاريخ البشري ومصير الحضارات الفاني، لكن رفيقنا عاتبنا على كتابة الأدب، وأراد أن

يعرف لماذا أصبح الطريق، الذي كان جيداً حتى سبوليتو بغيضاً بعد ذلك. لا التربة ولا المناخ ولا رياح الخماسين يمكن أن تفسر تدهور شبكة الطرق. لذلك كان يجب إبلاغنا من قبل المسافرين الذين صادفناهم في الطريق أو التقينا بهم في دور البريد، والاستماع، خلافاً لنصيحة كونراد الذي وصفهم بالكاذبين، إلى ما كان بعض موظفي الخدمة المدنية الفرنسيين الذين كانوا أكثر لطفاً منا على استعداد لإخبارنا به. لم نكن نرغب بالتعرف عليهم.

إن انخفاض عدد السكان، وخلوها من الصحة وبؤس آجرو رومانو أمر يلقي باللوم على سوء إدارة الكهنة، وحتى ضمها من قبل فرنسا، الذي يعود لأكثر من عام ونصف، كان على المزارع الذي يحصد الحبوب أن يسلمها بسعر منخفض للغاية، ولم يكن الفلاحون يمتلكون شيئاً منها، كان كل شيء يعود للنبلاء والأديرة، الذين لتقليل نفقاتهم، وجدوا أنه من الأفضل رعي القطعان في الأراضي القاحلة.

إن الثقة بالنفس التي ينكر بها الفرنسيون المشبعون بأفكار الفيزيوقراطيين وجان جاك روسو، تأثير المناخ ويتهمون المجتمع بكل العلل، والثقة التي يظهرونها في العقل البشري للتغلب على كل العقبات التي تضعها الطبيعة، وإيمانهم بالنجاح في تحويل هذه الصحراء القاحلة إلى مرج خصب، تعلن عن شيء مبهج للغاية. ولمنع نفسه من السخرية منهم، يجب على المرء أن يحسب النتائج الهائلة التي تم الحصول عليها بالفعل في جميع المجالات بفضل طاقة جنود وموظفي نابليون. كنت سأشعر بالفضول لسماع حجج كونراد لولا الظروف الجديدة التي منحت أفكاري منعطفاً غير متوقع. قلت له فجأة أن يصمت: وبدلاً من الجدال، كان من الأفضل أن نبطئ خطواتنا. كنت قد لاحظت للتو أن فرانز كان يتنفس بصعوبة ولم يعد قادراً على متابعتنا من دون جهد كبير. توقفنا على الفور فقد سقط على جانب الطريق، متأثراً بنوبة سعال عنيفة، أقوى وأكثر فظاعة من أي من تلك التي أخافتني في فيينا.

– لا شيء، قال لنا، كأنه محرج من الاعتراف بأنه كان قد تسمّر على الأرض بسبب ثقل مزاجه، واضطراب وظائف أعضائه.

كنت قد سمعت عن الملاريا الرهيبة التي تسببها الأبخرة الوبائية الراكدة

فوق المستنقعات والتي جعلت جزءاً كبيراً من آجرو رومانو غير صالح للسكن. هل كان الهواء ملوثاً لدرجة إصابة فرانز بالعدوى؟ أم كان فرانز مريضاً عندما طوى منديله وأعاده إلى جيبه، ولكن ليس بالسرعة الكافية بحيث رأيت فيه العديد من بقع الدم، كنت غاضباً بشدة من نفسي لأني سمحت لنفسي بالاستياء من موقفه منذ البندقية، من دون أن أدرك أنه كان علي أن أبحث في هشاشة رئتيه عن أحد أسباب إعراضه عني إن لم يكن السبب الرئيسي. كنت قد عزوت افتقار فرانز إلى الحماس إلى أفكاره حول الحب النقي وإلى تأثير البهاغافاد جيتا، لكن رؤية الدم على المنديل كشفت لي ظُلمي. وبخت نفسي وشعرت بأن حناني يتضاعف. لم يكن لديه الوقت لاستعادة قواه في دفء الشمس الإيطالية.. ربما كان نموه السريع للغاية وقامته الطويلة وإقامته الطويلة في فيينا في ضباب نهر الدانوب قد أضعفت جسمه جدياً. أخيراً، توصلت إلى استنتاج مفاده أنه لم يكن يفتقر إلى الرغبة بل إلى الصحة.

هذا التشخيص، وبينما كان يسبب لي مخاوف جدية، فإنه منحني الأمل والشجاعة.. توقف حبي عن الشعور بالإذلال والضعف، فقد كان فرانز الذي يدفعني بعيداً عنه هو الشخص الذي تحذره غريزة حماية نفسه ومراعاة صحته. والسبب الآخر الذي منعني من اعتبار بقع الدم في المنديل فألاً سيئاً هو التفكير في الرعاية التي ستكون ضرورية لفرانز والتي ستجعل لودفيج والجزء الفاضل من لوكاسبوند أقل تشككاً في علاقتنا الحميمة. لا أعتقد أنهم سيسمحون لنا باقتسام نفس الغرفة. والآن، وبعد أن استقر بنا الحال لعدة أشهر في نفس المكان، كان هنالك ضرورة لمراقبة صحة فرانز، والإشراف على أدويته، والتأكد من أنه لن يزيح أغطيته في الليل، ما سيبرر تكرار زياراتي له وربما مبيتي في حجرته للطوارئ.

بعد الليلة الرهيبة في سان داميانو، كنت أشك في أن علاقتنا يمكن أن تستمر لفترة طويلة. لم يكن يشرفني بالتأكيد أن أكتب في ظل أية ظروف استعدت الثقة، لكن الأمر كذلك، فقد أدى الدم المبصوق في المنديل إلى إحياء عهد لوبيك، وأنا أعرف الآن أني سأحب فرانز إلى الأبد على الرغم من أن فلسفته كانت تدفعني إلى اليأس.

عندما تعافى، استأنفنا رحلتنا، مصممين على الوصول بأسرع ما يمكن

إلى روما، حيث تأكدنا من أن المناخ كان صحياً أكثر. كان سكان لاتيوم يهربون من الريف الروماني، ليس فقط بسبب شحة المحاصيل، ولكن، بسبب الحمى التي يصاب بها المرء هناك في غضون أيام قليلة. اهتمّ لودفيج بأمتعة فرانز لكن المريض لم يكن يحتفظ تحت ذراعه إلا بنسخة من لوحة القديسة سيسيليا لرافائيل.

اتخذت قراراً رائعاً، بينما كنا نمشي في صمت، وقد ضاقت صدورنا بسبب الحرارة والعزلة. لقد وعدت نفسي ألا أطلب منه في روما أي شيء يضايقه عدا إثبات شعوره بوجودي.

على جانب الطريق، كانت نصف دزينة من العمال تقوم بإنشاء علامة حجرية تحت إشراف رقيب فرنسي قصير وبدين وله شارب.. كان محشوراً في بدلة رسمية ضيقة جداً وكان يلَوّح عبثاً بسوطه ضد أسراب الذباب التي كانت تجتذبها حمالة سيفه البيضاء. اقتربنا منهم مرتبكين، وطلبت منه، باسم رفاقي إرضاء فضولنا، فأجاب مبتسماً:

– سيدي العزيز، نحن نوحد الإمبراطورية.

همس فرانز:

– لماذا تدعوه «سيدي العزيز»؟

استدار الرقيب السمين بالسرعة التي يسمح بها حجمه:

– سيدي العزيز، فرنسا تدعو جميع الرجال «يا سيدي» وكل النساء «يا سيدتي» فكل الرجال متساوون وكل النساء متساويات منذ أن قامت الثورة في فرنسا وألغيت الامتيازات.

سألتُ ضاحكاً:

– هل هذا ما تسميه «توحيد الإمبراطورية»؟

لم يقدر رجل الحرب المزحة ومدّ ذراعه داعياً الريف المهجور ليشهد وأعلن رسمياً:

– من الآن فصاعداً، لن يتم تقسيم (فيا فيلامينيا) إلى فراسخ رومانية بل إلى كيلومترات عالمية.

مع هذه الكلمات، جلس القرفصاء أمام العلامة المغروسة حديثاً في الأرض، وغمس فرشاة في وعاء من الطلاء الأسود ورسم وهو يخرج لسانه الحروف والأرقام التي تسلينا جميعاً بقراءتها، عدا كونراد الذي ركل الأرض بغضب، وفرانز الذي رأيت الذعر يرتسم على وجهه مع دهشة عميقة.. (روما 20 كيلو متراً).

قال الرقيب وهو يتراجع ليتأمل عمله:

- هنا، لم يعد هنالك فرق بين الريف الروماني ومحيط باريس فقد أصبحت أوروبا كلها خاضعة من الآن فصاعداً لقوانين عقل واحد وفريد من نوعه.

اقترح لودفيج أنه ربما لم يكن الأمر يستحق تعرق ستة عمال مساكين في حر الصحراء، من أجل استبدال حجر يدل على الأميال بلائحة تحمل كلمة كيلومترات.

- سيدي العزيز، هؤلاء المساكين الستة كانوا يستجدون الخبز على أبواب الأديرة، ومع الأجر الذي ندفعه لهم اليوم، فإنهم يشعرون بأنهم أقل استحقاقاً لحمل لقب رجال.

- وما الذي تستمتع به عند التفكير بأن المتر أصبح معروفاً من الآن فصاعداً كوحدة طول؟ لقد تم إنشاء المتر علمياً باعتباره الجزء عشرة ملايين من ربع الزوال الأرضي، ليست سوى وحدة حسابية لا جدال فيها وقد حلت محل العادات البائدة للزمن القديم؟

لكن فرانز، وبعيداً عن إظهار حساسيته لهذه البهجة، صاح بصوت حزين:

- تقصد أن النظام المتري تم إدخاله إلى الولايات البابوية؟

- في المقاطعات الفرنسية للتيبر وتراسيمين. تماماً سيدي العزيز. في روما، ستجد جميع الغنائم التي جلبها من حملاته المنتصرة ضد الانحيازات والتعصب. في ما مضى، فرضنا رقماً على العربات، وحددنا سعراً للسائقين ووزعنا المكانس على حمالي الأثاث، وصنعنا كمامات للكلاب، ولقحنا الأطفال من الأمراض ونصبنا مصابيح في زوايا الشوارع، ولم تعد ساعة الكابيتول تشير إلى الوقت الروماني بل الساعة التي تبدأ في منتصف الليل.

وإذا كنتم تدخنون، أيها السادة الأعزاء، فإنكم ستدفعون ضريبة التبغ، لا أكثر ولا أقل من مواطن بونت آموسون حيث يشرفني أن أولد.

صرخ يوليوس الذي سئم الاستماع إلى جرد فوائد الحضارة:

- هل تسمعني ياسيدي العزيز؟ وسمح لنفسه بمداعبة الحمار الصغير المربوط بعربة مليئة بلائحات كيلومترية أخرى.

تحول وجه الرقيب، الذي كان بالفعل أحمر اللون بطبيعته، إلى اللون القرمزي:

- ياه! واصل بغضب أكبر أمام ما بدا له عصياناً للمبادئ العظيمة التي أعلنها للتو، وصرخ:

- أوراقكم، جميعاً، وبسرعة!

تلقى الحمار لسعة سوط جيدة على ظهره العاري. كانت أذناه مدببتين وكان يلوح بذنبه الصغير كمكنسة ليطرد به الذباب، وكانت ركبتاه متماستين لكن المداعبات التي قدمها له يوليوس أغضبت الرقيب فقام بضرب الحمار مرة أخرى بالسوط ليعلمهم جميعاً احترام عظمة القانون الفرنسي بشكل أفضل.ثم قام بالتحقق من العمر والجنسية والمهنة والهدف من رحلتنا. لقد تحقق من أننا لسنا رعايا متمردين، وإذا لم يكن الأمر كذلك فلتوحيد الإمبراطورية بقوة أكبر كان لابد من إرسالنا إلى التجنيد الإجباري، لكن ميزة النمساويين الذين كان أغلبنا منهم جاءت في مصلحتنا، لذا رفع يده إلى قبعته ذات الحافتين وحيّانا تحية عسكرية، ثم نظم رجاله في طابور، وغادر القطيع الصغير الذي يتبعه الحمار الذي كان يقوده صبي يرتدي أسمالاً بالية لنصب لائحات أخرى للعقل الشمولي في أماكن أبعد.

كانوا يسيرون في صفين، كما لو أن المشي ذاته يجب أن يكون نموذجاً قياسياً، وبنفس الوتيرة، قلت لنفسي، إن الجحافل التي جمعها نابليون من أركان أوروبا الأربعة ستقاتل أمام الموت، وربما كان من الضروري تعويد هؤلاء مئات الآلاف من الشباب على فكرة أن الحياة هي مجموعة من القواعد المجردة، من أجل اعتبار التضحية بأرواحهم أمراً طبيعياً.

لم أكن الوحيد الذي مرقت في ذهنه هذه الأفكار الحزينة، لأنه بدلاً

من الضحك على رؤية نصف دزينة منهم يذهبون بعيداً بأمر عسكري في صحراء قاحلة، تحت عين الرقيب البدين الذي كان عليه أن يساعد الصبي على سحب القطيع المتمرد، عملنا نصف دورة في صمت وتهيأنا لإكمال طريقنا ونحن نفكر بما حدث.

انطلقت صرخة واحدة من صدورنا في نفس الوقت عندما ظهرت لنا، عند آخر استدارة في الطريق، القبة اللازوردية لكنيسة الفاتيكان. وبالقرب منها، على قلعة سان آنجيلو، كان يرفرف العلم الفرنسي الثلاثي الألوان، لكننا لم نرغب برؤية القبة المضيئة فقط، بل الكرة المذهبة والصليب الكبير الذي كان يميز مقعد البابوية.كان والدي سيكون مستاء جداً من معرفة أنني شعرت بالضيق عندما رأيت رموز الكنيسة الكاثوليكية منتصبة في السماء، ولكن إذا كانت لديه ثقة بالموهبة الفنية لولده فسيفهم أن الأسماء المرتبطة بمارسيل الثاني ومايكل أنجلو وليو العاشر ورافائيل، تجعلني أغفر له أخطاءه العقائدية في دين شجعه أكثر مما شجع الفنون الجميلة.

هل فقدت روما روحها بواسطة العبادة المفرطة للصور؟ لكننا نحن الرسامين نعتز بها إلى الأبد. بالإضافة إلى ذلك، سينبغي علينا جيداً أن ندرك أن بيوس السابع هو الحاكم الوحيد الذي رفض أن يذكر الإمبراطور في صلوات قداسه، ذلك أن قساوسة روما هم الوحيدون الذين يرفضون الصلاة من أجل الإمبراطور في قلوبهم بينما خضع له رجال الدين النمساويون، ولكن كان استسلام فرانسوا الثاني وبيعه ابنته أحد أقوى الآمال في إعادة فتح الملاحة في البحار التي أغلقها الحصار القاري. تذكرت أسقف آسيزي الذي رأيته وهم يقودونه على عربة من قبل أتباع الحاكم.. كان يمكنني أن أقرأ على وجوه رفاقي أن كل واحد منهم وحسب شغفه السائد وعد نفسه بتحقيق ذاته عندما سنستقر في روما. كان لودفيج يحلم ببناء مجتمع عائلي صغير تحت إشرافه على غرار جرينزنغ، وفيلهلم كان ينوي تجربة محاصيل بقولية وتربية الدجاج والأرانب كوسيلة للعيش ضمن اقتصاد صارم. أما جوزيف فكان يفضل تقديم خدماته بأية طريقة مهما كانت، ولكل شخص، بشرط أن يستخدم تفانيه. بينما كان يوليوس يسعى إلى تقديم نفسه إلى المجتمع اللامع للأحبار والكونتيسات، وفيما كان كونراد يفضل التواطؤ مع

المتمردين، كان فرانز يحلم بتصليح جهاز الأرغن والتحدث مع السماء. في مايخصني، كان يمكنهم قراءة استعجالي في الالتحاق بمدرسة رافائيل وفقاً لدار تشامبرز وأروقة الفاتيكان.

كان مشهد القبب والأبراج والصلبان وصفوف الأعمدة والجدران الحمراء المهدمة وأشجار الصنوبر الطويلة المزروعة على التلال، ورموز المجد الغابر، وكل هذه المعالم الأثرية قد أثارتنا بحماس طفولي. كان الرسم، بلاشك، هو الحجة المكرسة لرحلتي. ماذا سيكون مصيري في هذه المدينة التي لم يدخلها أحد من قبل من دون الشعور بأن أولد من جديد في فجر جديد؟ التزمنا الصمت نحن السبعة أمام عظمة المشهد وأبهة اللحظة.

مع ذلك، إذا كانت هناك فكرة بقيت غريبة علينا، فهي تأثرنا بانحطاط المدينة القديمة، وبدمار إمبراطورية الموت الغامضة والمميتة من دون أن نركز نظرنا على الأقواس نصف المنهارة من البنايات المرئية في الأفق، كان أمام أعيننا، على بعد مسافة قصيرة من مرصدنا، بقايا حطام رواق مدفون تحت العليق. علاوة على ذلك، ظهرت لنا أيضاً الأروقة المتداعية لقناة سابين التي ذكرتنا بأن روما كانت سيدة العالم، وأن القرون قد حولت عظمتها إلى غبار، لكننا لم نكن مهيئين مثل المسافرين الآخرين الذين لا تقوم قصصهم إلا على كآبة الأنقاض، وهم يستسلمون للحنين إلى الماضي. لابد أن نعرف ما هي الطاقة التي نقلت هذه الكتل العملاقة وكيف توحدت أذرع آلاف الرجال في الصحراء التي لم تتمكن من إطعامهم. كنا في العشرين من العمر، وكانت منازل روما التي يسكنها سكان فاعلون وليس أشباحاً مغبرة، تتراكم أمامنا في مزيج رائع. كان الدخان الأزرق يتطاير من المداخن وكان الغسيل يجف على الشرفات، وكنا نجد حركة نشطة في الشوارع، وضوضاء وبهجة في العاصمة. أخبرنا لودفيج بأن عدد سكانها يبلغ 134،000 نسمة، وحسر فيلهلم عن رأسه أمام الله رافعاً قبعته بطيبة خاطر، وبينما أطلقنا ثلاثة هتافات تحية لألمانيا، رمى بها في الهواء.

الجزء الرابع

سانت إيزيدورو

الفصل الأول

- سعادة الجنرال بارون سيكستيوس دي ميوليس!

لم يكن الحاجب الذي أعلن عن دخول المدعوين على عتبة الرواق الذي يحرسه أسدان من الرخام يرتدي بدلة رسمية. لم يكن يرتدي زيه الرسمي كما ذكر مدير أكاديمية فرنسا بمرارة في جميع مراسلاته مع باريس، كما لم يكن يمتلك حمالة سيف أو عصا.

كان السيد غويلون - ليتيه قد كتب في مراسلاته: «أنا حزين على بلدنا، في هذه المدينة التي لها طعم البذخ والأبهة».. كان يقيم هذا المساء أول استقبال كبير له في المقر الجديد للأكاديمية، فقد غادروا قصر مانسيني، في كورسو، ليستقروا في فيلّا ميديتشي المشيدة على منحدر جبل بينسيو والتي اشترتها الحكومة الفرنسية من دوق توسان الأكبر، ولم يعد يقيم سفارته فيها هناك.

في الصالونات ذات الجدران العارية والقاسية، وكذلك في البهو ذي الأروقة المطلية وفي الحدائق المزينة بأشجار الصنوبر المظللة، والتماثيل العتيقة، وأحواض الزهور، توافد حشد من الأسماء الكبيرة الإيطالية والفرنسية في ضوء الغسق لهذا المساء الخريفي الجميل.

- دوق أونيستي براشي، عمدة روما!

- الأمير والأميرة كولونا!

- سعادة الفارس ماركيه دي نورفين، المدير العام للشرطة.

- الأمير والأميرة كايتاني دي سيرمونيتا!

- صاحب السيادة الكاردينال باربيريني!

- السيدة تشارلز ماركوت دارجنتويل، المدير العام للمياه والغابات وزوجته!

- صاحب المعالي الكونت كاميل دي تونون، حاكم روما!

الجنرال ميوليس، الحاكم العسكري لروما وهاوي الشعر قبل كل شيء، وفرانز وفريدريش المختلطين بالضيوف الذين تذكروا بأية روعة كانوا قد أحيوا ذكرى فيرجيل في مانتوفا وأرسطو في فيراري، وجامع لوحات (فيرونيس وأندريا ديل سارتو وكامو تشيني) التي كان يزين بها جدران فيلا البوبرانديني، مسكنه الخاص، الذي كان يعيش فيه تقريباً كرجل عجوز ونحيف ويرتدي ملابس تخلو من الأناقة. كان مشوهاً بسبب الجروح التي تلقاها قديماً في معركة يوركتاون، لم يجد شيئاً صادماً في هذا الحاجب الذي لا يملك حمالة سيف ولا عصا.

لا يمكن أن يكون الأمر ذاته مع كاميل دي نورتون، الشاب الرائع، اللطيف مع النساء، الطموح، والمخلص للإمبراطور والقلق بشأن سمعة بلده. كان مدير الأكاديمية قد ترك مهمة استقبال الضيوف لزوجته.

لقد ظهرت الأكاديمية القديمة التي كنت قد نشأت فيها بشكل يثير الاحترام. وتوسط السيد المحافظ لدى السيد وزير الداخلية ونوه إلى أنه مع ستة آلاف فرنك فقد تم تخفيض ميزانية الأكاديمية إلى الحد الأدنى.

قال الكونت، الذي كان يصيخ السمع لكي لا يفوّت على نفسه دخول الأميرة الجميلة روسبيجليوسي:

- نعم، نعم.

قال مدير الأكاديمية:

- يمكن تغطية النفقات الجارية، ولكن كيف يتم عمل المشتريات اللازمة؟ لقد تم إعطائي مفرشين للمائدة فقط لخدمة طاولة النزلاء، ومن بين ثمانية وأربعين طبقاً اشترتها سيسيليا أوفروي، مدبرة المنزل في قصر مانشيني، انكسر ربعها على الأقل أثناء الانتقال، كما تم ثقب أحد صواني الصفيح القصديرية، ولم نجد أياً من الأزواج الأربعة للملاقط. لقد بقي

معاشي ثابتاً عند الستة آلاف فرنك، بينما تمت زيادة معاش الطلبة الداخليين. ولتعويض نفسي عن نفقات سفري، سيدي المحافظ، تلقيت فقط ألفين وأربعمئة فرنك بينما كان من سبقني يستلم ثلاثة آلاف فرنك.

قال تورنون، وهو يدير ظهره فجأة للسيد غويلون ليتبير فقد سمعهم للتو وهم ينادون باسم الأميرة.

– اعتمد عليّ، سيدي المدير، اعتمد عليّ.

قال فرانز ضاحكاً:

– دائماً يتحدثون عن المال، هؤلاء الفرنسيون.

كان يوجه كلامه إلى أحد سكان الفيلا، الذي تضيء وجهه عينان سوداوان كبيرتان كأنهما مصبوبتان من البرونز.

أجاب الرجل الشاب بزهو:

– إذا كان المال الذي نتمناه هو أداة للعبودية، فإن امتلاكه هو شرط الحرية. الأميرة روسبيجلوسي التي تعجب السيد المحافظ للغاية ستستسلم ربما لمحاولاته لأن زوجها مفلس وتطمح إلى بلوغ مكان ما. انظروا إليه، إنه يسعى إلى التقاط الفضائل الجيدة للسيد دوفلييه، مدير التسجيل. أعتقد أن الرومان مستعدون لكل التخفيضات بسبب نقص المعرفة أو الرغبة في إدارة ميزانيتهم.

سأل فريدريش:

– ألا تعجبك روما؟

– يا إلهي، لم يكن لديّ الوقت لأطرح السؤال على نفسي.

قال فريدريش:

– اسمح لي أن أقدم لك رفيقي جوزيف ونترغيست. جوزيف، أقدم لك جان دومينيك انغريز، مؤلف أوبرا أوديب الشهيرة.

اكتفى جوزيف الذي كان يتحدث الفرنسية بشكل سيئ للغاية بأن يصفق كعبي قدميه.

هتف لودفيج بلهجة نمساوية ثقيلة:

– خلال أربع سنوات من العيش في روما، لا تعرف ما إذا كانت هذه المدينة تعجبك؟

– اعذروني، سادتي، لكن نظام المدرسة صارم جداً! الاستيقاظ في الساعة السادسة صيفاً، وفي الساعة السابعة شتاء. وكل صباح، ساعتان من التمرين، ثم دراسة قوانين المنظور في بحث الأب بوزو. بعد ذلك، نسخة من تمثال أو من نقش بارز من العصور القديمة. وبعد الظهر، التفرغ لدراسة الميثيولوجيا وتاريخ الفن. علينا أن نتدرب أيضاً على الرسم من الطبيعة أو من لوحات الرسامين الكبار. ثم النوم في الساعة العاشرة مساء ما يمنعنا من الخروج ليلاً، حتى إن طلبة الموسيقى لم يكن لديهم الحق في الذهاب إلى العروض، بالمناسبة، كان ذلك أفضل بكثير فأية فائدة يمكنهم أن يجنوا منها؟ أنا أكره الأوبرا الإيطالية، فالكلمات الشائعة وحتى التافهة يمكن أن تتحول إلى مؤلفات موسيقية.

«الأب بوزو» تمتم فريدريش وهو يغمض عينيه. كان يتذكر القبة الخادعة للكنيسة اليسوعية في فيينا. ففي هذه الكنيسة ولدت فكرة السفر إلى إيطاليا والمغادرة مع إيطاليا لإكمال دراستهما للرسم! وإيجاد طريقة لإرضاء طموحاتهم الفنية أخيراً!

في الواقع، وكما أدرك الآن، فقد تسللت حسابات غير واعية إلى خطته، كان قد اعتمد على تغيير المشهد لتغيير العلاقة في حياتهما الخاصة، والتغلب على توتر وحياء صديقه، وفق القاعدة التي تدفع الشباب إلى ارتكاب تجاوزاتهم الأولى بعيداً عن بلدانهم، في بلد حيث لا أحد يتحدث لغة آبائهم وأمهاتهم. فعلى الجانب الآخر من جبال الألب، وفي أرض أجنبية، كانوا يتجرأون على فعل كل ما لم يكونوا يجرؤون قط على فعله في أرض آبائهم. فبعد البندقية، ابتعد فرانز أكثر فأكثر، وفي روما، كان قد استعاد صحته ولكن من دون العودة إلى طبيعة العلاقة الغريبة التي نشأت بينهما.

واصل إنغريز بصوته المعدني الذي كان يتناقض مع التموج الزيتي لشعره الخشن وهيئته التي تشبه كاهناً أسبانياً يرتدي زياً برجوازياً:

– بالنسبة لنا نحن الرسامين، فإن أصعب قاعدة كان علينا تطبيقها هي

عمل نسخة كاملة من عمل فني روماني. لم تكن متاحف روما تحتوي إلا على التماثيل. اللوحات توجد أمامي في الكنائس، ولكن كان يتم إضاءتها بشكل سيئ أو إخفاؤها بأدوات العبادة، أما في المعارض المخصصة للأمراء، حيث لا يمكننا الدخول مطلقاً، أو في مختارات الفاتيكان الذي لا يفتح لنا أبوابه مطلقاً منذ مغادرة بيوس السابع إلى منفاه.

سأل لودفيج:

– ماذا فعلتم إذن؟

بقيت لنا كنيسة تريتنييه دي مونت، وهي ملك لفرنسا منذ تشارلز السابع. كنت قد استنسخت فيها لوحة (إنزال المسيح من الصليب) لدانييل دو فولتييرا، ثالث أجمل لوحة في العالم بعد (تجلّي السيد المسيح) لرافائيل و(تناول القربان للقديس جيروم دومينيكان). لقد طلبت راهبات الدير مني رسم لوحة وسأرسم لهن (المسيح يعطي مفاتيح الجنة للقديس بطرس).

صاح فريدريش، مسروراً لاكتشافه لدى تلميذ ديفيد شيئاً من هذا الحماس الديني الذي يثير ألمانيا ووكنرودر ونوفاليس:

– إذن، لم يعد يمكنك بعد الآن أن ترسم مواضيعك للعصور القديمة حصرياً؟

كرر إنغريز وهو يشدد على المقاطع:

– أنا لا أعرف أحداً أقوى في الرسم من رافائيل والدومينيكان، اذهب وانظر في غروتافيراتا، في جبال الألب، لوحات جدارية للدومينيكان في كنيسة سان نيلو، لابد أنها ستعجبك.

كان لودفيج سيرغب في استجوابه بإسهاب حول جدول المواعيد، وتنظيم العمل في فيلاميديتشي، لكن الأصدقاء الموجودين من نادي لوكاسبوند لم يتمكنوا من إخفاء دهشتهم عندما أعلن الخادم:

– الكونت يوليوس شنور فون كاروسفيلد!

يا لها من ثقة بالنفس! كانوا قد تسللوا إلى الفيلّا قبل وصول المدعوين الرسميين، كجيران ورفاق. ولكي لا يضطر إلى خلع قبعته، بقي فيلهلم في الدير، أما كونراد فلم يكن ليضع قدمه تحت سقف «مضطهديهم».

لقد رأوا يوليوس يتقدم مرتدياً معطفاً حريرياً مطرزاً باللون الأحمر، وينحني أمام السيدة غيلون ليثيير، ثم يأخذ الأميرة الجميلة روسبيجليوسي بعيداً عن الكونت دي تورنون المنذهل ويقودها إلى الحدائق.

- السيد جوزيف أنطوان موليتدو، مدير البريد!

- الدوق سفوررزا كيزاريني!

- الماركيز والماركيزة سانتا-كروس!

- السيد بوشيه بيرثيس، مفتش جمركي!

أكد لودفيج غاضباً:

- الإدارة الفرنسية وضعت يدها على كل شيء.

- الأكثر شهرة الدكتور البروفسور غايتانو بيروزي طبيب الكلية المقدسة.

- الفارس أنطونيو كانوفا!

توقفت المحادثات. واستدارت جميع الرؤوس نحو القادم الجديد. كان هو الشخص الذي احتل في عصره نفس المكانة التي احتلها مايكل أنجلو وبيرنيني في عصرهما. كان عائداً إذن من باريس حيث كان نابليون قد عرض عليه مقعداً في مجلس الشيوخ في قصر لوكسمبورغ لإبقائه في عاصمته. وكان هذا الرفض قد توّج الوجه النبيل والجبين الواسع للنحات بمجد إضافي. لقد رأى فريدريش أخيراً الشخص الذي كان معجباً به بشغف منذ أن أصبح ملاك النصب الجنائزي لفيينا دليلاً لرحلته لإيطاليا.

كان كانوفا بالكاد يتجاوز الخمسين من عمره. كان يبدو في مقتبل العمر، وكان مميزاً في كل شيء، كرامة هيئته، وعظمة نظرته، وأناقة لباسه، كان كل شيء يشير إلى أنه يدرك قيمة نفسه تماماً.

قال فريدريش لنفسه: «إنه يشبه غوته»، ولكن سرعان ما صحح هذه الفكرة، وهو يلاحظ في أعماق عينيه ألقاً غريباً لا مبالياً بالنسبة لفارس أنعم عليه البابا بالمهماز الذهبي. كان ارتفاع جبينه والاعتناء الفائق بخصلات شعره القصيرة، وارتفاع ذقنه المتغطرس تشير إلى تصميم هادئ لرأس جليل. لكن هذا التوهج المحموم الذي كان يتراقص في عمق محاجره

المحفورة بعمق، وهذا الفم المضاء برغبة غير فاسدة، على الرغم من أنه حاول أن يظل محتفظاً بابتسامة متغطرسة، يشيران إلى أنه خلف القناع الذي صنعه، كان هذا الرجل يكافح في قلبه ضد القوى المتمردة.

نظر فريدريش بعيداً بشعور من عدم الارتياح في الوقت نفسه فقد أدرك أنه إذا كانت تماثيل الملائكة والعفاريت والآلهة الإغريق والمخنثين المنحوتة في الرخام والمصقولة بكثير من المثابرة تخلو من البرودة الأكاديمية، فذلك لأن مؤلفها لم يكن قد قتل فيه العاطفة الشهوانية والحماس. كان هذا رأي فريدريش، الذي نظر إلى كانوفا مرة أخرى واقترب من الحلقة المتكونة حول النحات.

أراد الحشد معرفة سبب عدم قبوله لعرض نابليون. سألته الكونتيسة ديلاروفير:

– أنت مرتبط جداً بزوجتك وأطفالك فكيف تغترب بعيداً عن عائلتك؟

– كونتيسة، ليس لديّ زوجة ولا أطفال. كنت قد خطبت فتاة في شبابي، لكني فسخت خطوبتي عندما أدركت أن الزواج والمهام التي ينطوي عليها ستمنعني من تكريس نفسي بشكل كامل لأعمالي. وللسبب نفسه كنت قد رفضت العرض المغري لإمبراطورك، وأضاف وهو يشير إلى السيد دونورفين، مدير الشرطة:

– ربما سيكون مقعد عضو مجلس الشيوخ مصدراً لا ينضب للمكائد والاحتفالات الرسمية والالتزامات الدنيوية. ليس لديّ لحظة لأخسرها إذا أردت أن أعطي مضموناً لكل الأشكال التي تزدحم في رأسي، فالفنان لابد أن يكرس نفسه لفنه قبل كل شيء.

بصرف النظر عن السيد دونورفين الذي اعتقد أنه من الأفضل إبقاء فمه مغلقاً، لئلا يتم إبلاغ سيده بأنه وافق على رفض كانوفا، كانت هذه الكلمات المليئة بالتخلي عن السعادة الشخصية قد أثارت إعجاباً عاماً. كانت مجرد صرخة مثيرة للشفقة، لكن فريدريش كان لديه الوقت لسماع نبرة مثيرة للفضول في طريقة لفظه لكلمة «فن». كانت نبرته حادة وتتناقض بشكل واضح مع أسلوبه الرجولي ومحتوى خطابه النبيل. كان هنالك شخص آخر قد انتبه إلى هذا التناقض، ومع ذلك، كان فريدريش موقناً أن أذنه لم تخطئ.

لم يكن كانوفا قادراً على منع نفسه، في نهاية اعترافه بالإيمان المشبع بهذا الإحساس النبيل بالواجب، من أن يثير نفس القلق عبر تلك النبرة الحادة ونفس الحيرة العابرة التي كانت تلهب اللون الأسود لبؤبؤيه.

قال الكونت دو تورنو، وهو يأخذ مدير الشرطة من ذراعه ويدفعه نحو الحدائق:

- السيد دو نورفين، لا أعتقد أنه قد أتيحت لك الفرصة بعد لزيارة أحواض زهورنا. هل تعجبك روما؟ هل كان لديك وقت للتأقلم؟ هل تقيم بشكل مريح في قصر سانت إغنازيو؟

ما إن سارا بضع خطوات على الحصى حتى خفض صوته وهمس في أذنه:

- أنت بحاجة إلى منحي مقابلة لمدة خمس دقائق، تعال، غويون ليثير، ما يجب أن أقوله يهمك أيضاً. لقد وصل نصف ضيوف الآن، لكننا نفتقد مع ذلك نصف طبقة النبلاء. لقد تم إعلان روما كثاني مدينة في الإمبراطورية، لكن الحشود مازالت تنتظر. وضع السيد دوتورنون أصابع قدميه بعناية في الممرات المظلمة بسبب هبوط الليل. كان سليل عائلة قديمة في وادي الرون وقد تبع والديه للهجرة. وعند عودته إلى فرنسا، وضع نفسه في خدمة الرجل الذي قاد انقلاب 18 بروميير[36]. لقد رأى في عدائية جزء من الطبقة الأرستقراطية الرومانية له عاراً كبيراً بدلاً من مواجهته. وبعد عام من إقامته في قصره في كونسولتا، على قمة مونت كافالو، وبتأثير هذا المطبخ التبتي، الذي لا يضاهي بالتأكيد المطبخ الليوني، كان يضمن وجبتين من الطعام الجيد وروح الدعابة المرحة في يومه الشاق.

انتظر السيد دي نورفين النحيل والفظ بهيئة قاسية تفسيرات أكثر تفصيلاً. لقد تولى مهامه مؤخراً فقط، معتبراً أن مواطنيه كانوا يفتقرون إلى الحيوية في إدارة القسم الجديد. كاد خمسة من قطاع الطرق أن يختطفوه على أبواب العاصمة، وكاد أن يضيّع في الكمين كنزه الذي يبلغ عشرة آلاف جنيه وخادمه، ولم تلطف هذه الحادثة من شخصيته على الرغم من أنه كان

36- انقلاب 18 بروميير: هو الانقلاب الذي قام به نابليون بونابرت في 18 بروميير (9 تشرين الثاني عام 1799)، فأطاح بحكومة المديرين، وأوجد بدلاً عنها حكومة القناصل.

مسروراً سراً لإعطاء وزيره، دوق روفيجو، دليلاً فورياً ولا يمكن إنكاره على الإهمال المتعمد لمن سبقه. استأنف السيد دي تورنون:

- هذا ليس ممكناً، لقد عانينا من دون أن نرد على إهانة هذه الخيبة الجديدة. هذا المساء، لم يحضر الكونت باتريزي، الذي رفض الحصول على مكان في مجلس الكابيتول، ولا الأمير التيري، ولا دوق زاغارولو، ولا أي واحد من دوريا ولا من أورسيني. لقد بحثت عنهم عبثاً. والأسوأ أن كل هؤلاء المتمردين أغنياء، ومدانون أكثر بحيث إن دخلهم يتراوح بين ستين ألفاً ومائة وخمسين ألف جنيه.

- ولكن لديك دوق دي براتشيانو، وجيوفاني تورلونيا الذي أرسلته العناية الإلهية في الوقت المناسب، والذي يعلن عن ستمائة ألف ليفر كأرباح ويترك لنا مصرفه مفتوحاً على مصراعيه.

قال السيد دي نورفين، سعيداً بكونه على اطلاع جيد بالنسبة لرجل وصل منذ أسبوعين:

- تورلونيا! لكنه فرنسي، إنه يدعى جان تورلوجن، وقد جعلناه دوقاً في العام الماضي كمكافأة على إقراضنا المال.

تدخل السيد غيلون - ليثيير قائلاً:

- تسمحون؟ هل تعرف ماذا أجابني الأمير ماسيمو عندما دعوته؟ قال إنه سيحُطّ من شأنه بالذهاب إلى منزل بناه آل ميديتشي، هؤلاء المصرفيون الأثرياء.

قلت ضاحكاً:

- أصحيح أنك تدعي الانحدار من فابيوس ماكسيموس؟

أجابني بإحراج شديد:

- لن أستطيع إثبات ذلك، في الواقع، إنها شائعة لا تزال متداولة في عائلتنا منذ مائتي عام.

نظر السيد تورنون والسيد دي نورفين بعضهما إلى بعض ربما كانت الإشارة إلى اغتصاب آل ميديتشي لقباً نبيلاً وقاحة من جانب السيد غويون

ليثير. لم يكن من الممكن التسامح في أن قيمة النسب هي الوحيدة التي رفعت إمبراطورهم على العرش واستمر هؤلاء الرومان الذين يصعب احتمالهم في أن يحكموا على النبلاء بالدم فقط. وفي 15 آب الأخير، كانوا قد استاءوا من أغنية (يا إلهي) التي كانوا يغنونها في سانت لويس دي فرانسيه في ذكرى ولادة نابليون.

لم يكن من الممكن إجراء الحفل في سان بيير، بعد أن رفض رجال الدين في كاتدرائية الفاتيكان القيام بذلك. استأنف السيد دي تورنون المنزعج من هذه الذكرى:

- لقد دفعنا خمسة عشر باجوكاً مباشرة إلى كهنة سانت لويس لحملهم على ترديد القداس، والكاهن الذي تضرع إلى السماء لطلب البركات حول البطن المهيبة لماري لويز طلب منا مئة ريال عن هذه الموعظة الجميلة. ولم ينجح عرض الألعاب النارية التي أطلقت على قصر سانت آنجيلو بشكل أفضل. لم نجد إلا موظفين مدنيين فرنسيين لمشاهدة العرض وظهرت حزم الذهب في السماء وسقطت هباء في نهر التيبر. من الواضح للغاية أيها السادة، أنه في الثاني من كانون الأول المقبل الذي سيصادف ذكرى تتويج نوتردام وانتصار أوسترليتز سيكون الانتقام مبهراً. سأقوم بدفع المعاشات، وسيهتم سيد دي نورفين بإقامة سباق للخيول في ساحة نافونا، أما أنت يا جنرالي ميوليس فأنا اعتمد عليك في إقامة حفل راقص كبير في فيلا الدوبرانديني! وها قد جاء دورك يا عزيزي غويون ليثير لاقتراح شيء مبتكر جذاب، فلنذهب إلى أبعد من الخيال!

وصل ليثير راكضاً من مؤخرة الحديقة واصطدم بالجنرال ولاحظ لودفيج الذي أمسك بذراعه وقاده في الرواق وسط حشد من المدعوين، وسأله بصوت يشبه الهسهسة:

- أين هو؟ لماذا لم يخبرني أحد أنه وصل؟

- ولكن مَن يوليوس؟ على من تبحث؟

- كانوفا، يا لك من بغل كبير! هل تعتقد أنني جئت إلى هنا لأمسك بأميرة حمقاء؟ وتابع مخاطباً كل أولئك الذين قابلهم:

- أين هو من فضلك، ألم تر كانوفا، أنا أبحث عن كانوفا، أنا بحاجة إلى مقابلته!

- كانوفا؟ رأيته يخرج من هنا...

- رحل منذ لحظة.

- لكن هذا مستحيل! هتفت أميرة كانينو، التي لم تكن سوى ألكسندرين بليشامبس، أرملة سمسار البورصة والزوجة الثانية للوسيان بونابرت، الذي عاد إلى روما بعد زوال حظوته. كانت قد وضعت قيثارة في يدها، مرتدية سترة يونانية من أجل تمثال لكانوفا معتقدة أنها أصبحت واحدة من ربات الفن.

تلعثمت غاضبة لأنه هرب بعيداً قبل أن يقدم لها احترامه:

- مبكراً جداً.. لقد وصل بالكاد..

أصبح الاختفاء المفاجئ وغير المتوقع لكانوفا في بضع ثوان موضوع كل المحادثات. نهض السيد م. غويوم ليثيير وقد شعر بالحرج من طلب السيد دي تورنون مندفعاً إلى السلم اللولبي الذي ينزل من أرضية الرواق والحدائق إلى الدهليز المفتوح على شارع ترنتيه دي مونت، وهرع يوليوس وراءه.

تم استجواب الحاجب، وكذلك استجواب الخادمين اللذين كانا يحملان شعلة مضاءة على جانبي الباب، حسب الآداب الصارمة لاستقبال الكرادلة، وأكد الحوذي أن الفارس كانوفا لم يطلب عربته.

- اذهب وانظر بنفسك! أمره المدير بنفسه، وكان سعيداً بتأكيد سلطته في الوقت الذي أوصى فيه الكونت كاروسفيلد الشاب، المغروس أمام الحاجب في الانتباه بأكبر قدر من الجدية لئلا ينسى حمالة سيفه وعصاه.

عاد الحاجب لاهثاً ليقول:

- لا تزال عربة الفارس كانوفا هناك، لم يرَ الحوذي الفارس كانوفا.

تمتم الحاجب قائلاً إن رجلاً ملفوفاً بعباءة وقبعة مائلة على عينيه قد انزلق إلى الشارع قبل قليل ولم يكن يرغب في إثارة الانتباه، كما أكد خادم خزانة الملابس بأن أحد الضيوف قد دخل إلى حجرة الثياب وهو ينظر حوله بقلق كما لو كان خائفاً من التعرف عليه.

سأل يوليوس:

- ما الاتجاه الذي سلكه؟

من دون انتظار إجابة، قفز الشاب نحو الباب، واندفع الحاجب، ومرّ كالسهم بين الاثنين الملتهبين، استدار إلى اليمين وابتعد راكضاً نحو جزء من حقل مزروع بالكروم وتستفحل فيه الأدغال البرية.

انتشرت أخبار هروب كانوفا على الفور في الصالونات، وبدا للجميع أنه من غير العادي أن تسير شخصية روما العظيمة على الأقدام، بلا أية صحبة، في شوارع العاصمة المظلمة. وعلى الرغم من جهود الفرنسيين لتزويدهم بأضواء الشوارع، لم تتم إضاءة المدينة إلا من وقت لآخر بالشموع المزروعة أمام بضعة تماثيل صغيرة للعذراء. اشتكت السيدات اللواتي كن قد سمعن عن كانوفا من الالتزامات الاجتماعية التي كانت ستلتهم وقته في باريس واعتبرن هذا الخبر دليلاً على أن كانوفا يكرس نفسه لفنه.

كان فريدريش في حيرة من أمره وتساءل عن ماهية القوة المظلمة التي دفعت هذا الفنان المشهور عالمياً للهروب فجأة من معجبيه ليلقي بنفسه في الظلام وحيداً متخفياً. هل كان يحاول، وهو يسير في الليل، أن يبدد العذاب الذي كان يلهب أعماق عينيه المتلألئتين.

قال الجنرال ميوليس للسيد م. نورفين لتهدئة انعدام الثقة المهني لمدير الشرطة:

- ما هو مؤكد، أنه ليس لديك سبب للشك في كانوفا من فتوره تجاه الإمبراطور. لقد رافقته اليوم إلى أكاديمية سانت لوك، التي يقع مقرها في كنيسة القديسين لوك ومارتين، عند سفح مبنى الكابيتول، أمام ميدان روما. وهنا، على درجات الكنيسة، أمام معبد الكونكورد ومعبد فيسباسيان الذي بدأت في ترميمه، أكد لي بأن الإمبراطور كان قد عيّن أمراء من الأكاديمية مع تخصيص وقف بحوالي مائتي ألف ليفرز، سيتم تخصيص خمسين ألفاً منها لترميم الآثار والحفريات القديمة، ومائة ألف جنيه لتمويل عمولات الفنانين. اعتقدت أن هذا المال لن يساهم فقط في مجد الفارس، بل سيخفف من بؤس هؤلاء المتسولين الكثيرين الذين تشكل خرق ملابسهم وجروحهم

إهانة لعظمة أوروبس. فمن خلال جعلهم يحفرون الميدان ويعيدون إكساء المعابد، بثلاثين ستاً في اليوم، يمكننا بالفعل توظيف ألف منهم.

قال السيد دي نورفين وهو يلتفت منزعجاً بوضوح بسبب الحسابات الشحيحة للجنرال، وسمعة الجشع التي ألصقها بفرنسا:

- في ما يخص العمل، لا أفهم لماذا يتقدم موقع البناء المفتوح في ساحة الشعب ببطء شديد. أود أن نستبدل الأرض القاحلة القديمة المستطيلة بقطع بيضاوي جميل سيذكرنا بساحة القديس بطرس، ولكن لا تنس أن الإمبراطور أعلن عن زيارته إلى روما للعام المقبل. سيدخل روما من خلال ساحة الشعب. فكر في الفضيحة التي سينعكس عارها علينا جميعاً إذا مرت عربة جلالة الملك عبر ركام من المواد والأنقاض، كما أن آل بينيسيو لا يزالون سفاحين، فكيف ستتعامل يا سيد غويون ليثير مع بقاء وكر اللصوص هذا على الجانب الآخر من جدرانك؟ ماذا يفعل إذن المهندس المعماري فالاديه الذي وعد ببناء متنزه جميل بدلاً من أشجار الكروم والأدغال التي تستغلها طبقة اللصوص عند هبوط الليل للتهريب؟ ليس لديّ ما يكفي من رجال الشرطة لضمان مراقبة كافية.

بعد أن انتظرت الأميرة روسبيجليوسي عبثاً عودة يوليوس إلى الحديقة، عادت إلى الرواق، باردة وغير مبالية، بينما شدّ السيد دي تورنون طيّات صدريته واتخذ هيئة مهمة، ليجعلها تعتقد أنه مشغول جداً بهمومه السياسية الجادة، فقد سمح لها بالذهاب عن قصد مع الشاب الألماني. وصرخ بصوت عال لمدير الفيلا:

- لنذهب! كان لديك وقت للتفكير! إذا زار الإمبراطور روما في العام المقبل، سيشعر بالفضول لمعرفة كيف احتفلت الأكاديمية الفرنسية في الثاني من كانون الأول!

قال السيد غويون ليثير، وهو يمد رقبته من قماش الدانتيل مثل سلحفاة قديمة متغضنة:

- طيب، لديّ فكرة، لقد تم توزيع جوائز العشر سنوات للتو في باريس، وكان جيروديه هو الذي فاز بجائزة الرسم.

سأل الجنرال ميوليس مندهشًا:

- جيروديه؟ هل فضلوه على ديفيد؟ ألم يتم تتويج الذي رسم هوراس، وجنازة باتروكل وموت سقراط، وبروتوس، وسيرفنت دوجوديوم، والتتويج، والمتحدث باسم فضائل المحارب، ومؤرخ العظمة الفرنسية؟

- لقد تغلبت لوحة (الطوفان) على لوحة (السافانا). وإذا تم تنظيم معرض كبير للرسم الفرنسي في صالونات الفيلا لمدة عشرين عاماً؟ سيرسل الطلاب السابقون لوحاتهم.

سأل دي نورفين بمكر ملحوظ:

- هل تخطط لعرض لوحة (الياقوتة البرية) لجيروديه؟

- لم لا؟ لقد رسم هذه اللوحة في روما، عندما كان طالباً، وأرسلها إلى باريس، إلى الصالون عام 1793، ولكن لم يحظ أي عمل بالثناء، في وقت بدا أنه تم اختياره بشكل سيئ للغاية، فأنت تعرفه أفضل منا جميعاً يا صديقي، يا جنرالي. لكن الانتصار الشعبي غفر للجريء.

دمدم سيكستيوس ميوليس وهو يمرر أصبعه على ندبته:

- أنت تقصد، الوقح، لن يكون علي أن أفسر أبداً هكذا حماس. هذه اللوحة الفاسدة المخنثة! الوطن في خطر، كانت الاتفاقية قد أصدرت مرسوماً بفرض الضريبة بشكل جماعي. وألقى المجندون بأنفسهم في النار أثناء ترديد موسيقى النشيد الوطني، لم يكن هذا هو الوقت المناسب للانتشاء أمام... اعذروني على التعبير بصراحة عسكري قديم... أمام مخصِيّ!

- لكن هذه الحالة ليست فريدة من نوعها يا سيدي، هل يمكنني أن أوضح لك أنه منذ بداية الثورة أظهر الرسامون الفرنسيون ذوقاً واضحاً للموضوعات ذات الشخصية الرقيقة والضعيفة؟ فكر في (الصفير) لجان بروك، و(إيكاروس) لجان بول لاندون، و(مورفيه) لبيرنارسيس غيران، و(ليندر) لجان جوزيف تاياسون فجميع الفتيات العارضات الرقيقات المراهقات اللواتي لا يعرفن شيئاً ما، متشابهات في الوضع والهشاشة.. كانت الحرب مستعرة بينما يتم رسم هذه اللوحات من قبل أولئك الذين يجب أن نعتبرهم زهوراً رقيقة من بين فنانينا.

قال السيد دي نورفين بمكر لمدير الأكاديمية:

– لقد كنت أنت مدرسهم.

أكد محافظ روما:

– سيكونون أفضل بكثير إذا رسموا جنوداً وأبطالاً ورجالاً من عصرنا.

أعلن السيد دي تورنون الذي كان يحب مضايقة الجنرال فجأة:

– أليست غلطتك؟ وغلطة العسكريين الآخرين إذا كان الشباب يتمتعون بالشعبية اليوم؟

تلعثم ميوليس مرتبكاً أكثر فأكثر:

– ماذا تعني؟

– ألم يطلب القدماء من آلهتهم وأبطالهم أن يجسدوا القوة؟ مافائدة القوة العضلية في عام 1810؟ أنتم اخترعتم مدافع وبنادق، عدة حربية متقنة للغاية، لدرجة أن قوة الذراع أصبحت عديمة الفائدة. سيكون الرجل الذي كانت له هيئة هرقل فارنيزي سخيفاً هذه الأيام. أنا لن أتفاجأ بأي حال من الأحوال في أن بيير بول برودون أطلق زفيره عندما علم بانتصار فاغرام.

قال فريدريش وهو يحمَرّ من جرأته:

– لديك القوة، اترك لنا الأناقة!

وضع السيد غويون ليثيير يده بشكل مألوف على كتف الشاب لتعريفه على الحاكم والجنرال:

– إنه رسام ألماني يعمل في روما ويقدره طلابنا كثيراً.

استأنف فريدريش متشجعاً:

– في إيطاليا أيضاً، عرف كانوفا كيف يقرأ هزيمة العضلات في أرواح معاصريه.

بينما ضحك الآخرون على هذه الصيغة الغريبة.

قال ميوليس متذمراً:

– أتساءل حقاً، لماذا لا تتمتع هذه الحقبة المجيدة جداً في مآثر الأسلحة بعبادة أكبر للرجولة، كانوفا، كانوفا، محبوب من الجميع، مدعو إلى باريس،

مأمور بصنع تمثال الإمبراطور. وأضاف وهو يرفع رأسه: ربما كانت فضائل روما القديمة قد اتخذت اسمه ملاذاً لتتفادى هذا التراخي الشامل.

قال المحافظ:

- ومع ذلك، هذا هو الحال يا عزيزي، لا تنس أن مغني نابليون المفضل هو المخصي جيرو لامبوكر كريسنتيني. لقد سمعه جلالة الملك لأول مرة في فيينا بعد معركة أوسترليتز، واستدعاه إلى باريس ليقيم في التويلري واطلق عليه لقب فارس «التاج الحديدي».

رد الجنرال منزعجاً:.

- سيكون هذا لمكافأته على إصابته.

وضعت هذه الكلمة الطيبة الجميع في مزاج جيد. اقترب الأمير والأميرة كولونا لتوديعهم وانصرفا، وجعلهم الكاردينال بابيرني يسبقونه في السلم بشمعدانين. وغادر بقية الضيوف الصالونات بعدهم. قدم السيد دي تورنون مقعداً في عربته للأميرة روسبيجليوسي، أميرة كانينو، ألكسندرين بليشامب سابقاً، والتي رفضت الدوق المزيف تورلونيا وارتبطت بالأمير روسبيجليوسي، أحد النبلاء الأصليين لكنه فاسد جداً لدرجة أنه لغرض الحصول على منصب في الإدارة الفرنسية، كان من الممكن أن يرتكب دناءة أسوأ من العمل كفارس في خدمة محدث نعمة.

كان فريدريش سيرغب بإلقاء التحية على جان دومينيك انغريز، هذا المراقب حاد الذهن للمؤامرات الرومانية. كان يتمنى رؤية لوحة (اوديب) في المشغل الصغير في طرف الحديقة، فما تعلمه هذا المساء من مشروع اللوحة لراهبات كنيسة ثالوث الجبل (ترنيتيه دي مونت) شحذ فضوله.

في مواجهة الفيلا، اتكأ الأصدقاء الأربعة من لوكاسبوند على حاجز شارع ترينيتيه دي مونت. كانت الأشكال الشفافة للقباب والسقوف تبرز بوضوح في هواء الليل البارد.

أدار فريدريش رأسه إلى اليمين على الرغم منه، من جهة بينيسيو، هذه الحدائق السيئة السمعة المليئة بالأشواك والعليق والتي لم يكن يتم التحدث عنها في روما إلا همساً. ركض نحوها بعد أن كان كانوفا قد ركض باتجاهها

حسب قول الحاجب. كانت الإدارة الفرنسية قد أمرت بتجديدها على الفور بعد أن تعرض مدير مكتب البريد هناك ذات ليلة إلى هجوم من قبل شخصين مجهولين.

قال فريدريش لنفسه:

- مستحيل، لقد أخطأ الحاجب أو يوليوس. لن يغامر كانوفا بالذهاب وحيداً في المساء إلى مكان خطير. فلكي يعود إلى منزله سيراً على الأقدام في شارع ديل بايونيو، سيكون عليه أن يسلك طريق السلم الإسباني.

هبط عدد من السائرين في الليل العدد اللامتناهي للسلالم دون إسراع، بينما حملت العربات الضيوف. بقي فريدريش يفكر في مغادرة كانوفا المفاجئة بينما انطلق لودفيج وجوزيف إلى الدير، أما فرانز الذي فقد الرؤية في الظلام فكان يمكن أن يمضي الليل كله مستغرقاً في تأمل روما. اضطر فريدريش إلى أن يسحبه من ذراعه وهو يهمس في أذنه:

- هل نسيت بأن اليوم هو السبت؟

الفصل الثاني

صعد الأصدقاء عبر سيستينا، ثم استداروا يساراً، وفي غضون دقائق قليلة، وصلوا أمام بوابة ديرهم التي كان لودفيج يحمل مفتاحها في حزامه: سبقت الكنيسة حديقة صغيرة زينت واجهتها الوردية بزخرفة رصينة من الأعمدة والقوالب المغمورة بشعاع من ضوء القمر.على اليمين وعلى اليسار، كان يمكن رؤية نقش بارز فوق الأبواب يمثل ذراعين متداخلتين، وهذا الرمز الذي كان موجوداً داخل الكنيسة وفي الدير، كان يمثل شعار الفرنسيسكان حيث يمد القديس فرانسوا والسيد المسيح ذراعيهما ليقارنا ما بين جرحيهما النازفين. وينتمي الدير إلى الفرع الايرلندي للرهبان قبل أن يطرد الفرنسيون من كانوا يشغلونه، ولكن بقي حارس واحد فيه هو الأخ جيمس ماك كورميك، الذي كان قد أجَّره إلى لودفيج لغرض البقاء على قيد الحياة والعمل على توفير تكاليف صيانة المباني مقابل ستة وثلاثين ريالاً فرنسياً قديماً في السنة، بما في ذلك الغرف وصالة الطعام وفناء الدير وحدائق الكلية القديمة، ونظراً لحساسيتهم تجاه علامات القدر، اختار أصدقاء نادي لوكاسبوند دير القديس إيزودورو من بين جميع الأديرة الرومانية المهجورة، بسبب هذه المجموعة من الدلالات وموقعه في حي الفنانين بالقرب من فيلا ميديتشي، والميدان الإسباني ومقهى جريكو وهو مكان اللقاء الدولي للرسامين:كان شعار الصداقة مستنسخاً في كل مكان (وبالنسبة لفريدريش وفرانز، كان شعار الدم النازف يمثل جرحاً غير قابل للشفاء مثل الحب): وقد تم فك شفرة النقش اللاتيني تحت الرواق وتعني: (إخوة الشتاء)! إنه مكان مثالي إذن لأولئك الذين نزلوا من الشمال والذين منحتهم كلمة «إخوة» شعوراً بأنهم وجدوا ملاذاً مع بعض الطوائف الألمانية بدلاً من حصن الكنيسة الكاثوليكية.

وبعد أن أغرتهم هذه الصورة للحقول العاصفة والجليدية التي تستحضر لهم إيرلندا أقل تحديداً جغرافياً من بوميراني للوحات كاسبار ديفيد فريدريش، أعادوا تسميتهم على الفور ليحملوا اسم «إخوة الشتاء» وبدا لهم ذلك فألاً ممتازاً. لقد كان الدير مخصصاً للقديس إيزيدورو كما أخبرهم ماك كورميك العجوز، وهو مزارع إسباني ومتمرس في الزراعة، وقد فتن بشكل خاص فيلهلم الذي بدأ العمل على الفور بقلع الأعشاب من حقل الخضروات وزرع البقول وتشذيب الأشجار وتركيب أقفاص للأرانب والدواجن. كان كورميك متعجباً من لا مبالاة وجرأة هؤلاء الزوار الشباب، فقد كان لديهم في المنزل كل وسائل الخلاص التي كان الناسكون القدامى يبحثون عنها في الصحراء.

كان لكل منهم حجرتان متصلتان تُستخدم الأولى مرسماً والأخرى حجرة نوم. كان فريدريش قد وضع على الفور لوحة كبيرة على حامل اللوحات من شأنها أن تمثل إيطاليا وألمانيا في ظل السمات الرمزية لامرأتين. فالأولى سمراء ذات شعر داكن متوجة بالغار، يمكن للمرء أن يرى من خلفها، على خلفية جبلية، كنيسة سان داميانو الصغيرة، وتتخلى هذه المرأة عن يديها في دلالة على التواضع والخضوع بين يدي امرأة شقراء متوجة بالآس تضيء كتفها مدينة قوطية. بهذه الطريقة، تذهب إيطاليا إلى ألمانيا وتتقبل منها درسها النبيل والراقي: ربما هي طريقة لتجسيد فرانز الذي ظلت نماذجه هي دوريه ورسامي العصور الوسطى الجرمانيين ولكنها وسيلة أيضاً لإبلاغه بأن الشخص ذاته الذي يخضع لشهوة البحر الأبيض المتوسط (الشعر والبشرة الداكنين) مستعد أيضاً للاعتراف بالتفوق الأخلاقي للنموذج الشمالي الذي يرمز إلى الاعتدال والزهد (البشرة الوردية والخصلات الشقراء).

ومثل كل لوحة، سيكون لابد من الحصول على موافقة المجتمع بأكمله قبل البدء بها، كان فريدريش قد اعتبر أنه من الحكمة أن يرمز إلى حبهما من خلال اتحاد امرأتين، وهكذا، كان المشروع قد أعجبهم على الفور. لم يكن هنالك من موضوع عزيز على كل أعضاء لوكاسبوند أكثر من الانصهار بين الشمال والجنوب والعصور الوسطى وعصر النهضة، والعاطفة الدينية

والصرامة البلاستيكية. كان إخوة الشتاء، الواثقون تماماً بصدق رفيقهم قد قرروا منحه حصة إضافية من الزيت ليتمكن من العمل ليلاً.

فتح فريدريش باب مشغله وقرّب المصباح من اللوحة بينما عاد الآخرون إلى حجراتهم بعد طقوس إطفاء الأنوار وإغلاق السجل حيث كتب كل منهم بدوره أحداث اليوم على منبر أقيم في صالة الطعام الكبيرة. قال لفرانز:

- انظر، لقد أحرزتُ تقدماً جيداً.

منذ الأمس، اكتمل رسم الشكلين تقريباً. حدق فرانز بهما بصمت ثم قال:

- لن يجدها أحد صادمة!

كان قد لاحظ أخيراً أن المرأتين متعانقتان وأن إحداهما تضع جبينها على خد رفيقتها.

قال فريدريش:

- في الواقع، من حق امرأتين أن تمسك إحداهما بيد الأخرى في الشارع ومعانقة وحتى تقبيل بعضهما بعضاً وإظهار عاطفتهما في الأماكن العامة، وأضاف:

- بالنظر إلى اللوحة، إنه ظلم كبير، أننا ممنوعان تماماً من إظهار رجلين في نفس الموقف.

أجاب فرانز بصوت رقيق لدرجة أنه كان من المستحيل لصديقه أن يعرف ما إذا كان يتحدث بطريقة عامة أو كان قد أدرك معنى اللوحة:

- أعتقد أنها فرصة إلى حد ما.

سأل فريدريش مليئاً بالقلق:

- لماذا فرصة؟

- لأن بإمكان النساء أن يعرفن بنات جنسهن بسهولة أكثر من الرجال. فإيماءات النساء لا تشغلهن بالقدر نفسه. ويمكنهن تبادل المداعبات والقبلات من دون أن يشعرن بنفس المشاعر الدقيقة التي يشعر بها رجلان في الموقف ذاته.. ألا تحسد المرأة؟ ألا تحب أن تكون مكانها؟ هوية النساء الأكثر ضبابية تبدو لنا غامضة، فخلف كل ضيف من الضيوف الذكور للسيد غويون ليثيير، كان يمكن قراءة مهنته وعاداته المهنية بوضوح. السيد مولتيد

البدين، هل يمكن أن يكون شيئاً آخر غير مدير للبريد؟ والجنرال ميوليس الذي أظهر ندبته بفخر كوسام.. المرأة أكثر مراوغة، إنها ما نراه منها لكن لديها دائماً ما تخفيه. لقد دعا السيد دي تورنون الأميرة روسبيجليوسي إلى الصعود في عربته، وهذا يعني بشكل لا لبس فيه أن السيد دي تورنون يعشق الأميرة، أما الأميرة روسبيجليوسي فعندما صعدت في عربة السيد دي تورنون فهذا لا يعني على الإطلاق أنها تحبه. ربما تركت يدها للسيد المحافظ داخل العربة، فهل إذا أصبحت عشيقته لن تنتمي إليه بعد الآن؟

يظهر الرجال من خلال أفعالهم، أما النساء فيظهرن من خلال أحلامهن. الليل أنثوي والنهار ذكوري. أوه فريدريش! لقد قالها شعراء قبلي وبشكل أفضل بكثير. فلكي ترمز إلى اتحاد روحين، عليك أن ترتدي ملابس أنثوية، وإذا كنت قد قررت رسم رجلين، لكانت لوحتك حتماً ذات طابع عرضي وسردي. لم يكن من الممكن تفسير حركة الأيدي المتشابكة والخدود المتقاربة إلا بمعنى واحد، المعنى الحرفي والواقعي، وستعترف أنت نفسك بأن مثل هذا التمثيل....

لم يكمل عبارته، لكن فرانز قال ما يكفي ليجعله يشعر بالألم. همس بحزن:

– هل يمكن أن يكون لحب رجلين معنى حرفي وواقعي فقط؟

صاح فرانز وهو يمرر ذراعه بحنان حول كتفي فريدريش:

– ليس هذا ما قصدته، ولكن إذا قمت برسم رجلين يمسكان بأيدي بعضهما وينحنيان بحنان بعضهما نحو بعض، فسوف تستحضر فقط الجزء المادي والجسدي من صداقتهما. ألم تكتشفها بنفسك؟ ثم أضاف بابتسامة جعلت فريدريش يلقي أسلحته:

– إن امرأتيك، على العكس من ذلك، ليستا مجرد شخصين يجلسان في اللوحة على الحائط في علاقة حميمة ساحرة بل تجسدان الجزء الروحي من الحب. سوف تكون قادراً من خلال مداعباتهما على رسم أسطورة الأرواح التي تسعى للانضمام بحنين إلى الجنة المفقودة. وحتى الدعم الجغرافي للوحتك –المشهد الإيطالي على اليسار، ألم تتعرف فيه على سان داميانو؟ والمدينة القوطية إلى اليمين، ستعني أكثر بكثير من

تحالف الجنوب والشمال، أبولو ووتان. أليس وطننا هو الكون كله؟ في الريح التي تجوب الفضاءات بحرية، في الشفق الملتهب، في الجدول الذي ينزل من الجبل، ألا نحمد ربنا؟

من كل هذه الكلمات، فريدريش، تذكر قبل كل شيء أن فرانز لم ينتقد رسمه وسيحب لوحته، على الرغم من أنه خمن معناها الخفي والحميمي.

تابع فرانز من دون أن يبدو أنه لاحظ إثارة غضبه:

– إنها فرصة أخرى بالنسبة لك.

– في الواقع! فيلهلم لن يسمح لنا بإدخال النساء إلى الدير!

– رسم رجل بدون موديل سيكون مستحيلًا، فريدريش، يمكن التعرف على الرجل عن كثب من مظهره إذ لا يمكن تخيله في المطلق. أما بالنسبة للمرأة فالموديل يكاد يكون عديم الفائدة، سترسم شخصياتك وفقاً لأحلامك عن النساء أكثر مما ترسمه وفقاً للواقع. كيف ستختار لهم ملبسهم؟

– كيف سأختار لهم ملبسهم؟

– نعم، أنت أكثر حرية في اختيار الملابس للنساء، أكثر من الرجال، إذ يلبس الرجل دائماً حسب تجارته ومكانته الاجتماعية. ثم أضاف فرانز فجأة:

– مشدّ أحمر لإيطاليا، اترك الكتفين والرقبة خالية، سيكون مشد إيطاليا أخضر مع حواف من الفرو وبطانة برتقالية. سيكون فستان إيطاليا أزرق داكناً، وسيكون الحزام من القماش الأزرق الفاتح للغاية لألمانيا.

– ما أهمية ترتيب الألوان في لوحتي؟ هذه المحادثة سخيفة، لا يمكنني الاستمرار على هذا المنوال. ألا يمكنك أن ترى كيف أرتجف؟ فرانز، أنت لست إنغرز لتزور مشغلي، أنت فرانز، حبيبي.

– أنا أحبك أيضاً لكني أوضحت لك بالفعل أني لا أستطيع أن أكون الشخص الذي سيجعلك سعيداً تماماً. نحن نتمزق باستمرار، لكني لم أحاول إذلالك. أنا على ثقة من أنك لن تحتاج يومًا ما للحصول على دليل مادي على حبنا ولكن، في غضون ذلك، أنا لا أنتقدك ولا أحكم عليك.. إذا كنت تشعر بالإهانة، فسيكون ذلك أفضل في المستقبل.

سأل فريدريش بصوت مخنوق:

– ماذا؟ ثم أعرب عن أسفه لأن حديث فرانز من شأنه أن ينهي علاقتهما بشكل دائم.

قال فرانز:

– سيكون من الأفضل ألا آتي إليك بعد الآن في حجرتك، هل تعرف الفكرة التي خطرت في بالي؟

نظر فريدريش إليه بقلق، فقال:

– يجب أن تتزوج، أشعر كأن طريقك الحقيقي سيكون في الزواج. ستكون أقل غيرة. المرأة المتزوجة هي بطريقة ما مُلك للرجل. على أية حال، فالزواج يمنعها من الانتماء إلى شخص آخر، ولكن هنالك دافعاً آخر أكثر أهمية. لقد تركت إليزا لرغبتك في العثور على حب نقي، حب خال من أي اعتبار خارجي، حب لا يعتمد إلا على نفسه، على القوة والشعور، لكن هذا الحب محفوف بالمخاطر بطبيعته. لا شيء يدعمه ولا شيء يضمنه، ولا أحد يحتاج إلى الأمان مثلك... لا تلمني على التحدث إليك بهذه الطريقة، بالنسبة إلى حبنا الذي يجب أن يتحرر من روابطك ويعتمد فقط على إرادتنا الحرة، فقد وضع البشر روابط قوية، وعادات مستمرة مثل روابط وعادات الزواج. وأعتقد أنك يمكن أن تجد سعادتك في الزواج.

أجاب فريدريش منزعجاً:

– إنها مؤسسة لها ميزة الوضوح والصراحة.. أنت تدفعني إلى الفجور الشرعي.

التقط فريدريش المصباح الذي كان لا يزال على الأرض وتبع فرانز حتى العتبة. سمع الخطوات تبتعد وباب الغرفة يُغلق وصرير المفتاح في القفل. كان قلب فريدريش منقبضاً جداً فرفع عينيه إلى القمر الذي كان يرسل نوره فوق الدير.

«الزواج».. فكّر، ولكن لم تشكل هذه المقاطع في رأسه المرتبك إلا تعابير غير واضحة.

– إليزا... ماذا تفعلين في هذه اللحظة؟ هل تتذكرينني؟ لم أبدأ برسم صورتها بعد... لم أكتب لها ولا مرة واحدة.

الفصل الثالث

ثماني ضربات كل مساء بعدد ساعات النوم المسموح بها، واثنتا عشرة ضربة كل صباح مخصصة للعمل من الجرس المعلق في الدير عند مدخل الكنيسة. كان يرن أيضاً في المناسبات الكبرى كما حدث في أمسية السيد غويون ليثيير.. لقد أخذوا هذه العادة رسمياً.

كان يوليوس قد صمم بدلتين لكل أخ: واحدة للرسم في الاستديو والتأمل في الدير والاجتماع في صالة الطعام، والأخرى للخروج من المدينة. كان الزي المنزلي يتألف من سترة زرقاء (لون الإيمان) مفتوحة عند الصدر، وضيقة عند الخصر، ومزودة بأحزمة عند الوركين، وسترة حمراء (لون العمل)، تتألف من واقية صدر بيضاء (لون الحب مطرز عليها بأحرف كبيرة اسم الأخ. كانت السترة تحمل أزراراً على الظهر، ولا يمكن لأحد أن يلبسها أو يخلعها من دون مساعدة من رفيقه.

كان يكمل هذه التجهيزات الرمزية قلنسوة حمراء وحزام جلدي أسود لامع بمشبك نحاسي مصقول، ووشاح متهدل، وقلادة مليئة بالحلي الصغيرة. كان الحزام والوشاح والقلنسوة تذكرنا بكل من لم يفعل شيئاً سوى المرور على الأرض بهدف استئناف الرحلة.

لم يرغبوا بارتداء أية جواهر بخلاف تلك الأصداف التي لا قيمة لها والتي يعلقها الحجاج بقبعاتهم وهم في طريقهم إلى سانتياغو دي كومبوستيلّا. كانوا يجمعون الحلزونات والبطلينوس على الشاطئ في أوستا، وقد التقط يوليوس بعضاً منها أيضاً ليعلقها حول رقبته لكنها كانت منتظمة بشكل فني في سلسلة ذهبية، وكان الياقوت الأحمر يحتل المكانة الأولى. كان الحجر

باهظ الثمن ولم يعرفه أحد من رفاقه حتى ذلك الحين. كان يرتديه بلا تفاخر، كما لو أنه اشتراه بثلاثة باجوك من سوق بورتا بورتيس الشعبي.

لم يترك القداس الذي حضروه في سانت بيير، مدفوعين بالرغبة في تأمل مشهد رائع، لهم سوى المرارة والاشمئزاز، فلم يحسن الكهنة إقامة القداس، وغنى الأطفال بشكل غير متناغم، كما غطت طبقة من الغبار الكؤوس وأواني القربان التي لم يتم تلميعها منذ وقت طويل. بدا جوزيف فقط متأثراً بروعة المبنى وثراء الزخارف وأبهة الديانة الكاثوليكية. لم يكن الأرغن الذي كان ينبغي أن يملأ المكان بصوته الهائل المهيب سوى آلة بسيطة يتم نقلها على عجلات من كنيسة إلى أخرى، حسب ضرورات العبادة.

وإذا كانت روما قد فقدت الإحساس بالاحتفال فقد فعل الأصدقاء ذلك وفق القواعد الدقيقة والطقوس المحددة وبجدية كبيرة. كان كل شيء خاضع لبروتوكول صارم، الجداول، وجبات الطعام، جلسات الرسم إذ كان كل منهم يجلس كموديل أمام الآخر، الصلاة، الملابس، تسجيل الأحداث في السجل، التنزه في المدينة، الزي الألماني القديم، السراويل، الصديري، القلنسوات المصنوعة من القطيفة. كان من دواعي سرورهم أن يعتبروا أنفسهم رهباناً عاديين باستثناء ارتداء الشعر الطويل حتى الأكتاف مثل أعضاء الطوائف القديمة.

وفي المرة الأولى التي تنزهوا فيها بهذا الزي المضحك، تجمع حولهم الغلمان وهم يهتفون «الناصريون». لم يكن أحد منهم لم يعجبه هذا الاسم. كان كونراد قد تسلح بدرع مثل محاربي القرون الوسطى، وارتدى فريدريش رداء كهنوتياً لوثرياً، أما يوليوس فقد اختار زينة غريبة الأطوار. بالنسبة لفرانز، شعر بأن ما حدث كان هبة مقدسة طالما أسعدت الأطفال. لقد تجمعوا كلهم تحت هذه الراية التي كانت تشير إلى المسيحيين الأوائل.

لقد أحبط الصديري والقلنسوة المخملية طموحات يوليوس بعد أن اعتقد أنه سيحصل منها على ميزة تجعل منه شخصية كبيرة، ذلك أن فرانز هو الذي كان يلفت الأنظار في الشارع. كان منظره يستوقف الرجال والنساء لأنه نضج وتزين بالذهب بعد أن عاش الحياة الرهبانية في سانت إيزيدورو،

وتسكع في جبال الألب وحول بحيرة نيمي بحثاً عن الخشب الذي يحتاجه لتصليح آلة الأرغن، وتناول الغذاء الصحي الذي وفره له فيلهلم وذاق عذوبة المناخ الروماني التي أنعشت بشرته الشديدة الشحوب. انغرس الأطفال حوله وأعينهم مفتوحة على سعتها وتابعوه مع همسات دهشة وسرور بينما كان يصعد أو ينزل سلم إسبانيا. كان تكريماً عفوياً من عامة الناس للجمال الذكوري..

أي اختلاف مع ألمانيا؟ فكر فريدريش، ففي ألمانيا لا يحيي الناس الرجل على صفاته الجسدية فهذا الإطراء موجه للنساء فقط. كانت المزارعة العجوز آنا من نيمي التي تخدمهم مرة واحدة في الأسبوع قد أحضرت الزهور من حديقتها ووضعت باقة واحدة منها في قاعة الطعام وأخرى في حجرة فرانز. وعندما قابلته في أروقة الدير تمتمت: «كم أنت جميل يابني»، كما رسمت علامة الصليب بسرعة من دون أن تتمكن من معرفة ما إذا كانت تخشى التعبير عن نفسها بجرأة زائدة، أوما إذا كان فرانز مهدداً بالخطر الذي ملأها بالرعب.

قال يوليوس: «ما خطبها، ما هذا الرياء؟» كان غاضباً بالفعل لأنه لم يكن مركز الاهتمام عندما كان يتجول في روما مع فرانز، فقد رفضت هذه المرأة أن تدفع له ضريبة الإعجاب التي اعتاد عليها.

ذات صباح، أعلنت بالإيطالية عندما بدا أن الشتاء قد انتهى وانتشر دفء لذيذ:

– لقد هبّ هواء سيئ!

كانت ترتدي ألواناً داكنة في العادة لكنها ارتدت فستاناً أسود في ذلك اليوم، وربطت وشاحاً أسود تحت ذقنها.

هتف فيلهلم وهو يشير إلى أشجار البرتقال في الدير إذ كانت الوريقات الصغيرة ترتعش بشكل متواصل:

– يا له من هواء سيئ؟ بالعكس، إنه هواء جيد جداً.

هزت آنا رأسها، على الرغم من أن التأثير الضار لم يكن ملحوظاً من خلال أية دلالة خارجية، كانت قد ميزت «الهواء السيئ»، الهواء القاتل

الذي يفرغ الريف الروماني من سكانه ويتسرب إلى شوارع العاصمة. قالت بالإيطالية وهي تواصل ربط عقدة منديل رقبتها:

- هاهو الهواء السيء يهب، إنه سيء للغاية! حتى لو كنت تشعر بأنك تتنفس نسيماً يبدو لك لطيفاً، فالأرض تستعد للإنبات المقبل، وروما مليئة بالنضارة والتألق، لذا تشعر بأنك بحالة جيدة.

كانت تتوقف بعد كل جملة وهي تنظر إلى سكان إيزودورو الذين كانوا يلتفون حولها في نصف دائرة واحداً بعد الآخر. كانوا يظهرون وهم يغلقون أعينهم بلامبالاة كل الرفاهية التي جلبها لهم هذا الاسترخاء بعد قسوة الشتاء. بينما واصلت:

- الأوراق تتحرك، والطبيعة في حالة هياج.. لقد جمعت من أجلكم هذا الصباح أول زهرة فورسيثيا ومنذ الغد، ستكون التويجات مرصعة بنجوم ذهبية صغيرة. لكنها أكدت فجأة:

- كل هذا هو الهواء السيئ، كل هذا هو الموت!

قال لودفيج الذي كان قد نجح في تعلم الإيطالية من خلال الثرثرة مع تجار الحي:

- أنت تقولين هذا، يا آنا الطيبة، لأنك تفحصين غالباً الماء الأسود لبحيرتك.

- حباً بالله، ما عليّ إلا أن أرفع رقبتي حتى أراها من نافذتي!

كانت آنا تقيم في منزل صغير يطل على بحيرة نيمي.. وكان الماء الذي يملأ، عند سفح القرية، حفرة محيطها نصف فرسخ، له لون رمادي وكئيب. كانت النباتات الكثيفة والبلوط والدردار والسنط وأشجار الليمون والكستناء متشابكة للغاية بحيث يصعب فتح ممر نحو الشاطئ وكانت تصطف على جدران البركان القديم. لولا هذه الأشجار، كما زعمت المرأة العجوز التي كانت قد منعت فرانز من النزول لاختيار بعضها، لكانت الأبخرة النتنة المنطلقة من فوهة البركان ستغرق روما بنفثاتها المهلكة.

كطالب جيد من أتباع المذهب الفيزيوقراطي، اتفق لودفيج معها على أن عدم وجود الأشجار في الريف المحيط بالمدينة ساهم في وجود مناخ

غير صحي. ولكن، عندما شرحت له بتلقائية مزجت فيها اللاتينية بالخرافات الكاثوليكية أصل معبد ديانا في نيمي، شعر الشاب بالحرج. قالت:

– كان الرومان قد كرسوا الغابات للآلهة، من أجل إبعاد الناس ومنعهم من قطع الأشجار. وإذا ظل الوثنيون سادة، فلن يجرؤ أحد على قطع شجرة واحدة، بناء على اعتقاد غير متوقع بأن صليب الرب لا يمكن أن يكون مصنوعاً من الخشب.

– كان السيد المسيح قد تم صلبه على جذع شجرة بلوط، وسيتحرر الهواء السيئ المحبوس تحت الأرض ذات يوم للانتقام لابن الله.

وعلى الرغم من أن ذلك حدث منذ ما يقرب من ألفي عام، فلم تجد آنا صعوبة في دحض الاعتراض. ألم أخبرك بأن الموت قد لا يكون حلواً ومفيداً؟ إذا كانت مجرد دعوة إلى حياة أكثر سعادة، فلماذا لا تكون الرياح الخفيفة والنفثات المحملة بروائح لطيفة وعلامات مبشرة بالربيع لن تكون مسؤولة عن نقل الأخبار إلينا؟

وأضافت وهي تركز نظراتها تدريجياً على الأولاد السبعة لنادي (لوكاسبوند)، الذين تستهدفهم هذه الرسالة بشكل خاص، والذي سيفكر، بينما يتنفس للمرة الأخيرة هذا النسيم الخفيف من روما قبل أن يسلم الروح. كانت العجوز آنا على حق، إنه الموت! هذه الانطباعات الحلوة، وهذه النشوة التي تنتشر في عروقي، وهذه الرفاهية التي تسمو بي، إنها الموت!

قال يوليوس باقتضاب:

– إنها تهذر، فعندما تتجول المرأة القروية بعيداً في اتجاه البئر لسحب الماء للغسيل، فهي تلتقي بالعرافة دي كوميز وهي امرأة مسنة ضخمة ترتدي ملابس سيئة، إنها طائر شؤم، رسول الموت وغراب الشر. ثم اختتم غاضباً بأنها لم تر على وجهها بعض العلامات الجذابة التي اختارته ليكون ضحية هذه النبوءة الغامضة والشاعرية وغير المحتملة.

إذا كان الكونت شنور فون كاروسفيلد (يوليوس) سيظهر من الآن فصاعداً بشكل أقل وأقل في مرسمه وأكثر فأكثر في صالون الأميرة روسبيجليوسي، فهل سيتعين علينا إلقاء اللوم على خفة شخصيته التي لا

يمكن إصلاحها؟ بينما يستفيد رفاقه من محادثاتهم مع العجوز آنا، الخبيرة بأسرار الجبل، وأرملة الحطاب الذي تعلمت منه خصائص كل شجرة وكل نبتة، وعلاوة على ذلك، وبفضل مواهبها الخاصة، تمكنت من التواصل مع قوى العالم السفلي، بهذه الطريقة سيكون يوليوس مشتتاً من قبل النساء اللواتي لن يرغبن به ولكن يعرفن كيف يحطنه بالتملق المذهل بتحفظ طالما يشعر أنه يضيع بدونه. فبعد الأميرة روسبيجليوسي، التي تجده مسلياً أكثر من الكونت دي تورنون لكنه أقل فائدة لدعم مهنة زوجها، سيكون مجتهداً مع الأثرياء على الرغم من طيش الكونتيسة ديللا روفيري، ثم سينتقل إلى الناضجة والمرهفة الذوقة البيني، ولكن، هل سيحتقر الدير المتواضع في سانت إيزيدورو ومضيفيه الكادحين؟ لا، سيعود من وقت لآخر ليلتقي برفاقه القدامى، وسيأخذ أحياناً فرش الرسم مع أنه يدرك أنه لن يصبح رسّاماً عظيماً أبداً بل مجرد عضو من أعضاء لوكاسوند. لقد بدأوا بمبادىء خاطئة، بإعادة الرسم إلى العصر الذي سبق رافائيل، على أمل إعادة اكتشاف البساطة والشفافية التي كانت تميز العصور الوسطى، إنه منهاج عفا عليه الزمن لا يمكن أن يؤدي إلا إلى فن سليم وخالد ونقي بشكل مضجر.

كان يوليوس هو الأول ومن المحتمل أن يكون الوحيد الذي أدرك فشلهم وشخص أسبابه. لكن رقته الطبيعية، وتعليمه الجيد جعلا من واجبه ألا يقول أي شيء عن ذلك لرفاقه. كان هو، على العكس من ذلك، وبسبب قوة علاقاته مع القنصل البروسي جاكوب بارثولدي، قد حصل لأجلهم على عمولة اللوحات الجدارية في الطابق العلوي من قصر زكاري حيث استقر الدبلوماسي، بالقرب من ترينتييه دي مونت، وهو أيضاً، الذي، بواسطة الجميلة بالميتا، التي تمكنت من إقناع الماركيز كارلو ماسيمو، زوجها، بتكليف الناصريين بزخرفة ثلاث صالات في الكازينو الخاص بهم. بالنسبة للقنصل بارتولدي، رسموا قصص جوزيف وزوجة بوتيفار التي تسعى إلى إغواء الشاب، فيهرب من الفضيحة. أثارت هذه الحلقة مناقشات عاطفية بين الأخوة لمعرفة ما إذا كان ينبغي عليهم إضافة واجب العفة الرهبانية إلى قواعد مجتمعهم. ومما زاد في حماسهم أن المشكلة نشأت فقط بالنسبة لغالبيتهم بطريقة نظرية تماماً. لودفيج فقط كان قد وجد صديقة صغيرة في

المدينة. وفي كازينو ماسيمو، بالقرب من كنيسة القديس جون دي لاتران، رسموا مشاهد من دانتي، ومن أرسطو وتاسو، وتابع يوليوس أعمالهم، كما لم يثنهم عن تزيين دير سانت إيزيدورو من خلال سرد حياة القديس فرانسوا كما سرد حياة جيوتو في آسيزي.

رسم فرانز ما لا يقل عن ثلاث لوحات متتالية، في الأولى، ألقى القديس وسط الأشواك، ولإحياء ذكرى المعجزة، سأل لودفيج، الذي كتب بمساعدة قاموس وبحوث شعرية القليل من القصائد الإيطالية ليحولها إلى موسيقى، وأخذ منه مقطوعة شعرية رباعية الأبيات لينقشها تحت اللوحة. وفي اللوحة الثانية، يسير فرانسوا، بين ملاكين، على الطريق وهو يحمل حزمة من الورود على ذراعيه. ثم يجثو على ركبتيه، دائماً بين الملاكين ومع نفس الأزهار، أمام ربه ليقدم له الباقة، كان قد رسم ثلاث لوحات للاحتفال برفض الجسد! أما فريدريش، فقد حبس نفسه، محبطاً، في مشغله، وصنع في غضون ثلاثة أيام قصة القديس سيباستيان مما سمحت له به بقايا تعليمه البروتستانتي.

توقف يوليوس أمام اللوحة الرباعية، وبدلاً من أن ينتقد اللوحة الجدارية انفجر ضاحكاً بعد أن قرأ بيت الشعر الرديء الذي ألفه لودفيج. لاحظ يوليوس أنه من بين جميع أعضاء لوكاسبوند، كان فريدريش هو الوحيد الذي يمكن أن يرتقي إلى إتقان فنه، ربما لأن فوضى حياته الخاصة قد تركت آثارها على رسوماته. لقد شاهد جميع الرسومات وشخص الأخطاء فيها وجميع عيوب التنفيذ المشترك لمجموعة الأصدقاء بشكل صارخ في تلك الخمسة عشر قدماً مربعة من الرسم التخطيطي ومن الزنك الملون. حاول أن يتخلى قليلاً عن وقاحته.. كان يكن احتراماً غامضاً لفرانز هذا الشاب الغريب والبعيد جداً عن شخصيته. حاول أن يتعامل باللامبالاة المهذبة التي اكتسبها من خلال التردد على البلاط. لقد اتخذ قراره. لن يظل متضامناً مع مشروع محكوم عليه بالفشل. أما العجوز آنا، التي لم تلاحظ حتى وفرة خصلاته الناعمة أو ملامح وجهه الأخرى، فقد انتهت بطرده من الدير، طالبة منه إرضاء نفسه في مكان آخر، وأن يجرب سحره ووقاحته في الصالونات الأرستقراطية الرومانية. وحده من بين المسافرين السبعة المغادرين من فيينا، كان يتميز بشخصية ودية أكثر مما هي عميقة، كما كان دنيوياً مشتتاً وتافهاً

لكنه ذكي ومضحك، وقد يبدأ المزاح في لحظات مثيرة للشفقة. سيكون آخر ما سيحصل عليه من رفقته بالإخوة هو تغيير اسمه الأول، فقد فكر بوليوس المتزلف للإمبراطورية الرومانية المقدسة في استبدال اسمه بجوليو.. وقد تناقشوا لفترة طويلة في اليوم الذي أقيم فيه الاحتفال في منتصف الدير قبل اتخاذ القرار الذي عارضه البعض، لإضفاء الطابع الإيطالي على أسمائهم الأولى. وقتها، ابتعد فريدريش عن الرواق وتقدم حتى البئر، ومدّ يده فوق الماء الذي كان يرقد في الأعماق، وأعلن بصوت عال:

– أقسم أن أدعو نفسي فريدريكو من الآن فصاعداً.

ثم صعد عائداً إلى الأروقة، وتقدم كل من الإخوة بدوره هاتفاً بنفس الطريقة بالكلمات الثلاث المختصرة ولكن الرسمية، قال فرانز:

– وأنا فرانشيسكو

– وأنا غوغليلمو، قال فيلهلم، وهو الشخص الوحيد الذي لم يكن يرتدي القبعة الحمراء، من منطلق الولاء لقبعته الألمانية القديمة، كان يضعها دائماً على رأسه، في الخارج وكذلك في داخل الدير.

– وأنا كورادو

– وأنا لويجي

– وأنا جوزيبي

– وأنا جوليو، قال الحاجب السابق للبلاط النمساوي، وهو يلوك شفتيه بنهم على مقاطع اسمه الجديد.

كان الطموح للتجديد من خلال معمودية جديدة، والرغبة في الانفصال عن هويتهم المدنية كفنانين، والثقة في وطنيتهم المناهضة للفرنسيين من الإيطاليين، هي دوافع قوية بما يكفي لجعلهم يقبلون ما بدا أنه عدم ولاء للأمة الألمانية، التي تدهورت بسبب زواج ماري لويز وانضمام أكثر من ثلاثين أميراً إلى حلف نهر الراين.

كانت الأسماء الإيطالية تترجم التاريخ الداخلي والشخصية الصميمية لكل أخ، فقد كانت المقاطع الهادرة لاسم كورادو تعبر عن الغضب والوطنية،

والشيء ذاته بالنسبة لاسم غوغليلمو، أما اسم جوزيبي فكان ذا إشارة تافهة لكن الشاب تبناه بتواضع الصبي الذي اعتاد من مغامرته عند بتهوفن على الاستسلام لدور التابع، بينما كان اسم لويجي من الأسماء الإيطالية النادرة للغاية ويلائم الشخصية المتواضعة التي لا تفكر إلا في شراء خيط أحمر لإعادة تطريز واقيات صدورهم.

لقد تفاجأ فريدريش بأن اسمه تحول إلى فريدريكو الذي يعني (الغني بالإيمان) بينما كانت طريقة تفكيره بفرانز تفرض عليه التخلي عن مظهره الخادع والتمرد على عبوديته له. أما فرانز، فبعد أن انحنى على الماء الأسود وأدى اليمين فوق البئر، استدار ليذهب ويأخذ مكانه تحت الرواق. إلى أي مدى كان يحلق الآن فوق الأرض؟ نظر إلى الفضاء وابتسم من دون أن يراهم، تعثر ومد يديه متلمساً أمامه كما لو أنه لم يعد يتعرف على نفسه وسط رفاقه، فقد كان عائداً إليهم من إقامة في عالم آخر.

لفترة طويلة، كان معفياً من تقشير الخضار وغيرها من الأعمال المنزلية، ولكنه كان ينزل عن طيب خاطر من منبر الكنيسة حيث كان يقوم بتصليح الأرغن القديم لـ (سانت إيزودورو) إلى المطابخ، إما لإحضار بقايا الخشب والحطام من الألواح التي كانت تسد الطريق أو ليشعل الفرن والنفخ على النار. كان يراقب طهو الطعام بشكل طبيعي وقد اعتدنا على رؤيته يتجول حول الأواني ويفتح ويغلق باب الموقد. كان قد قام باستبدال الحطب المحترق وحرك الجمرات، وكان ذلك مفاجئاً، لأنه وبعد أن قرر عدم لمس معظم الأطباق، استمر بتناول منتجات الألبان والفاكهة.

لاحظ جوزيف، وهو يرفع عينيه مصادفة من الحوض الذي كان يقلّب فيه لحم العجل ولحم الخنزير والبصل من أجل اليخنة، أن فرانز كان يجتاز المطبخ وهو يحمل جمرة في يده فأطلق صرخة وألقى بالملعقة في الحساء وهرع للقاء رفيقه. بدا فرانز، وسط كل هذه الضوضاء كأنه خرج من حلم، فأسقط الجمرة وأصابت يده حروق عميقة.

- أنت مجنون؟ صرخ لودفيج وهو يركض لنجدته، وذهب بنفس السرعة للبحث عن الصيدلية.

قال فرانز بصوت رقيق وهو يخضع لتضميده:
– الآن، نعم، أنا أتألم.
أكد جوزيف ذاهلاً:
– إنه يحرق نفسه ولا يلاحظ ذلك.
حدق فرانز من دون أدنى اندهاش في قطعة الخشب التي كانت تطلق دخاناً على الأرض.
قال بخجل:
– معذرة.
تم العثور على اليخنة المحترقة، وظل فيلهلم بجوار الموقد وهو يراقب عجة أكباد الدجاج، فلم يكن ليوافق قط على معالجة الطعام المحترق.
تكهنت آنا على الفور، بعد استشارتها بشأن الجرح، أن الأمر لم يكن حادثاً كما أرادوا لها أن تعتقد. وتمتمت:
– ابني، أنا أعرف الأعشاب التي ستعجل في شفائك.
اختفت لمدة يومين وعادت مع نباتات نادرة يمكن أن تقاوم أخطار الهواء الفاسد، كانت قد قطفتها من ضفاف بحيرتها بكدّ وجهد، بعد أن شقّت طريقها عبر الأشجار الكثيفة، وبدلاً من وضعها على الجرح، رتبتها في باقة وثبتتها على الحائط في غرفة الشاب فوق سريره، كما لو أن فضائلها العلاجية لم تكن لإصلاح الأنسجة التالفة بل لمساعدة فرانز على التعافي من تحدٍ جديد لغريزة البقاء.

كان السجل الذي سجلوا فيه أحداث اليوم قد ظل مفتوحاً بشكل دائم في صالة الطعام، على منبر الكنيسة المصنوع من البرونز المذهب. وكانت النافذة تواجه الجنوب والمنبر الموضوع أمام النافذة. ما هو الشيء المثير للاهتمام الذي يمكن ملاحظته؟ أسماء القصور والكنائس، تواريخ اللوحات، أوامر التصاميم، النفقات والإيصالات، النزهات في نيمي وفي غروتافيراتا. هل كانوا سيضطرون إلى تسجيل أفعالهم وحركاتهم اليومية من دون ميلهم الواضح لاستخدام الرموز والأرقام.
سبعة أخوة للشتاء، سبعة أيام في الأسبوع.. كانت المصادفة هي التي

قررت ذلك، وقد أدى تقسيم الأيام إلى بضعة نزاعات ودية، إذ كان الثلاثاء (يوم المريخ) أي إله الحرب قد نسب بلا مناقشة إلى كونراد، والجمعة هو (يوم الزهرة) قد نسب إلى يوليوس، والأربعاء (يوم عطارد، إله التجارة) قد نسب إلى مضيفهم لودفيج، ولم يكن من الممكن أن يناسب يوم السبت (يوم الصخب) ولا الأحد (يوم الرب) تواضع جوزيف، الذي كان خائفاً من معرفة أن يوم الخميس كان يوم زيوس، حاكم أوليمبوس، وطلب من فرانز أن يمنحه يوم الإثنين المخصص للقمر، لكن فرانز كان قد اكتشف أن القمر كان امرأة بالنسبة للإيطاليين: لالونا، هي ثلاثة مقاطع تشير إلى الرقة والغموض الليلي، وليس كما كان لدى الألمان (ديرموند) ويعني القصير والتافه والمنغلق على نفسه لذا أصر على الاحتفاظ بيوم الإثنين.

لم يترك فرانز المكتب في مكانه، أمام النافذة المفتوحة على الجنوب، بل حمله إلى الجدار المواجه، ليدير ظهره للشمس ويكتب. لم يستطع رفاقه أن يتصوروا أنه يحرم نفسه من الضوء الروماني الجميل، الذي كانت موجاته تضيء الحجرة المظلمة والرطبة.

دمدم فيلهلم بصوت غاضب من هذا الانتهاك للقاعدة المعمول بها:

- في كل مرة يتعين علينا نقل المنبر مرة أخرى.

انتهى فرانز من ملاحظة مجموعة من أشجار الزيزفون التي كان قد رآها في نيمي، واستمراراً في حركة خط الكتابة، مد ذراعه إلى اليمين. وسألهم بعبقريته في طرح أسئلة بسيطة حول مواضيع مهمة:

- لماذا تكتب كل الشعوب السامية من اليمين إلى اليسار، ولماذا تكتب كل الشعوب الآرية من اليسار إلى اليمين؟

نظروا بذهول بعضهم إلى بعض:

- عندما بدأ كهنة غرب آسيا وأفريقيا بتتبع حروفهم الهيروغليفية على جلود الحيوانات أو على الألواح الحجرية، كانوا معتادين على الاستدارة نحو الجنوب، وطن أسلافهم، ولكن في أي اتجاه كانوا سيوجهون أيديهم، إن لم تكن نحو الشرق، مصدر النور؟

كانوا يكتبون إذن من اليسار إلى اليمين. وقد تعلم كهنة العرق الأبيض

كتابة الكهنة السود، باستثناء أن يتحولوا إلى قطبهم الطبيعي وهو الشمال. كيف يمكن أن تستمر العلامات في الاتجاه نحو الشرق، نحو مصدر الحياة كلها؟ لقد غيروا الاتجاه. ومن هنا جاءت الحركة على يمين حرف الألفباء الجرماني القديم السلتي، واللغة الزرادشتية والسنسكريتية واليونانية واللاتينية وجميع كتابات الأجناس الآرية. إنهم يسرعون نحو الشمس.

في الأيام الأولى من الربيع، الذي أتى في وقت مبكر في روما، بدا فرانز مضطرباً على الرغم من أنه كان أكثرهدوءاً في العادة. نزل من رواق الكنيسة وترك جهاز الأرغن خاصته لبضع لحظات ليجلس في الحديقة ويراقب عودة طيور السنونو. كانت قد أمضت الشتاء في تركيا، وستعود أقوى من إقامتها في بلاد الشام: إنها أكثر حكمة من البشر الذين لا يعرفون إلى أين يذهبون ولا أين يعودون، فهم لا يضيعون ولا يعثرون على أنفسهم. ولكن وبينما كان فريدريش يستمع لصديقه وهو يمجد حكمة هذه الطيور الجوالة التي تهاجر من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب، كان قد تساءل بقلق عما إذا كان الحنين إلى هذه الأراضي البعيدة لم يكن إلا وسيلة غير واعية للانفصال عن لوكاسبوند، عن روما، عن حبهما ذاته، بحثاً عن الجنة الأسطورية التي لن يجدها في أي مكان على سطح الكرة الأرضية.

في الصباح الباكر، خرج الشاب إلى الدير، وجلس على حافة البئر. كان يدير وجهه بالتناوب نحو الشمس ثم نحو طبقة المياه الجوفية. ثم أخذ حفنة من التراب من سفح واحدة من أشجار البرتقال، وانتظر واقفاً بالقرب من الشجرة، التي كان النسيم يحرك أوراقها.

فاجأه فريدريش بهذا الشكل، كان يبدو عليه التوتر والقلق طالما كانت الريح بطيئة في الهبوب، واطمأن بمجرد أن بدأت الأغصان تهتز. بقي واقفاً، وهو ينثر التراب من بين أصابع يده المفتوحة بينما احتفظ بكمية قليلة منه في راحة يده، وعاد للجلوس على حافة البئر، حيث الماء الأسود في قاع البئر، والشمس الحارقة بشكل متزايد بحيث لا يمكن احتمال أشعتها لأكثر من بضع دقائق، وغمغمة النسيم التي ساعدت على إثارة البهجة في نفسه. أغمض عينيه وهو يحرك أصابعه بعناية، كما لو أنه بدلاً من الضغط على

القليل من القشرة الأرضية في يده، كان يعجن بعض الطمي الموجود مسبقاً في سفر التكوين.

اقترب فريدريش من دون أن يحاول الاختباء، فارتعد فرانز من ضجيج خطاه، فنهض وألقى التراب خلفه. قال ليبرر اضطرابه:

- لقد أخفتني.

ثم وضع يديه خلف رأسه وهو يدعك الواحدة بالأخرى ليمسح، من دون أن يرى فيردريش كل أثر لما كان قد فعله، ثم ابتعد بسرعة عن البئر واحتمى تحت الأقواس. قال وهو يغمز بعينه على الرغم من أنه كان الآن في الظل:

- هذه الشمس قوية جداً.

رد فريدريش بحزن:

- لكنك كنت تتوجه نحوها بحب وعبادة.

أدرك فريدريش أن السرية التي أراد فرانز أن يحيط بها عاداته الصباحية كانت تشكل جزءاً من العبادة لقوى الكون، مثل الكاهن الذي، وسط الخاطئين، كان يرسم خلسة علامة الصليب التي يمكن أن يدركها الله وحده. لقد اعتبره صديقه مخطئاً للغاية بحيث لا يمكن له أن يطّلع على هذه الألغاز.



الفصل الرابع

بمجرد صعوده قرب الأرغن، تحول فرانز إلى فتى قادر وماهر، كان يجب أن تراه مع مسطرته وقلمه الرصاص وآلة الثقب وهو ينغمس في إجراء حسابات دقيقة أو يصحح بحذر غير محدود قطعة خشب تالفة. لم تكن هنالك لحظات أحلى عند فريدريش من تلك التي قضاها في معرض الكنيسة حيث وضع فرانز منضدة عمله. وبعيداً عن التأجيل بسبب التفاصيل الفنية، أخذ حالات الترميم الطارئة على محمل الجد! وطمأنته كثيراً حركات الحرفي الماهرة والدقيقة! فلا مزيد من أحلام اليقظة التي كانت تختطفه، ولا مزيد من الرحلات الخيالية في أرض الأوهام!

كانا يعملان معاً، وكانت أقدامهما على نفس الأرضية، وكان يركز ذهنه على نفس مهمة صديقه الذي أجبره على اكتناه أسرار عمله الصغيرة إذ كان يقوده بصبر في غابة الأنابيب، ويعلمه كيف يتعرف على نفسه في متاهة القضبان، والصمامات والكلاليب والأوتاد وأخشاب التثبيت والمثلثات والبكرات والأقطاب الضرورية لتشغيل الآليات!

كان فرانز الواقعي والعملي بحاجة إلى مساعدة لتمرير الأدوات إليه، وكان فريدريش يخطئ في آلة أو يخلط بين عتلات مختلفة، لذا وضعتهما حماقته في مزاج جيد. أعادهما ذلك إلى الفترة السعيدة عندما كانا يستمتعان بصنع أكلة دسمة أو تحضير الرنكه بالبطاطس في مطبخ مينجستراسي، وشعر الشاب كأن ثقته في حبهما تولد من جديد وسط الأواني والنشارة.

كان جهاز أرغن سانت إيزودورو، في حالة سيئة للغاية، فقد وجدا فيه منفاخين معطلين من أصل ثلاثة، وكانت طيات الجلد متهرئة وفيه مفاتيح

عديدة مكسورة، وأنابيب غطاها الغبار تفكك لحام بعضها، أما الأخرى فكانت مفقودة أصلاً.

علق فرانز على الجدار نسخة لوحة رافائيل وعثر على جميع معدات الصيانة في الطابق العلوي، وطلب من فريدريش تشغيل المنفاخ بينما كان سيقيس الضغط باستخدام أنبوب زجاجي وأدخل الفوهة في ماسورة الهواء في الأرغن، ونفخ الهواء في الأنبوب ودفع الماء الذي ملأه إلى النصف. قاس فرانز إزاحة الماء. ووجد أنها نصف ما كانت عليه في الأرغن الألماني وفاجأهم هذا الاختلاف.

كانت هذه القطعة موضع تقدير كبير من قبل يوهان سيباستيان باخ. جلس فريدريش أمام لوح التحكم وقام بتشغيل مقبض المنفاخ الذي يصدر صوتاً يشبه التنهيدة الأخيرة لأرغن محكوم عليه بالصمت الطويل بسبب الإصلاحات اللازمة فيه.. فجأة، اقتحم الرواق راهب يرتدي ثوباً ممزقاً عند الأكمام، وكانت هنالك عدة أحزمة جلدية مقطوعة في نعليه.. لابد أنه كان راهباً فرنسيسكانياً في حالة مزاجية متقلبة بشكل مبالغ فيه. تساءل فريدريش:

- ولكن، ألم يتم طردهم جميعاً من الدير؟

كان يتوج رأسه إكليل من الشعر الأبيض ويشير نتوء أنفه الضامر والعظام البارزة في وجنتيه ورقبته الهزيلة وجسده النحيل إلى تقدمه في السن وتدهور صحته، مع ذلك، كان يلوح بذراعيه كما لو كانت طواحين هواء ويطلق صوتاً كالخوار المستمر، ومن دون أن ينبس ببنت شفة، اندفع إلى المنفاخ المشقوق وأراد تشغيل المقبض لكن الطاولة المرفوعة سقطت بضجة على الجلد الذي كان قد تم فك غرزاته للتو. أطلق الراهب صرخة وانقبضت عضلات وجهه تحت تأثير الألم الشديد، مواصلاً تحريك ذراعيه واندفع خارج الرواق في السلم الصغير، ثم ترك الكنيسة وهو لا يزال يجري وتلاشى صوت خطواته في أعماق الدير.

سألهم الأخ ماك كورميك الذي كانوا قد سردوا له مغامراتهم:

- هل قابلتم الأخ إدوارد؟

كان حارس سانت إيزيدورو يسكن في شقة صغيرة في جزء من الدير لم يذهبوا إليها قط، وكانت تتضمن أيضاً ديراً آخر وحديقة نباتية. قال لهم:

- إنه أحد إخواننا، وقد فقد عقله منذ أن شتت الفرنسيون الطائفة. كان مسؤولاً عن المنفاخ، وبفضل قوة ذراعيه، كان جهاز الأرغن يعمل بشكل جيد، وعلى الرغم من حاجته إلى تصليحات قبل سرقة الأنابيب من قبل جنود نابليون.

وعندما دخلوا في النور الخفيف لممر مسقف، أخرج الراهب من حزامه قنينة صغيرة من الويسكي وبحركة واحدة من رأسه، أفرغ نصفها في جوفه.

تلعثم وهو يمسح فمه ضاحكاً وقال:

- عفوكم! كان عليكم سماع أرغن سانت إيزيدورو. كان يدوي في كل بهاء وروعة وكانت تصدر عنه أصوات صاخبة ويشيع الابتهاج في الكون كله ويجسد روعة ما وراء الطبيعة.

والآن، ولأن الدير أصبح فارغاً وصمت جهاز الأرغن، وبسبب الخراب الذي حل بديره، انتهى الأخ بإفراغ ما تبقى من الويسكي في فمه وقاد فريدريش وفرانز إلى باب الدير الصغير، الذي استبقاه لنفسه، وهناك، شاهدوا وهم يختبئون خلف الدعامة ومن خلال الباب الموارب الرجل البائس الذي كان يدور في الفناء بلا توقف ويحرك يديه باستمرار. كان غالبًا ما يمشي، لكنه عندما لا يعود قادراً على كبح هيجانه، فقد كان يبدأ بالجري. كان الرجل العجوز بملامحه المليئة بالتجاعيد ونحافته كهيكل عظمي يجد ما يكفي من الطاقة للالتفاف حول الدير إلى أجل غير مسمى دون أن يتباطأ أو يسمح لنفسه بأدنى توقف لمقاطعة حركة ذراعيه الدائرية، ومن مؤخرة حنجرته، كان يصدر نفس الأنين المستمر الذي كان قد أثر فيهم في الرواق.

انسحبوا على رؤوس أصابعهم من دون أن يجرؤوا على النظر بعضهم إلى بعض، فربما كانت العزلة الطويلة أو كأسان من الكحول، هي ما جعلت من هذا الراهب ثرثاراً. تابع صوت منخفض:

- إنه يعتقد أنه يسمع دوياً يزمجر في أذنيه باستمرار. وإذا كان يسير ليلاً ونهاراً حول الدير ويحرك يديه كالطواحين، فهذا لأنه كان خاضعاً لنظام

كوني عظيم. إنه يعيش مسمراً على عجلة الزمن، وكان الدوي غير المنقطع ينتزع أنينه.. أليس هذا هو أغرب جنون؟ ليحمنا القديس باتريك؟ أضاف وهو يشير بيد واحدة ويداعب بالأخرى زجاجة فارغة صغيرة. لقد حمل على عاتقه مهمة الدوران بلا انقطاع لتدارك الكارثة التي من شأنها أن تدمر الكون إذا ما انقطع عن الحركة.

قال فريدريش:

– لكن، ألم تحاول رده إلى صوابه؟

– رده إلى صوابه؟ لقد مر عام منذ عودة الأخ إدوارد إلى الطفولة. لقد حاولنا في البداية التحدث معه، والترفيه عنه، وإشغاله ببعض الأعمال التي من شأنها أن تشتت انتباهه عن وسواسه. بل عاد الإخوة المنفيون إلى الدير لزيارته، فهل تعرفون كيف استقبلهم؟ بالشتائم والصراخ الرهيب.ماذا؟ كان يصرخ في وجوههم، وكان يمكنهم تمالك أنفسهم وهم واقفون أمامه والبقاء هادئين وهم ينظرون إليه. وبالتدريج، تباعدت الزيارات وانتهت بالتوقف نهائياً. وبقي الأخ إدوارد وحيداً تماماً، وها أنا أضع له طعامه وأجبر نفسي على عدم رؤيته لأنه سيخاصمني أيضاً لو رآني.

– ألا يتوقف أبداً؟

– أبداً، خارج ساعات النوم. ولكن من الأفضل أن يكون الأمر كذلك. لقد لاحظت أن ذلك يحدث له خلال الليالي التي يكتمل فيها القمر، ففي بعض الأحيان، يدرك حالته ويتخيل ما يمكن أن تكون عليه حياته لو لم يتم تسخيره لهذه المهمة المضنية. إنه ينهار على الأرض، وينفجر في بكاء جامح ويولول بصرخات كبيرة بسبب هذا الضجيج الذي يملأ أذنيه ويمنعه من العمل ومن أن يكون نافعاً.

كانت حديقة الخضروات مهجورة، وكان بلاط الدير معرضاً لخطر السقوط، لكن اللحظة التالية هي الأسوأ فقد كان الأخ إدوارد يبدأ بقفزة على قدميه، يائساً من مقاطعة حركة الزمن، ليتابع سباقه حول الدير في محاولة لتدارك الكارثة التي ستقع على العالم، إذا ماتوقفت العجلة الضخمة عن دورانها بقصور منه.

- ليت القديس باتريك يعفيني! ربما يمكنني أن أشتكي لأن الحصار القاري كاد يجفف قبو الدير، ولكن هذه لم تكن أكبر جريمة سيحاسب عليها نابليون أمام الله!

- أليس هنالك أمل في الشفاء؟

- لقد صعد إلى الرواق من دون أن يمطرك بالشتائم؟ لقد رآك تصقل وتنحت قطعاً من الخشب من دون أن يوبخك بشدة على ذلك؟

قال فرانز:

- في الواقع، لقد أطلق صرخات حادة، ولكن فقط عندما لاحظ أن المنفاخ لم يعد يعمل وأنه سيكون من المستحيل انتزاع أدنى صوت من الأرغن.

قال لي بين شهقتين:

- ربما هذه علامة جيدة، أتذكر ذات يوم خلال واحدة من هذه الأزمات التي كان يواجهها عندما يدرك جنونه:

- أوه! كيف سأود التواصل مع يدي وقدمي بحركات لطيفة وهادئة؟ نعم، كانت هذه بالضبط هي العبارة التي قالها: «حركات لطيفة وهادئة بيدي وقدمي». لمدة عام، لم يغادر هذا الدير الصغير، والمحاولات التي قمت بها هذا الصباح ستجذبه بقوة لا تقاوم! من يدري ما إذا كان لن يعود ليجدك.. ولكن انتبه لردود فعله عندما سيكتشف أنك قمت بتعطيل الآلة لفترة طويلة!

عندما سار الصديقان بصمت عبر الممرات عائدين إلى الجزء الخاص بهما في الدير، سأل فرانز:

- مارأيك في الأخ إدوارد؟

كان فريدريش سيفضل التعليق على روح الدعابة للراهب الآخر الذي تحدث عن الحصار القاري بنفس عدائية والده، وللأسباب ذاتها، لكنه رأى أن فرانز لا يشعر بالرغبة في الضحك، ولاحظ في زاوية فمه ابتسامة غامضة. لذلك، وعلى الرغم من تأثره بشدة بضيق الرجل العجوز وحيرته، أجاب بغضب على الفور مؤنباً نفسه:

- أوه، ما هو إلا مريض مسكين، ومجنون!

همس فرانز:

- لم يعانِ أي رجل بمثل هذا العنف.

- اضطراب طبلة الأذن، بلا شك، وهلوسة سمعية.

- كم الساعة، أخبرني؟

مذهولاً، أخذ فريدريش من جيب صدريته الحمراء ساعته وسلمها إلى فرانز:

- شكراً، فريدريكو.

لم يعتد الناصريون على أسمائهم الأولى الجديدة، وكان فرانز وفريدريش يناديان بعضهما بالإيطالية أحياناً عندما يكونان بمفردهما. شكر فريدريش، الذي لا يزال حساساً تجاه هذه الإشارة الحميمة من صديقه بابتسامة:

- فرانشيسكو، هذه هي المرة الأولى التي تهتم فيها بمعرفة الوقت!

- أفضل أن أسمعك هكذا أكثر مما تتحدث إليّ بنبرة لا تعود لك.

- ماذا تريد أن تقول؟

- نعم، في وقت سابق، أجبت على سؤالي بغيظ أكيد كأنك تريد أن تعطيها لهذا الراهب.

ولكن، فريدريكو، مخلصاً، أضاف وهو يأخذ يد الشاب في يده:

- أريدك أن تأخذها لنفسك؟

- لنفسي؟

- لقد منحك والدك هذه الساعة، كما أخبرتني، ولم تغادرك قط. خذها، ضعها على قلبك. إنها قوتك، فريدريكو، إنها تمثل ما يقدمه لك التعليم الأكثر احتراماً والأكثر فائدة: السيطرة على نفسك، سهولة التغلب على الصعوبات، إتقان العمل، الدقة في عملك (الرسم)، لكنها تمثل ضعفك أيضاً، وهي رمز ما ستفتقده دائماً وما شعرت بالحرمان منه وأنت تنظر إلى إدوارد وهو يركض حول الدير. حولنا أشياء عظيمة ومعتمة للغاية، وقوى غامضة جداً تعمل في الكون لدرجة أن ساعة ثمينة وأثيرة تستلمها من أي محترم ولا يمكنك حمايتها منها، إن لم يكن ذلك تعويذة ساحر. أنت

لا تريد أن تعرفها عادة، وأنت على حق ربما، فريدريكو. ولكن اليوم، هل أدركت أنك قد أوكلت خلاصك إلى تعويذة ساحرة؟

كان فريدريش يود الاعتراض، لكن ضغط يد فرانز على يده، واسم (فريدريكو) الذي يردده بحنان، وغرابة هذه اللغة أيضاً والعذوبة التي يهمس بها هذه الكلمات جعلته يخفض رأسه ويستمع إلى البقية بصمت. استأنف فرانز:

- لم يمتلك كل العالم فرصة الولادة في مدينة تجارية كبيرة في كنف عائلة مارست أفضل الفضائل البرجوازية! لكني أفرح، بالتأكيد! -أضاف وهو يراقب الوجه المنقبض لصديقه- لم تكن لتغادر لوبيك ولم تكن لتذهب في رحلة على طرق مجهولة، ما لم تشعر، أنت أيضاً، بدعوة من بلد بعيد حيث لا يكون المرء واثقاً من قدرته على العودة منه. والآن، هيا بنا نتوقف للحظة وانظر في عيني، فعلى الرغم من أنه لا يبدو واضحاً جداً في هذه الكنيسة، ولكن هل تسمي شخصاً مجنوناً لأنه يعاني من الوقت كعبودية ولأن الإذلال المتكرر للقيود المادية الصغيرة لا يطاق بالنسبة له؟ يبدو أنه محكوم عليه بأن يظل مقيداً بعجلته وأن يكفّر عن خطيئة آدم. هل هناك جنون يمكن أن يؤثر فيك أكثر من هذا؟ أوه! فريدريكو، كنت أعتقد أنك ستقول لي عندما سألتك عن الأخ إدوارد: «لقد صادفنا روحاً سماوية تائهة في جسد بشري» لكن هذا ما تعتقده حقاً، أليس كذلك؟ ختم كلامه وهو يصعد السلم الحلزوني.

عادا إلى الرواق. وللإجابة عن ذلك، أخذ فريدريش ولاعة من فوق الرف وأشعل الفرن لتحضير اللحام للأنابيب التالفة، وبينما كان فرانز يسَخّن حديد اللحام، وضع في قدر بعض الغراء ونبيذ أبيض إسباني تم وزنه وفقاً لتوصيات صانع آلات الأرغن أنتيغناتي، الذي احتوت مكتبته في سانت إيزيدوروعلى بحث ثمين، ثم حرك المزيج حتى بلغ درجة الحرارة المطلوبة. كان هناك بقايا من البصل موضوعة في وعاء بعد أن قام فيلهلم بشيّها لغرض استخدامها في فرك الطرف النحاسي لحديد اللحام.. كان فرانز قد أعد في اليوم السابق عصي اللحام الصغيرة: سبيكة من الرصاص والقصدير مصبوبة بشكل منصهر على خشب البلوط في أخدود تم صنعه

بواسطة مطرقة. أمسك بالحديد، ووضع عصا على لوح رخامي مخبأ لهذا الغرض من أنقاض الميدان، ضاغطاً على طرف الأنبوب بينما غلف فريدريش الأنبوب بالصمغ والنبيذ الأبيض الإسباني..

قاموا بعمليات صغيرة لا حصر لها كان يمكن أن تسحر الشاب بدقتها وغرابتها أحياناً. لقد تذكر كيف كان والده وأجداده ينزلون منذ أجيال إلى أقبية المستودع العائلي في أول كل شهر للتحقق من الزجاجات المخزونة واحدة بعد الأخرى.. كان ينتمي إلى جنس أولئك الذين يتحكمون، ويقيسون ويرتبون بصبر، إلا أن ترميم الأرغن أتاح فرصاً للمفاجأة والمتعة أكبر ألف مرة من تجارة النبيذ!

لقد جعله تصليح ملامس لوحة المفاتيح يشعر بالرضا الخاص، فقد ترك له فرانز هذه المهمة الأسهل والكريهة أكثر بالنسبة لنباتي. كانت صفائح العظام المصنوعة منها الملامس قد اسوَدّت أو اختفت، لذا نزل فريدريش إلى البلدة وسار إلى المسلخ الواقع على ضفاف نهر التيبر لشراء عظام الثور، ثم شرع بإجراء الطقوس فوضع كرة ضخمة من الجير في مقلاة من الفخار ثم قام بتذويبها في قليل من الماء، ورمى في العجينة التي صنعها مكيالين من الماء مع إضافة القليل من الشب المسحوق وغمر العظام في هذا المزيج ووضع المقلاة مرة أخرى على النار وجعله يغلي لمدة دقيقتين أو ثلاث دقائق، ثم أطفأ النار وأزال الرغوة وقام بتبريده، ثم غسل العظام في الماء البارد ووضعها لتجف بلطف مع تجنب تعريضها للشمس أو الحرارة الشديدة. استمرت تلك العمليات لأيام وطاف فريدريش أنحاء المدينة بحثاً عن المنتجات الضرورية، ومن أجل استبدال جلد المنفاخ، اشترى جلود الغنم وعمل على تطريته بمحلول الشب.

وكما تنبأ الوصي على الدير، عاد الأخ إدوارد إلى المكان، بعد عام من الصمت، انطلق صوته البشري.. وصل إلى الكنيسة راكضاً وصعد الدرج مسرعاً واندفع كإعصار في الرواق من دون أن يتوقف عن الزئير وتحريك ذراعيه لكي لا تتوقف عجلة الزمن ثانية واحدة. تعلق بالمنفاخ الموجود خلف الأرغن وعيناه مرفوعتان إلى السماء وقد ارتسمت النشوة على وجهه، كما لو أن أصوات الموسيقى المبهجة قد ضربت أذنه، ثم جلس أمام طاولة

الأرغن وقد أصبح وجهه هادئاً ومتجدد الشباب، ومرر أصابعه على وحدة مفاتيح كتم الصوت، بينما ضغطت قدماه على لوح الدواسة بخفة وبحركات ناعمة وخفيفة.

لم يستطع فريدريش أن يتخيل كيف تتقاطع يداه وتتباعدان بشكل غريب وبسرعة من دون تحريك جسده أو إعطاء انطباع سيئ، لكنه لم يظل جالساً مطولاً أمام لوحة المفاتيح بل تقلصت ملامحه مرة أخرى، وشوهت وجهه معاناة لا تطاق، فضرب على صدره بقوة، ووبخ نفسه لأنه قاطع زوبعة الأنام المذهلة التي دوى ضجيجها على طبلة أذنه بعنف متزايد، وبينما هرب من المنصة وسار بأسرع ما يمكن في ممرات الدير من دون أن يتوقف عن تقليد الدوران الأبدي الرتيب للعجلة الكبيرة بذراعيه، شعر فرانز بالأسف لأن الترميم كان بطيئاً جداً، وتساءل في سره: «من أين يمكن أن يأتي الخلاص للأخ إدوراد إن لم يكن من الموسيقى؟ سوف يكتشف أو يعيد اكتشاف أن هنالك مقياساً آخر غير تعاقب الساعات والأيام، وهو الانسجام السامي في هذا السباق الذي ليس له هدف ولا نهاية، والإيقاع الصوتي، الذي، وبدلاً من جر العالم إلى جنون مدمر، يمكن أن يقوده إلى السلام والفرح، إذ سينجح صوت الأرغن وحده في إسكات ضجيج الوقت الذي يصم الآذان في أذن الراهب. أوه! كم يتوق الصديقان إلى رؤية اليوم الذي يمكن أن تساهم فيه آلة الأرغن بعد تصليحها في شفاء الأخ إدوارد.

لقد تم شفاء الراهب، ولكن بطريقة غير متوقعة. كان الحريق قد اندلع في المنزل المواجه لبوابة سانت إيزيدورو، واجتذب الضجيج فرانز وفريدريش فخرجا من الدير وانضما إلى الحشد الكبير الذي كان يشكل دائرة حول اللهيب. كان المنزل يحترق من الأعلى إلى الأسفل، وكان ما تبقى من السكان يقومون برمي أثاثهم من النوافذ. كان الجميع يحدقون في الحريق الضخم من دون التفكير في البحث عن الماء من النافورة القريبة.. جاءت سيارة إطفاء مسرعة من لافياسيستينا، لكن الحشد ضم صفوفه لمنعها من المرور. وفي نفس الوقت، جاءت فرقة صغيرة من الموسيقيين المتجولين من ساحة باربيريني، إذ جرت العادة في هذه المدينة على مرافقة احتراق المنازل بصوت الدفوف والطبول. لم يكن الحريق كارثة بالنسبة لهم بل

حفلاً بهيجاً وطقساً تطهيرياً لم يكن من الضروري إيقاف انتشاره بل إجراء حركات شفاعة واستعطاف، لذلك استقبلوا الموسيقيين بصرخات فرح، كما هرع مدير الشرطة إلى مكان الحادث فشاهد المتفرجين وهم يتماسكون بالأيدي ويؤدون رقصة الفرندل من الساعة السادسة وحتى الساعة الثامنة، وقام فرانز بتسجيل إيقاعها في دفتر ملاحظاته.

عاد السيد دي نورفين غاضباً إلى قصر سانت إغنازيو الذي كان اليسوعيون قد تنازلوا عنه إلى مدير الشرطة. لقد وضع تقريراً موجهاً إلى السيد دي تورنو، حاكم روما، والجنرال ميوليس، المحافظ، واختتمه بسؤالهما عن الإجراءات التي يعتزمان اتخاذها لتجنب المخاطرة التي قد يتعرض لها الإمبراطور خلال رحلته التالية. فماذا كان سيقول لو أنه شاهد الحادث؟

اقترب رجل من الحشد من دون أن يلاحظه أحد، وكسر فجأة صف الراقصين ليتقدم إلى منتصف الحلقة. شعر فرانز وفريدريش بذهول شديد عندما اكتشفا أنه الأخ إدوارد. بدا الراهب متغيراً. كان يمشي بهدوء شديد ولا يحرك ذراعيه بهيئة طواحين الهواء، ولا يبدي أية حركة مثيرة، وبدلاً من الرداء البالي الذي كان يرتديه عادة، ظهر بثوب جديد ونظيف بحيث إنه خدع فريدريش ذاته بهيئته المشرقة.

احنى الأخ إدوارد رأسه واستمر في التقدم نحو النار المشتعلة ولكن ببطء شديد بحيث لم يفكر أحد بالتحرك لإعاقته. كانت يداه تضربان الهواء على إيقاع الدفوف وكانت قدماه تنخفضان وترتفعان بشكل متناغم. عندما أدرك أنه كان يدخل المنطقة الساخنة من دون أن تصده حرارة الحريق، لم يعد هنالك وقت لإعادته. وعندما رآه الحشد وهو يجتاز ستارة النار ويدخل إلى المنزل بين الأنقاض المتفحمة، أصابه الشلل من هول المفاجأة وانطلقت صرخات رعب من جميع الحناجر.. نظر فريدريش إلى فرانز، كان الوحيد الذي واصل الابتسام على الرغم من أنه كان منتبهاً لكل حركات الراهب، ولم يستطع تجاهل قرب حدوث الخاتمة، ومع هذه العذوبة السماوية التي يعرفها فيه صديقه جيداً، أبقى عينيه ثابتتين على الصورة الظلية التي بدأت تصبح شبحية بالتدريج، وكان يبتسم أيضاً عندما اختفى الأخ إدوارد وسط النيران مثل ذلك الحلم الذي تلاشى عند الفجر..

الفصل الخامس

ها هو الأخ الثاني من إخوة الشتاء يغادر سانت إيزودورو، إنه كونراد. سيكون لديه الوقت الكافي لرسم عدة لوحات تاريخية جميلة تمجد العصور الوسطى الألمانية. دخول شارلمان إلى فرانكفورت، تتويج لويس بيوس في كنيسة إيكس، ومسابقات الأغاني التذكارية التي ألهمته لعمل مؤلفات رائعة حيث قام بإحاطة الشخصيات بخطوط حيوية وأبرز تصاميم تلك القرون الشهيرة وعظمة الكاتدرائيات القوطية وتألق الشعر العاطفي الذي يعزي الشاب على الهيمنة الفرنسية التي تمتد من بولونيا وحتى كالابريا. ولتجنب نابليون، التجأ إلى فريدريك باربيروس ووجد لدى والتر فون دير فوغلويد تعويضاً عن فولتير.

لقد خيب الرومان أمله. وأقسم الشباب الوطنيون الذين أصبح صديقهم على تحرير بلدهم من نير الأجنبي، لكنهم، وكل يوم بعد الغداء، وحتى في الشتاء، كانوا يعودون إلى حجراتهم ليناموا ساعة أو ساعتين خلف أبوابها المغلقة. لكنهم ومثل القديس ميخائيل في قلعة سانت إنج، الذي كان يضع يده على مقبض سيفه مع الحرص على سحبه من الغمد، كانوا جاهزين لبدء التمرد، بشرط ألا يكلفهم ذلك أي شيء من عاداتهم، وأن يتمكنوا من الاستمتاع بكسلهم.

لم يكن هناك أي احتمال لقيام ثورة أو حرب إسبانية من هذا الجانب من البحر المتوسط.. وكان لابد أن يحمل السيد دي نورفين نفس المنطق. لقد رفض الكونتان فيليبو وسافيريو باتريزي المغادرة إلى بريتان دو لافليش حيث الرعاية الأبوية لنابليون التي أرسلتهم إليها تلقائياً مع أربعة وثلاثين

آخرين منحدرين من طبقة النبلاء الرومانية، بهدف غرس القليل من الروح العظيمة للإغريق، وبدلاً من إرسال جلاوزته للقبض على هذين المتمردين، أرسلهما مدير الشرطة ذات صباح من شهر آذار إلى سانت إيزيدورو، مع أوامر بإعادة المدعو كونراد هوتينجر إلى فيينا على الفور..

تم اتخاذ القرار بعد التشاور مع الشرطة النمساوية في إطار إجراءات الأمن المتخذة قبل زيارة الإمبراطور. هل كان يستحق كل هذا العناء؟ كان كونراد يدرك صادقاً مع نفسه أن اعتدال المناخ الروماني وجمال المدينة ولامبالاة سكانها وسحر وكآبة العاصمة القديمة للعالم وذكرى العديد من الأمجاد الفانية كان يمكن أن تسهم جميعها في تلطيف الملامح القتالية لشخصيته. لقد قام بجدية بإثارة مؤامرة ضد الحكومة الفرنسية، كان قد فقد الذوق وسط كل هذه القصور والحدائق والآثار والمقابر. ماذا كان يهم أن يكون مغتصباً قد حكم العالم طالما اعتلى العديد من الملوك العرش بالمكر والعنف ثم انضموا في النهاية إلى عامة الناس تحت التراب الذي يغطي جميع الأموات بالتساوي؟

في ألمانيا، حيث كان جميع الرجال طوال القامة، كان يشعر بأنه مضطر لتعويض عيب قصر قامته بنفخ صدره وتظاهره بتمسكه بموضوع الوطن الأم. في إيطاليا، لاحظ كونراد أن الرجال لديهم سيقان قصيرة وأن القليل من الرؤوس وسط حشد من الناس تتجاوز طوله. لم يعد بحاجة إلى تأكيد فرديته والإعلان بصخب أن روحه غارقة في فولاذ الرجولة، ذلك أن الكثير من سخطه من نابليون كان قد برد من تلقاء نفسه، ألا يمكن أن تكون فيينا هي السبب؟

لقد غادر المنفي في نفس اليوم الذي صدر فيه القرار بطرده.. انفعل فريدريش وهو يحتضنه عندما رأى ذلك الصبي الصغير ذا الوجه المليء بالنمش الذي تعرف عليه في منحدرات كاهلينبيرغ عشية معركة فاغرام، يقتاده اثنان من رجال الشرطة. كم كان يشعر بالغيرة على صديقه فرانز من هذا الرفيق الجديد!

مرّ أقل من عامين مع الكثير من الاضطرابات والآمال المتفجرة

والمهووسة. أي ارتباك في مشاعره؟ استغل فريدريش هذه الفرصة ليستعيد نفسه. كانت هنالك مئات الفراسخ من الشك مزروعة في قلبه تجاه كونراد الذي سيُقتل لاحقاً على أيدي جنود المارشال ناي خلال الحملة البروسية. لم يكن يفكر إلا في فرانز، ذلك الشخص الذي يعذب حياته الخاصة بينما كانت الفجوة تتسع وتزداد عمقاً بينهما، بسبب غيرته من كونراد ويوليوس وعديدين غيرهما.

ألم يعد فرانز يحبه؟ كان هذا السؤال يعذب فريدريش بينما كان كونراد يلتفت للمرة الأخيرة قبل أن يسحبه رجلان من الشرطة نحو ساحة باربيريني. كان يمكنه أن يرى انحدار دمعة على خد صديقه، لكن فريدريش لم يتأثر إلا لأجل مصيره. ألم يكن ينبغي لمثل هذه الشخصية الواضحة المصممة أن تتكهن عواقب هذه الأحداث طوال إقامة أمدها ثمانية أشهر في سانت إيزيدورو؟ ربما كانت بعض الكلمات التي قالها لها صديقه قد نضجت في عقله، ولكن، ما إن وضع فرانز يده على ذراعه بعد أن شاهد اضطرابه وجعله يستدير عائداً إلى الدير، حتى استسلم فريدريش مرة أخرى لهذا الضغط العاطفي. وصار سؤاله: «ربما مازال يحبني؟» يطرد سؤاله السابق: «لماذا لم يعد يحبني؟» وعاد من جديد ليشُلَّ إرادته.

وجد الصديقان نفسيهما في المشغل أمام لوحة إيطاليا وجرمانيا. هتف فرانز وهو يشير بإصبعه إلى حزمة من الضفائر الشقراء المتهدلة على صدر جرمانيا:

– لقد غيرت تسريحتها!

كانت المرأة الشابة تدير رأسها لتستقبل بوح وخضوع رفيقتها، وهذه الحركة أعادت إلى مقدمة تمثالها النصفي الكتلة الثقيلة من الضفائر.

– ألم يكن لديها شعر قصير ومجعد، من قبل؟

قال فريدريش خائباً ومنزعجاً بشدة:

– نعم.

أجاب فرانز:

– أنت لم تخبرني بأي شيء! منذ متى قمت بهذا التغيير؟ أوه، أضاف

ليخلص صديقه من الحرج، من الأفضل رسمه بهذه الطريقة لغرض توازن اللوحة، فقد بقي عنق وكتفا إيطاليا عارية تماماً وكان لابد من إخفاء الجزء العلوي من التمثال النصفي لجرمانيا لتجنب التشابه المزعج. إنها فكرة جيدة بالنسبة لرسام مثلك!

سأل فريدريش بصوت ضعيف:

- أتظن ذلك؟

إذا كانت هذه فكرة الرسام، لكان قد توصل إلى هذه التفاصيل بهدوء بعد تفكير ناضج، فقد لاحظ فرانز أن الضفائر تم استبدالها بأخرى مجعدة من دون أن يكون لإرادته أية علاقة.

قال وهو يهز رأسه:

- لا، هل تصدقني فرانز إذا قلت لك إني اكتشفت معك هذا التغيير تواً؟ لا أعرف كيف حدث ذلك.

أشار فرانز وهو يطلق صيحة من المفاجأة:

- لقد قمت بتعديل الأنف أيضاً.

تلعثم فريدريش وهو يصبح أكثر شحوباً:

- الأنف أيضاً؟

- هذا التغيير يصعب ملاحظته، ولكن، إذا لم أكن مخطئاً، الأنف سابقاً كان مستقيماً تماماً، والآن.......

قبل أن ينهي عبارته، رفع فرانز يده إلى أنفه ومرر إصبعه على حافته. كشفت هذه الحركة لكليهما وفي نفس الوقت سر تحولات اللوحة.

كان رد فعلهما مختلفاً، فقد كان فرانز سعيداً لأن صديقه استبدل ما كان يمكن أن يستلهمه منه ليضعه في صورة جرمانيا، الأنف المستقيم، والشعر المجعد، والشفتين الرفيعتين، والملامح التي تخص إليزا بشكل واضح. كانت صورة طبق الأصل منها تقريباً! أما فريدريش فعلى العكس من ذلك، أصابه الذهول من اكتشاف ذلك فقد وجد ملامح خطيبته في الكتلة الثقيلة من الضفائر الشقر، وفي الأنف المكسور برقة منذ الولادة، والشفتين الممتلئتين.

لقد حدث هذا التحول من دون علمه. كان يود لو تمكن من تحديد

التاريخ الذي تسللت فيه إليزا إلى خياله بدلاً من فرانز. تساءل ما إذا كان سيكره هذه اللوحة، ما لم يعمد إلى تحطيمها. إنه يرى فيها خيانة لحبه لفرانز.. أوه، كيف كان ينبغي له، وبدلاً من الاختباء بجبن وراء هذه القصة الرمزية لامرأتين أن يصور مشهد العهد الذي قطعه لفرانز في حديقة لوبيك.

وبينما كان فريدريش يعذب نفسه على هذا النحو، تظاهر فرانز بالسعادة وعثر على الرسم التخطيطي لإليزا الذي رسمه فريدريش بقلم الفحم في لوبيك خلف رسوم روماو نيمي المائية ورسوم الشخصيات التي كان يختارها فريدريش من الشارع ويجمعها منذ ثمانية أشهر ويخبئها فوق الموقد. هتف وهو يقترب من لوحة المرأة الفاتنة والهادئة والتخطيط المقتضب للفتاة الشابة:

– يا له من تطور! لقد أصبحت أكثر شبهاً منذ أن كففت عن النظر إليها. يمكن القول إن موهبتك قد نضجت بشكل جيد! ستفتخر إليزا لأنك تمكنت بعد عامين من الغياب من جعل اللوحة جيدة للغاية.

كان فريدريش سيستمتع كثيراً بهذا الإطراء لو لم تهاجمه كتلة من المشاعر المتناقضة. كان يجب أن يعترف بأنه اكتشف منذ الوهلة الأولى، ومن دون دراسة مسبقة، وحتى من دون اختيار واع، هذه الصورة الشهيرة لإليزا التي كانت واحدة من أهداف رحلته إلى إيطاليا، لكنه كان هدفاً بعيداً جداً ويختبئ خلف أهداف أخرى منذ ذلك الحين! وطالما كان يفضل أن يقرر يومًا ما: «سأرسم إليزا الخاصة بي»، بدلاً من أن أجد نفسي، إذا جاز التعبير، فقد أصبح الأمر واقعاً. لم تكن إليزا التي تنشر أمامه حزمة ضفائرها الضخمة، لكنها اخترقت أحلامه خلسة بدخول متطفل لتطرد منها فرانز.

لقد أربكه هذا الظرف خصوصاً، فبعد أن كان راغباً في رسم صديقه في لوحة تخلد حبه، قام باستبدالها بهيئة إليزا التي ترمز بالنسبة له إلى الأمان والهدوء والسعادة في الزواج. لقد وجد في هذا الانزلاق من وجه إلى آخر نوعاً من الخداع المؤلم الذي يغرقه في حزن مرير. لحسن الحظ أن فرانز كان لديه اللباقة كي لا يقول له: «كما ترى، إنها إشارة إلى أنك يجب أن

تتزوج»، لكن كلا الاثنين، وهما ينظران بعضهما في عيني بعض، أدركا تماماً ما كانا يفكران فيه.

قرع جوزيف على الباب بخجل شديد حتى لا يسمعه أحد أولاً، ثم غادر بدوره وحقيبة الظهر على كتفه، فهل نسوا إذن أنه غادرهم؟ لقد فتنته طقوس القداس. إيماءات الكهنة غير المفهومة، أسرار المذبح، أبهة الثياب الكهنوتية، تألق معرض القربان المقدس، عطور البخور، ارتعاش الشموع، كل تلك الطقوس كانت قد مارست سحرها على عقله الساذج. كان قد تحول إلى دين الفاتيكان، وغادر ليلتحق بجماعة الرسامين الكاثوليك الألمان المقيمين في كهف سانتا فرانشيسكا رومانا وسط أنقاض الميدان ولم يصنع انشقاقه ضجة كبرى.

احتضنه رفاقه ووعدوه بزيارته، وبعد أن تضاءل عددهم إلى أربعة إخوة، فسوف يستهلك أعضاء نادي لوكاسبوند خضروات أقل بكثير. سيعاني لودفيج وحده من الآن فصاعداً من تقشيرها، في حين أن فيلهلم سيتذمر في كل مرة سيذبح فيها واحدة من دجاجاته، إذ سيأكل ثلاثة منهم فقط دجاجة واحدة. فهل من الغريب أن لودفيج، الكاثوليكي بالولادة، كان أول مَن انضم إلى البابويين في سانتا فرانشيسكا رومانا؟ سوف ينسى أنه قرر، وهو يغادر النمسا، أن يكرس نفسه لنادي لوكاسبوند طالما سيكون وفياً لإخوته وأخواته إذا بقي في غرينزنغ. لن يمكنه تغيير العائلة مرة أخرى. وفي حجرته، وليمحو أثر كذبة لا قيمة لها ولإرضاء ضميره، كان قد علق على الحائط صورة صغيرة للسيدة العذراء، طالما اتخذ القديس لوقا مريم كنموذج للرسم بدلاً من السيد المسيح، كما فعل أمام رفاقه في فيينا لحملهم على قبول رعاية الإنجيلي. سيتم تصليح الأرغن قريباً وسيعيده أيضاً إلى سانت إيزيدورو.

لن يتردد لودفيج في أن يعزف على لوحة المفاتيح (ذات يوم عندما سيبقى وحيداً في الدير) واحداً من ألحانه الريفية التي يواصل تأليفها سراً، والتي كانت حبيبته تنشدها له يوم الأحد. شعر فريدريش بأن الموسيقى تتفوق على الكلام، لأن للكلمة معنى واحداً، لكن الأنغام الموسيقية تستمد جمالها من الاهتزازات الغامضة التي تمنحها وجودها. كان لابد من الاعتراف بأن الناصريين وعلى الرغم من نيتهم الصادقة في الحفاظ على تفوق الرسم،

فإنهم لن يكونوا في طليعة الرسامين. إنها ليست المرة الأولى التي يشعر فيها بهذه الحقيقة، لكنه بدأ يتابع العواقب بتصميم جديد.

ومع عدم يقين واضطراب قلبه، كان بحاجة إلى تقييم عمله، ليحكم على نفسه كرسام وليرتب أفكاره. كان أقل صراحة من يوليوس الذي حكم على مشروعهم لبعض الوقت بأنه فاشل. على سبيل المثال، هل هناك أي شيء أقدم من هذه اللوحة الصغيرة التي أكملها لودفيج للتو، حيث نرى فتاة صغيرة تقشر الجزر أمام منزلها؟ وفارساً شاباً يرتدي صديرياً من القماش الهولندي، كإشارة مهمة إلى العصور الوسطى، يتسلل إلى الحديقة لمغازلتها، بينما وقف الأب، الذي كان يرتدي معطفاً أزرق اللون على عتبة الباب ليطرد الشاب. يا له من موضوع!

ربما لن ينجح الناصريون في إيقاف حركة تفكيك الأشكال إذا التزموا مثل لودفيج وفيلهلم بمشاهد النوع، ومخططات المدينة، والمناظر الطبيعية والمنمنمات الأخرى. ليس من خلال استخدام الدانتيلّا وخزانات الملابس والدروع وآلات الطرب والستائر القديمة الممزقة والأحذية وغير ذلك. إنه يدرج نفسه هو أيضاً في خانة الإفراط في التفاصيل فالميل إلى الإتقان يفسد أفضل مؤلفاته. إنها تفتقر إلى لمسة من التلقائية، وهذا الجزء الضروري من العفوية التي كان رافائيل يعكسها في مناظره الطبيعية حيث تنتشر الأشجار والصخور بلا تفكير مسبق، وبدافع من تذوق الطبيعة، فلم يسعه تجنب إدخال نواياه في كل مكان ما يجعل اللوحات أحياناً غير متوازنة بشكل دقيق.

أما في لوحة إيطاليا وجرمانيا فهو يظن أنه حقق البساطة النبيلة للأعمال التي لا تحتاج إلى فك شفرتها لتصبح مؤثرة، والتي يقف المرء أمامها رغماً عنه، مأخوذاً بالنسب الدقيقة وانسجام الألوان. إنه يخشى أن يتم دفعه يوماً ما لإضافة بعض التفاصيل التي تدمر التوازن الجميل لهذه التركيبة، لدرجة أنه قرر، تحت تأثير اندفاع مفاجئ، إجراء تغيير لمرة واحدة لمجرد إرضاء نزوة نقية وذوق نقي.

تجمدت الابتسامة على شفتيه في اللحظة التي سقطت فيها عيناه من جديد على كتلة من الضفائر الشقر. كانت واحدة من المفارقات القاسية للوحته التي

يعتبرها الأفضل هي تلك التي يتمنى لو لم يفعلها قط، فكيف سمح لنفسه أن يستلهم من إليزا عملاً تعود فكرته الأولى إلى إقامته في سان داميانو، عندما كان يائساً من إحجام فرانز ويبحث عن طريقة لإنقاذ علاقتهما؟ ولم يقتصر الأمر على تسلّلها إلى عمله، بل لأنها أخذت يده بطريقة أو بأخرى ليحقق هذا النجاح المتناغم ولأول مرة منذ أن مارس الرسم.

كان الفارس كانوفا قد دعا الصديقين بواسطة يوليوس الذي أصبح صديقاً حميماً له، للانضمام إلى الزوار الذين يستقبلهم أسبوعياً. ذهب الاثنان عبر ديل بابوينو، في أسفل السلالم الإسبانية، وكان فرانز يرتدي الزي الألماني القديم المتكون من سترة حمراء مزررة من الخلف وثوب مخملي أسود مع السروال والقلنسوة، ثم أخذا طريق فياسيستينا ونزلا من السلم الأثري العظيم لترينتيه دي مونت يتبعهما حشد من الأطفال المبهورين بهما الذين كان فرانز يجرهم دائماً وراءه.

الفصل السادس

دخل فريدريش وفرانز إلى المشغل الضخم المليء بالتماثيل من جميع الأحجام، كان بعضها مكتملاً والبعض الآخر لا يزال في طور التخطيط، إذ كانت هنالك رسومات تخطيطية من الطين تتخللها ثقوب صغيرة وقطع من الرخام مشذبة بالكاد، وأعمال مكتملة تماماً وجاهزة لتسليمها وقد تم تكديسها بشكل عشوائي تحت سقف زجاجي وألواح مغبرة.

وقف كانوفا على منصة، في الخلف، بالقرب من النحت البارز الذي كان يعمل فيه بتكليف من الحكومة الإنكليزية. وأثناء إجابته على أسئلة معجبيه، كان يسجل على النموذج المصغر بعض التصحيحات التي يتعين إجراؤها. وعلى الرغم من بياض الجص والرخام، فقد أضاف سقوط ضوء رمادي على تماثيل الملائكة ومنهم كيوبيد، وهيرمس إلى ذلك الصفاء الخالد لملامحهم ضوءاً شاحباً مزيفاً.

أما فريدريش، الذي كان قد رأى للمرة الأولى العديد من أعمال النحات مجتمعة واكتشف التماسك الداخلي للعالم الذي أتت منه، فقد صدمته حيويتها وألقها. هل كانت هذه التماثيل باردة وعادية؟ على العكس من ذلك، لقد كانت تنبض بالعاطفة وكانت تختلف عن أعمال مايكل أنجلو الذي كان يستخدم رخام سيرافيزا الذي تقاوم مادته السميكة ضربات الإزميل، فقد كان كانوفا قد اختار بناء هيكل شبيه بالسكر وليس فيه عروق خشب ومتجانس، كان قد منح تماثيله شفافية المرمر وكانت شخصياته تفتقر إلى البساطة النبيلة والتحفظ الضروري في العصر الذي كان قد اكتشف هيركولانيوم وبومباي.

قال فريدريش لنفسه: ولماذا تم تقليل حركات التماثيل إلى عدد ضئيل من الأوضاع: الابتسام، خفض الرأس، إراحة ثقل الجذع على لوح، رفع التاج... يبدو أن أعمالاً نادرة تلك التي سمح فيها النحات لنفسه بمزيد من الحرية.

توقف فريدريش أمام لوحة الإله (نيرسيس)، وكانت مثالاً رائعاً للتمازج بين الهدوء القديم والقلق الحديث. كان ينتشر ربيع أبدي على أطرافه ليعلن عن نعمة الصبا، وكانت تجعيدات شعره الجميلة تؤطر وجهه بينما يعلن فمه المجسم بشكل جيد عن اندفاع طائش لدماء الشباب وتراكم الطاقة الجسدية.

قال فرانز وهو يلفت انتباه فريدريش إلى لوحة (القبلة) وهو العمل الذي حقق المجد لكانوفا أكثر من أي عمل آخر:

– بأي لطف كان الصبي المجنح ينحني ليطبع قبلة على شفتي تلك الفتاة التي يحملها بين ذراعيه! لكن قوة غامضة كانت تمنع فميهما من الالتقاء، وكأن الرغبة التي يمتلكها الواحد تجاه الآخر ستبقى متأججة إلى الأبد.

أجاب فريدريش:

– يمكنك فقط التعبير عن قوة الحب في اللحظة التي تسبق إشباع الحواس، تماماً كما يتعكر الحلم في لحظة تحوله إلى حقيقة.

كان يعتقد أنه أشاد بالمثالية الرومانسية عبر هذه الكلمات، لكن فرانز، الذي كان قد بدأ يتعافى بالتدريج من نشوته، غمغم بصوته الأكثر نعومة:

– المشاعر التي تجذب كائنين بعضهما تجاه بعض تكون أجمل عندما تبقى معلَّقة!، أنت على حق، فريدريش، ولكن، لماذا لا تقول أيضاً إن كل حب قدري ينهار بمجرد حصوله فعلياً؟

رد فريدريش وقد غلبت عليه العصبية:

– يبدو أن كيوبيد، وقبل أن يتوج عشقه بقبلة، اكتشف في حبيبته شيئاً لم يعجبه، وتهيأ لتحرير نفسه من علاقة أصبحت غير مناسبة، وفي هذه الحالة فإن النحت لم يمثل مشاعر الشاب نحو الفتاة بل الحركة التي غير بها رأيه وسعى إلى الهرب.

خلال المساء، وفي منزل السيد غويون ليثيير، استذكر كانوفا أمامهم انفصاله عن خطيبته، وتذكر فريدريش بأية نبرة حيوية كان النحات قد أعلن عدم التوافق بين المرأة والعمل الإبداعي:

- لماذا لا أختار إلا نماذج شابة؟ قال بلغته الفرنسية الركيكة إلى حد ما، رداً على سؤال الكونتيسة ديل راتو، لأن المجهود الذي يستحق تقديراً أكبر هو تقديم أشكال من العصر الجميل، وعند الرجل أو المرأة المسنين تكون الطبيعة قد أنهت تطور عملها أو بدأت في تدمير نظامها. وأكمل:

- أترون هذه القوالب التي أخذتها من أجمل التماثيل التي تركتها لنا العصور القديمة إرثاً جميلاً كتمثال أبولو بلفيدير وتمثال لاوكون من متحف كليمنتين، فمن المؤكد أنه يمكن للمرء أن يعتمد على الأشكال القوية أكثر من الأشكال الرقيقة.

صاحت ابنة أخت الكاردينال باكا المنفي مع البابا في سافونا وهي تحمر خجلاً:

- يا معلم، ألا يمكنك استخدام تأثيرك وقربك من إمبراطور الفرنسيين للحصول على الموافقة بإعادة هذين التمثالين إلى الوطن؟

مرقت ومضة غرور في حدقتي كانوفا فسيطر على نفسه على الفور، مدركاً أن هذا السؤال يمكن أن يحتوي على فخ. كان هنالك أشخاص وطنيون بين الحضور، مثل الأمير الشاب التيري، شقيق دوق زاغارولو، وولدي الكونت باتريزي الذي كان قد عصى أوامر نابليون عندما رفض المغادرة إلى مقر الحكومة في لافليش، ولكن أيضاً الفرانكفوليين مثل أورازيو براشي، نجل عمدة روما، أو مدير بنك تورلونيا، بارون سانتا كروس، وحتى العديد من طلبة أكاديمية فرنسا، بمن في ذلك جان دومينيك إنغريز.

أجاب الفارس:

- بلا شك، وإن كانت كلمة (إعادة) غير مناسبة فالوطن الحقيقي للأعمال الفنية، مهما كانت، ليس بلداً محدداً لأنها تخص البشرية جمعاء. وعندما كانت لدينا فكرة نقل عدد معين من التماثيل واللوحات من إيطاليا إلى فرنسا، كان السؤال المطروح هو ما إذا كانت أكثر تأثيراً وإبهاراً في

العاصمة التي تتمتع بالحرية للتو، وكانت قد أعلنت عن الأخوّة والمساواة بمواجهة العالم، مقارنة بالمحاكم الصغيرة الخاضعة لأنظمة استبدادية عفا عليها الزمن. كان متحف اللوفر لمديره السيد فيفانت دينون متحفاً كبيراً حيث يتم تقديم الأعمال التي تحظى بإعجاب العالم، وحيث يأتي الطلبة للدراسة بحرية، بينما هنا، دعني أعطيك مثالاً شخصياً، فعندما أقمت في روما، وكنت فقيراً وغير معروف، أغرقتني لوحة أبولو دي بيلفيدير في هذه البهجة بحيث طلبت الإذن لأصبّها في قالب، وكان علي أن أذهب لمدة شهر بلا عشاء، لأنه، وبالإضافة إلى سعر القالب، كنت مضطراً لإعطاء حارس التمثال ستة مفارش وملعقة فضية كبيرة ليكون طوع أمري.

مع هذه الذكرى، داعب بيده الطرية الجص الذي كان قد كلفه ثلاثين وجبة عشاء، بينما احتجت السيدات على فكرة أن مثل هذا الرجل العظيم لم يكن دائماً غنياً ومشهوراً، على مدى خمسة وعشرين عاماً مضت، بل كان ينام على معدة فارغة، كان فقيراً وغير معروف. سيتم نشر هذه الكلمات في اليوم التالي في عموم روما، مع تنهدات وارتعاشات، فقد تبادلت الكونتيسة ديلاروفر والأميرة دي كانينو نظرات مبتهجة. كان «الديهن» الملعقة الفضية الكبيرة، وكانت لديهن حكايتهن.. كانت أمسيتهن مملة في البداية بعض الشيء بسبب هذا السؤال الأحمق للكونتيسة ديل راتو. و«لإنقاذ» هذه الأمسية، تم تقسيم هؤلاء السيدات الرومانيات العظيمات إلى حزبين معادين، لتسلية يوليوس الكبرى: هؤلاء اللواتي تمت دعوتهن، قبل بضع سنوات، مع مدام دي ستايل، في مشغل كانوفا المضاء بالمصابيح، وهؤلاء اللواتي لم تتم دعوتهن إلى هذا الحفل الذي لا يُنسى. كانت الكونتيسة ديل راتو تنتمي إلى الأوائل، وتفتخر بأنها يمكن أن تطرح، على غرار الزائرة الشهيرة، أسئلة «جوهرية». ولكي يخفف الآخرون انزعاجهم، شكروا الله على عدم ملء رؤوسهم بحشو الكلام هذا.

قال كانوفا أخيراً:

- عندما دخلت الأعمال الفنية التي تتحدثون عنها إلى باريس، كانت قد شكلت موكباً هائلاً تم عرضه من حديقة النباتات وحتى شامب دو مارس، حيث كانت تنتظره العديد من الشخصيات. كنت في الرواق

الرسمي بدعوة شخصية من الجنرال. وتمت إضافة أعمال أخرى لكل الثروات الفنية التي تم جلبها من إيطاليا لعرضها في متحف اللوفر، لغرض تنسيق هذه القافلة الثمينة وإضفاء طابع موسوعي عليها. كانت تلك الأعمال موضوعة على عربات ضخمة تجرها خيول مسرجة بثراء، تتقدم الصناديق المليئة بالمخطوطات والكتب، ثم مجموعات المنتجات المعدنية الأكثر إثارة للفضول في إيطاليا، من بين حفريات أخريات من فيرونا. ولاستكمال هذا النوع من المتاحف المتنقلة للتاريخ الطبيعي، ظهرت أقفاص حديدية تضم الأسود والنمور والفهود، وأشجار الخروب والنباتات الغريبة الأخرى المرسلة من مصر.

ثم أضاف:

– تحية لـ «بوفون»، سيدي، لمؤلف تصنيف الأنواع، بينما تبادلت الكونتيسة ديلاروفيري والأميرة كانينو علامات الاستبشار بفكرة أن حفريات فيرونا والفهود المصرية ستحدث تأثيراً أكبر في الصالونات التي ينشرون فيها الخبر أكثر من الملعقة الفضية الكبيرة.

واستأنف كانوفا:

– لو كان للجنرال بونابرت القوة للقيام بذلك، لكان ذهب للانضمام إليهم في الموكب، ليس من أجل مجده الشخصي، بل لإظهار ولعه بعلم الفلك الحديث ومعلمه الشهير لابلاس العظيم. كان الصف الطويل من العربات التي تحمل اللوحات المدفوعة الثمن والتماثيل العتيقة قد سار في المؤخرة، وكانت أغصان الغار، وباقات الزهور، وتيجان الآس تزين هذه العربات، وكذلك النقوش اليونانية واللاتينية، كما لو أن جمهورية بريكليس وإمبراطورية أوغسطس قد تم تفويضهما رسمياً في باريس لمهمة السيطرة على أقدار العالم. وتابع قائلاً:

– ومع ذلك، الآن وبعد أن جعلت عبقرية نابليون الحكيمة الاقتناع بأن أعمال العقل والفن ليست ملكاً لأصحابها بل للجنس البشري، فلا يوجد سبب يمنع عودة بعض منها إلى أماكن نشأتها. سوف أتوسط لدى الإمبراطور عند زيارته المقبلة إلى روما. أعتقد بالفعل أنني أعرف أنه

سيجلبها معه، كدليل على إخلاصه للمدينة الثانية للإمبراطورية وسيعيد إلى متاحف الفاتيكان لوحة «التجلي» مع لوحتين أو ثلاث لوحات أخرى.

قال يوليوس بلا إحراج:

- لأنه يخشى ألا يحضر أي من الكرادلة الاحتفالات التي تم تنظيمها على شرفه.

رد كانوفا مصعوقاً:

- أما «التجلّي» أو الذل.

أجاب ابن العمدة كالملدوغ:

- الكاردينال باربيريني لا ينقطع عن أي من احتفالاتنا.

استأنف يوليوس ضاحكاً على هذا الغبي الذي لا يتحدث إلا بلسان والده:

- نعم، ولكن لم يظهر أي من هؤلاء الذين حكموا الإدارة البابوية (مجلس الشيوخ الروماني) لاديسبويج ولاكاسالي ولادي بيترو ولاكونسالفي.

أراحت الكونتيسة ما في رأسها الجميل على الساق العارية لتمثال الملاك لانزعاجها من المناقشات السياسية وسألت بصوت رقيق:

- لماذا لا يحمل الفارس أي تقدير للجنس الأنثوي؟

انزعج كانوفا من هذا السؤال غير المتوقع احتجاجاً على تفانيه لكل السيدات الحاضرات. تابعت الكونتيسة:

- أنت لا تخجل من تمثيل الرجال في حالتهم الطبيعية، لكن أجسادنا، نحن النساء المسكينات، لا تتمتع بسعادة إرضائكم... أليس من الجنون أن يكون لدينا جمال لكننا مخبآت خلف حجاب؟

كانت تداعب في الوقت نفسه الفخذ العاري للملاك الجميل بأصابعها الطويلة الشفافة، ما أثار لديه حيوية غريبة.

قال كانوفا بانفعال:

- لا يمكن للمرء أن يرى كل الجمال بعيون الجسد ما لم تضَف إليها عيون الروح التي تم تهذيبها بقواعد الفن الجميلة والدقيقة. العُري شيء إلهي، إنه جزء من أعمال يد الله ذاته، وإذا لم يكن الله يريد ألا توجد أجزاء

معينة من أجسادنا، لما كان ليخلقها أصلاً. كان كل شيء ممكناً بقوته، ويجب ألا نخجل من تمثيل ما صنعه، بشرط أن يتم ذلك بحشمة وتحت حجاب هذا الحياء الذي لا تحتاجه الطبيعة ببراءة خلقها، لكننا ملزمون به بسبب آثامنا. الإنسان العاري يرفع أرواحنا إلى تأمل الأمور الإلهية. ولتحقيق هذا الشرط، يجب أن يظهر الإنسان واقفاً فقط، في الوضع الذي يجبر أعيننا على النظر إلى الأعلى وأرواحنا على التحليق! كان القدماء يقدرون هذه القاعدة جيداً لدرجة أنهم نادراً ما كانوا يصورون رجلاً جالساً، وكانوا يهتمون كثيراً بالحشمة بحيث يكاد يكون من المستحيل العثور في التماثيل اليونانية على شخصية بساقين متقاطعتين ماعدا باخوس كدلالة على التخنث. ولم يكن السيد إنغريز، الذي يسعدني أن أحيِّيه هنا، ليحلم قط برسم أوديب في وضع أكثر استرخاء أو في وضع مألوف ببساطة. أما لدى النساء، يا كونتيسة، فقد أوكل الله إلينا مهمة أخرى، والأجزاء التي يكون من واجبنا نحن الفنانين أن نخفيها، من شأنها أن تجعل المرء يفكر على الفور في مادية النوع إذا ما ظهرت تحت الضوء الساطع. إن الجمال الأنثوي مرتبط بوظيفة محددة، ويجب أن تظل قداستها محاطة بالغموض، فليس من الجيد كشف كل شيء. ألم يترك لويس ديفيد في لوحته (نباتات العرعر) الشخصيات الأنثوية مرتدية ملابسها بينما كان يرسم الجنود عراة؟ والسيد جيروديه الذي رسم لوحة «الطوفان» خلال عشر سنوات، كان قد أدرك هو أيضاً أن عري امرأة من شأنه أن يقودنا ببساطة إلى التفكير في أفكار فاسقة، بينما، عندما يتم تأمل عري الرجل فإنه يفصلنا عن الوقائع الأرضية ويجعل أرواحنا تحلق في السماء.

قال فريدريش لنفسه:

– «يا لها من محاذير، يا له من غموض!». كان يعرف ذوق الإيطاليين بخصوص العبارات الفارغة والرثاء، ولكن، كانت كلمات «تحليق الروح»، «النظر نحو السماء»، «الانفصال عن الأشياء الأرضية»، كثيراً ما يتداولها الفارس. إن الرجل الذي يتبنى مثل هذه الأفكار النبيلة والذي يبدو أن عقله يتطلع فقط إلى السمو، والذي، حسب قوله، ينبغي أن يتنفس الهدوء والسلام. كان كانوفا يسعى إلى الحفاظ على سلوك غير عاطفي وجاذبية تتوافق مع النموذج الفني المعروض مع كثير من القناعة، لكن عينيه استمرتا

في التحليق عشوائياً وفحص الوجوه سراً وبشراهة خفية على الفور. ولاحظ فريدريش أن صديقه فرانز لفت انتباه الفارس من النظرة الأولى.

ختم الفارس كلامه بقوله:

- أشكركم على زيارتكم.

بدأ الزوار بالانسحاب متجهين نحو الباب وهم يتجولون حول التماثيل، بينما هرع كانوفا إلى المنبر وهو يهتف ملوحاً بذراعه لإيقاف فرانز:

- ياه! أيها الشاب! لا تبتعد بسرعة، يا عزيزي. لم يكن من دواعي سروري التعرف عليك.

نظر الجميع بدهشة إلى الغريب الذي ناداه الفارس بهذه الفظاظة، فقد كان من النادر جداً أن يبدي الفارس، في حفل استقباله الأسبوعي، اهتماماً متسلطاً لمخاطبة ضيف ما بلا تكليف.

تلعثم فرانز المنزعج من اهتمام الفارس ببضع كلمات اعتذار وسارع إلى الخروج بأقصى سرعته.

استعاد فريدريش قلنسوته المخملية ووشاحه من يدي الخادم بينما كان لديه الوقت لسماع كانوفا يعلن للجمهور بازدراء خفي وباللغة الإيطالية هذه المرة:

- يا له من زي مثير للسخرية! هذا الزي الألماني!

كانت جملة بريئة ولم يكن فريدريش ليذكرها لولا نبرة المرارة والتوبيخ، فلم يعد هنالك أي شيء من ذلك الاهتمام الذي أولاه للحظات لأحد هذين الشابين الألمانيين.

الفصل السابع

قال فريدريش لفرانز عندما وصلا عند أسفل السلم الإسباني، من دون أن يتبادلا كلمة:

- أرى أن الفارس ترك لديك انطباعاً كبيراً!

خلفهما، كانت الشوارع مضاءة بالمصابيح التي زرعها الفرنسيون في الشوارع الرئيسية في العاصمة، ومهجورة حتى ساحة الشعب عبر ديل بابوينو. وكانت النافورة المنخفضة، بهيئة قارب مزين في مقدمته ومؤخرته بشعارات الإمبراطور أوروبن الثامن، تطفو في الشارع الأصفر من شعاع الفانوس المعلق على زاوية الشارع.

قال فرانز:

- يا لها من فكرة نبيلة عن فنه! أنا لم أسمع شيئاً مشابهاً إطلاقاً. وواصل وهو يجلس على الرصيف:

- أنت خصوصاً، لابد أن يسحرك ما قاله: «الرجل العاري هذب أرواحنا على تأمل الأمور الإلهية». أنا أتذكر كل كلماته ولا أعتقد أني سأنساها أبداً.

علق فريدريش بتلميح ساخر:

- لم يكتب غوته شيئاً أكثر جمالاً!

استأنف فرانز:

- لماذا تسخر؟ هذا الموضوع هو من أهم الموضوعات بالنسبة لك. لقد تجادلنا كثيراً حول هذا الموضوع، ولكن إذا وجدت في صوتك مثل هذه النبرة من الإخلاص، أعتقد أنك كنت ستنتهي بإقناعي. تتطابق أعمال

كانوفا مع كلماته، فلم نعد نشك في الطريقة التي يجب فيها فهم «القُبلة»، وهذه البادرة غير المكتملة، وهذه التضحية الطوعية يمكن أن تكونا مثالاً لما قاله لنا هذا الرجل العظيم. إذا كان كائنان يحبان بعضهما بعضاً فعليهما التغلب على رغبتهما تحت مهمة أسمى تنتظرهما: يرتكز الفن على التخلي عن حياة الحواس. ولم ينجح أي فنان مثل كانوفا في إبراز ما هو روحي، كيف يمكنني أن أصفه؟ ما هو ليس جسدياً في جسد بشري. إنه ينحت لك أروع أدونيس، وفي نفس الوقت ينزع منك الرغبة، لا أعرف حقاً ما هي الوسائل السحرية لإضفاء وجود مادي على الموديل الذي وضعه أمامه. أنت تعتقد ذلك، أليس كذلك؟

- ألم يوح إليك بأية ريبة؟

- ريبة؟ لكن لماذا؟ الريبة تجاه الرجل الذي برر سلوكه بكثير من الصراحة؟

- لا أعرف فرانشيسكو، إذا كان بإمكاني أن أكون متاكداً مثلك... هل لاحظت كيف تمكن من تلافي قضية عدم الانحياز ضد نابليون؟

- وهذا لم يمنعه من معارضته بلطف بشأن التمثال.

قال فريدريش ضاحكاً:

- لو كنا فرنسيين، لكان لدينا إعجاب لاحدود له تجاه الرجل الذي كان قادراً على التضحية بستين ألف فرنك حتى لا ينحت تمثالاً لا يتناسب مع مبادئه.

هيا لنعُد، لم يرغب لودفيج بإعطائي المفتاح حتى إنه أراد أن يفتح لنا الباب بنفسه ليرى ما إذا كنت بحاجة إلى جرعتك من الدواء لفترة الليل. دعنا لا نجعله ينتظر أكثر من ذلك.

قال فرانز، الذي بدا أنه كان قادراً على انتزاع نفسه قسراً من عذوبة هذه الليلة الدافئة تقريباً بالنسبة لهذا الموسم:

- سيعود رافائيل، وسنبتهج.

كان فريدريش قد نهض ووضع قدمه على الدرجة الأولى من السلم، واستدار بسرعة:

- ماذا يعرف عنها؟ زيارة نابليون ليست مؤكدة حتى.. لقد تم الإعلان عنها عدة مرات، وتم إلغاؤها لمرات عديدة!

قال هذه الإجابة لمجاملة الشخص الذي سيدفع والده عشرين ألف فرنك مقابل تمثال عملاق لهيكتور. كان الأرستقراطيون الرومان يشكلون الجزء الأكبر من زبائنه.

- أوه، فريدريش! لا تستخف به هكذا! لقد قال لنا أشياء عن سمو غاية الفن!

إذا تحدث جيروديه بهذه الطريقة، فلن أطلب منك تصديقه، لكن كانوفا غاص في العمل، ومنذ زمن الإغريق، فإن كانوفا هو حقاً أول فنان لا يعطي انطباعاً بالازدواجية من خلال تمجيد شباب وجمال موديلاته. ألم يُظهر في حياته مثالاً على اللامبالاة المطلقة؟ لقد تخلى عن الزوجة ليكرس نفسه تماماً للفن، وعاش منعزلاً عن الناس.

هتف فريدريش فجأة:

- انظر! لقد أثار كانوفا حماسك لدرجة أنك نسيت وشاحك في المنزل!

- لم ألاحظ ذلك حتى.

- لكنك تشعر بالبرد. أنت ترتجف. سيوبخني لودفيج إذا عدت من جديد إلى الارتعاد والسعال.

وهنا، خلع عن رقبته الشعار الثلاثي الألوان للعمل والإيمان والمحبة التي رسمها يوليوس للأخوة ليلقيه على كتفي فرانز.

لم يستمع فريدريش لمدح الفارس من دون انزعاج، فربما كان الكمال البشري موجوداً في الواقع لدى كانوفا، لكنه كان تحت تأثير الانطباع البغيض لنظراته السريعة التي ألقاها سراً على فرانز، لذلك كان سعيداً لتحويل انتباهه عن مدح قصص الملائكة.

استدارا وصعدا باتجاه ديل بابوينو بحثاً عن الوشاح المنسي. كان هنالك حارس يرتدي زياً رسمياً باللونين الأبيض والأزرق يحرس في زاوية فايدي غيرسي، أمام الدير الذي عاشت فيه الأميرتان فيكتوار وإديلاد، عمتا لويس

السادس عشر، اللتان كانتا تعيشان في المنفى، وتحظيان باهتمام دقيق من نابليون الذي كان يدين بعرشه إلى قتل ابن أخيهما.. ومع حلول الساعة الحادية عشرة، انطلق موظفو البلدية من كورسو وتفرقوا في الشارع لإخماد المصابيح التي كانت الإدارة الفرنسية قد غرستها هناك بعد أن جردت الكنائس الصغيرة منها: كانت قد حددت جدولاً زمنياً للإضاءة العامة، حتى إن روما التي كانت الفوانيس تشتعل فيها في السابق، بنور خفيف لكنه مستمر بإخلاص شعبي حول تماثيل العذراء، وجدت نفسها بفضل اهتمام السيد دي تورنون غارقة في الظلام خلال الجزء الأكبر من الليل.

لم تبق إلا بضعة أقدام عن باب المشغل، حتى خرج منه رجل مسرعاً وتوجه إلى ساحة الشعب. كانت تغطيه عباءة طويلة من رأسه وحتى قدميه.. وكانت قبعته مائلة على عينيه. وضع فريدريش يده على معصم فرانز وأشار إليه بالمضي قدماً بهدوء.

غمغم فرانز الذي كان قد تعرف عليه أيضاً:

- إلى أين يذهب؟

قال فريدريش بحزم:

- لنتبعه.

كان كانوفا يسير بخفة مدهشة على طول الجدران، وقبل عبور الأرض المفتوحة بين نهاية طريق ديل بابوينو وبداية المنحدر الذي يقود إلى بينيسيو، توقف عند زاوية الشارع وأدار نظره في المكان ثم تقدم وهو يخبئ وجهه بيديه.

تم إشعال المشاعل للإشارة إلى الخطر، وكانت تحيط بثقوب محفورة بطول ثلاثين سنتيمتراً وفقاً لحسابات الجنرال ميوليس الذي فكر في تخفيف بؤس العاطلين عن العمل بتوظيفهم في الحفر. لا شك أنه لم يتوقع الاستخدام الثاني لهذه المشاعل المنتشرة هنا وهناك بين أكداس الصخور والأنقاض. كانت ألسنة اللهب تتعقب موكباً من المارة المنفردين في الطريق المؤدي إلى بينيسيو. كانوا يتتابعون ويسرعون في نفس الاتجاه، مع حذر شديد كي لا يتعرف عليهم أحد.

تساءل الصديقان عما يعنيه هذا الموكب وأخذا مكانهما في الرتل وهما يحافظان بينهما وبين الفارس على نفس المسافة التي تفصل بين كل رجلين. وبمجرد وصولهما إلى المنحدر، أصبح التقدم أكثر صعوبة. لم يتم بناء السلالم بعد، وكانت الأرض هشة وتغوص فيها الأحذية. كانت الإضاءة مفقودة تماماً، وكان يجب الحرص على عدم التعرض للخدش من الأغصان.

ألقى فريدريش نظرة خاطفة.. كانت هنالك صور ظلية ثابتة مقابل جدار تراب الحفر.. مد رجل شاب يده نحو فرانز وأمسك بطرف الوشاح الذي كان يرفرف أسفل ظهره.

– دعني، قال فرانز، وهو يقفز جانباً.

لاحظ فريدريش في الظلام عدة أزواج من العيون التي تحدق فيهما. واصلا السير، وكان فرانز ممسكاً بكُمّ صديقه، وفي أعلى التل، تم الانتهاء من الشرفة للتو. طمأنهم مشهد العديد من المشاة وهم يتكئون على الدرابزين ويتأملون أمامهم قبة سانت بيير، لكن كانوفا، وبدلاً من الانضمام إلى مجموعة أولئك الذين تحدوا صعوبات الصعود ولتذوق روعة البانوراما الرومانية فقط، توجه نحو أشجار الصنوبر والأكاسيا التي كانت تنمو بهيئة برية فوق أشجار الكروم القديمة وإلى جانبها شجيرات كثيفة من العليق وبراعم الخيزران.

قال فرانز بصوت منخفض على الرغم من أنه لا أحد تمكن من سماعهما:

– دعنا نذهب إلى المنزل.

كان فرانز يرتجف على ذراعه، لكن فريدريش، الذي تحرك بقسوة مفاجئة دفعه إلى الأمام على خطى الفارس. توقفا بالقرب من الشجرة الأولى واحتميا بظلها لملاحظة ما كان يحدث على مقربة منهما. خرج ثلاثة أو أربعة أفراد، كانوا شباباً كما يبدو من صورهم الظلية وحيوية لغتهم، وحاصروا كانوفا، الذي قام بالتراجع بسرعة وهو يغمر يده في جيبه ويسحب منها بعض العملات النقدية المعدنية ويمد يده بها إلى واحد منهم.

أشعل الصبي ولاعته وهو يعد القطع النقدية ثم لوى فمه بتكشيرة اشمئزاز وقال بالإيطالية:

- أريد قطعتين إضافيتين!

اعترض الفارس، وهو يحاول جاهداً الحفاظ على نبرة صوته النبيلة:

- ألم نتفق على أربع قطع نقدية؟

انفجر الثلاثة الآخرون ضاحكين، بينما بصق الشخص الذي احتَجّ على القطع المعدنية على الأرض وكرر بعناد:

- لعنة البؤس! لا يزال هنالك قرشان إضافيان!

قبل أن تنطفئ الولاعة، لاحظ فريدريش أن الغريب الذي كان كانوفا منشغلاً معه يتميز بجبهة منخفضة، وأنف مسطح، وفم غليظ، وفكين قويين وجرح على وجنته المحلوقة بشكل رديء مع بروز تفاحة آدم في رقبته. لا شك أنه كان يكرس نفسه لتجارة العملات القديمة المسروقة من معبد كونكورد على الرغم من الحراس الذين وضعهم الجنرال ميوليس، إلا إذا كان هو ذاته أحد العمال المستخدمين في الحفريات. كان وجه الفتى الذي بات يشعل ولاعته لفحص العملتين الإضافيتين بعد سحبهما بعد ثوان من التردد من الجيب الداخلي لثوب الفارس جاحداً. كان يعض كل قطعة معدنية، وكان هنالك واحد من الشباب أفضل بكثير من رفاقه. كان رأسه أطول منهم ولولا الخصلات الشقراء التي كانت تميزه عن رفاقه ذوي البشرة الداكنة لكان يسهل التعرف عليه من بين ألف شخص في شوارع روما، ولكان فريدريش قد وجد فيه شيئاً من الشبه بفرانز، فلديه نفس طول القامة والابتسامة الحالمة ورقة الملامح. لكن الصبي الذي انتهى من عد النقود، أومأ برأسه دلالة على الموافقة، وبدلاً من وضعها في جيبه، سلمها إلى الفتى الأشقر وهو يدعوه: «آريغو»، ثم توجه إلى الغابة يتبعه كانوفا على بُعد خطوات قليلة. لقد أدهشت هذه الخاتمة غير المتوقعة الصديقين لدرجة أنهما، ومن دون تفكير في عواقب طيشهما، غادرا مأواهما وانعطفا ليصلا، على رؤوس أصابعهما، إلى الغابة حيث انغرس الرجلان.

أدرك فريدريش أخيراً الهدف الحقيقي من هذه النزهات الليلية بعد أن لاحظ آثار الشهوة الوضيعة ونافدة الصبر التي اكتسبتها ملامح الفارس في اللحظة الأخيرة. ولكن فات الأوان على العودة إلى الخلف، فقد اكتشفا من

بين غصنين من أغصان الأكاسيا التي أبعداها ليريا المشهد جيداً أن كانوفا انطلق في ساعة معينة من الليل لينفذ شروط عقده المبرم تحت أشجار الصنوبر بإقامة علاقة مع الشاب الأشقر، فإلى أين قاده الحب السامي؟

تسمر فريدريش وفرانز في مكانهما لدقائق بدت لا نهاية لها بالنسبة لفريدريش الذي أنهى المشهد بدحرجة على الأرض وسط الشجيرات التي أخفت بقية المشهد عنهما، فقد أمسك فريدريش بيد فرانز وسحبه خارج الغابة عبر شارع ترينتييه دي مونت، وشقا طريقهما باتجاه الدير.

قال لرفيقه:

ربما يمكنك أن تميز بشكل أفضل الآن طبيعة هذه القوة التي لا تُقهر والتي تعيق الشاب كيوبيد عن ضغط شفتيه على شفتي حبيبته.

التفت فرانز نحو صديقه ليريه وجهه المهزوم وقال:

– أوه! فريدريش، هل هذا وقت المزاح؟

– يا له من نفاق مروع، ألا تعتقد ذلك؟

المجاهرة بطقوس الطهارة والنقاء، ثم ممارسة مثل هذا الفساد بعد ذلك، والتحدث بلا توقف عن تهذيب الروح.

سأل فريدريش بسخرية:

– هل لاحظت ذلك أيضاً؟

– ألا تعاقبني بما فيه الكفاية؟ لم أكن لأتصور قط أنه من أجل إدارة حياته المهنية والحفاظ على زبائنه، يمكن لفنان أن يكذب بهذا الدم البارد! أنا أكرهه الآن، ولن أتمكن أبداً من مشاهدة أعماله من دون أن أشعر بالإهانة من هذه الازدواجية الفظيعة. قل لي إن عينيّ خدعتاني يا فريدريش! هل يمكن أن يكون هو نفس الرجل الذي ينحت هذه التماثيل في مشغله ثم يخفي نفسه بعباءته ليقدم القطع المعدنية للفتى الفظ؟ كيف دخلت بذرة الفساد بهذا الشكل إلى قلب الفارس كانوفا؟

كان فرانز يتوقف من وقت لآخر لالتقاط أنفاسه. كان يتنفس بصعوبة وهو يتكئ بكلتا يديه على الجدار الواطئ المطل على روما. لم يقلل استياء

صديقه من عدائية فريدريش. أصبح مزاجه مستفزاً واغتنم الفرصة للتعبير عما كان يخنقه لوقت طويل جداً:

- كانوفا ليس محتالاً.

- ليس محتالاً؟ ماذا تسمي الشخص الذي ينصحنا طوال أمسية كاملة وينهي ليلته بإقامة علاقة فاسدة؟

- إنه ليس محتالاً، فرانز. أنت تصبح مهووساً مع هذه الكلمات عن النفاق، الكذب والازدواجية لأنها تجنبك فحص سلوكك الخاص. بالنسبة لي، لا يوجد شيء غير منطقي للغاية في سلوكيات كانوفا. فبمجرد انتهاء يوم العمل لديه، فهو يواجه التعب وخيبة الأمل بعد الجهد وضجيج المدينة الليلي الذي يصل إلى نوافذه، وإذا كانت ملائكته تمتلك أجنحة تحلق بها فوق المرتفعات، فلديه مشاعر تقوده إلى الأرض. إنه لا يرغب بأن يظل مخدوعاً بعد الآن فيكرس طاقته للتماثيل بينما تنبض الحياة في أطرافه!

- كم أنت عصبي، فريدريكو! هل يمكنك أن تقول لي ذلك من دون أن تغضب.

- أنا أشعر بالغضب لأنك تستمر في إغماض عينيك ولا تريد أن تفهم أن أولئك الذين يزعمون بأنهم يعيشون بروح نقية، سيضطرون عاجلاً أم آجلاً إلى القيام بأفعال تثير اشمئزازهم من أنفسهم.

- لكن ليس إلى هذا الحد، لقد لاحظت كيف وقع اختياره، ليس على أحد هؤلاء الأولاد الذين ربما يشبهون تماثيله عن قرب أو بعد، بل على شخص فظ وهمجي من قطاع الطرق، شخص لم يكن ليتحدث معه إطلاقاً في الظروف العادية.

- إنه لا يسمح لنفسه أبداً بلمس العارضين الذين يقفون أمامه ويمنحون أجسادهم لرؤاه المثالية، فلإشباع رغباته، فهو يحتاج إلى قطاع طرق، وأشخاص خارجين عن القانون ولاعلاقة لهم بعالم أحلامه.

- وأنت تقول ذلك بهدوء، فريدريش! القبح، ووحشية رفيقه، لقاءاتهم الدنيئة، والطابع المهين لمساومتهم، يبدو أن كل شيء يفلت منه!

- عبادة الجمال، ممارسة القبح.

- من يسمعك، يظن أنه لا يوجد شيء يثير الدهشة هناك!

- لماذا تغضب؟ كانوفا صادق عندما يدَّعي بأنه لا يطمح إلا إلى نموذج بلا جسد، ويجب أن تتحرر الروح فيه من المادة، ما الذي سيفعله الجسد إذن بهذه الروح؟ بسبب رفض الاستماع إليه، وإنكار رغباته، فهو يدفعه إلى البحث عن إشباعه قدر الإمكان عبر متعة عابرة، عبادة الجمال وممارسة القبح. ثم أضاف بفكين مشدودين كما لو كان يحاول أن يكون عدوانياً:

- وبدلاً من معاملة كانوفا كمنافق، أشفق عليه كضحية. ما من عقاب أكثر من كونه ممزقاً بين تطلعات الروح وحاجات الجسد الضرورية.

اعترض فرانز بين شهقتين:

- لماذا «حاجات ضرورية»؟

- هل تعتقد أن صعوده في الليل إلى بينيسيو يسرني؟ من المؤكد أنه كان سيفضل ألف مرة رفيقاً يناسب ذوقه ويتناسب مع النوع الذي يحبه. وتابع بعنف من دون أن ينتبه إلى نوبات السعال التي كانت تنتاب فرانز وتجعل جسده يهتز:

- لابد أنه نشأ على يد أم غرست فيه ازدراء الجسد كما قرأ كثيراً للرومانسيين الألمان وأساء فهمهم..

كاد يضيف، وربما قرأ أيضاً كتاب جهافاندجيتا، لكنه أحجم عن ذلك عندما لاحظ مدى إنهاك صديقه، فخفف من حدة صوته وأمسك بذراع فرانز مجدداً:

- هذا هو الخطأ، كما ترى، لقد سمح لنفسه أن يقتنع بأنه لا يمكن أن تكون هنالك أية أخلاق في الجنس، وأنه سيكون من العبث محاولة التوفيق بين الشعور والرغبة. الآن، فرانز، أجبني بصدق، هل تجد كانوفا ملاماً جداً؟ أعني، هل تلومه على ما رأيته يفعله؟ ألن يكون من العدل تجريم مذهبه؟ أليس يدعو إلى عبادة الجمال المثالي، بينما هو وحده فاسد وخبيث.

لكن فرانز الذي كان يحاول التقاط أنفاسه، لم يعد يستمع إليه، فقد انحنى على الحاجز عند زاوية فياسيستينا. قام فريدريش بإحاطته بوشاحه بأفضل ما يمكنه. شاهدا لودفيج يقترب منهما مسرعاً، فبعد أن أقلقه تأخرهما، هرع إلى

لقائهما وقد أحضر معه معطفاً من الأخ ماك كورميك في إحدى يديه، وفي اليد الأخرى، كان يحمل قنينة صغيرة جعل فرانز يستنشق منها سائلاً أخضر. قال لودفيج لفريدريش وهو يسحبه جانباً:

– إنه الهواء الفاسد، كما أخبرتني آنا، وأعطتني هذا من أجلك.. لست مضطراً للعودة إلى المنزل متأخراً. لم تكن تريد أن تعطيني عنوان الطبيب، إنها لا تثق بالطب. لكننا، وعن طريق يوليوس، سنستقبل الطبيب الأكثر شهرة غايتانوبيروسي، هل تتذكره؟ ذلك الرجل البدين الذي يعالج الكاردينال كونسالفي، ووزير الخارجية السابق، من مرض النقرس، والذي كان يُدعى إلى السفارات ليفرغ الأطباق الصغيرة من الحلوى..

سمع فرانز الجملة الأخيرة وبدأ يضحك:

– لكني أفضل بكثير! أنا لست بحاجة إلى طبيب! لقد أرسلت لي واحداً من فيينا بالفعل، لودفيج. آنا محقة في الاعتقاد أنهم جميعاً غير أكفاء.. إكسير نيمي، هذا أفضل دواء بالنسبة لي!

الفصل الثامن

في الخامس والعشرين من آذار، سُمع مدفع قلعة سانت آنجيلو. أصبح لدى روما ملكٌ. تم إطلاق (101) إطلاقة. انتشر الخبر، وبدأت أجراس مائتي كنيسة تدق.

تجول فريدريش طوال الأسبوع بين أنقاض روما الإمبراطورية، وسط المعالم الأثرية الملهمة، بين مبنى الكابيتول، ومعابد الميدان، وكنيسة ماكسيتوس، والكولسيوم، وحمامات كاركالا، وأحصى بين الحشد المبتهج عدد الجنود المحاصرين من قبل ضباطهم وكانوا أكثر من المتفرجين الذين ظهروا بشكل عفوي. اشتعلت نيران البهجة، التي أشعلها خبراء التفجيرات التابعين للجنرال دوبون، وكانت تتوهج على قمة أفنتين..

مرّ الرومان غير مبالين، ولم يعد الجو بارداً بما يكفي ليستحق الأمر تدفئة أنفسهم مجاناً حول أكوام الحطب المحترقة. كان كونراد سيبتهج بهذا الفشل الجديد للطاغية، فلم يجتذب سباق الخيول الذي تم تنظيمه للاحتفال بالحدث الذي منح الإمبراطورية وريثاً أكثر من ألف متفرج. لماذا كان فريدريش يتجول بعيداً عن سانت إيزيدورو وعن منطقة السلالم الإسبانية في هذا الجزء من روما الذي لم يزره من قبل قط؟

مكث في كنيسة سانتا سابينا الجميلة على نهر أفنتاين ووضع عينه على الفتحة الموجودة في باب دير مالطا التي من خلالها، يمكن ملاحظة قبة القديس بطرس اللازوردية في نهاية طريق تظلله أشجار السرو. وفي رواق كنيسة سانتا ماريا في كوزميدين، بالقرب من ساحة فيستا، كان قندلفت الكنيسة يسخر من الجنود الفرنسيين الذين كانوا يتجولون على طول نهر

التيبر بحثّهم على تجربة اختبار (فم الحصان)، هذا القناع البرونزي الساخر الذي تنسب إليه التقاليد الشعبية القدرة على عض يد الكاذب.

لو كانت عدم شعبية نابليون قد نجحت في إسعاد فريدريش، لكان قد عاد إلى الدير بمزاج أفضل، وكان سيستفيد من حصته الإضافية من الزيت لإنهاء لوحة (إيطاليا وجرمانيا) غير المكتملة على حامل اللوحات. ولكنه ربما كان يهرب بهذا التسكع في الطرف الآخر من روما، من بقايا نشأته اللوثرية؟

أوه، كان يجب أن تراه كل ليلة وهو يغادر الدير في حوالي الساعة التاسعة صباحاً، ويستدير يميناً ويصعد عبر سيستينا، ويمر أمام كنيسة ترينتييه دي مونت، ويصل أمام الأكاديمية الفرنسية التي كان يبدأ خلفها ظلام الحدائق ورائحة النباتات الربيعية. كان يتكئ على الحائط، وينظر بشكل خفي، بحيث لا يلاحظه أحد، باتجاه أحراش بينيسيو. كان يرفع عينيه نحو الواجهة السوداء للفيلا على أمل أن يشاهده طالب من خلال نافذته وينزل للدردشة معه على الرغم من شدة القواعد.

قرر أخيراً تنفيذ القرار الذي كان يتراجع عنه، يوماً بعد يوم، متقدماً خطوة نحو الظلام، ثم توقف مرة أخرى، واستدار فجأة لينقذ نفسه متجهاً إلى الجزء المقابل من المدينة، وانطلق بسرعة كاملة إلى أعلى الدرج الإسباني راكضاً على طول كورسو حتى معبد كونكورد، بينما تشتعل الألعاب النارية حوله!

لم يأت الإمبراطور المنشغل باستعدادات لحرب جديدة إلى روما، ومثل هانيبال سابقاً، أعظم قائد في العالم الحديث، تخلى عن أمجاد الكابيتول. وبعد أن اعتلى العرش، جعل جنوده يستولون على العاصمة القديمة في العالم، كان ديو سكوري ينتظره على تل رومولوس، وكان ينبغي أن يأخذ تاج شارلمان من مذبح القديس بطرس، لكن روما يمكن أن تنتظر مجيئه زمناً طويلاً فلن يطأ ملكة المدن بقدميه أبداً.

كان قد ناقش ذلك في محادثاته الصباحية مع العجوز آنا فهي تعرف جيداً سبب عدم قدوم نابليون إلى هنا ولماذا لن يفعل ذلك أبداً. ألأنه يستعد لحرب أخرى أم لأنه لا يملك الوقت لمثل هذه الرحلة الطويلة؟ كلا! لم يولد بعد ابن الرجل الذي سيجرؤ على انتهاك السور المقدس لـ «أم» كل

المدن! كانت تتحدث وهي تقطب حاجبيها بشدة. إنها تتحدث عن روما كحصن صوفي، وإذا كان فريدريش ينزل إلى رواق الكنيسة غالباً للاستماع إلى آنا، فذلك لأنه يأمل أن يفهم منها ما يجري في قلب فرانز وما هو التأثير الغامض الذي تمارسه هذه المدينة على صديقه الأكثر بُعداً وسرية.

الفصل التاسع

لم أنجح في إنهاء لوحة (إيطاليا وجرمانيا).. لوحتنا، فرانز، العمل الذي كان يجب الاحتفال به كرمز لحبنا، قوة الشعور بالتحرر من كل اعتبار خارجي! أنا أشعر جيداً بأن إيطاليا، الجالسة بجوار جرمانيا، لم تكن راضية لفترة طويلة عن سماع الكلمات اللطيفة التي تهمس لها بها صديقتها، سوف تنهض وتنتزع إكليل الغار من جبهتها، لأنها لا تريد أن تكون مخدوعة بعد الآن.

سأل فرانز لاهثاً:

– وماذا ستفعل جرمانيا بعد ذلك؟

– جرمانيا، التي تركت وحيدة على مقعدها، ستتأمل السماء وهي تتنهد، وسوف تأسف لأنها لن يحملها ملاك في الهواء، ستفكر بأنها لو كانت قد بقيت على الأرض الألمانية، بدلاً من الهبوط إلى بلد الشمس والاسترخاء الحسي، أنها لن تعمل على لوم نفسها على ارتكاب بضع خيانات لمثالها النبيل... أوه! (كان فريدريش يقصد تردده على أحراش بينيسيو عدة مرات لملاقاة الصبي الأشقر بعد دفع عدة قروش له بسبب جفاء فرانز له)... يبدو أنني لن أراها تمد يديها إلى الملاك الذي سينقذها من هذه التنازلات المهينة ويقودها إلى مناطق أثيرية. ثم أضاف مصعوقاً بالشحوب المفاجئ الذي انتشر على وجنتي صديقه والذي برزت وسطه بقع حمراء صغيرة بكثافة مقلقة:

– فرانشيسكو، لقد كنت أمزح بالتأكيد.

قال فرانز، وهو يأخذ من يدي صديقه المنشفة ليجفف جبهته:

– هذا لا شيء. ثم رفع رأسه وابتسم قائلاً:

- أنت تدعوني فرانشيسكو من جديد، لست غاضباً مني بعد الآن، أليس كذلك؟ وضعنا..يا له من وضع غريب! ينبغي علينا أن نكون ملاكين أو حيوانين، لنكن سعداء معاً.. لماذا تضحك؟

- لأني تعرضت للضرب من شاب همجي في بينيسيو بسبب المساومة على المال، وبينما كان ذلك الحيوان يضربني، لم يتوقف عن الصراخ بوجهي: خنزير ألماني يريد أن يكون ملاكاً!

- نحن دائماً ملاك لشخص ما...الملاك بثلاثة قروش.. يا له من موضوع للرسم؟

ضحك بدوره، ولكن من دون ابتهاج، ثم قال بصعوبة:

- مهما حدث لنا.....

صاح فريدريش وهو يطيل النظر في وجه صديقه:

- ماذا تريد أن يحدث لنا؟

كانت البقع الحمراء قد اختفت، لكنه قرأ في ملامح فرانز تصميماً غامضاً لم يسبق له رؤيته فيه.. كرر خائفاً:

- أردت المزاح فقط، إيطاليا وجرمانيا لا يمكن أن تنفصلا، حتى إذا رغبتا في ذلك. أليس لديهما عدد كبير من الأعمال المشتركة، والعديد من اللوحات قيد التنفيذ، كما يجب الانتهاء من الأرغن...

كان فرانز قد ذهب في شهر كانون الثاني إلى ريف نيمي ليختار أشجار الزيزفون التي كان قد قطعها وأزالها، ثم قطع الألواح بالمنشار ليستبدل مفاتيح اللمس المفقودة لوترين غليظين من لوحة المفاتيح. وبعد التجفيف بالنار، في الشهرين اللذين تظل الألواح فيهما مغمورة بالمياه ليتم تفريغها من عصارتها، كان الحطاب قد أخرجها لتجف في سقيفة محمية من أشعة الشمس. كان فرانز يذهب مرتين في الشهر إلى نيمي لمراقبة تطور التجفيف. وعلى الرغم من أن زيارته الأخيرة كانت قبل أقل من أسبوع، فقد اقترح على فريدريش أن يذهب في اليوم التالي للتأكد من أن الألواح جاهزة.

بهدوء، اجتاز حجرة فرانز حيث قام الشاب بإنزال قطعة من جلد الغنم ليخيطها. سأله:

- ألا ترغب برؤية جبال الألب الألبانية في شهر أيار؟

تابع فرانز:

- يجب عليّ الحصول على بعض الحور..

- لأخشاب الكمان؟

- والانتهاء من صندوق الأرغن

- مع ألواح من خشب البلوط! سارع لإكمال جملة فريدريش الذي كان سعيداً جداً بهذا التحول.

من كان يمكن أن يشك في أن لفرانز أي غرض آخر في الذهاب إلى نيمي غير أن يختار، شجرة بعد شجرة، آخر الأجزاء المفقودة من آلته؟

كان معتاداً على القول إن الأرغن «يبدأ في الغابة». كان عليك أن «تشعر» بالأشجار عبر التعاطف مع الغابات والسحر. في كل جزء من الأرغن الذي يتوافق مع جوهره المثالي، وجد فريدريش أيضاً، وهو يتحدث عن التفاصيل التقنية لطريقة صنع الأرغن، السعادة التي شعر بها مرة واحدة عند تحريك النبيذ الأبيض الإسباني وغراء الأرنب في قدر صغير، لقد سارع للإشارة، بالنسبة للقطع المختلفة التي لا يزال يتعين عليه إصلاحها، إلى أن الخشب سيكون بالشكل المناسب. أضاف:

- لقد تعلمت دروسك جيداً.

دخل فرانز اللعبة على الفور.

- سأحتاج إلى بعض التنوب.

- لأزرار الأنغام في الأرغن؟

- لا، من أجل عمل فرشاة تنظيف، فريدريش، بالنسبة للأزرار، سأحتاج إلى شجرة جوز.

- من ناحية أخرى، بالنسبة للأصوات العميقة المنسجمة، سيلزمك أوتار أوسع، يمكن أن تعمل كالإسفنجة عندما يكون الصوت مكتوماً.

- برافو، نطقها بالإيطالية. وأي شجرة ستعطينا هذه الصفات الجميلة الصامتة؟

قال فريدريش متظاهراً بالتفكير:

- دعنا نرى.. الشجرة التي تنمو بسرعة وتتطور خلاياها بسرعة كبيرة.. الأرز على سبيل المثال، أو شجرة السرو، التي خشبها مثقب بالتجاويف.

- برافو، ممتاز!

استولى التعب الشديد على فريدريش، أما فرانز فقد أدرك أن وقت تضامنهم الشاق قد ولى. لقد أصبحت مقارنة أنواع الأشجار وتمييزها وفقاً لكثافة أليافها ثرثرة لا طائل منها، مادام كل منهما لن يقنع الآخر، ويحتفظ تحت صخرة الصمت الثقيل بأفكاره الخاصة ومخاوفه وذرائعه. ياله من هراء أن يصرخوا «برافو» لأنهم كانوا قد سمعوها من المتفرجين المتحمسين في أمسية متواضعة في دار الأوبرا!

لم تكن هذه اللغة معتادة لدى فرانز. لم يكن من عادته إطلاق صواريخ المديح لتحية مغن لكنه استخدمها لمحاولة الحفاظ على إيمانه بعملهما معاً لغرض محو خلافاتهما.

نهض الشاب وبدأ بترتيب حجرته التي كانت مرتبة أصلاً بسرعة وانفعال، فقام بتحريك الإبريق تحت الحوض، ودفع الكرسي بمواجهة الحائط، وأجرى تغييرين أو ثلاثة غير مبررة أيضاً. ولمساعدته، ومع أن هذه الحركة بدت له عديمة الفائدة، فقد سلم صديقه قطعة من جلد الغنم والإبرة التي كانت قد بقيت على السرير. اقترح:

- إذا رحلنا على الفور؟..

لم يكن يشعر بالرغبة في النوم في الحجرة المجاورة ولن يعاود المرور في الطريق المحبط الذي كان قد سلكه من حديقة مينيجستراسي إلى شجيرات بينيسيو.

أجاب فرانز بحيوية أذهلت فريدريش:

- لم أجرؤ على سؤالك.

إذا كان لديه هو ذاته سبب وجيه للهروب من جدران الدير الخانقة، فما هذه السرعة المفاجئة التي كانت تدفع صديقه إلى التعجل بالفرار؟

مرة أخرى، مع ذلك، فقدا القدرة على الشرح.

الفصل العاشر

كانت بحيرة نيمي، التي وصلا إليها في منتصف النهار، تتألق بلا تموجات في قاع الحفرة، بزينتها الكثيفة من أشجار الكستناء والسنط. ومن أعلى الشرفة، ممسكين بالدرابزين بكل أيديهما، انحنيا على الماء الأسود، الأملس والثقيل مثل الرصاص. جاء الأطفال وهم يصرخون فرحين، ويركضون من جميع شوارع القرية. كانوا يرافقون فرانز إلى الغابة خلال فترة إقامته السابقة، لذا اندفعوا للقائه وتشبثوا به جميعهم محاولين سحبه من يده على الفور للاتجاه إلى الضفة، من خلال طريق كانوا قد فتحوه بأنفسهم بواسطة ضربات الفأس وأداة التشذيب بانتظار عودته مرة أخرى.

أراد الصديقان أولاً إلقاء التحية على آنا، فطرقا باب منزلها الصغير. كانت المرأة القروية قد ارتدت ملابسها السوداء في ذلك اليوم. كانت تجثو على ركبتيها وسط المطبخ وهي تنشر على البلاط محتوى ثلاث سلال من الطماطم.

قالت لفرانز عندما فهمت أنهما على وشك النزول إلى هناك:

– ابني، قلت لك ذلك دائماً، لا تقترب من البحيرة. الموسم السيئ قادم، والهواء الفاسد سيكون ضاراً لرئتيك. لقد كانت الغابات التي تبطن البحيرة البركانية مقدسة.

كانت تزعم بأن الإلهة ديانا، التي لا يزال معبدها المتداعي يزين الضفة، قد أعادت إحياء هيبوليت في هذه الأماكن. ولم تسمح الآلهة لأي إنسان بالمجازفة بنفسه، مؤكدة من خلال هذا المنع ذكرى مأساة الشاب المفضل لديها.

قالت آنا فجأة لفريدريش:

- سيدي، مرر لي هذا الحوض.

كانت جملتها عابرة لأنها كانت تركز على فرانز باستمرار وبدأت تصف له بمزيج من الدهشة والخوف السفينتين اللتين بناهما كاليغولا واللتين ترقدان في قعر البحيرة على عمق 202 قدم مؤكدة أن كنوزاً هائلة كانت قد ابتلعتها البحيرة بين جنبيها، لكنها كانت تحت حراسة رأس جورجون ورأس ميدوزا اللذين كان الإمبراطور يزين بهما مقدمة سفنه.

- لا تنزل تحت أي ظرف. انظر من خلال النافذة، وسترى أن الأطراف قاحلة. إنه ليس ماء عادياً. إنه يلامس الأرض من ضفتيها والهواء من سطحه، ولكن أيضاً، النار التي تغلي في جوف البركان.

شعر فريدريش بالانزعاج لإهمال آنا له، كان ينظر بحسد، ولم يكن يميل إلى الالتفات إلى ثرثرة المرأة العجوز، فحث فرانز على المغادرة.. رافقتهما آنا حتى العتبة، وهي تمسح أصابعها الملطخة بالطماطم بتنورتها السوداء، وباركت فرانز بثلاث علامات صليب تاركة الصديقين لحشد الأطفال الصاخب.

كان النزول عبر الغابة الكثيفة والمعتمة بطيئاً وصعباً، ولم يقطع الأطفال إلا مساراً يتناسب مع حجمهم. وتحت القوس الواطئ للأغصان المتشابكة، لم يستطع فرانز سوى التقدم وهو يحني ظهره. وعلى حافة البحيرة، استقبلهم التفتح الغني لأزهار الربيع.

صرخ الأطفال:

- الساعة! الساعة!

كان يطلق على أعنف طفل في المجموعة اسم إنريكو. كان يرتدي عصابة رأس يبرز منها شعره الأسود المجعد، وكان يضغط بقبضته المخدشة بالأشواك على مقبض سيف خشبي معلق في حزامه. انتشر الأطفال في المروج وبدأوا بقطف الزهور التي سيجلبونها إلى فرانز ويلقون بها عند قدميه.

كان الشاب جالساً بالقرب من حافة النهر، وفي الحال، كانت الأرض

التي تحيط به قد اكتست بالنرجس والزنابق والبنفسج وزهرة الربيع. كان قد وعدهم بتجهيزهم بواحدة من هذه الساعات الزهرية التي تشير أزهارها إلى الوقت حسب اللحظات المختلفة التي كانت تغلق فيها بتلاتها لتنام. كان الأطفال قد فهموا أن كمية كبيرة من الزهور التي تنتمي إلى أكثر الأنواع تنوعاً ستكون ضرورية، لكنهم أصروا على اقتلاعها من الأرض عندما طلب منهم فرانز أن يجدوا له مكاناً حيث كان كل شيء ينبت معاً وحيث يمكن أن ينظم الوقت حسب إيقاعها البيولوجي.

لم يبق سوى برونو الصغير، الأصغر بين الأطفال، الذي بقي جالساً بعيداً، مقرفصاً، في حالة من النشوة أمام التويج البنفسجي لزهرة الترس الربيعية، وكان قد دفع جانباً حصاتين على الضفة ليزرع بينهما طرف ساق قصيرة ومليئة بالوبر.

قال فرانز:

– كم مرة أوصيت باحترام رداء الطبيعة الحي!

تظاهرت الوجوه الصغيرة المجتمعة في حلقة بالحزن تحت هذا التوبيخ، لكن فريدريش رأى في أعينهم متعة نافدة الصبر بانتظار سماع قصة جميلة تتوقد الرغبة فيها في كل العيون لدرجة أن برونو ذاته لم يستطع مقاومة النداء. أمسك زهرته من ذيلها، وجاء راكضاً ليضع زهرة الترس وسط زهرات البنفسج وزهرات الربيع.

استأنف فرانز:

– إن النباتات هي اللغة الأكثر مباشرة في الأرض، فكل شفرة من العشب لديها شيء خاص لتخبرك به. ضع أذنك على الأرض وستلاحظ نوعاً من الهمهمة المستمرة، كما لو كانت تحاول التحدث إليك. بالطبع، لن تتحدث إليك، ولن تكون قادرة على التحدث إليك، وإلا فلن تكون الطبيعة. لكن هذا النرجس البري الذي قامت لينا بقطفه، بدأ لونه الأصفر الهش يتلاشى تحت تأثير الشمس. فلماذا نبتت هذه الليلة؟ هل تعتقد أنها كانت هناك لكي تقتلعها فتاة صغيرة وتحكم عليها بالذبول؟ لقد كانت رسالة خفية، فالجهد الدؤوب الذي بذلته الأرض لتصبح مسموعة. كانت موجة

من الرغبة والحب، ولأنها لم تكن قادرة على أداء حركة ولا لفظ كلمة، كانت قد أصبحت زهرة صامتة ومسالمة.

بينما كان يتحدث، وضع الأطفال آذانهم على الأرض وأغمضوا أعينهم. كان إنريكو يحاول إخفاء السيف الذي كان قد استخدمه لقطع وتدمير ما حوله بين ساقيه. رفعت لينا رأسها، وبدت مستعدة للبكاء. سأل فرانز حالاً واحدة من رفاقه:

– وأنت، باولا، النرجس الذي أحضرته لي لم يكن أقل من سر ثمين من أسرار الطبيعة التي كانت قد اختارت أن تعيد ارتداء هذه الجريسات البيض للتغلب على لجلجتها. أتعرفون أن الزهور تنتشر مثل سجادة متلألئة تترجم توق الأرض الصامتة إلى لغة تجيد سماع الطيور في السماء أفضل منا بكثير.

ارتفعت جميع الرؤوس الصغيرة على الفور لتتابع تحليق طيور الخطاف والسنونو. كان هنالك حاجز من القصب يحيط بالبحيرة، وتمايلت أجنحة الطيور الزغبية في السماء الصافية. بالكاد تكسرت كتلة الماء المتلألئة، كان الأطفال على الدكات الرملية على الشاطئ يستمعون إلى فرانز بعيون مفتوحة على سعتها وأفواه نصف مفتوحة، أما الآن، وفي هذا المشهد المسطح والرتيب، سرعان ما بدأوا القتال وكانت الحرارة تزداد وطأة. كان البعض يتثاءب ويتمطى، وأراد اثنان أو ثلاثة التقاتل فيما بينهم، بينما بقي برونو الصغير بلا حراك في ركنه. لوحظ أنه كان نائماً. وأشار إليهم فرانز بعدم إيقاظه.

بين همس القصب، كان البعوض يطن والأغصان تطقطق خلف ظهورهم.. لقد زحف سبات الصيف على البحيرة. قفزت سمكة من الماء وسقطت من جديد مع ضجة مخنوقة. استمتع الأطفال بإحصاء الدوائر التي كانت تبدأ وتتسع ثم تموت على الضفة التي قوضها القليل من الرمل.

قالت الفتاة الصغيرة التي كان فرانز يدعوها باولا وهي تنحني فوق زهرة نرجس ذابلة وتقرب أذنها من بتلاتها الباهتة:

– احكِ لنا قصة الماء!

- الماء أكثر ثراء، أكثر شاعرية وأكثر شمولية من الأرض. إنه أصل كل شيء. ألا نرى العالم مغطى بالندى كل صباح؟ هنالك مياه تتدفق بهدوء على طول الأنهار والروافد، الماء الذي يرغي ويزبد على حصى السيل، والماء الذي يثور في أمواج البحر، والماء الذي يركد بهدوء في البحيرات، لكنه نفس التدفق اللامتناهي دائماً، نفس السائل الأصلي الذي يستخدم كرابطة للاتحاد والحب بين كل ما هو موجود على الأرض. تختلط الأمواج بالأمواج بحبور في حمام أبدي منعش، وعندما تشعر بالعطش، ستتجلى فيك روح الماء.. وأضاف الشاب مشيراً إلى برونو الذي كان ينام مثل كلب صيد، بقبضته الصغيرة المتقلصة على فمه، فالنوم ذاته ليس شيئاً آخر غير تدفق هذا البحر اللامحدود من هذا المحيط غير المرئي الذي يهدهدنا ويدحرجنا في لذة العنصر السائل.

أغلق الجميع أعينهم وتمايلوا برؤوسهم وهم يتابعون ألغاز الماء، عندما لاحظ إنريكو، وهو يرفع جفنه، سحابة صغيرة بيضاء ظهرت فوق قرية نيمي وجاءت ببطء لملاقاتهم. توقفت فوق البحيرة، ثم وبنفس الوتيرة الهادئة، استأنفت طريقها نحو جينزانو، مدفوعة بالنسيم الذي كان يصفر على بعد ثلاثين قدماً فوق رؤوسهم. وحولهم، كانت أوراق الأشجار الساكنة تنتظر عبثاً نفحات منعشة.

صاح الصبي الصغير:

- والغيوم، حدثنا عن الغيوم!

أما فريدريش، الذي لا يبدو أن الأطفال كانوا يلاحظون وجوده، فلم يكن يعاني من الشعور بالإقصاء، وأثارت إعجابه تلك البساطة الساحرة التي كان صديقه يصنع بها المبادئ الكبرى لمعتقده ويضعها في متناول مستمعيه. كان من دواعي سروره أنه سمعه يمتدح الغيوم ويستحضر كل ما تخفيه شفافية الهواء من حياة وحماسة مخبأة.

تابع الشاب، مشيراً إلى كثرة النتف الصغيرة الشفافة التي كانت تطفو في السماء:

- إنها تمر وترغب في أخذنا بعيداً في ظلها الهادئ. انظروا إليها. كم

أن مسارها رقيق! هذه تشبه حيوان الجمل، وتلك تشبه حبة فراولة. إنها تشبه الرغبة التي تستيقظ متنهدة في قلوبنا. قوموا بصياغة أمنية، وسوف ترون تشكّل سحابة جميلة حول أفواهكم، مليئة بكل أمنياتكم. ولكن في بعض الأحيان، أضاف فرانز الذي كان يدرك أن الأطفال يحبون أيضاً أن يشعروا بالخوف:

– وأحياناً تكون قاتمة، خطيرة ومروعة ومتموجة وتتجمع الألوان فيها ببطء في الأفق. ها هي الليلة السابقة تطلق العنان لتهديداتها، ويبدو أن السماء لن تتضح مرة أخرى أبداً، وأن السماء اللازوردية الصافية المضيئة قد اندثرت إلى الأبد، وأن نسراً عملاقاً قد غطى العالم. ها هو البرق يشق الظلام، ويتقوض الرعد بصخب، وربما تنفلق القبة السماوية إلى نصفين لابتلاعنا.

احتضن الأطفال بعضهم بعضاً، تحت تهديد العاصفة وهم يضمون ركبهم المصطكة بأذرعهم. كان برونو قد استيقظ وعيناه مليئتان بالنعاس وهو ينظر حوله بفزع، أما إنريكو، وعلى الرغم من أنه كان يود أن يحظى بسرعة تصديق رفاقه، فقد أراد أن يثبت أنه كان في الثانية عشرة من عمره، ولم يعد يشاركهم مخاوفهم. لذا سأل بكل جرأة:

– وماذا عن النار؟

قالت لينا:

– اش اش! لن نتحدث عن النار.

أضافت باولا:

– النار، يجب أن تظل مخفية.

لاحظ فريدريش على جميع الوجوه التي بدت شاحبة قلقاً غير مبرر وانتظاراً متلهفاً لإجابة فرانز.

نهض فرانز من الجذع الذي كان جالساً عليه، وجاء ليجلس على حافة البحيرة ويغمس إصبعاً في الماء كما لوكان يفعل ذلك ليقيس حرارة الماء، ثم ألقى حذاءه جانباً وخلع سترته وقميصه وبدأ بفك حزامه من دون انتظار. خمن فريدريش نيّته لكنه ظل ذاهلاً ولم يتخذ أية خطوة لإعاقته.. لم تكن

الحرارة شديدة بما يكفي لتبرير الاستحمام في هذا الماء الخطير الذي كانت انعكاساته المحتوية على الرصاص تمنع المرء من رؤية ما تحت السطح، وعلاوة على ذلك، بدأ فرانز، من بين كل أولئك الذين تابعوا حركاته برعب صامت الأقل تأثراً بالشمس. لم يكن يتصبب عرقاً، ولم تلتمع أية قطرة عرق على صدره العاري، أما البعوض، فبدلاً من أن يعذبه مثل الأطفال بطنينه المتواصل، فقد تركه هادئاً.

حاولت لينا وباولا، اللتان أدركتا محاولته العودة إلى البدايات التي كان يريد المجيء منها، إيقافه، بينما انتصب الآخرون واقفين.

قالت لينا مختنقة بالغضب:

- السباحة في البحيرة ممنوع.

قال الصغير برونو:

- آباؤنا يمنعوننا.

قالت باولا:

- ستلفك الجورجون بشعرها الأفعواني وعندما سترى الميدوزا، ستظل متحجراً!

وعندما ذكرت جورجون والميدوزا، صمت الجميع فجأة، وأغمضوا أعينهم بقوة.

صاح إنريكو أخيراً:

- اتركوا النار وشأنها. من يصدقك، إذا حاولت الذهاب للبحث عنها في قاع البحيرة.

صرخوا جميعاً:

- ارجع، ارجع! فرانشيسكو، ارجع!

في البداية، كانت صرخة عتاب شديد، ثم تحولت إلى شكوى وانتهت بتنهيدة. «ارجع، ارجع» تشبه نوعاً من الترتيل، الصلاة التي لم تعد موجهة بعد إلى صديقهم. كان مستعداً للغوص في المياه السوداء لكي يسامح روحه التي أقدمت على ارتكاب فعل شرير..

وفي اللحظة التي كان فرانز يضم فيها يديه أمامه ليقفز، هرب فريق

الأطفال الصغير واختفى تحت الأشجار فلم يرغبوا في حضور هذا الحمام المقدس. كان يمكن سماع خطواتهم التي كانت تبتعد في الغابة. ولكي يظهر أنه كان يزدري خرافاتهم، كان إنريكو آخر المغادرين دافعاً الأغصان خلفه. لكنه، وعندما رأى فرانز يلقي بنفسه في الماء، تسلل أيضاً بدوره وصعد المنحدر، صارخاً لرفاقه أن ينتظروه.

الفصل الحادي عشر

بقي فريدريش واقفاً على الجسر. همس:

– لماذا فعلت هذا؟

سبح فرانز دونما عجلة بحركات منتظمة ورسم دائرة في وسط البحيرة وعاد بهدوء إلى الشاطئ، حيث قام بتفريق القصب ليستعيد موطئ قدمه على الرمال، لكنه، وبينما كان مستلقياً على العشب، أصيب بقشعريرة ونوبات سعال شديدة أرغمته على الجلوس، وكان صدره يلهث وأنفاسه تضيق.

كرر فريدريش بصوت مرتفع بعد أن خلع قميصه ليفرك به ظهره:

– لماذا فعلت هذا؟

أجاب الشاب، ليس من دون أن تتقطع أنفاسه عدة مرات:

– في بعض الأحيان، لا يكون هناك مخرج آخر غير الذهاب للغوص ومقابلة جورجون والنظر مباشرة في عيون ميدوزا لمعرفة كيف تبدو.

قال فريدريش الذي لم يكن يرغب في إيقاظ شجاراتهما في هذه اللحظة:

– لا، دعني أتحدث بالمقابل. أين سنجد مكاناً بهذا الهدوء وبعيداً عن العالم؟ لا أحد لديه الحق في الكذب بعد الآن عندما يكون بمواجهة الطبيعة؟ من بيننا نحن الاثنين، فريدريش، من هو المذنب أكثر؟

التفت ليبصق جلطة من الدم سقطت على العشب مكونة بقعة حمراء. وقال:

– كان الماء متجمداً في المرة الأولى التي رأيت فيها البحيرة، قلت لنفسي: لا تجب السباحة فيها! ومن ثم، ومع مرور الوقت، نمت الرغبة في

داخلي. وشيئاً فشيئاً، شغلت كل مخيلتي. واصلت القول لنفسي: لا ينبغي لأحد السباحة في ماء البركان، فالجميع يعرف ذلك، ومع ذلك، فقد جذبتني حافة هذا البركان القديم. كنت أحلم به في الليل، أحياناً. أوه! الاستحمام الذي سيجعلني على اتصال مع العناصر الأربعة في نفس الوقت، ولا يوجد غير بحيرة نيمي التي يمكن أن تمنحني الفرصة. المياه المظلمة والساكنة، فريدريش،... أنا أدعوك فريدريش لأن أفضل ما نشأ بيننا في الأساس نما على الأرض الألمانية. ربما كان ينبغي لنا البقاء في فيينا.. كنت سأصطحبك معي إلى فرانكفورت أيضاً، وكنا سنتنزه على حافة الماين، وأعرفك على صديقي القديم الذي يصلح السفن بضربات مطرقة وهو الذي علمني حب الأخشاب وصوت الطرقات بشكل منتظم. كل شيء كان يمكن أن يكون مختلفاً.. ماء الماين ينزل من الجبل ويذهب إلى البحر، إنها صورة الحياة وهي تتجدد باستمرار ويمكن السباحة فيها بلا خطر..

ثم قال بصوت ضعيف للغاية:

- اقترب مني، عليك أن تعرف شيئاً.. بالأمس مساء، كذبت عليك وأنا أقول لك إن الألواح الخشبية ستكون جاهزة قبل شهر تموز. لقد أردت.. لقد أردت أن أسبح في البحيرة. وأصبحت رغبتي فجأة لا تقاوم. وكان عليّ الإسراع على الفور، أنت تفهم؟ النزول عبر غابات الكستناء، والتقدم حتى الشاطئ والغوص في المياه السوداء والسباحة.

أوه! فريدريش! كم أشعر بالسعادة فجأة! ها نحن مرتبطان من جديد كما في حديقة منزل والديك.. بلا كذب ولا زيف.. من أجل الحياة ومن أجل الموت.. أتعرف الآن أن عينيّ تغلقان من تلقاء نفسيهما. أعتقد أنني أغفو.. بسلام، لأن كل شيء الآن واضح بيننا.. هل تعرف لماذا أردت القدوم إلى نيمي ولماذا ألقيت بنفسي في البحيرة.. الرغبة. الرغبة التي لا تقاوم.. لا ميدوزا ولا جورجون في القاع.. إنه، وسأقول لك أنت فقط ذلك، إنه ملاك، فريدريش، ملاك..

مال رأسه على صدره، وغفا، مستنداً إلى فريدريش الذي ارتبك لسماع هذه الجمل التي كانت تلميحاتها واضحة للغاية، تساءل عما إذا كان عليه

أن يمدد صديقه على العشب أم يحتفظ به جالساً بين ذراعيه. لقد فضل أن يمدده، لكنه ارتعب على الفور من شحوب جسده المستلقي بين الأزهار التي قطفها الأطفال. كان قفصه الصدري يعلو ويهبط بجهد وهو يتنفس بصعوبة، مع بروز أضلاعه الذي كان يرسم أخاديد قديمة في صدره المنهك. لقد مر وقت طويل منذ أن رأى فريدريش هذا الصدر العاري. لقد مر حوالي تسعة أشهر منذ أن وصلوا إلى روما، وكان المرض قد تطور بشكل رهيب. لم يكن قادراً حتى الآن على تجاهل اسم المرض الذي كان قد دخل إلى رئتيه مع ضباب فيينا.

منذ ليلتهما الأولى في البندقية، كانا قد أدركا تغير العلاقة بينهما، وبلا شك، لم يكن هذا الوقت المناسب لمناقشة هذا الأمر أو التفكير فيه، فالشاب بحاجة إلى الراحة والرعاية على الرغم من أن فريدريش كان يشعر هو أيضاً بالحاجة إلى تبديد الظلال التي كان يمكن أن تستمر بينهما.

على هذه الشواطئ التي بقيت برية، وأمام هذه البحيرة التي لا يشوب أمواجها أي تكسر، كان يرغب أن يبوح كل منهما للآخر، ولولا الخشية من إرهاق صديقه باسئلة جديدة، لكان سأله متغلباً على الإحراج الذي يكتنف مثل هذا السؤال الدقيق، وليعترف له مرة واحدة وإلى الأبد بالحقيقة.

قال لنفسه: «عندما سيأتي الطبيب الذي أرسله يوليوس، سأسأله عن إمكانية إعادة المريض إلى روما». في غضون ذلك، قام الأطفال بمساعدته على التمدد على نقالة من الأغصان، وتناوبوا على حمله إلى نيمي.

طرق إنريكو بسيفه على باب آنا، كان فريدريش سعيداً للغاية لأن المرأة العجوز تركت توبيخ الشباب على حماقاتهم جانباً وزودتهم بعربة وزوج من الثيران وفراش من القش لنقل فرانز إلى روما.

وصل الطبيب بيروسي، طبيب الكلية المقدسة والمسؤول عن الجميع وخصوصاً عن نقرس الكاردينال كونسالفي، وبدا مستاء للغاية، أولاً بسبب عدم إيجاده الكونت النبيل فون كاروسفيلد، ومن ثم بسبب استدعائه إلى دير مهجور، إلى جانب سرير طالب فقير، لن يضيف علاجه شيئاً إلى سمعته. ألقى نظرة على فرانز، الذي كان يخلد إلى الراحة لمدة ثمانية أيام في حجرته

الصغيرة، وكان يسهر عليه بالتناوب الإخوة الثلاثة المتبقون. كان سؤال الطبيب الأول قد أثار دهشتهم الكبرى، إذ استفسر عما إذا كانت هنالك علاقة قرابة بينهم وبين المريض.

– إخوة؟ أبناء عم؟ لا شيء؟

بدا أن كلمة (لاشيء) التي رد بها فيلهلم عليه قد أرضته تماماً، فقام بتعديل نظارته وسحب الساعة الذهبية من جيب صديريته التي تغطي بطنه الضخمة، قال:

– جيد، لأنه، كما تعلمون، عندما يمر مريض بين يدي، فالعائلة تجعل الطبيب دائماً مسؤولاًعنه. ألست من أقارب السيد بفور؟

غضب فيلهلم وأراد أن يطرده. قال لرفاقه:

– أخبرتكم بأننا يجب ألا نثق في يوليوس. هل علينا أن نصنع من دجال يصنع ثراءه على حساب شخص مصاب بالنقرس؟

شعر لودفيج بالحزن لأن الحاجب القديم للبلاط لم يرافق الطبيب. واستاء فريدريش من آنا لأنها سلمتهم، برفضها دلّهم على طبيب ممارس نزيه من الحي، إلى هذا الطبيب الباذخ.

كان ينقر على علبة السعوط المرصعة بالأحجار الكريمة وهو يمضغ بهدوء عشباً بنياً عطرياً، وكان يردد من وقت لآخر: «جيد»، قال:

– أطعموه صدر الدجاج فقط. آه، هل تربون الدجاج؟ ثم أضاف رداً على اندهاش لودفيج:

– جيد، يا أصدقائي، إنها حالة مثيرة للاهتمام جداً، وهي تختلف عن مرض فيتوسيس الشائع، جيد.

كان قد نطق الكلمة اليونانية بطريقة أنيقة وهو يقوس إصبعه السمينة على علبة السعوط.. ربما وجد أخيراً فائدة أكيدة لهذه الزيارة، لأنها سمحت له بأن يظهر للأجانب –الألمان خصوصاً، الفخورين جداً بجامعتهم في برلين –درجة التميز التي حصل عليها في العلم الهيبوقراطي الإيطالي القادر على التمييز بين مرض كونسومبسيو اللاتيني ومرض فيتوسيس الكلاسيكي. كان يتمتع ببشرة صحية ومظهرسعيد وفجأة قال:

- ساعتان! جيد. لقد انتهى الوقت النظامي المخصص لاحتضار رجل.

ثم نهض من مقعده ببساطة. كان فيلهلم يزبد وهو يقول لرفاقه:

- يعلم الله أية أجور سيطلبها هذا البدين!

كان يتذمر على الرغم من محاولات لودفيج لإسكاته، لكن الدكتور بيروسي، ومع كل نقائصه والكلمات اللاتينية التي كان يخفي بها جهله، فإنه كان يمتلك طيبة الإيطاليين الرحيمة ورأفتهم الإنسانية. لقد كان مدركاً بشكل جيد حالة العوز التي يعاني منها هؤلاء الرسامون الشباب، ولم ينخدع، وسط هذه الجدران العارية وأمام هذا السرير المتهالك، وإبريق الماء المثلوم، بالكرسي القوطي لرئيس الدير الذي جلبه لودفيج، لذا لم يطلب أية نقود، قال وهو يفتح الباب:

- عندما سيشفى السيد بفور، سيسعده أن يرسل لي لوحة مرسومة لهذا الدير.

كان فريدريش قد تخلى عن طرح أية أسئلة حول الموضوع الذي كان قريباً من قلبه، ولكن، ومع هذه الكلمات الأخيرة، التي دلت على الأمل في شفاء الشاب والثقة بموهبته، كان مرتبكاً بحيث ركض وراء الطبيب وانضم إليه تحت أشجار البرتقال في الدير.

بنظرة واحدة، تأكد أن المريض لم يكن بحاجة إليه في الوقت الحالي، فقد منعه الضعف الشديد من الحديث، ولم ينطق بكلمة واحدة منذ أن غاب عن الوعي بين ذراعيه على حافة البحيرة. كان صديقه يتنفس بصعوبة ولكن بشكل منتظم. صاح:

- دكتور، لحظة من فضلك، أود أن أسألك عن أمر صعب بعض الشيء، ولكن... هذا يخص السيد بفور. لاحظ أنه لم يقل «فرانز» قط، وأن هذا الاسم الجاف، الرسمي تقريباً، كان يشجعه على مواصلة الحديث، - السيد بفور -بقدر ما أفهم- هذا المريض منذ سنتين على الأقل. أنا بحاجة إلى أن تخبرني سبب هذا المرض.

صحح الدكتور باللاتينية بعد أن توقف متفاجئاً بحماسة محاوره:

- كونسوميتو تيريبرانس..

كانت الكلمات اللاتينية التي استخدمها للتو لإنقاذ نفسه قد أعادت المسافة المناسبة بينهما. قال الطبيب بعد أن لاحظ احمرار وجه فريدريش:

– لابد أن أخبرك بأن هذا المرض لا يتعارض مع القوة الجسدية وأنه قادر على الحب والزواج.

ثم توجه إلى الشارع وهو ينادي سائقه لمساعدته على صعود العربة، ثم غرق في مقعده وهو يلوح بذراعه.

أدار فريدريش له ظهره وعاد إلى الدير وهو يتمتم:

– أنت فقط من كان يمكنه أن يحررني من هذا الشك، هذا يعني أن فرانز لم يكن عاجزاً جنسياً وكان رافضاً شكل علاقتنا ويفضل الحب النقي بالفعل. وأنه لم يكن سعيداً معي كما يبدو.

عندما وصل باب الحجرة، اصطدم بلودفيج، الذي كان شاحباً والدموع تغطي وجهه، وأخذه جانباً ليريه جسد رفيقه الساكن وهو ملقى على سرير صغير في نهاية الحجرة. كان قد أغلق له عينيه وصالب يديه على الملاءة. كان لودفيج يجري مسرعاً لإحضار الشموع من الكنيسة، بينما كان فيلهلم يتلو الصلاة.

مات فرانز وهو يحمل سره معه. سر حبهما. شعر فريدريش بأنه سيصاب بالجنون لأنه أضاع الدقائق العشر الأخيرة من حياة فرانز في أحاديث سخيفة. اندفع إلى داخل الحجرة، رأى فيلهلم فصرخ في وجهه وهو يطيح بالقبعة التي كان يضعها على رأسه:

– كان يمكنك على الأقل أن تخلع قبعتك!

الفصل الثاني عشر

عزيزتي إلبزا،

لقد أدينا الواجبات الأخيرة تجاه صديقنا فرانز بفور، وقد أعجب والده كثيراً بوسائلنا المتميزة بالأناقة والتحفظ عندما دعوناه إلى المجيء إلى تراف على سفينته. لقد توفي بعد مرض طويل ربما كان يحمله منذ أن عرفناه في لوبيك. إنه يرتاح الآن في المقبرة البروتستانتية الصغيرة في روما. إنها مكان من أفضل الأماكن التي تناسب النوم الأبدي، وتقع بين الهرم الذي يذكرنا بالفتوحات المصرية للرومان وجبل تيستاكيو المصنوع من تكديس جرارهم المكسورة.

كانت تنتصب بضعة أشجار سرو على طول جدار السور، وكانت شواهد قبور بسيطة من الحجر تصطف في الأرض المعشوشبة. وقد تم نقش مرثية على فرانز تلخص شخصيته بأفضل ما يكون: «ملاك من السماء، جميل جداً ليكون إنساناً»، فلم يكن سكونه المفاجئ ودهشته العميقة وحزنه الغريب تؤهله للبقاء بيننا.

كان قد انسلخ تقريباً عن كل ما هو أرضي، مكرساً عقله بشكل كامل للموسيقى بحيث كان علينا، أنا ورفاقه، في الفترة الأخيرة من حياته، أن نخنق ضجيج خطواتنا في أروقة سانت إيزيدورو، ونتخلى عن تحريك الجرس المعلق في مدخل الكنيسة، فقد كان كل تأثير قادم من الخارج ومهما كان رقيقاً فهو يشكل بالنسبة له تنافراً يقاطع الإيقاعات النقية التي كانت تملأ أذنه الداخلية. أعتقد أنه إن لم يكمل تصليح جهاز الأرغن خاصته قبل أن يغادرنا، فإنه فعل ذلك عن قصد، ولكي لا يزعجه صوت معدني ولا يعيق أي شيء روحه عن متعة التحليق نحو عالم النور.

لقد قالت عنه القروية العجوز التي اعتنت به، والتي بقيت ملحدة على الرغم من محاولة تنصيرها لمدة 18 شهراً:

– يبدو أنه صعد إلى الآلهة بدلاً من أن ينزل إلى الموتى.

عندما كان يسير في الشارع، كانت عيون المارة تلتفت نحوه تلقائياً. كان قد اكتسب في حي سانت إيزودورو وحول الميدان الإسباني نوعاً من الشعبية. ولو لم نكن أصلاً في روما البابوات حيث يردع النظام الكهنوتي التعبير عن الحماسة، وكنا في أثينا في القرن الخامس عندما كان يتم نقش أسماء أولئك الذين كانوا يثيرون إعجاب مواطنيهم في الليل بأيد مجهولة على الحجارة والأبواب والأشجار، فليس هنالك من شك في أن المرء كان سيرى في كثير من الأحيان المقاطع الثلاثة لاسم فرانشيسكو منقوشة على جدران المدينة، ربما مزينة بكلمات المديح، كما حدث بالنسبة لديموس، ابن كليوستينس، الذي يخبرنا أرسطو وأفلاطون بأنه كان يمكن رؤية اسمه منقوشاً في كل مكان، بل حتى على سلالم المعابد. كانوا يكتبون: «ديموس الجميل» الذي كان فرانز يستحقه اليوم أكثر من أي شخص آخر؟

كان يصدر منه شعاع نور ينتشر فوق أولئك الذين كانوا ينظرون إليه كأنه ذكرى من بلد بعيد، ضائع ويصعب استعادته. لذلك لا ينبغي أن نتفاجأ بأنه فارقنا بكل هذه السرعة. إن قدر الجمال أن ينتهي بتضحية مبكرة للتكفير عن القلق الذي كان يثيره في القلوب بلا تعمد. كان نحيبي على اختفاء صديق عزيز للغاية ومحبوب بحنان، سيجعلني أبدو غير مخلص لذكراه. لقد أحببنا بعضنا بعضاً من دون السعي وراء أي هدف محدد أو منفعة، مثل العلاقة التي كانت توحد ليليوس وسكيبيون في روما القديمة، وجعلت الأول يقول بعد وفاة الثاني: «مثلما لم يجلب لي وجوده شيئاً، فإن موته لا يمكن أن يسلبني شيئاً».

غالباً ما نقارن هذه الرابطة التي تربط بين صديقين بشكل يخلو من أية غاية اجتماعية، وبدون ميزة لأي منهما، مع رابطة الزواج التي تتدخل فيها الضرورات والاعتبارات الأخرى. لا يمكن القول إن أياً من هاتين الرابطتين متفوقة على الأخرى. كان لديّ بعض الأفكار عندما غادرت لوبيك –لم

أكتب لك حتى الآن خشية إيلامك وها أنا أشرحها لك- لكنها تبددت مع التجربة. من المؤكد أنه سيكون من الجيد للغاية أن يقضي المرء حياته بأكملها -كما كنا نفعل منذ ما يقارب العام- في دير روماني، مبتعدين عن العالم، من دون أعباء ولا مسؤوليات، على هامش القوانين، وفي اتصال مع أوهامنا فقط، لكن العادات التي تليق باليافعين كانت ستكون أقل ملاءمة لأولئك الذين يدخلون عمر النضج.

لقد فتحت لي هذه الرحلة وهذا الغياب الطويل عينيّ. سأبلغ الثانية والعشرين من عمري في غضون أيام قليلة. كم سيكون مخزياً، على سبيل المثال، التدخل في شؤون القرن، حتى بالنسبة لرسام قرر أن يكرس نفسه لفنه؟

عندما أتخيل حركة السفن في ميناء لوبيك، وهياكل السفن العالية وهي تنزلق على طول الأرصفة، والأشرعة التي ترفرف في الصواري، والمستودعات التي تفيض بالبضائع، يعذبني حنين شديد. كنت سأود أن يكون والدي ينتظر عودتي. لقد كنا هناك غرباء، لم نعش حياة الرومان، ولم نشارك في اهتماماتهم، حيث كان يوجد دائماً عقاب غامض يصيب المبعدين.

ها أنا أعيد إليك لوحة كبيرة ستتعرفين فيها على نفسك، فلها ملامح فتاة شابة ترمز إلى ألمانيا. لها نفس الشعر الأشقر، نفس الكتلة الثقيلة من الضفائر الشقراء مثلك، وكل تفاصيل وجهها هي نسخة مخلصة من ملامح وجهك. لا تتفاجأي لأني جسدت نفسي في فتاة صغيرة أخرى اسمها إيطاليا. إيطاليا وألمانيا: كان يجب أن تكونا شخصيتين أنثويتين، إيطاليا وجرمانيا، كما يقال هنا. إيطاليا سمراء، كما ينبغي أن تكون. تجلس على مقعد حجري صغير بالقرب من المرأة الشقراء، التي يمكننا أن نخمن من خلال وضعها الأكثر ثقة وهدوءاً، أنها كانت تجلس على هذا المقعد لبعض الوقت وكانت تنتظر رفيقتها.

كانت إيطاليا تضع يدها على الفور بين يدي ألمانيا بحركة ثقة واستسلام وتحني رأسها بحركة خاضعة. إنها تستسلم. ستخبرك هذه اللوحة بكل ما أشعر به تجاهك، وستعفيني من الاضطرار إلى تبرير صمتي. كنت

سأرغب فقط في لفت انتباهك إلى محتواها الرمزي. أعترف أنني كنت مفتوناً بإيطاليا في البداية. بدا كل شيء بالنسبة لي رائعاً، المناظر الطبيعية، الهندسة المعمارية، الرسم. هذا البلد هو حقاً موطن الفنون، ما يقال عنه سيكون دائماً أقل من الواقع. كان إكليل الغار الذي وضعته على رأس إيطاليا يعبر عن هذا الحماس، لكني كألماني كنت سأحكم دائماً بقوة على شعب ليس شجاعاً جداً على وجه العموم ويمكن خضوعه بسهولة للنير الأجنبي. وعلى الرغم من أنني لم أكن منشغلاً بالسياسة فإن هنالك ظروفاً تبرز فيها الحقيقة. لقد أصبحت غريزة الهيمنة التي صنعت مجد الرومان القدماء حكراً على الألمان.

لقد روت لي العجوز آنا، هذه القروية التي أخبرتك عنها والتي تتجول روحها الطفولية في الأساطير، بأنه، ووفقاً لتقاليد قريتك، فإن الإمبراطور فريدريك بارباروسا لم يغرق، كما كنا نعتقد، في نهر آسيا الصغرى، بل كان نائماً مع رفاقه الصليبيين فوق قمة جبال الألبان في انتظار عودة علامة غراب القديس بيندكت إلى الشعب الألماني عندما ستتوحد الإمبراطورية مرة أخرى من أجل حكم دائم.

أنا أهذي بدوري، على ما يبدو! ما أردت قوله هو أن إيطاليا بكل هيبتها وتألقها ستفتقر دائماً إلى عنصر أساسي لنا نحن الألمان: الإحساس بالمهمة التي يتعين علينا تحقيقها. لقد لاحظت أن الرومان يعيشون في حاضر أبدي. مع القيم الأكثر عمقاً، وتلك التي نعلق عليها أكبر قيمة لأنها تحتاج إلى الوقت والإيمان لتحقيقها. كان الأس الذي توجت به شعر ألمانيا أقل إشراقاً من غار إيطاليا، لكنه أكثر قوة. تدل لوحتي على أن اللطف والخيال الإيطاليين يجب أن ينحنيا في نهاية الأمر أمام الرزانة الألمانية. إن إيطاليا تمنح من يحبونها نوعاً من نشوة الحرية، فقد جربت ذلك أنا أيضاً، إليزا.

نحن نقوم في هذا البلد بأشياء لن نجرؤ على فعلها في مكان آخر، فالأمور الاستثنائية وغير الشرعية تمتلك قوة جذب لا يمكن مقاومتها، ثم نتساءل: إلى أين تؤدي هذه الجرأة؟

من الجيد أن نأتي صغاراً جداً إلى هذا الجانب من جبال الألب، ويجب

ألا ننتظر طويلاً لنعود إليها. في طريق العودة - سأتوقف في آسيزي لأحقق رغبة فرانز بفور، كنا قد زرنا معاً كاتدرائية سانت ماري ديزآنج، ووجدنا في داخلها الكنيسة الصغيرة البدائية التي كانت بمنزلة ملجأ للقديس فرانسيس. ويذهب الآلاف من الحجاج إلى هذه الكاتدرائية كل عام ويمرون أمام هذه الكنيسة الموجودة وسط صحن الكنيسة. قلنا لأنفسنا، لماذا لا نترك هنا شهادة عن الفن الألماني؟

ظلت واجهة هذه الكنيسة الصغيرة عارية ولديّ رغبة في رسم لوحة جدارية هناك. أود أن أرسم لوحة (مادونا الزهور)، حيث سنرى القديس فرانسوا راكعاً عند قدمي العذراء محاطاً بالملائكة. سيكون الأسلوب واضحاً، بسيطاً، موجزاً، وربما صارماً أيضاً، وستكون العذراء بالضرورة كاثوليكية، ولكن من حيث الأسلوب، ستكون لوحة بروتستانتية، مصممة للاحتجاج على التفاني الشديد الاستعباد للفن الإيطالي. سيسير الآلاف من الحجاج كل عام، وربما مليون في قرن واحد من الزمان، في هذا المكان، وهو أحد أكثر الأماكن زيارة في إيطاليا، وسيتوقفون أمام عمل لفريدريش أوفربيك من لوبيك، القادم من مدينة لن يتمكنوا من تحديد موقعها على الخريطة!

يمكن أن يصبح ذلك مصدر فخر بالنسبة لي، لولا هذه اللوحة الجدارية، التي لن أوقعها، وستظل مجهولة. سأجسد فيها قوة الروح وهذا السمو الفكري الذي بدونه لا يمكن للمرء أن يصبح فنانًا عظيمًا جداً. إلى أي مدى يمكن لهذه الصفات، التي أمتلكها إلى أعلى درجة، أن تأخذه، لن نعرف أبداً. ومع ذلك، فأنا أشك في أنه كان قادراً على التملص من قدره والقوة المدمرة التي كان أسيراً لها. الرسام يثبّت الأشكال على قماش اللوحة أو على الجدار، والفنان، في تطلعه إلى اللانهاية، فهو يسعى إلى تفكيكها وإعادة إنتاج مجموع لا حدود له. ويمثل هذا بالنسبة لنا، نحن الرومانسيين تناقضاً جوهرياً.

لم يكن فرانز راضياً عن اللوحات الجدارية القليلة التي كان يجد الوقت لرسمها في دير سانت إيزيدورو. وفي الحقيقة، فقد وافق على وضع الخطوط والألوان على الحائط على الرغم من شعوره بأنه يخالف ذاته. لقد كان متشبثاً بتصليح جهاز الأرغن بدقة بالغة في الدير كحرفي، وأنا أدرك اليوم ما كان يعنيه

بالنسبة له. لقد ولد فرانز ليحرق نفسه، وكان قد عاهد نفسه بالبدء بالرسم من جديد بعد اكتمال تصليح الأرغن تقريباً. لم يستطع إلا أن يبدأ مرة أخرى بمواجهة مشكلة الخطوط والأشكال والألوان. لم يكن أمامه من طريق غير الموت، ذلك الصبي الذي لم يكن يأكل اللحم قط لنفوره من كل شيء جسدي..

لقد تعلمت درساً كبيراً من فرانز، تعلمت أنه لا يوجد رسام متحرر تماماً من المادة التي يريدها، إذ يجب ألا يبخس قيمة الجزء الحرفي من مهنته، وكل تلك التفاصيل التقنية المشابهة لما كان يقوم به في مشغل الأرغن، والتي كان يحافظ بها على عمله وعلى نفسه على قيد الحياة.

أرى أن الفنان النقي عبارة عن وهم، كما هي المدينة الفاضلة التي يرغب بإنشائها خارج الزمن وبعيداً عن عادات بلده. ونحن نقبل هذا القانون الذي يهين كبرياءنا كمبدعين، لكن هذا لا يمنعنا من تنفيذ أعمالنا!

هل كان ينبغي عليّ الهروب وعيش حياة رومانسية والمغادرة إلى الخارج لمدة عام لتعلم كيفية خوض الحياة اليومية في هولشتاين وإعداد الرنجة والبطاطا. بالتأكيد، لست أنت يا عزيزتي إليزا التي أخشى من تعليقاتها لكنك ستسمعين من يقول عني: «انظري! هذا الشاب الفخور للغاية الذي كان قد غادر من دون أن ينبس ببنت شفة، وفي جيبه حفنة من العملات الألمانية ثم عاد ذليلاً، بعد سنتين، وهو سعيد جداً لأن والده يملك أكبر تجارة للنبيذ في لوبيك!» أو أيضاً : «إيه، كان يظن أنه فوق الأعراف الاجتماعية وتقاليد العائلة ولكنه سعيد بعودته!»

سيكون من الأفضل أن تهزي كتفيك أمام مثل هذا الهراء، أنا أوافقك الرأي. سأرغب مع ذلك في جعلهم يفقدون ثقتهم بأنفسهم عبر سؤال صغير بسيط من شأنه أن يصيبهم بالذهول:

– لماذا في إيطاليا، حيث آلاف من الرسامين، لم يكن هناك، إذا جاز التعبير، رسامة أنثى؟

لن يجدوا إجابة! وسيصمتون، دعيهم يصمتوا إذن، بدلاً من محاولتهم الحكم على الفائدة التي جنيتها من رحلتي إلى روما!

لقد أدركت هناك، من خلال كل تلك الكميات التي لا حصر لها من

الروائع المعروضة في الكنائس والقصور، أن الرجال الذين يتمتعون بقوة إبداعية يشعرون بالرغبة عندما يصلون إلى سن معينة في تخليد أنفسهم من خلال تناسل الجمال. إن طبيعتهم الفانية تبحث عن وسيلة لقهر الفناء، وهم يجهدون أنفسهم في الأعمال التي ستنقذهم من الفناء وتضمن لهم بقاء الأنواع. لكن النساء لسن بحاجة إلى اللجوء إلى هذه الوسيلة، فإذا حرمهن الله القدرة على الإبداع، فذلك لأنه منحهن قوة أثمن بكثير تتمثل بولادة كائنات بشرية أخرى وتخليدهن من خلال أولادهن.

قادتني تأملاتي إلى رد الاعتبار بشكل كامل للوظيفة الإنجابية التي كنت أميل إليها، مثل كل الشباب الذين نفد صبرهم من التحرر من الوصاية العائلية وتصنيف الإنجاب ضمن الأنشطة المادية، المنزلية والبرجوازية!

«لقد نسيت الطفل».. كنت تذكرينني في كل مرة كنا نشاهد فيها معاً لوحة السيدة العذراء، بينما كنت أحاول أن أنقل إليك حماستي تجاه رافائيل. لا تنفعلي، عزيزتي إليزا، فلا يوجد أي اختلاف في الطبيعة بين الإبداع الفني والولادة من خلال الجسد، فكلاهما يساهمان في إدامة الجنس البشري، الأول من خلال الأعمال الخالدة، والثانية باستبدال الفرد الذي يشيخ ويختفي بآخر (شاب) يشبهه. لذلك لن أسمح، لأي شخص، عندما سنتنزه أيام الأحد على ضفاف نهر تراف، مثل الأزواج الذين يستريحون من مهام الأسبوع في استجمام ريفي ممتع أن يهمس لدى مرورنا:

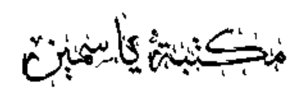
– من وجهة نظرنا، تمكن أوفربيك الصغير من الخروج من مغامرة لم يحصل منها على أي شيء جيد.. يا له من فشل بالنسبة له!

سيكونون أكثر تفاعلاً، إذا شاهدونا ونحن محاطون بذريتنا.. يمكنهم أن يقتبسوا الجملة التي أنهى بها الأخوان غريم حكاياتهما. بشرط أن نتذكر أن جاكوب وفيلهلم هما أيضاً رومانسيان، وقد فهما أسرار الحب والموت، ويتحدثان عن الحياة بلا أية سخرية مهينة، ولكن بحماس شديد، على العكس من ذلك، قائلين عن أبطالهما:

– «لقد تزوجوا وأنجبوا العديد من الأطفال».

بورتو بالو، 31 تموز، 1985

الفهرس


مكتبة ياسمين